



الموسوعة الشريعية
في
الخطبة المنبرية

الموسوعة الشریاعیة فی الخطب المنبریة

الدكتور احمد الشریاعی

المجلد الثانی

دار الخیة

ص. ب. ۸۷۳۷ - ت. ۲۶۶۱۵۸
بیروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناسِـر
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم
سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذي هو خير « ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا ، وإليك
المصير » . « ربنا هيء لنا من أمرنا رشداً » .

مقدمة

إن خطبة الجمعة هي العظة الأسبوعية العامة التي يتلاقى على سماعها أبناء الإسلام ، وإن شئت تعبير العصر فقل إنها الصحيفة الأسبوعية الإسلامية الناطقة التي يستمع فيها المسلمون إلى كلمة الله فيما يهمهم من شئون الدين وشئون الدنيا ، وهذه الخطبة تأتي في يوم الجمعة العظيم الجليل الذي ورد في شأنه وفضله من الأحاديث والآثار ما ورد ، وحسبنا قول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » . وتأتي خطبة الجمعة قبل الصلاة ولعل ذلك لتكون إيقاظاً لمشاعر التدين في النفوس فتقبل على الصلاة بخشوع واعتبار ، وليسمعها الناس في هدوء وأصطبار لأن بعدها واجب الصلاة ، وقد ورد في شأن الاستماع إلى الخطبة والاندماج فيها والتأثر بها والتأدب معها ما لا مزيد عليه ، حتى عدها فريق من الفقهاء كجزء من الصلاة ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول : « إذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة : انصت فقد لغوت » .

ولاعجب فخطبة الجمعة يراد منها التفقيه في الإسلام ، والحديث يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وهي تذكير بالله وتحبيب في ثوابه ، وتخويف من عقابه ، والله يقول « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وهي محاولة لإيقاظ القلوب التي تظل طيلة الأسبوع راتعة جامحة ، فهي بحاجة إلى إحياء وتقوية وجللاء وتصفية ، وما أنفع الكلم الطيب في تحريك الأفئدة السليمة : « يثبت الله

الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين
ويفعل الله ما يشاء » .

وانطلاقاً من مكانة خطبة الجمعة بين شعائر الإسلام الكبرى أقدم
للقارئ الكريم الجزء الثاني من « الموسوعة الشرباصية: في الخطب المنبرية »
مشملاً على مائة خطبة وعلى المنهج الذي أخرجت عليه سابقه الجزء الأول
من هذه الموسوعة .

والله تعالى أسأل أن ينفع به وأن يجزى أستاذنا المؤلف عن الإسلام
والمسلمين خير الجزاء .

دكتور / عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر
بالقاهرة

نعمة الرضى^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو مصدر النعم وواسع الكرم : « إن الله ل ذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لربه وجهه وقلبه وعقله ، فأوسع الله له عطاءه وفضله « وسوف يعطيك ربك فترضى » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بيته ، وأهل صحبته ، وأتباع ملته : « رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سيظل الحديث عن السعادة والشقاء باقياً ما دام في الدنيا حياة وأحياء ، ولقد اختلف الناس في تحديد السعادة اختلافاً مبيناً ، فمنهم من زعم أنها المال ، ومنهم من زعم أنها الجاه ، ومنهم من زعم أنها كثرة الأهل والأنصار: ولكن يوجد في الناس من يملك المال الكثير ولا يحس بالسعادة ، وهناك الذى ينال من الجاه ما ينال ثم لا يسعد ، وقد يكون الشخص بين عشرات من أهله وأقاربه وأنصاره ، ومع ذلك يشعر بالضيق والمال ، أو بالألم والقلق بينما قد يعيش إنسان آخر وحيداً فريداً ومع ذلك يحس بالسعادة والسرور . . . ونلاحظ أن كثيراً من الناس يشكون من دنياهم ، ويفضون بحياتهم ، ويعتبرون أنفسهم في شقاء ، وذلك لأنهم لم يتجملوا بالنعمة الكبرى وهى نعمة الرضى ، ولو أنهم عرفوا الرضى وألفوه مذاقوا حلاوة السعادة وطعم

(١) القيت في يوم الجمعة ٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٩٥٨ م .

الهناء ، لأن الرضى يكون نتيجة للتوكل على الله ، والثقة به ، واستمداد المعونة منه ، ومن ربط أسبابه بأسباب ربه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، واعتصم بإيمانه بمالك الملك سبحانه : والایمان المطمئن الرضى حلاوة تفوق كل حلاوة ، وعذوبة دونها كل عذوبة ، والرسول يصور لنا طريق هذا الإيمان حين يقول : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » .

والرضى بالله يستلزم محبته والخوف منه ، والالتجاء إليه والاعتماد عليه والرضى بالرسول يستلزم الحب له والاهتداء بهديه والافتداء بسنته والتشبه به فى كفاحه ونضاله ، وأقواله وأعماله ؛ والرضى بالدين يستلزم الخضوع لأحكامه والاستجابة لتعاليمه بما فيها من حوافز التطهر والتعبد والتقوى والاستقامة على صراط الفضيلة والعدالة والإنصاف ، وإذا حقق أبناء الإسلام كل هذا فقد « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، « ورضوان من الله أكبر » ، وإذا تحلت النفس بالرضى الواثق والإيمان الموقن ، فقد عزت فى العاجلة ، وسعدت فى الآجلة : « يا أيها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

إن أناساً فى هذه الحياة يصيبهم سعار الحرص والجشع ، ويستبد بهم طغيان الشره ، فهم يطمعون ولا يقنعون ، وهم يجمعون ولا يوزعون ، وهم يأكلون كما تأكل البهائم ، ويشربون كما تشرب الهيم ، ومع ذلك يظنون فى قلق وجزع ، وضيق وهلع ، لأنهم أضاعوا نعمة الرضى التى توجب طمأنينة القلب وتحقيق راحة السكينة ، وتنشر ستار الأمان ، وتذكر بأن الله وحده هو صاحب الأمر أولاً وأخيراً ، فيجب أن نتلقى عنه ما يمن به من خير وبر ، وأن نحمده ونمجده ، حتى يسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وفى مقدمتها نعمة الشكران والاطمئنان ، وقد جاء فى بعض الآثار كما ينقل

ابن القيم : أنا الله ، لا إله إلا أنا ، قدرت التقادير ، ودبرت التدابير ، وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله منى حتى يلقانى ، ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى .

وفى بعض الآثار أن موسى صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل : ما يلدنى من رضاك ؟ فقال : إن رضاى فى رضاك بقضائى ! وفى الحديث : « من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضا بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله . »

وليس الرضى كما يظن كثير من الناس تواكلا فى الحياة ، أو تكاسلا عن العمل ، أو تغافلا عن السعى ، أو تجاهلا للواجبات : بل إن الرضى حق الرضى هو الإقدام بفهم ، والعمل بعزم ، والتصرف بحزم ، والاحتمال لمتاعب عبء الطريق ، والصبر على متاعب الحياة ، والرضى بما يسوقه الله ، مع حسن الاستخدام لما ساقه من هبات وخيرات فى هذه الحياة .

ومن هنا كان الرضى لا ينافى الشعور بالتعب أو الإحساس بالألم ، وهذا سيد الإنسانية محمد كان أفضل الراضين الشاكرين ، ومع ذلك أحسن لوعة الأسى والحزن حينما فقد ابنه الوحيد إبراهيم فقال : « يحزن القلب ، وتدمع العين ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب » . فهو قد حزن ولكنه احتمل وهو قد تألم ولكنه لم يقل ولم يفعل إلا ما يرضى ربه جل جلاله ، والرجل السوى العاقل قد يرضى بما يؤلمه ما دام فى ذلك شرفه أو فائدته . . . ألا يرضى المريض بالدواء الشاق وهو يكره مرارته ؟ ألا يرضى المؤمن بصوم اليوم الطويل الحار وهو مجلبة للظما والجوع ؟ ألا يرضى المؤمن بفريضة الجهاد وهو يعلم ما فيها من أخطار ومتاعب ؟ ! . . .

والإنسان المؤمن إذا لم يستطع أن يبلغ درجة الرضى الموقن ، والتقبل المطمئن ، كان عليه أن يتحمل ما يساق إليه ، وأن يصر عليه ، بهمة من لا يشكو ولا يصخب ، وبمظهر من يصبر ولا يغضب ، والرسول يقول : إن استطعت أن تعمل بالرضى مع اليقين فاقبل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً . ولقد كتب عمر الفاروق إلى أبي موسى الأشعري يقول له : « أما بعد ، فإن الخير كله في الرضى ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر » . وكم من أشياء يكرهها الإنسان ويحبسها ضرراً أو شراً فإذا هي تفضي إلى خير ونفع « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . ولا يغيبن عن ذهن المسلم أن الله قد يؤدب عباده ويهذبهم ، ويمحص معادتهم ، ويعجم أعوادهم ، بألوان من الاختبار والابتلاء ، كما يفعلون في الجنديّة - ولله المثل الأعلى - فهم يلربون الجنود على الأعمال الشاقة والتمارين العنيفة والتجارب القاسية لا لذات التجارب ، بل لاختبار الهمم وابتلاء العزائم . وإعداد الجنود ليوم الهول وساعة الإقدام ، ومن هنا جاء في الأثر : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه » ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه . . .

والمؤمن إذا نزل به لون من ألوان الابتلاء لا يتداعى بنيانه ، ولا يضعف إيمانه ، ولا يركن إلى الحمد والاستسلام ، بل يحتمل ويصبر ، ويعزم ويقدم ، مواصلاً السعى والعمل ، فما لا يدرك اليوم يدرك غداً ، والله مع الصابرين الذين لا يملون ولا يسأمون ، بل يثابرون ويصابرون ، واثقين من الوصول إلى ما يأملون يوماً من الأيام : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون والواثقون بالله الراضون عنه لا يزل لهم شيء من الناس ما دام إسلامهم محفوظاً ويقينهم باقياً . ولقد قال عمر بن الخطاب يوماً لزوجه عاتكة وقد غضب

عليها : والله لأسوأئك ١ . فقالت له : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله إليه ؟ قال : لا . قالت : فأى شئ تسوؤني به إذن ؟ ١ . .

وهذا هو ابن مسعود يترجم عن النفس الراضية ، الشاكرة الصابرة . فيقول : « الفقر والغنى مططيتان ما أبالي أيهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل » .

والإنسان إذا عمر نفسه بالرضى ، وحض صدره بالطمأنينة ، استقبل الحياة باستجابة وترحيب ، وبشر وسرور ، لا يثيره دواعي الضيق فيتسخط أو يتشكى ، أو يهرب الماضي أو يتهيب إلى خراً ويخاف المستقبل ، بل يقول قوله ذلك الرجل وقد بلغ السبعين : « لست أهاب غدى ، فقد أبليت أمسى ، وإنى أحب يومى » .

أما أولئك الذين ضعفوا وهانوا ، فرضوا بالمدلة والمسكنة ، أو خضعوا لغير الله ، وعبدوا ما سواه من مال وجاه ، أو ركنوا إلى العجز والكسل ، فأولئك ليسوا من الرضى فى شئ ، فإن الرضى فى الإسلام أن تكون عزيزاً بين الخلق لا تدل إلا لله ، غفياً ترى غناك استغناء عن الناس وفقرأ أمام الله ، حراً ترى حريتك فى إسرائك للضميم كيفما كان مع تشرفك بالعبودية لله .

ومما زادنى شرفاً وتبهاً وكدت بإخصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبياً !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . فلنحارب هذا القلق الناشئ
الإسراف فى الهوى والطمع ، ولنعمر دنيانا بالرضى والاطمئنان ولنحض
نفوسنا بعصمة اليقين والإيمان ، ولنتذكر على الدوام أنه قيل ليعجى بن معاذ :

مقـى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول
 فيما يعامل به ربه فيقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضىت ، وإن
 تركتنى عبت ، وإن دعوتنى أجبت ، والله يهـدى من يشاء إلى صراط مستقيم
 اللهم اجعلنا راضين مرضيين ، اللهم اجعلنا من الذين يرضون بك وبرسولك
 وبدينك ، ويأتون كل بهتان وكفران ، ويصبرون على الطاعة والعبادة ،
 ولا يصبرون على الدلة والمهانة ، ويصبرون فى ميدان العمل والجهاد ،
 ولا يصبرون على الاستعباد ! . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

خلق الثبات^(١)

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير .
أشهد أن لا إله إلا الله ، يراقب ويحاسب ، ويثيب ويعاقب ، وإلى الله تصير
الأمر ، وأشهد أن سيدنا محمد أرسول الله ، هو إمام العابدين الثابتين ،
فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه :
« الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن شخصية الإنسان لا تتأكد ولا تتوطد دون أخلاق ، لأن مكارم
الأخلاق هي زمام الحياة الفاضلة ، وشعار الأحياء الشرفاء ولذلك قال
سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »
وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم كما حسنت خلقي ، فحسن خلقي ، اللهم
جنبي منكرات الأخلاق ، اللهم أهدي لأحسن الأخلاق ، ولا يهدي
لأحسنها إلا أنت » ، وفي طليعة الأخلاق العالية السامية يأتي خلق الثبات ،
والثبات استقرار واطمئنان ، ورسوخ حسي ونفسي ، وقوة مادية ومعنوية ،
ودوام على ما يلزم الإنسان أن يستمسك به ويجد فيه ، ومواطن هذا الثبات
كثيرة متعددة ، بعضها مطوى مستور ، وبعضها ظاهر منشور ، فهناك
الثبات في العقيدة يهتدى إليها الإنسان بوعى وبصيرة ، فيحيا عليها ، ويعنى
في سبيلها ولا يتنكر لها ، ولا يفرط في حقوقها ، وهذا الثبات على العقيدة
والمبدأ هو أكرم ألوان الثبات وأكثرها احتياجاً إلى التوضيح والبدل ، وهناك
الثبات في التفكير يأتي برزانة وحكمة ، حتى لا يختلط الحق بالباطل ،

(١) أقيمت بمسجد التلفزيون في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ١٣٨٨ هـ
الموافق ٣ يناير سنة ١٩٦٩ م .

أو يتداخل الظلام في النور ، وهناك الثبات في الكلمة يرسلها صاحبها في موطنها قويمه رشيدة لا تؤخذ عليه ولا تسيء إليه ، وهناك الثبات في الحس أو البدن ، حيث لا يضطرب ولا يتزلزل كما يحدث من الرعد يد الجبان ، وبهذه الألوان من الثبات يعلو قدر الإنسان وتشرف به هذه الحياة ، ولقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بنعمة الثبات والاطمئنان ، فقال له عز من قائل : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وقال له : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » . وكذلك من الله جل جلاله على المؤمنين بنعمة الثبات في حواسهم ونفوسهم فقال : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فنبتوا الذين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . وأرشد الله عباده إلى الطريق السوى النقى الذى يتحقق به الثبات ، وهو الإقبال على الله ، والاعتصام بهداه ، والاعتزاز بحماه ، ولذلك قال : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم : وأوضح لنا أن الدوام على ذكر الله والعمل بما يرضاه هو المفتاح إلى الاستقرار والاطمئنان فقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وإذا كان الله عز وجل قد أمر الأخيار من عباده بالثبات في مواطن الشدة والهول ، فقال لهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » فإنه قد حذرهم أن يميلوا إلى الفزع أو الاضطراب أو يقبلوا الدنيا أو الهوان ، فقال لهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . كما حذرهم الفرار من التبعات والواجبات ، وأعلمهم أن صدق التوكل

عليه ، مع صدق الإيمان به ، مع صدق البذل لكل مجهود في سبيله ، خير وأولى من الحرص على الحياة والتهرب من الواجب ، فقال : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل » وقال : « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم » .

ولقد كانت غزوة أحد بن الغزوات الإسلامية المجيدة درساً بليغاً عميقاً في الإرشاد إلى أن الثبات الملتزم هو طريق الفوز والعزة ، وأن الاضطراب أو التردد هو سبب الهزيمة والفشل ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول للرماة وقد كلفهم حراسة ظهر الجيش المؤمن من فوق الجبل : « إن رأيتمونا تحطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا نهزم القوم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » ولو أنهم فعلوا ما أمرهم به وثبتوا عليه لما كان ما كان مما صار عظة وعبرة في كل زمان ، وحينما اشتد الأمر يؤمئذ بسبب المخالفة والخروج على الثبات في الطاعة لم ينقذ الموقف بفضل الله إلا الاعتصام بخلق الثبات ، فقد أشاع الكافرون بين المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل ، ففرغ لذلك ضعفاء ، ولكن أهل الثبات والإيمان والاطمئنان قطعوا الطريق على الضعف والخللان ، فاندفع منهم من يقول : يا قوم ، إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم . واندفع الثابتون الأوفياء يجاهدون بلا يأس أو قنوط ، وزكى الله جل جلاله ثباتهم ووفاءهم ، وعاب الخذلان والاضطراب فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » . وهؤلاء الثابتون الأوفياء في مواطن النضال والكفاح هم أيضاً الذين زانهم ربهم بثبات الرأى وثبات القول ، وثبات التصرف ، فقال عنهم : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا

وفي الآخرة ، ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . ولقد حرص رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعمق جذور الثبات في نفوس المؤمنين عقب الدرس الأليم الذي تلقوه في أحد ، فخرج في اليوم التالي لغزوة أحد يتعقب الأعداء في صحبة جنوده الأوفياء ، وهو يقول لهم : « لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال بالأمس » وكأنه يريد بذلك ألا يتطرق إليهم ضعف أو وهن مهما كان الابتلاء ، ولذلك استحقوا أن يقول الله جل جلاله في شأنهم : « الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الحياة عقيدة وجهاد ، وإن طريق الأخيار عمل وثبات ، وأفضل الطاعات مداومة الجهد في سائر الأوقات ، وطريق الطاعة طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، وطريق الحرية والكرامة طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، وطريق الأبطال المحقق للآمال بكريم الاتصال طويل لا بد له من ثبات واستقرار ، فلندرع بخلق الثبات في تفكيرنا وفي تصرفنا وفي نضالنا وفي أقوالنا وأعمالنا ، « يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

القوة الفاضلة (١)

الحمد لله عز وجل ، هو بديع السموات والأرض ، وله القوة جميعاً ، وهو على كل شئ قدير . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحب الأقوياء الشرفاء ، ويبغض الضعفاء الأخساء « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ومنبع الحكمة ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول بعض الذين لا يتابعون الحقائق إن ميزة التفكير المعاصر أنه آمن بالقوة ، وفسح لها طريقها ، فأبلغته ما يتمتع به من مدنية وحضارة ، ومع أن القوة التي يتحدث عنها هؤلاء قوة مادية صماء ، تشبع البطن ولا تمتع الروح ، وتطفي في البشرية جوانب الحيوان ، وتضعف فيها جوانب الإنسان ، فإن التفكير المعاصر ليس أول من اهتدى إلى الإيمان بالقوة ، بل هو مسبوق في ذلك بعصور ودهور ، وقد سبقه من هو أعمق منه فكراً ، وأبعد نظراً ، وأطيب أثراً وثمرأ ، لأنه آمن بالقوة العاقلة العادلة الفاضلة ، التي تسمو بشدتها ، وتحنو برقتها ؛ وهذا السابق هو الإسلام العظيم الذي يقول رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٢٠ من المحرم سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢١

مايو سنة ١٩٦٥ م .

ولنلاحظ أولاً وقبل كل شيء* أن سيد البشرية محمداً لم يفاضل بين مطلق قوى ومطلق ضعيف ، بل فاضل بين مؤمن قوى ومؤمن ضعيف ، وذلك لأن الإيمان هو الذى يعطى القوة عقلها وعملها وفضلها ، والإيمان يتحقق باجتماع ثلاثة أشياء هى التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والأداء للأركان ، ومتى اعتقد الإنسان حقاً ، ونطق صادقاً ، وأدى واجباً ، وعمل صالحاً ، فقد صار من خيرة الأقوياء .

وبعض الناس يظنون أن المراد من القوة فى هذا الحديث النبوى هى قوة البدن ، مع أن إطلاق القوة هنا يشمل قوة البدن والعقل والروح والعمل ، ويشمل القوة الحسية والقوة المعنوية ، بل لعل القوة المعنوية أهم فى نظر الإسلام من القوة الحسية . ولذلك يقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . والصرعة هو الرجل الموفور القوة البدنية الذى يصرع غيره من الرجال ، وهذا معناه أن قوة الأخلاق المؤدية إلى ضبط النفس وثباتها أعلى مكانة من صلابة الأعضاء ، والإسلام مع هذا قد دعا إلى ألوان القوة الملائمة كلها ، فدعا إلى قوة البدن حين قال الرسول : « إن لبدنك عليك حقاً » . ودعا إلى قوة العقل فقال القرآن : « وقل زدنى علماً » ، ودعا إلى قوة الهمة بقول الرسول : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها » ، ودعا إلى قوة الجماعة حين قال القرآن : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، ودعا إلى قوة الكفاح والجهاد بقول القرآن « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ودعا إلى قوة الأخلاق بقول الرسول : « ليس الغنى عن كثرة العرض « أى المال ، ولكن الغنى غنى النفس » ولن تغنى النفس حقاً إلا إذا استعصمت بمكارم الأخلاق .

ولو تتبعنا مواطن استعمال القرآن لمادة القوة لوجدنا فيها رموزاً إلى اجتماع طرفي الشدة والرحمة في هذه القوة ، فالقرآن يصف الله جل جلاله بقوله : « إن ربك هو القوى العزيز » وهذا الإله القوى من أوضح صفاته أنه الرحمن الرحيم « نبي عبادي أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم » ، والقرآن يصف جبريل بأنه « شديد القوى » وجبريل هو الروح الأمين وهو سفير الرحمن إلى المرسلين ، والقرآن يقول عن النبي طالوت : « وزاده بسطة في العلم والجسم » فهناك إذن قوتان بدنية وعقلية ، والقرآن يقول عن شيخ الأنبياء : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ثم يقول الحديث : « وفي كل خير » أي أن كلا من المؤمن القوى والمؤمن الضعيف فيه خير ، ولكن مع اختلاف المراتب والدرجات ، وليس في هذا الكلام تحريض على أن يغتر القوى بقوته ، أو يقف الضعيف عند ضعفه ، بل فيه توجيه للمؤمنين الأقوياء بأن يزدادوا من الخير وأن يستكثروا من الفضل وأن يواصلوا المسير في طريق القوة والعزة بكل الوسائل والأسباب التي تزيد في القوة المادية والمعنوية يوماً بعد يوم ، ومرحلة في إثر مرحلة وفيه تحريض للضعيف على التخلص من ضعفه ، ليلحق بركب الموقنين الأشداء : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » . ومن هنا قال الحديث بعد ذلك « احرص على ما ينفعك » والحرص هو شدة الإرادة للشيء ، وكان هذا حث على أن يكون الإنسان قوى الإرادة وطيد العزيمة في تحصيل ما ينفعه ويصلح شأنه ، سواء كان هذا الشيء النافع دينياً أو دنيوياً ، مادياً أو معنوياً فالقرآن يقول : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . وقد يظن ظان أن الإنسان إذا خدم غيره بشيء فإن هذا الشيء لا يكون نافعاً لمن فعله ، مع أنه في الحقيقة ينفع من أخذه بتحقيق (م ٢ - خطب ج ٢)

مصلحة له ، وينفع من فعله بإثابة الله له ، أو بحسن أحلوثته بين الناس ، أو شعوره بالغبطة لصنع الجميل ، أو لأن الفعل الحسن سيقابل بمثله ، والقرآن يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ .

ثم قال الحديث : « واستعن بالله ولا تعجز » أى أطلب المعاونة من مصدر العون كله وهو الله جل جلاله : « إياك نعبد وإياك نستعين » : وهذا حث قوى على الجِد في العمل ، والعزيمة في الرشد ، والاجتهاد في الخير ، مع استشعار الرجاء والتدبر بالأمل ، وعدم الركون إلى العجز أو الضعف ، والرسول يقول : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » والكيس هو العقل ، أى لا يرضى لك الله أن تقعد مستكيناً عاجزاً ، بل يدعوك إلى استخدام عقلك وبذل جهدك ، وأنت في الغالب ستصل ، فإن شئت لك الأقدار حيناً شيئاً من الابتلاء فلا تيأس ولا تقنط ، بل قل في إيمان ويقين : حسبي الله ونعم الوكيل . وفي ضوء هذا نفهم قول الحديث : « وإن أصابك شئ فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . وعمل الشيطان هو إثارته الندم والحسرة في نفس الإنسان ، وتحريكه عوامل اليأس عنده حتى يقطع خطواته عن متابعة السعي ومعاودة المحاولة ، ومن عمله هنا أيضاً فتحه أبواب التعليقات والتقدير الوهمية التي لا تغني ولا تفيد ، ولا تغير مما مضى وانقضى شيئاً ، بل تجعل طعم الهزيمة مرأ قاسياً ، فيظل صاحبها يتحسر في تهدم ويقول : لو كنت فعلت كذا لكان كذا ، ولو لم أفعل كذا لم يكن كذا . مع أن الواجب عليه حينئذ أن يتدبر موقفه ، ويسترد عزيمته ، وينطلق إلى محاولة أخرى ، محصناً

بكل معانى الثقة في الله والاعتماد عليه ، ولذلك يقول الرسول : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : دينكم دين القوة النظيفة الشريفة العفيفة . إنه قوة في الاعتقاد يمثلها الإيمان ، وقوة في الحرص على ما ينفع ، وقوة في الاستعانة بالله ومقاومة العجز ، وقوة عند المزيمة أو الفشل ، وقوة في التخلص من أوهام العجز والاستسلام ، وقوة في محاربة الشيطان فلمنكن أقوىاء ولنكن في قوتنا شرفاء ، والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل واتقوا الذى أنتم به مؤمنون . . .

الإعجاب بالنفس^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو وحده علام الغيوب المطلع على سرائر النفوس والقلوب أحده سبحانه وأشهد أن لا الله الا الله ، البصير بخفايا الطويات وسرائر النيات : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أدب وهذب ، وعلم وقوم ، فكان إمام المصلحين ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وعشيرته ، والسائرين على طريقته ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أعرف إنساناً له كثير من الطاقات والهبات ، فهو أديب مفكر ، وهو غزير الإنتاج كثير الكتب ، وهو ذو شهرة طيبة بين قومه ، ولكن عيبه الويل أنه كثير الحديث عن نفسه ، متصل الثناء على كتبه ، مسرف فى التزكية لشخصه ، فكتابه الفلانى فى زعمه لا مثيل له فى العالم ، وعمله الفلانى لا يقدر عليه غيره من أبناء البشر ، وهو من وراء ذلك يظلم نفسه بنفسه ، ويحمل الناس على كراهيته والضيق والفرار من مجلسه ، حتى يستريحوا من حديثه عن تزكيته لنفسه ، وثنائه على بطولاته ، وترديده لأججاده ؛ وقد قرأت فى حديث الحسن هذه العبارة : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » أى من الإعجاب به ، والمباهاة بمكانته ولفت الأنظار إليه ، وكثرة الثناء عليه ، لأن الإسراف فى ذلك يؤدى إلى ما يشبه الهوس أو الجنون ، والجنون فنون ، فهناك جنون العقل ، وجنون الهوى و جنون الحديث عن النفوس ، وعبارة الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » عبارة جليلة عميقة

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ شوال سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ٨ نوفمبر سنة ١٩٧٤ م .

المدلول تذكرنا بعبارة أخرى جاءت في حديث الحسن أيضاً ، وهى تقول :
 « لو أصاب ابن آدم فى كل شىء جن » أى أدى به الإعجاب بنفسه إلى
 ما يشبه الجنون ، فيكون سبباً فى الجناية على نفسه وهو يحسب أنه يحسن إليها
 صنعاً ويبنى لها مجداً ، وكم من مهالك لنفسه وهو يظن أنه إلى طريق النجاة
 يسير .

وتزكية النفس - وهى مدحها والثناء عليها - آفة من آفات العباد إذا
 اشتطت وزادت عن الحد المعقول ، وجاءت بلا سبب مقبول : ولذلك
 حمل القرآن الكريم على هذه الآفة ، وحلرنا التعرض لها والوقوع فيها ، فقال
 الحق تبارك وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . أى لا تمدحوها
 ولا تثنوا عليها ، فإن الله المطلع على الضمائر المحيط بالسرائر ، بكل علم
 بكل شىء ، وحافظ لكل شىء ، وهو خبير بمن يصدق فى أعماله وأحواله ،
 ومن يرائى أو يصانع : « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو
 اللطيف الخبير » . ويعود القرآن المحيد إلى التعريض بأهل سوء المزكين
 لأنفسهم الآثمة ، فيقول : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى
 من يشاء ولا يظلمون فتيلاً » . والله جل جلاله ينهى رسوله فى طليعة بعثته
 عن الإعجاب بالعمل أو الاعتزاز بالمجهود ، أو الظن أن ما قدمه فى سبيل
 ربه ضخم كبير كثير يسوغ الافتخار به ، فيقول له : « ولا تمنن تستكثر »
 أى لا تجعل عملك يعظم فى عينك فتحسبه كثيراً فى جنب الله ، بل واصل
 العمل متواضعاً متجنب الزهو به والخيلاء : « فإذا فرغت فانصب وإلى
 ربك فارغب » .

وتقبل السنة النبوية المطهرة من وراء القرآن المجيد ، لتعلم أنصارها العمل
 فى صمت ، وإخلاص النية لله فى هذا العمل . وابتغاء وجه الله به ، فهو

المعطى ، وهو المحصى ، وهو المجازى ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » ويقول : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك » أى احذر أن تصيبك هذه الآفات كما أصابت سواك ، والزم لإصلاح نفسك وتعميرها بمكارم الأخلاق ، كما ورد قوله : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وليس معنى هذا أن يضيع الإنسان حقه ، أو يترك المطالبة بما يستأهله أو يثبت له ، أو يسمح لغيره بالعدوان عليه والضم له ، فإن ذلك مذلة وهوان ، والمذلة والإيمان لا يجتمعان ، والحق جل جلاله يقول فى صفة عباده المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ويبيح للمهضوم أن يطلب حقه ، وأن يدفع الظلم والغبن عن نفسه ، ويحذر الطاغين المتزידين المتطاولين فيقول : « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ، ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

والإنسانية تشكو من القوالين المسرفين ، الذين يصدعون رعوس العباد على الدوام بأحاديثهم عن أنفسهم ، وتغنيهم ببطولاتهم ومحامدهم وإسرافهم فى هذا المجال إسرافاً معيباً مخجلاً ، يذكرنا بحديث الحسن العميق الدلالة : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » . وإذا كان أدب الإسلام لا يرتضى للإنسان أن يشوه صورته أمام الناس بكثرة تزكيته لنفسه ، واتصال حديثه عنها بالحق أو بالباطل ، فإنه إلى جوار هذا يستنكر ذلك الخلق الذميمة الآخر ، وهو إسراف الإنسان فى مدحه لغيره دون موجب ، اللهم إلا أن يكون النفاق أو الرياء أو الطمع فى مال أو جاه ، ومن هنا أرشدنا معلم البشرية سيدنا رسول الله إلى أن نلقى هؤلاء الكلدابين المسرفين فى المديح والثناء

بالقمع والقطع والمنع والازدراء ، فقال : « احثوا في وجوه المداحين
انتراب » . وقال لمن أسرف في مدح لإنسان أمامه : « قطعت عنق صاحبك » .
وأرشد النبي كل مسلم إلى أن يتبصر في ثنائه على غيره ، وأن يحتاط في مدحه
له : حتى لا يتعرض للكذب أو الافتراء أو المبالغة فقال عليه الصلاة والسلام :
« إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله
حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً — أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من الآفات الضارية المستشرية في مجتمعاتنا كثرة الحديث عن النفس ،
والإسراف في تزكية الذات ، مع أن اللائق بالإنسان هو أن يتهم نفسه دائماً
حتى لا تفتر أو تتكبر ، ولقد قيل للسيدة عائشة رضي الله عنها : متى يكون
الرجل مسيئاً ؟ . فقالت : إذا ظن أنه محسن ، فما أجدرنا بأن نقتصد في
أقوالنا ، وأن نزيد في أعمالنا . وأن نتذكر قول ربنا : « تلك الدار الآخرة
نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . أقول
قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الناس بين المدح والقدح^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، له دعوة الحق وكلمة الصدق : « ومن أصدق من الله قيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بحق الحق بكلماته ، يمحى الباطل بآياته ، إن الباطل كان زهوقاً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . الناطق بالحكمة ، الهادى للأمة ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وصحابته ، والقائمين بأمر دعوته ، « فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من الحقائق التي يجب أن ترسخ في العقول والقلوب أن الناس إما مآدح ، أو قاذح ، أو ناصح ، وخير الثلاثة هو الأخير . والمدح سلاح خطير ينحرف به صاحبه فيخرب ويدمر ، . وفي المجتمع أناس كالعلق ، يمدحون كل الناس ، ويحملون لهم العيوب ، ويقلبون سيئاتهم إلى حسنات . ليخدعهم عن أنفسهم ، ويغروهم بذواتهم ، وينالوا منهم ما يريدون ، وبذلك المديح الغاش الكاذب ، تضعيق حقوق ، وتتميع شخصيات ، وأخطر هؤلاء المداحين الضالين المضلين أولئك الذين يتصلون بالكبراء ، أو يكونون بطانة وحاشية للعظماء ، لأنهم يحملون لهم القبائح ، ويحسنون لهم الأخطاء ، ويجعلون أمامهم الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وبذلك يتعود الكبراء كلمات الثناء والإطراء ، فيخيّل إليهم أنهم معصومون من الزلل ، أو أنهم مخلوقون من طينة أخرى أزكى من طينة الناس ، ولو أنصف هؤلاء الكبراء لفعلوا كما فعل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حينما تولى الخلافة ، فقد أحضر عمرو بن مهاجر ، وكان رجلاً فقيهاً بصيراً داعية ،

(١) القيت في يوم الجمعة ١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٧٢ م .

وأمره بأن يلازمه ، وقال له : « يا عمرو ، إذا رأيتني قد ملت عن الحق ، فضع يدك في تلايبي ، ثم هزني ، ثم قل لي : ماذا تصنع ؟ » .

وهذا هو سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يبين خطر المدح الكاذب والثناء المسرف ، فيقول : « إياكم والمدح والتماذج فإنه الذبح » ، ويحذرننا من أولئك المداحين الذين يتخذون المدح عادة وصناعة وتجارة ، بلا صدق أو انصاف ، فيقول : « إذا رأيتم المداحين فاحشوا في وجوههم التراب » . ولقد سمع صلوات الله وسلامه عليه رجلا يسرف ويبالغ في مدح آخر ، فقال له : « قطعت ظهر الرجل » . وهذا لا يمنع من تقدير العاملين وشكر المناضلين والثناء على الفاضلين ، لأن الإنصاف خلق من أخلاق الإسلام ، وبهذا الإنصاف يكون التنافس على الخير ، والتسابق في مجال البر ، ولذلك أثنى رسول الله على صحابته بما هم أهلهم ، فوصف أبا بكر أنه الصديق ، وعمر بأنه الفاروق ، وعثمان بأنه ذو النورين ، وعلي بأنه باب مدينة العلم ، وأبو عبيدة بأنه أمين الأمة ، وهكذا .

وأما « القادح » فهو ذلك الخسيس اللئيم الذي يفتح دائماً فمه عن لسان قنذر وضيع ، يطعن به ذات اليمين وذات الشمال ، فهو يذم دائماً ، ويفترى دائماً ، ويتوقع دائماً ، وفي المجتمع مع الأسف أناس أنذال ، يمثلون بألسنتهم العقارب أو الحيات أو الكلاب العاوية باستمرار ، فهم يعيشون وراء بذاعة كلامهم ، ووقاحة منطقهم ، يقرضون الأعراض والحرمات ، ويتناولون على الكرام والثام من الناس بلا استثناء ، حتى يرهبهم الكثير من الخلق ، ويتفادوا الالتقاء بهم والتعرض لهم ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « إن شر الخلق من اتقاه الناس خشية لسانه » . ولقد صور القرآن المجيد شأن هؤلاء القادحين الجارحين القاضمين المتبجحين بصورة منكرة ، فقال للمسلمين في شأن المنافقين الجرمين : « فإذا ذهب الخوف سلقوكم

بأسنة حداد» أى إذا اطمأنوا وتمكنوا طعنوكم بالسنة كالحديد من شراستها وبذاعتها . كما صور القرآن أولئك القارضين لأعراض الناس ، القادحين فى أشخاص سواهم ، تلك الصورة المنفردة المذكورة فقال : « ولا يغيب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » . وهذا هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا الباذى » ويقول : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، ولا تتبعوا عورات الناس لتفضحهم ، فإن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى جوف بيته » . ويقول : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وهذا لا يمنع أن يؤدى الإنسان لأخيه واجب التحذير من خطأ أو انحراف وواجب التذكير بما يجب أن يكون عليه بأسلوب الحكيم ، ولقد قال بعض السلف : « إذا كتمت عيب أخيك عنه فقد خنته ، وإذا واجهته به فقد بهته (أى واجهته بالأذى فآلمته) وإذا ذكرته لغيره فقد اغتبتته ، ولكن عرّض به واجعله فى جملة الحديث » . وما أحوجنا إلى أناس يراجعون المخطئين فى لباقة وبراعة ، ليحملوهم على الخير ، ويصدوهم عن الشر ، وما أحوج حكامنا وكبراءنا إلى هذا الصنف الكريم من الناس حتى يحيط بهم أهل الخير والرشاد ، والرسول يقول : « ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان (حاشيتان) بطانه تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى » أى صاحب التوفيق هو من لا يأخذ برأى أهل السوء ، ويستعين بأهل الحق والخير .

و « الناصح » هو خير هؤلاء الثلاثة ، لأنه يخلص فى توجيهه وتشجيعه وتحذيره ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة » ، والقرآن الحكيم يعلمنا أن تبادل النصيح الخالص الصادق الأمين هو طريق

النجاة والفلاح ، فيقول : « والعصر إن الإنسان لني خسر ، إلا الذي آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ولقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يبايع كل فرد يدخل الإسلام على أن ينصح لكل مسلم ، ويقول : « إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه » ولا عجب فالمؤمن أخو المؤمن ، والمؤمن مرآة أخيه ، والنصيحة الصادقة لون من ألوان التعاون والمحمود الذي يطالب القرآن القائل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . وهذا التنصيح هو الصبغة الأساسية التي طالب بها القرآن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« الناس إما مدح ، أو قادح ، أو ناصح ، وخير الثلاثة الأخير » . قول أردده وأؤكد ، وأعیده وأوطده ، فليُنظر كل منا أن يكون من هؤلاء الثلاثة : امعة تضيع ذاته وشخصيته في مدح بكل من هب ودب بلا صدق ولا إخلاص ، أم هو صاحب لسان كالمرذئ يؤذى به عباد الله فيكون كالحية الرقطاء ، أم هو معتصم بحبل الله ، داع إلى صراط الله ، ناطق بكلمة الخير ابتغاء وجه الله ؟ . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائز ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

مصدر العزة^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو خالق الخلق ، وواهب الرزق ، « وخلق كل شئ فقدره تقديرآ » أشهد أن لا إله إلا الله ، هو صاحب الأمر ، ومصدر البر « ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتصم بحبل ربه ، واستضاء بنور كتابه ، فكان خير المرشدين وزينة المفلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحابعته ، وحزبه وجماعته ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا تخافوا ، فلن أحدثكم عن الوفاء والفداء ، ولا عن الاستشهاد والشهداء فلقد أظن أنكم ملتم هذا اللون من الحديث ، وكأننا قد رضينا بالواقع ، على الرغم من احتلال الدار وضياح الثأر وثقل العار ، وكأننا قد ألفنا أن توطأ الوجوه والأعناق بالنعال والأقدام . ولكني سأحدثكم عن آية من كتاب ربكم المجيد ، في سورة فاطر ، تقول : من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور . إن الآية تتكون من خمسة مقاطع كل مقطع منها فيه عظة وبلاغ لقوم يعقلون . المقطع الأول يقول : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » . والعزة هي الرفعة والمتعة والاستعلاء وفي الكلمة أيضاً معنى القوة والشدّة ، والعزیز هو الغالب لسواه ، ولقد كان جبابرة المشركين يخافون إذا دخلوا في الإسلام أن تزول عنهم زعامتهم وقيادتهم

أقيمت بمسجد التليفزيون في يوم الجمعة ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ٣١ يناير سنة ١٩٧٢ م .

لغيرهم ، ولذلك حاولوا الاعتزاز بالعناد والكفران ، فأفهمهم القرآن أن العزة الحقيقية لا تكون إلا من الله ، لأنه هو الذى خلق كل شئ ، وأعطى كل شئ ، وإليه يرد كل شئ ، فن أراد أن ينال العزة فليطلبها من مصدرها ومنبعها ، ومالكها وواهبها ، ومن كان يحب أن يصير عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، حتى يشمله برضاه وهده ، وبذلك يصبح عزيزاً ، لأن الله جل جلاله هو مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير » .

وإذا أيقن الإنسان أن العزة لله وحده ، أنف أن يخضع لغير الله ، أو يذل أمام سواه « فلا يتضعضع أمام فقر ، ولا يهون أمام قهر ، بل لعلنا نسمعه نردد قول الشاعر الرامز الواعظ .

أبدركنى ضيم وأنت ذخيرتى وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرتى
عار على راعى الحمى وهو قادر إذا ضاع فى البیدا عقال بعير

ولقد يتعزز الإنسان بقوة البدن فيأتيه المرض فيهدده هذا ، ولقد يتعزز بالمال ، فإذا المال غول قاتل وشيطان مائل ، ولقد يتعزز بالنسب والحسب ، فيأتيه الضياع من كل مكان ، لقد يتعزز بالعلم ويفتر به فلا نريده العلم إلا انحرافاً وضلالاً ، ولقد يتعزز بالمنصب والجاه فتدور عليه الدوائر فيصبح أذل من الكلاب ، أما الاعتزاز بالله فباق دائم ، يهون معه كل عسير ، ولذلك قال القرآن : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . ولا تناقض بين كون العزة لله وحده ، وكونها للرسول وللمؤمنين ، لأن الله هو العزيز فى الحقيقة والواقع ، وكل عز سوى عزه فهو فيض من عزته ، والعزة كانت للرسول بواسطة قربه من الله العزيز ، والعزة للمؤمنين كانت بواسطة أتباعهم للمعتر بالله سيدنا رسول الله ، ولذلك يقول

القرآن : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخلون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيتبعون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » . وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « كل عز ليس بالله فهو ذل » وقال : « اطلبوا الخوائج بعزة النفوس فإن الأمور تجري بالمقادير » . وقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا » . والحديث عن العزة مفصل مبسوط في كتاب « أخلاق القرآن » .

إليه يصعد الكلم الطيب ، ولقد قال السابقون إن الكلام الطيب هنا هو التوحيد أو الذكر أو التلاوة أو الد ' أو النصيحة أو العلم أن نقول إن الكلم الطيب هو كل ما وافق القرآن والسنة ، وكل ما كان حقاً متجرداً لوجه الحق ، وما فيه إخلاص وإرادة خير للمسلمين وكل ما كان دالاً على هدى ، أو محذراً من ردى* أو داعياً إلى خير ، أو آمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر . والتمسك بالكلام الطيب هو أول خطوة نحو اكتساب العزة من الله ، وانظر كيف يخبرنا أن الكلم الطيب كأنه شئ* أعطى قوة الصعود بنفسه إلى مكان الرضى والقبول ، ولا عجب فالنطق بالكلمة الطيبة منة عظيمة من الله على الإنسان ، ولذلك يقول القرآن : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » ، ولقد تستطيع الكلمة الطيبة أن تحقق خيراً كثيراً ، أو تمنع شراً مستطيراً ، ومن هنا قال رسول الله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، ولقد جاء في السنة أن العبد إذا قال : سبحان الله وبحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يحبي بهن وجه الرحمن .

« والعمل الصالح يرفعه » وهذه هي الخطوة الثانية نحو اكتساب العزة من الله ، والعمل الصالح هو العمل المستقيم النافع ، وقمة هذا العمل هو

أداء الفرائض ، لأن الحديث القدسي يخبرنا بأنه ليس في التقرب إلى الله أفضل من تنفيذ ما افترضه الله على عبده^(١) ولننظر جيداً كيف جعل القرآن الكلام الطيب يصعد بنفسه ، والعمل الصالح يرتفع برفع سواه ، وليس ذلك استخفافاً بشأن العمل ، وإنما هو تمجيد لقيمة الكلمة الطيبة ، كي لا يستخف الناس بشأنها ، والإنسان الحيوان في العمل ، ولكنه يتميز أول ما يتميز بالنطق والكلام ، والعمل الصالح في الإسلام ، يبدأ بكلمة لا بد فيها هي كلمة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله فكأن أساس العمل أو مقدمته هو الكلمة الطيبة . ولنتذكر هنا أن القرآن في هذه الآية — كما في غيرها — يحثنا على الرفعة والصعود والتسامي . فالعزة التي يحدثنا عنها رفعة ، والكلم الصيب يصعد ، والصعود سمو ورفعة ، والعمل الصالح تعلق به إرادة الله ، والعلو رفعة ، فكأن شأن أبناء الإسلام أن يكونوا على الدوام في رفعة وصعود واعتلاء .

« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد » أي الذين يقترفون الآثام ويكتسبونها ويتوسعون فيها بمكرهم ووقاحتهم ، لهم عذاب مؤلم موجه ، وهذه هي الصورة المقابلة لصورة الفائزين أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح والسيئات تشمل السي من القول والسي من العمل ، فكأن السيئات هنا هي النقيض المعارض للكلم الطيب والعمل الصالح .

« ومكر أولئك هو يبور » أي يفسد ويبطل ، وبذلك لا يثمر ولا ينفع ، بل ويظهر الله زيف الماكرين الآثمين لأصحاب البصائر والعقول ، لو ستروه لأنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله — ولو بعد حين — على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه ، ولفظة « يبور » لها دلالتها المصورة المعبرة في العاقبة الوخيمة التي يصير إليها أهل الإجرام والفساد ، وهكذا عدل الجزاء : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(١) راجع « أدب الأحاديث القدسية » للمؤلف .

أين الأخلاق؟ (١)

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما ارتكبت ، وهو علام الغيوب ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خشى ربه ، وخاف ذنبه ، فكان زين المتقين ، وإمام العابدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، أولئك هم خير البرية .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشرت إحدى الصحف^(٢) أن طالبين من طلاب جامعة القاهرة اشتريا عدداً من الشطائر « السندويتشات » من بائع كفيف يبيع هذه الشطائر داخل فناء الجامعة ، وقدموا إليه قطعتي نقود من فئة خمسة قروش ، ولما تحسس الكفيف القطعتين بأصابعه عرف أنهما مزيفتان ، فأخذ ينادى بأعلى صوته على الطالبين اللذين قد اختفيا ، فأبلغ الكفيف الشرطة لبحث الأمر والتحقيق فيه ! .

يا لضيعة الأخلاق وموت الضمير في عصر يسمونه عصر المدنية والنور . إن تزييف النقود عمل إجرامى يحرمه الشرع والقانون والعقل ، لأنه أولاً كسب للمال عن طريق السحت والباطل ، والرسول يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ولأنه غش ثانياً والرسول يقول : « من غشنا فليس منا » . وصك النقود عمل من اختصاص الدولة ، فلا يجوز لفرد

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٧ من رجب سنة ١٣٨١ هـ الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦١ م .
(٢) جريدة الاخبار يوم ٨/١٢/١٩٦١ م .

أو أفراد أن يقدموا على صكها ولو كانت سليمة ، لأن هذا يؤدي إلى اختلال الأوضاع ، وفساد الاقتصاد ، وتعدد العملات ، مما يؤدي إلى ضياع الحقوق ، واضطراب الأحوال ، فكيف لو كانت مزيفة ؟ . إن الجريمة حينئذ تكون مضاعفة أو مركبة .

وهذه الجريمة التي وقعت من طالبين في الجامعة وصلا إلى المرحلة الأخيرة من الثقافة والتعليم ، تذكرنا بضرورة التربية الدينية والروحية لهؤلاء الشباب ، إذ لا يكفي أبداً أن نشحن أذهانهم بالعلوم والمعارف المادية أو النظرية ، دون أن نعلم صدورهم وقلوبهم بالإيمان ومراقبة الله الذي يطلع على السرائر والضمائر ، والذي يعلم السر وأخفى ، والذي يحيط بما دق وجل : « وأسروا قلوبكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . ولو كان هذين الطالبين دين يردعهما أو ضمير يزعجهما ، أو أخلاق تعصمهما ، أو مراقبة لله تفوقدهما ، لارتجفت أصابعهما ارتجاف الخوف والخشية حينما وسوس لها الشيطان بارتكاب هذه الجريمة والحق أننا في حاجة إلى مزيد من الأخلاق مع مزيد مع العلم ، بل نحن في حاجة إلى مزيد من الأخلاق قبل أن نكون في حاجة إلى مزيد من العلم ، فإن قليلا من العلم مع أخلاق قد يكون أجدى وأرقى من عمل لا يصد صاحبه عن خنا ، ولا يمنعه من إثم ، ونحن في حاجة ماسة إلى الذين يؤمنون بالإيمان العميق الصادق بمثل قول ربهم جل جلاله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . والله در الذي قال :

إذا ما خلوت الدهر يوماً ، فلا تقل : خلوت ، ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ثم نتساءل : على من احتال هذا الطالبان ؟ لقد احتالا مع عميق الأسى
وبليغ الأسف على شاب مكفوف يكسب قوته بالجهد والعرق والتعب ،
(م ٣ - خطب ج ٢)

ولو أنهما احتالا على مبصر قوى لقلنا إنها جريمة تقع ، ويألف الناس المصاع عنها ما بين حين وحين ، ولكن احتيال هذين الطالبين على مكفوف ، وفي هذا المبلغ التافه وهو خمسة قروش ، فيه شناعة وبشاعة ، فقد كان هذا المكفوف محتاجاً منهما إلى الرعاية لا إلى الغش ، وإلى المعاونة لا إلى الاحتيال ، وإلى التقدير لا إلى السرقة منه والنهب لحاجته وماله ، ولكن كيف يفهم الطالبان هذا دون ضمير يذكر ويردع ، ودين يحفظ ويمنع ؟ ! .

ولقد كان في عمل الطالبين استخفاف بالمكفوف وسخرية منه وهضم لحقه وليس هذا من أدب الإسلام ، ولا خلق المسلم في شيء .

وهذا هو القرآن بمجد شأن المكفوف ويرفع قدره ، فيعاتب الله تعالى نبيه ، لأنه أعرض قليلاً من الوقت عن الاستماع إلى رجل مكفوف سعى إليه ليسترشه ويسأله ، وأفتتح القرآن العتاب سورة من سوره فقال : « عيسى وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنبه الذكري أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » ! . ولقد كان والرسول بعد ذلك كليلاً لقي ابن أم مكتوم الذي تحدثت عنه السورة يقول له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى « ثم يقول له : هل لك من حاجة نقضيها ؟ . . ثم استخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة في أثناء خروجه إلى الغزوات . ولقد رفع الحديث القدسي من شأن المكفوف فقال : « إذا أخذت كريمي عبيدي في الدنيا (أى عيذه) لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة » . ومن صيانة الإسلام لحقوق المكفوف أن نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ترك السلام على الضرر خيانة » . لأن ترك السلام في تلك الحالة يدل على سوء استغلال أو سوء انتهاز لكف البصر عند الكفيف ، بأنه لا يرى أحداً ، بينما كان كف البصر هذا جديراً أن نقدر أثره ، فلا نتكل عليه في تجاهل

الكفيف أو التغافل عنه والتعلل أو الاستخفاف به ، بل كان يجب أن يدعونا أكثر من غيره إلى احترام صاحبه ومراعاة شعوره ، وعدم تذكره بالنقص الحسى الذى أصيب به فى حياته حينما حرمتة الأقدار نعمة الإبصار . .

وماذا يكون شعور المكفوف حينما يعلم أن هذا المبصر قد استغل كف بصره وانتهز عدم الرؤية منه ، فخانه وأهمله ومر به مرور اللثام على الكرام ؟ إن نفسه ستتألم أشد الألم من ذلك ، وفى الغالب سيعبر عن هذا الألم بعنف وشدة ، لأنه مطعون ومجروح ومهان ، ولو أنه كتم هذا الألم ولم يظهره ، فإن نفسه ستظل فى ثورة عارمة من الداخل ، ويكون السبب فى هذه الثورة هو الخائن الذى ترك السلام عليه ، فضيع بذلك حقاً كان عليه أن يؤديه . .

والحكم على ترك السلام على الضريح بأنه خيانة لا يعنى التحذير من ترك السلام عليه فقط ، وإنما هو — كما جاء بكتاب فى عالم المكفوفين ^(١) — « ضرب مثل لخطورة إهمال المبصر حق المكفوف ، فتركك السلام على المكفوف خيانة فى نصر الإسلام ، وتركك لإرشاده وأنت ترى حيرته خيانة ، وعدم تحذيره مما سيقع فيه خيانة ، وعدم السؤال عنه عند غيبته خيانة ، وعدم عيادتك له وهو مريض خيانة وعدم نصحتك له وأنت تراه معرضاً للخطأ خيانة ، وعدم معاونته فيما يحتاج فيه إلى المعاونة خيانة ، وهكذا . »

لقد قال أحد الباحثين الاجتماعيين : لو لم يكن هناك دين لوجب على الناس أن يصنعوا لهم ديناً يخضعون له ويخشعون أمام توجيهه . قال الباحث ذلك ، وقد كفانا الله عز وجل مثونة البحث عن هذا الدين أو الصناعة له ، فامتن علينا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليقودنا إلى خير دين ويهديننا إلى أسلم طريق : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

(١) للمؤلف .

المشركون » وامتن علينا بكتابه المجيد الذى يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وجعله لنا الدواء والشفاء : « إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وامتن علينا بهذا الإسلام العظيم الحنيف المرشد إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » وامتن علينا بأحكامه العاصمة من الزلل والهاوية إلى الصلاح والإصلاح : « أفكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . فهل آن الأوان لكى نفرس أصول هذا الدين وقواعده وتعاليمه فى صدور هذه البراعم الناشئة من أبنائنا وشبابنا ، حتى يعتصموا بالأخلاق الفاضلة والسلوك الكريم ، ويتعدوا عن رذائل الأعمال والأقوال ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ليس هناك رقابة أدق أو أشمل من الله ، وليس هناك سلطة تعصم وتحفظ أقوى من سلطة الخوف من الله ، وليس هناك وازع كوازع الإيمان بأن الإنسان مجزى على عمله حتماً ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليه : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً » وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل وانتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

اين الحياء؟ (١)

أحمد الله عز وجل ، لا يحمد على المكروه سواء ، « له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون » ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، بكرم بالنعمة ويؤدب بالنقمة ، ويجمع بآية العذاب بآية الرحمة : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، كان أشد حياء من العنراء ، وأشد غيرة على الحرمات من الكتيبة الخرساء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وأصحابه الذين اتقوا ربهم ففازوا فوزاً كبيراً ، وأتباعه الذين اجنبوا السيئات والمنكرات فأنابهم ربهم رضواناً عظيماً : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يظهر أننا قوم لا نستحي ؛ ومن حقكم ألا تصدقوني حتى أقيم لكم الدليل ، فنحن نقول عن أنفسنا : إننا عرب ، وإننا مسلمون ؛ والعروبة الكريمة من أول صفاتها الغيرة على الأعراض ، والحرص على الشرف ، وصيانة الحرمات ، وتفضيل النار على العار ، ومن أمثلة العرب الموروثة قولهم : المنية و الدنية ؛ وقولهم : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ! . . . والإسلام من أول تعاليمه أنه يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويبعد أهله عن مواطن الزلل والانحراف ، ويسد المسالك التي قد تؤدي إلى رذيلة أو تقضى على فضيلة ، ويحرص على أن يكون أهله أصحاب طهارة في الخس

والنفس « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وأن يتعلموا ما استطاعوا عن مواطن الشبهات وأسباب الخطيئات ، ورسولهم يقول : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » ! . هذه هى العروبة ، وهذا هو الإسلام ، فهل وفينا لها أو حفظنا جلالها ؟ وما موقفنا منها ؟ .

لقد أردنا مثلاً أن نشترك في مهرجان من مهرجانات الشباب في بلد من البلاد الأجنبية يخالفنا في العقيدة والعادات ونظام الحياة ، وكان الواجب علينا أن ندقق في اختيار شباننا الموفدين إلى هذا المهرجان العالمى ، بحيث يكونون نماذج في الاستقامة والأخلاق والمهارة وأن ندقق كل التدقيق في مراقبتهم والإشراف عليهم والحيلولة بينهم وبين ما يسىء إلى أخلاقهم أو ينال من دينهم وكرامتهم ، وأن نجعلهم يعرضون هناك أمام أنظار الناس من مختلف الجنسيات ألواناً من بطولاتهم القومية ، أو مواهبهم العقلية ، أو عبقرياتهم الفنية ، أو يعرضون مشاهد من فروسية العروبة أو فروسية الإسلام ، أو مواقف من جهادنا الطويل المرير ، أو صفحات مشرقة من تاريخنا الجليل العظيم ، أو غير ذلك من أمور تشرفنا وترفع رءوسنا كريمة بين العالمين . . .

ولكننا لم نفعل هذا ، بل حرص المشرفون الموجهون لوفدنا إلى هذا المهرجان على أن يكون هذا الوفد مشتملاً على عدد كبير من طالبات المدارس والمعاهد المختلفة ، وعلى عدد من الراقصات والممثلات المحترفات ، ومعهن عدد من الفتيان والطلاب والرجال والممثلين ، وهى الوفد العربى الشرقى المسلم ما سيعرضه ، فإذا هو لا يكاد يخرج عن الرقص والتثيل واللهو والعبث واللعب التافه ؛ فهذه رقصات شرقية من طالبات المعهد الفلانى ، وهذا

رقصات « باليه » من طالبات المعهد الفلاحي ، وهذه رقصات هز البطون وهز الأرداف من الراقصة الفاتنة فلانة ، وهذا عرض تمثيلي غنائي موسيقي راقص عنوانه : « يا ليل يا عين » ، ولست أدري إلى متى سنظل ننادى هذا الليل المسكين المظلم ، وننادى هذه العين الباكية الحزينة ، ومتى ننادى بدلهما قائلين : يارب ، يا قوة ، يا حياة ، يا مجد ، يا دين ، يا أخلاق ، يا مروءة العرب ، يا عزة الإسلام ؟ متى متى يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ؟ ومع ما أقاموا حول هذا العرض التمثيلي يا ليل يا عين من طبل وزمر ودعاية ، وأنفقوا فيه من وقت وجهد ومال مجموع من عرق الشعب ، فقد توالى الأنباء بأن هذا العرض قد فشل فشلا ذريعا فاضحا ، فلا أرضى قومنا الشيطان ، ولا أبقوا لأنفسهم رضا الرحمن : « وخسر هنالك المبطلون » ! .

وكان مما أعده وفدنا العربي المسلم لهذا المهرجان عرض ما يزيد عن عشرين زياً نسائياً ، وبطبيعة الحال قد عرضت هذه الأزياء فتيات فيهن جمال الصبا وسحر الشرق وفتنة الشباب ، فازدادت الأزياء بهن روعة وجاذبية ، وازدادت أجسادهن بالأزياء البراقة اللامعة فتنة وسحراً ، وبطبيعة الحال المألوفة كان في الأزياء ما يكشف الأذرع والسيقان ، والأكتاف ، والأفخاذ والصدور والظهور ، والخصور والنحور ، وما إلى ذلك والمشاهدون لهذه الأجسام الفاتنة من طالباتنا وفتياتنا هم آلاف من شبان أجانب ، عيونهم نهمة ، وغرائزهم ملتهبة ، ورغباتهم متقدة ، ورباطهم الخلقى غير وثيق ، والرقيب مفقود ؛ وقد غاب القط — كما تقول العامة — فلفأر أن يلعب كما يشاء ، وإذا نام راعى الغنم عنها سطت عليها الذئاب .

هل جاءكم يا أبناء الإسلام ويا أحفاد العرب أن أعظم ما نال الإعجاب من وفدنا في هذا المهرجان هو كما نشروا رقصات هز البطن والرقصات الشرقية التي قدمتها تلك الراقصة المشهورة ؟ .. وهل قرأتم ما نشره عن

فضيحة الطالبة التي رقصت أمام الشبان الروس الحمر في إحدى المحطات العامة ؟ . . وهل قرأتم ما اعتذروا به عن هذا العمل ؟ . لأنهم اعتذروا بأن الفتاة قد رقصت فعلاً ولكنها لم ترقص بقميص النوم كما نشر بل رقصت رقصة « باليه » أى أنها رقصت رقصاً مؤدباً مهذباً ، فهو إذن في زعمهم وحسب دفاعهم « رقص شرعى مباح لا غبار عليه » . . . ألا يذكرنا هذا بالشاعر الذى يتحدث عن ظلم الفوضى والظلم المنظم فيقول :

قد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى صار ظلاماً منظماً
أو ذلك الشاعر الشريد الذى أرادوا أن يوظفوه فوظفوه بلا عمل معين
له ، فتحدث عن التشرذم الأهلى والتشرذم النظامى فقال :

بالأمس كنت مشرداً أهلياً واليوم صرت مشرداً رسمياً !
وتتحدث الصحف يوماً بعد يوم عن هذا المهرجان فتذكر أشياء وأشياء ، وترمز إلى أمور وأمور ، ويتحدث القادمون من هناك عن أشياء ويهتمون بأشياء ولعل ما خفى ولم ينشر أعظم وأخطر ، والسامعون يسمعون ويتألمون ويتساءلون : أنحن حقاً عرب نعرف شهامة العرب ؟ . أنحن حقاً مسلمون نأخذ أنفسنا بأداب الإسلام الذى يقول قرآنه : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ويقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ؟ والذى يأمر بأن لا تسافر امرأة إلا مع محرم ، والذى يقول رسوله : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » ؟ . . فلماذا نلتزم حدود الله وأحكام الإسلام ما دمنا ننتسب إليه ، وإما أن نقولها واضحة صريحة واضحة فإننا لسنا أهلاً لهذا الإسلام ! . .

وإذا كان المسئولون عن هذه التصرفات يستوجبون المؤاخذه والتأديب ،

فلإننا فى الوقت نفسه نتساءل عن هؤلاء الآباء والأمهات الذين تركوا بناتهم
الآنسات العذارى يسافرن فى رحلة طويلة بعيدة غير مأمونة كهذه الرحلة . . .
أين دينهم ، وأين غيرتهم على أعراضهم ، وأين حرصهم على بناتهم ؟ . . .
أليسوا بالمسلمين ؟ أفيرضى الإسلام عن ذلك ؟ . . . أليسوا عرباً ؟ أسمح
شهامة العرب بذلك ؟ . . . أفتونى يا قوم فإنه يبدو أننا قد أصبحنا فى فتنة صار
الحليم فيها حيران . . .

. يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد كان 'م' حدث وما قبل
وما نشر حول هذه المأساة كافياً لإثارة العبر وإسالة العبرات ، واللييب من
اتعظ بغيره واعتبر بما حدث لسواه ، إن فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب
أو ألقى السمع وهو شهيد فخذوا حذركم ، وتدبروا أمركم ، واتقوا الله فى
عروبكم وإسلامكم وأعراضكم ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى
إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

ياضيعة الحياء (١)

الحمد لله عز وجل ، يمهّل ولا يهمل ، ويراقب ولا يغفل ، ويعاقب ولا يظلم : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد أهل الصلاح والتقوى بالخير والنعيم ، وتوعد أهل الفساد والفجور بسوء المصير : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى خير الشرائع ، وحارب الرذائل وسد الذرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المتقين المهتدين ، وأتباعه المستقيمين الصابرين ، « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا هانت حرمت الدين على أمة من الأمم ضاعت فيها الأخلاق ، وإذا ضاعت فيها الأخلاق فقدت أهم شئ يعصمها من الخنا ويمنعها من الفجور وهو الحياء ، وإذا فقدت الحياء فودع منها وقل عليها العفاء ! . وإذا كان الحكماء يقولون : إنما تحيا الأمم بالأخلاق ، فإن عماد الأخلاق الفاضلة هو الحياء ، ولذلك قال مؤدب الإنسانية محمد صلوات الله عليه : « لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء » وقال : « الحياء من الإيمان » ، وقال : « الحياء والإيمان قرنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » ! . وقال : « الحياء خير كله » وقال : « الحياء لا يأتى إلا بخير » وأنبأنا أن من لا يستحي لا يبالي فى إتيان المنكرات أو القبائح لوماً أو عتاباً ، بل يعب من الرذائل والفضائح كما يشاء .

القيت فى يوم الجمعة ١٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٩٥٨ م .

ولذلك علم النبي أتباعه أن يستحوا من الله ، وأن يستحوا من رسوله ، وأن يستحوا من الناس ، وأن يستحوا من أنفسهم ، وأن يكون حياتهم هذا مبعداً لهم عن المآثم والخطايا ، منفراً لهم من كل ما يחדش العفة أو يعيب الشرف أو يفتح الباب لمنكر من المنكرات ، وأن يجعلهم ينجلون إذا سمعوا الكلمة النابية ، أو رأوا الصورة الجارحة ، أو اطلعوا على عورة من العورات ، وإمامهم في هذا وسيدهم هو نبيهم الذي كان أشد الناس حياء ، وكان من حياته لا يثبت بصره في وجه أحد ، وكان - كما روت الأحاديث - أشد حياء من العنراء في خدرها .

ويظهر أن حيائنا قد قل أو انعدم ، ولذلك صار يقال فينا إننا لا نخجل مما يחדش الفضيلة ، ويمجرى على المعصية ، ويدفع إلى الفجور ، فقد نشرت صحيفة يومية مشهورة^(١) في صدر صفحاتها عنواناً جاء فيه : « الصور العارية صور فنية تنمى الذوق ولا تنافي الآداب » وتحت هذا العنوان أخبرتنا الصحيفة أن أحد المحققين قد قرر أن « الصور العارية ليس فيها إخلال بالآداب وإنما هي صور فنية تنمى الوعي والذوق الفني عند الجمهور . . . وأمر بحفظ التحقيق مع شابين ضبطهما رجال مكتب الآداب ببيعان صور نساء عاريات لطلبة مدارس الحى » !! .. وقد ذكرت الصحيفة اسم المحقق وحددت مكان الحادث وموضع التحقيق ، ونحن لا يعنيننا إلا الموضوع ، ولا علاقة لنا بالشخصيات . . .

يقع هذا بعد أن ضجج الناس من بلاء هذه الصور الفاجرة ، وانطلقت الأصوات المؤمنة تحذر وتنذر ، وكتب الأزهر إلى المسؤولين ينصح ويوجه ، وقيل إن هؤلاء المسؤولين قد استجابوا فنعوا البلاء وأنصفوا الحياء ، وإذا بهذا الخبر الغريب يأتي فيعطى صفة الإباحة والجواز والمشروعية لهذا الفجور

(١) الاهرام في يوم الأربعاء اول يناير سنة ١٩٥٨ م .

العريان ، ومصيبتنا أيها الناس تتجمع في طائفة من المبادئ واللوائح المتخلفة عن عهود الاجتلال والضلال ، والتي تصادم الدين وتنتكر للشرعية في صراحة وعلانية ، وحسبكم دليلاً على ذلك أن بعض هذه المبادئ لا تعتبر الزنى جريمة يؤاخذ عليها ما دام برضا الطرفين !! ..

لقد قيل : ويا سوء ما قيل : — إن هذه الصور لا تخل بالآداب ، فهل هذا صحيح ؟ .. صور نساء عاريات فاجرات في أوضاع جنسية قلرة تثير الشيوخ مع الشباب وتحرضهم على الفسق والإثم ، ثم يقال إنها لا تخل بالآداب ؟ . وأى آداب هذه ؟ . آداب الرحمن أم آداب الشيطان ؟ . أم يكون هذا القول على معنى أن الآداب غير موجودة حتى يوجد بها إخلال ، إذ لا يمكن الإخلال بالشيء المعلوم ؟ . ويقولون إنها صور « تنمى الوعي » .. الله ! .. الله ! .. نعم أنها تنمى وعى الشهوة ويقظة الإثم وقوة الفجور وبطش الحيوان المفترس الكامن في جسم الإنسان ، فخبرونا يا بنى آدم ، هل تربي هذه الصور الوعي الوطنى أو القومى أو العربى أو الشرقى أو الإسلامى ؟ ! .. ويقولون إنها صور « تربي اللوق » فأى ذوق هذا الذى يتربى على أجساد النساء ولحوم البغايا وعورات المومسات ، ولا يرتع إلا فى مراتع الإثم والفاحشة والبهتان ؟ ! ..

ثم لمن تباع هذه الصور العارية الفاضحة المثيرة ؟ .. إنها لا تباع لشيوخ كبار فى العمر ليس هن فى النساء إربة أو طلب ، ولا تباع لأزواج تستنار بها قواهم الجنسية على أسوأ الفروض وأقذر التقديرات ، بل تباع لطلاب المدارس كما نشرت الصحف .. تباع للشباب الفائر المائر وفيه الساذج وفيه القوى والفاجر .. فلطفاً بالشباب يا قتلة الشباب ، ورحمة بالأخلاق

يا هادى الأخلاق ، وإلا فقولوا إذن إنه لا مانع من بيع صور عارية للرجال بأوضاعهم المثيرة وأعضائهم التناسلية ، وتباع هذه الصور لطالبات المدارس حتى يتمتعن بالفجور كما يتمتع الطلاب ، وليأت بعد ذلك الطوفان ! .

ألم تسمعوا ما أذيع على الملايين من أن مدرسة للفنون التى يسمونها بخميلة تستأجر نساء عاريات ليقفن مجردات أمام الطلبة حتى يرسموهن ، وتأخذ كل امرأة فى مقابل ذلك عشرين قرشاً عن كل ساعة تعرض فيها لحمها كما ولدته أمها ، وإذا أراد بعض الطلبة أن يأخذ هذه المرأة التى يسمونها « النموذج » إلى بيته دفع لها ثلاثين قرشاً عن كل ساعة يقضيها معها فى البيت عارية متجردة ، وأنتم تعرفون بطبيعة الحال لماذا زيدت هذه القروش العشرة ؛ وقياساً على قاعدة الطوفان فى إشاعة الفجور يتساءل الشياطين : لماذا إذن لا نفتح مدارس لطالبات الفنون الجميلة ، ونقدم لهن وأمام أبصارهن شباناً ورجالا عراة كما ولدتهم أمهاتهم حتى تقوم الفتيات بتصويرهم لتنمية وعين وذوقهن ؟ . ولماذا إذن لا يباح لل طالبة أن تأخذ « النموذج » الرجل معها إلى بيتها وتعطيه ثلاثين قرشاً أيضاً عن كل ساعة تقضيها معه وهو مجرد من ثيابه ؟ . . أليس الأمر كله فناً ؟ . . أليس هذا تنمية للذوق كما يقولون ؟ . . اخجلوا يا ناس ، انكسفوا يا خلق ، استحيوا يا بنى آدم ! ! . . ألا لعنة الله على الفن إن كان سيهدم الدين ، ولعنة الله على الفنانين إن كانوا سيصيرون فاجرين ، ولعنة الله على كل من يروج للفن الوضع أو يناصر الفجور الرقيق ، ألا لعنة الله على الظالمين . . .

ليت هذا الفجور لم يكن ، وليته إذ كان لم يعلن ، بل كتموه وستره ، وليتهم إذ لم يكتموه ولم يستره نشره فى نطاق ضيق ، وليتهم إذ نشره

على نطاق واسع لم ينشروه في الشوارع والبيوت ، وعلى أسماع الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات ، والمراهقين والمراهقات !! ..

وخبروني من هي تلك الفتاة التي تقبل لنفسها أن تكون نموذجاً لمجموعة متلاقية ، ثم لأفراد متعاقبين كل على حدته ؟ .. أو تقبل الحرة العفيفة ذلك ؟ أو يقبل رجل شريف نظيف لإحدى نسائه ذلك ؟ فكيف تقبلون لغيركم ما تأبونه لأنفسكم وأهنيكم ؟ .

وهل يستطيع حر كريم أن يتصور — فضلاً عن أن يقبل أن يتصور ابنته الطالبة بمدرسة الفنون الجميلة التي يقترحها الخبثاء وقد عادت من الخارج ومعها نموذج رجل ، لكي يتعري معها في (صومعة) فنها داخل البيت لمدة ساعة أو ساعات حتى ترسمه ! !

لله در من قال : إن الذين اختشوا قد ماتوا !! ..

إن البلاء قد عم وطم ، وهو لا يعالج بضبط هذه الصور أو تلك ، أو إطالة التحقيق في شأنها ، ثم الانتهاء إلى هذه النتيجة المؤسفة ، وهو أيضاً لا يعالج بتأليف اللجان وعقد الاجتماعات وتشقيق الأحاديث .. إن الحق أبلج والباطل لجلج ، وإن الحلال بين والحرام بين ، وإنما يحتاج الأمر إلى الضرب على أيدي هؤلاء العابثين بأخلاق الأمة وآدابها ومقومات شخصيتها ، وإلا فبأساء المصير ؛ والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ؛ والقرآن لا بد له — لكي يؤدب ويردع — من قادر ينفذ أحكامه ويفرض تعاليمه ، ولا بد للحق من قوة ودولة ، ولا بد للفضيلة من منعة وصولة ، فالغوث الغوث يا ولادة الأمور ، والنجدة النجدة يا هادي الطريق ! ..

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .. يا رواد المساجد ، يا بقايا الخير في حنايا المجتمع الصاخب ، يا أحفاد المسامين الأوائل .. صونوا أنفسكم

وأولادكم وأسرکم من هذا البلاء ما استطعتم ، وابدلوا ما وسعکم لتطهير مجتمعکم من هذا البلاء ، واطلبوا إلى کل مسئول أن يؤدي واجبه في هذا التطهير ، حتى لا تشملنا اللعنة التي شملت السابقين من الفاجرين : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

فجور على الشاطئ^(١)

أحمد الله عز وجل ، كتب للصالحين المصلحين كريم الأجر وخالد الثواب ، وتوعد الضالين المضلين بسوء الخاتمة وأليم العقاب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، حد الحدود وأوضح المعالم ، ونفر من الخبائث وحرّض على المكارم « لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أخرج قومه من حاة الرذيلة والتحلل والفساد إلى درجات الفضيلة والعفة والرشاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الفضلاء ، وأصحابه الأتقياء ، وأتباعه أولى الطهارة والنقاء : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يظهر أننا نريد أن نثبت للناس أننا أهل العجائب والغرائب ، وأننا نستطيع أن نسبق أهل البدع الأثيمة والفضائح المنكرة ، ومن حقكم ألا تصدقوني حتى أقم لكم الدليل . فند ثلاثين سنة تقريباً كان الشاب من شبابنا يصعب عليه أن يتصور جسم المرأة أو يصفه من تحت ثيابها ، لأنها كانت محجبة مخدرة ، ثم أردنا أن نتمدين ونتطور ، أو أن نكون كأوروبا ، فنادى منادون بسفور المرأة ، فرفعت المرأة الحجاب عن وجهها ، ثم عن رأسها ، ثم عن ذراعيها وساقها ، ثم عن صدرها وظهرها ، ثم لبست « مايوه » البحر ، فتجردت من ثيابها ومن بقية حياتها معاً ، وأصبح الشاب خبيراً بجسم المرأة ، عليماً بمفاتنه ومحاسنه ، وظاهره وباطنه ، ومن لا يعرف

(١) لم يذكر المؤلف رحمة الله تاريخاً لهذه الخطبة .

ذلك من الشباب اليوم فهو في عرف المتمدنين المتطورين بقية من بقايا الرجعية والجمود والبعد عن الحياة ؛ كما أن الفتاة صارت عليمة بحسب الشاب ومفاته لأنه لحقها أو سبقها في كشف العورات والتجرد من الثياب ، وصار ذلك العرى الفاضح أمراً شائعاً ذائعاً في المصايف وما شابهها ، وبعد أن كان التقاة المحافظون بالأمس يعترضون على سفور وجه المرأة وينتظرون من ورائه شروراً ، مع أن بعض الفقهاء قد أباحه ، أصبحنا لا نجد من يعترض على تجرد الرجال والنساء من ثياب الحس وثياب الحياء على الشاطئ* ، وأصبح من المألوف أن تقام على الشواطئ* مواخير فيها من الإثم والفجور والتحلل وشيطانية المنكر ما لا سبيل إلى تصويره أو إحصائه . وكأنما أحس القوم المتجردون هناك أن ما وصلوا إليه لا يكفي في عالم التجديد والتطور ، فأرادوا أن يجددوا أو يتقدموا ، لكي يفعلوا ذلك لابد لهم أن يقوضوا من الدين والأخلاق ويهدموا ؛ فهناك في أحد شواطئنا حيث يختلط الجاهل بالنابل ، وتمتزج الذئاب بالشباب ، وتصطدم أجسام الفتيات العاريات الفاتنات بأجسام الفتيان العراة الغاوين ، أجرى انتخاب الملك « جمال الشاطئ* » ، وقد قام بعملية الانتخاب - كما نشرت بعض الصحف - مجموعة من الفتيات المصريات المحسوبات على مصر العربية الإسلامية ، فجعلن يسرن وراء الشبان هنسا وهناك ويتبعن حركاتهم وسكناتهم ، وهيئات وقوفهم وجلوسهم ، ويدرسن أجسامهم وأحجامهم ، وألوانهم وأوزانهم ، ومقدار فنتهم ومبلغ روعتهم ، حتى انتهت الفتيات - بعد دراسة وتتبّع ، وبعد جولات ونظرات ومقارنات ، وبعد وقت حرص على أن يمتد ويطول - إلى اختيار شاب جميل عملاق قوى أسمر ، وانتخبوه ملكاً لجمال الشاطئ* !! .. وأحاطت الفتيات بالشاب في حرص ونهم ، وجعلن يسألنه عن الحب وعن يحب وعن السمار والبياض !!

يحدث هذا - يا ناس ، يا عالم ، يا بني آدم - في بلد عربي مسلم ، ينص

دستوره على أن احترام الآداب الاجتماعية العامة واجب على المصريين ، وتنشره صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، ويقرأه ولاية ورعايا ، وآباء وأمهات ومربون ومربيات ، وكأنه شئ* مألوف لا يستحق الالتفات أو التعليق ؛ ويحدث هذا في الوقت الذى ينشغل فيه العالم بالصاروخ الروسى والصاروخ الأمريكى ، وبالأساطيل المختلفة فى البحر والجو ، وبالضحايا فى الجزائر والمهازل الاستعمارية فى عمان ، وبلقمة العيش التى تبلبل الخواطر وتسيل عرق الحياة !! ..

ويكتب فى نقد هذه المهزلة دكتور كبير ، درس فى مصر وفى الخارج ، وألحد زمناً كما أعترف ، ثم عاد إلى رحاب الدين والإيمان ، وذاق حلو الحياة ومرها ، واختلط بأوساط الرجال وأوساط النساء ، وعرف الطبقة المترفة التى يسمونها « الهاى لايف » والطبقة الكادحة التى يسمونها « الراييش لايف » . . .

وقد وصف الدكتور هذه المهزلة بأنها وجودية حمقاء وعبث فاجر ، ذكر أنه لا يكاد يصدق أن هذا قد حدث فى بلدنا فقال : « لا أصدق أن تصاب الأنوثة الكريمة بتلك المحنة القاسية ، لتضع نفسها موضع المقدرين لجمال قى مفتون بحمرته أو سمرته ، أو بعرضه وطوله » . . يقول هذا دكتور مثقف مدنى مطربش فيلسوف ، درس فى الشرق والغرب ، وشك وألحد ، ثم أيقن وآمن ، ولو قال هذا رجل معمم من رجال الدين لقال له المجرمون المتحللون هذه رجعية ، هذا جمود ؛ أتريدون العودة بنا وبالمرأة إلى ظلمات القرون الوسطى يا بقايا الماضى البغيض ؟! ..

ويعلم الله ويعلم الحق ويعلم العقلاء فى كل جيل أن الدعوة إلى الحشمة والعفة والحياء وستر عورات النساء ليست رجعية ولا جموداً ، وإنما هى شريعة الله الذى يحب التوابين ويحب المتطهرين ، « صبغة الله ، ومن أحسن

من الله صبيغة ؟ ونحن له عابدون » . . وإذا طأوعنا هؤلاء على ضلالتهم فإذا نصنع في أمر الجليل سبحانه : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيماً » ؟ . . وماذا نصنع في قوله جل جلاله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن إن الله خير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن . . . » ؟ . . وماذا نصنع فيما ينسبه الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه سأل ابنته فاطمة : أى شئ خير للمرأة ؟ فأجابت : ألا ترى رجلاً وألاً يراها رجل ؟ . . وماذا نصنع فيما يرويه الرواة من أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق (تشف عن بعض جسمها) فأعرض عنها وقال لها : يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا (وأشار إلى وجهه وكفه صلى الله عليه وسلم) ؟ ! . .

أتريدون الحق أيها الناس ؟ . . إنه لا يشجع المرأة على هذا العرى وذلك الفجور إلا رجل فاجر يريد أن يجد الطرق إلى شهواته وملذاته سهلة ميسرة ، أو رجل مخنث لا يحس بغيرة ، ولا يقيم للعرض وزناً ، وإذا صار الرجل مخنثاً والعياذ بالله — لم يضره أن يعيث الناس في حرمانه . . . وهؤلاء المتحللون لم يكفهم أن يحبز الإسلام للمرأة أن تتعلم ، وأن تتاجر ، وأن تمتلك ، وأن تخرج عند الحاجة ، وأن تكشف وجهها وكفيها إذا لم توجد الفتنة ، بل حرصوا على تجريد المرأة من مقومات الحصانة والعفة والحياء ، فحرضوها على هذه المناكر والمساخر ، وشجعوها على هذا التحلل والتجرد ، وسلخواها من ثياب الصيانة والفضيلة كما يسلخ الجزار جلد الحيوان ، ولم لا يفعلون وقد أخذوا يبشرون في الأودية العربية المسلمة بالوجودية التي تقول للانسان : اعمل ما شئت . ولا تنجل من إيتان ما تحب مهما كان ، ولا تحتكم إلى

العقائد أو التقاليد أو العادات ؛ بل احتكم إلى صوت نفسك وعقلك . . .
ومعنى هذا أن من أراد أن يكون سكيراً فليفعل ، ومن أراد أن يتحلل من
الدين والأخلاق فليفعل ، ومن أراد أن يكون متفسخ الرجولية فليفعل ،
ومن أراد أن يكون ديوناً فليفعل ! ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . اذكروا أن فرنسا كان لها
في الحرب العالمية الأخيرة جيش في البر ، وأسطول في البحر ، وأسطول في
الهواء ، وكان لها حصن « ماجينو » الجبار ، ولكنها ركعت أمام الغازي ،
وذلت أمام الفاتح خازية مستخرية ، لأنه لم تكن هناك أخلاق تثبت الأقدام
ولا أعراض مصونة تحرض على المقاومة ، ولا عقيدة تدعو إلى الشهادة . .
واذكروا أن ربكم قد أنلر - ولا يزال إنذاره قائماً - فقال : « وإذا أردنا
أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول : فدمرناها تدميراً »
فليحرس الآباء أبناءهم وليأخذوهم من أول الطريق بالتأديب والتهديب ،
وتعويدهم الحشمة والصيانة والحياء . ويربوهم على الدين والأخلاق والتعفف
ولتصن الأمهات بناتهن ، وليطبعن على الفضيلة والعفة والتصون والحياء :
ربوا البنات على الفضيلة . . . ، فليس لنا أمام هذا الطوفان إلا أن نتواصى
بالتقوى والابتعاد ما استطعنا عن مواطن الفساد : وليذكر ولادة الأمور
أن تبعثهم في هذا الميدان كبيرة ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .
واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

وقاحة التحلل^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو المنتقم الجبار ، العزيز القهار : « إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » . أشهد ألا إله إلا الله ، يهذب بالجزاء والحساب ، ويؤدب بالعقاب والعذاب : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان أولى الأولياء لمن استمسك بالهدى والرشاد ، وكان أعدى الأعداء لمن ركب متن الغواية والفساد ؛ فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا أدري والله كيف أتحدث إليكم ، أو أتكلم معكم . . . إنه ليضيق صدري ولا ينطلق لساني ، فقد طفح الكيل ، وزاد الويل ، واشتد الميل ، وقد ضاع الحق الغريب ، وتبجح الباطل الفاجر ، واستطال أهل الفاحشة بآثامهم ، وتفرعنوا بإجرامهم ، وغشيتنا فتن متلاحقة كقطع الليل المظلم ، يتبع بعضها بعضاً ، واقترب منا وعيد الله الشديد الذي يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . والذي يقول : « يوم نبطش البطشة الكبرى ، إنا منتقمون » .

كنا بالأمس القريب نضج من الصور العارية التي تباع في الشوارع ، ومن عرض أجسام النساء أمام الشباب في بعض المدارس باسم الفن الرقيق ، ومن رقص الطالبات في الحفلات هنا وهناك ؛ ولكن الأمر لم يقف عند

القيت في يوم الجمعة ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٠ يناير سنة ١٩٥٨ م .

هذا البلاء ، بل زاد وازداد ، واتسع الخرق على الراقع . فهذه مجلة أسبوعية مشهورة^(١) تصدر عدداً ممتازاً من أعدادها ، وتوزعه في كل مكان ، فتقرأه النساء والرجال والصغار والكبار ، والطلاب والطالبات ، والمسلمون وغير المسلمين ، وأغلب ما في هذا العدد دعوات للانحلال الخلقي والتحلل من الفضيلة والتعري من التماسك الديني ، ولكن الذي لم يكن يخطر على بال أن تخصص المجلة صفحتين كاملتين من صفحاتها الطويلة العريضة لموضوع جعلت عنوانه : « ملكات الإغراء وتجربة الزواج من أربعة رجال في وقت واحد » ، وطرزت المجلة هاتين الصفحتين بما يزيد عن عشر صور لنساء فانتات ساحرات ، كلهن إغراء بالفسق والفاحشة ، وتحت العنوان السابق ذكرت المجلة أن طائفة من الممثلات في مصر وفي الخارج قد سئلن هذا السؤال : هل توافقين على زواج المرأة بأكثر من رجل واحد ؟ . . ثم ذكرت المجلة أن ممثلات الخارج يختلفن ، فهن من أيدت الفكرة ومنهن من عارضتها ، وأما في مصر — البلد الإسلامي ، بلد الأزهر — فقد قالت إحدى النساء : إنني أوافق على زواج المرأة برجلين وثلاثة وأربعة رجال في وقت واحد ، ولو على سبيل التجربة ! . وقالت ثانية : أعتقد أن كل امرأة يجب أن تتزوج من ثلاثة رجال على الأقل ، ولما استقبلت إحدى الممثلات هذه الجريمة الوقحة وذكرت أن الأديان جميعاً تحرم هذا ، والدوق نفسه يحرم هذا ، لم تركها المجلة ، لأن رأيها لم يعجبها ، فوصفت هذه الممثلة بوصف يسيئها ويؤلمها ! . . وأعجب العجب أن ممثلة أجنبية يشيعون عنها أنها ابنة غير شرعية قد قالت : أنا شخصياً أترك هذه المسألة لرجال الدين لأنها من اختصاصهم ! . . ! .

أسمعتم ووعيتم ؟ . . أهذا تصرف الإنسان أم تصرف الحيوان ؟ . أهذا ارتفاع بمستوى البشرية أم نزول بها إلى درك الكلاب والتيوس ؟ . أهذه

(١) مجلة آخر ساعة العدد ١٢١١ ، بتاريخ ١٩٥٨ م ص ١٨ ، ١٩ .

مدنية أم دعارة وفجور ؟ . أهذه حرية رأى أم تحريض على الرذائل والفواحش ؟ . . إن الأمر خطر مما تظنون ومما تحسبون ، وإن عواقب هذا الموضوع لا تقف عند نشره وإذاعته بالصورة الفاضحة التي أذيع بها . . . إن القوم على درجة كبيرة من الذكاء ، فهم يجعلون هذا الموضوع أشبه « بالطعم » الذي تلقينه للأسماك حتى تتجمع حوله وتتناول منه ، وهم يجعلون ما نشره أشبه بطرقة على باب مغلق مسيود ، ثم يوالون الطرقات أثناء الفرص والغفلات ، حتى ينفتح الباب أو ينكسر ، ثم يكون من بعد ذلك ما يكون مما يريدون وينتظرون . . . فهم يبدأون في الموضوع على أنه مجرد سؤال من حقك أن تجيب عليه بلا أو نعم ، وهم يقدمون أثناء ذلك رجلاً ويؤخرون أخرى ، ثم يتسللون بعد ذلك ويتابعون الخطوات ، ويتوسعون في الدعوة للرذيلة والفحش والفسق ، وبعد مرحلة التساؤل ، تأتي مرحلة البحث ، فمرحلة الاستنتاج والتقوير ، فمرحلة الحكم والفصل في الموضوع ، ولا يبعد أن يتقدم متقدم مخبول بعد حين من الزمن — باقتراح لاستصدار تشريع يبيح تعدد الأزواج الرجال للمرأة الواحدة ! ! .

وبعد هذا قد تسأل الشاب : ابن من أنت ؟ . فيجيبك قائلاً : أنا إبراهيم ابن محمد وعلى و خليل وإسماعيل ! . . . أى أنه في هذه الحال سيكون ابناً لأربعة رجال ! ! . . فحدثوني بربكم : أى رجل عنده شرف يقبل أن يكون شريكاً لرجل آخر في زوجة له ؟ . . أو يكون شريكاً لآخر ، في ولد ينسب إليهما ؟ . . وأى ولد يقبل أن يقال عنه إن له أكثر من أب واحد ؟ ! .

إن الحيوانات نفسها تغار على إناثها وتقاتل من أجلها ، وتغار على أبنائها وتحتضنها وتدافع عنها ، فهل يراد للانسانية العاقلة الشريفة النظيفة الطاهرة أن تكون أخس شأناً من هذه الحيوانات ؟ . . وماذا وراء هذا التحطيم لدين المسلمين وأخلاق المسلمين وحرمات المسلمين وإشاعة الفواحش في مجتمع

المسلمين ؟ . ما المراد من هذا التبجح الذى يحض على الدعارة وتجارة الرقيق ، ويعيد دعوة مفضوحة لعودة البغاء ؟ . . أليس هذا فساداً للمجتمع وتحريضاً على الإثم وإخلالاً بعقائد الناس وإخلالاً بالآداب العامة ؟ ألا يستحق هذا الفجور حساباً وعقاباً ؟ . . لقد أصبح المسلم يخاف على نفسه وعلى زوجته وبناته ، وقريباته ، وأصبح يدفع البلاء عن بيته وحماه دفعاً ، وأصبح يحاول الابتعاد عن نار الإجرام بكل ما استطاع ، وليته يستطيع ! . . فهل من معين ؟ .

يا ولاية الأمور ، يا رئيس مجلس الأمة ، يا وزير الإرشاد ، يا وزير التربية ، يا وزير الشؤون ، يا وزير الأوقاف ، يا شيخ الأزهر ، يا علماء البلد ، المدد المدد ! . . الحقونا يا ناس ، اتقوا الله فينا . . . اتقوا الله فى نساتنا وبناتنا وأولادنا . . . أعينونا بقوة ، وصونوا لنا ديننا وأخلاقنا وحرمان بيوتنا وأعراض نساتنا ومستقبل أبنائنا ، وأحونا من هذا الفجور السافر الذى يلاحقنا فى كل مكان ، وبكل لسان ، وبشتى الألوان ، باسم الحرية ، وباسم المدنية ، وباسم الحضارة ، وباسم التجديد ، واذكروا معنا قول الحق جل جلاله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون » ! ؟ . . .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الصحف مشغولة بالسياسة وما اتصل بها ، إن المجلات مشغولة بالصورة العارية والقصص الماجنة وفصائح البيوت والعائلات ، وليس لصوت الإسلام من منبر أو مجال إلا فى رحاب المسجد ، وها قد عرفتم ما يراد بأخلاقكم وحرمانكم ، فاحذروا ثم أحذروا ، وخذلوا الطريق على هذا الطوفان الخبيث بكل ما استطعتم ، فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم مؤمنون .

خذوا الطريق على الرذيلة^(١)

الحمد لله عز وجل ، يحصى القليل والكثير ، ويحاسب على الفتيل والقطمير ، « وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار »
وأشهد أن لا إله إلا الله ، لا ثواب كثوابه ، ولا عقاب كعقابه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جله ربه بالحياء والإيمان ، وزانه بالتقوى ومكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين من آله ، والمهتدين من صحابته ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

طالعنا الصحف أخيراً بأنباء أذاعتها أكبر شركات الأخبار فى العالم ، تشير إلى تحقيقات تجرى فى « إنجلترا » بسبب انتشار الرذيلة فيها ، وشيوع الانحراف الجنسى فى نواحيها ، وتخبرنا بأن كثيراً من الفتيات والمرضات ينتشرن فى « لندن » عاصمة إنجلترا ليقترفن فاحشة الزنى ، وأن أغلب النساء قد وقعتن فى هذه الرذيلة . . . يحدث هذا فى « إنجلترا » المتعلمة المثقفة المتحضرة ، ذات الجامعات والمعاهد ، التى يختلط فيها الرجال بالنساء ، التى تقول إن تثقيف الجنسين واختلاطهما أثناء التعليم وأثناء العمل مما يؤدى إلى تهذيب الغرائز وتلطيف المشاعر ، ويقضى على الشهوات الجنسية والرغبات الجسدية وها قد تثقفت إنجلترا ما تثقفت ، وتعلمت ما تعلمت ،

القيت فى يوم لجمعة ٣٠ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

وأخذت بنظام الاختلاط ما أخذت ، ومع ذلك انتشرت فيها الرذيلة ، وضجت بالشكوى من ذبوع الفاحشة بين نساءها ورجالها — وتألفت اللجان لبحث المشكلة ، وجرت التحقيقات والبحث هنا وهناك ، والناس الآن في انتظار النتيجة التي سيصل إليها هؤلاء من وراء ذلك التحقيق . . .

ولو استقام تفكير هؤلاء وشعورهم لوصلوا إلى النتيجة القديمة الباقية الدائمة وهي أن الرجل رجل والمرأة امرأة ، وأنهما قطبان يتجاذبان حين يقتربان ، وما بالذات لا يتخلف كما يقول العلماء ، وقد أكدت الطبائع وقررت الشرائع أن شهوة الجنس والفرج هي أغلب الشهوات على الإنسان ، وأطفاها على سلطان العقل حينما ينحرف طريقها ، أو حينما تهيج وتثور ، ولذلك نفر الدين من دواعيها ومثيراتها ومهيجاتها كالنظر الدائم والعارم والاختلاط الواسع ، والتبرج الفاحش ، والخلوة ، وكشف العورة ، وما إلى ذلك ، وقد أشار الرسول نفسه — في الحديث المتفق عليه — إلى خطر هذه الناحية فقال : « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء » .

والخير للعقول والألباب هو أننا نسمع هذا من قديم ونفهمه المرة بعد المرة ثم نخالفه في أعمالنا وتصرفاتنا ، فهذه صحفنا تطالعنا بهذا العنوان الطويل : « لاعتقوبة إذا لف شاب ذراعه حول فتاة وسار معها في الطريق العام » ! . وجاء تحت هذا العنوان أن العمل المذكور لم يعتبر جريمة لأن « الجمهور اعتاد مشاهدة هذه المناظر ، وأصبحت مألوفا لديه ، وليس فيها ما يندش الحياء » ! . يا عجباً كل العجب ، إنهم يتحدثون عن الحياء ! . الحياء عليه رحمة الله ، ورحمة الله رحمة واسعة ، وأين هو الحياء في دنيا الناس اليوم يا بني آدم ؟ . . . لقد صار الحياء بضاعة قديمة كاسدة من مخلفات الآباء والأجداد ، وصار الناس يستحون من الحياء ، ويخجلون من كلمة الحياء ، ويلومون من كان عنده حياء ، ويعيبون من يدعو إلى الحياء وأصبح الشخص

المتهمدين يغضب ويحتج إذا وصفه آخر بأنه ذو حياء ، وما دام الحياء قد ذهب وودع فسيرتكب الأشرار كل رذيلة وكل موبقة وهم آمنون أن سيئاتهم لن تخدش الحياء ولن تخل بالحياء ، لأنه غير موجود ، وقد قال سيد الوجود محمد صلوات الله عليه : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! . . أى أنه إذا لم يكن في الشخص حياء رادع وازع فإنه يقدم على كل فاحشة ويأتى كل مصيبة بلا تردد ، لأنه كما يقول الناس قد خلع برقع الحياء . . .

ولو كان في الناس حياء من حياء الإسلام والمسلمين لتحرزوا من القبائح والمنكرات ولتباعدوا عن حماها ، ولغضبوا حين يرون منكراً ولو كان فاعله ممن لا يستحون ولا يخجلون ، لأن الحياة الطيبة الطاهرة ليست ملكاً للأفراد وحدهم ، بل هي من حق المجتمع الإسلامى القويم ، عليه أن يحرسها ويصونها ويلذود عنها ولأن كل فرد في هذا المجتمع الإسلامى الكريم مأمور بأن يكون صاحب حياء ، لأن الحياء شطر الإيمان ، وبأن يكون حياؤه من النوع القائم على النفس بالمحاسبة والمراقبة ، العاصم للشخص من أن يرتفع كما ترتفع السائمة في الشموات والملاذات ! ! . . وهذا رسول الله يقول لصحابته : استحيوا من الله حق الحياء . قالوا يا رسول الله ، إنا نستحي والحمد لله ، قال : ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى (كالسمع والبصر واللسان) ، والبطن وما حوى (كالطعام والفرج) ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » ! . . ولقد كان رسول الله أشد الناس حياء . وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد . . .

وهم يقولون إن تطويق شاب لفتاة في الطريق العام ليس فيه جريمة ،

لأنه صار من المناظر المألوفة عند الناس . . . وليت شعري : عند من صار هذا مألوفاً ؟ ! ! أعند المسلمين المتقين العقلاء أم عند المتحللين المتفسخين الرقعاء ؟ . . وليت شعري . . . من هذا المسلم الذى يقبل لنفسه أن يفعل هذا فى وسط إسلامى له كرامة ؟ . . أيقبل مسلم عنده بقية من دين أو حياء أن يطوق أمه أو أخته أو زوجته أو بنته على أنظار الناس ويسير بها فى الطريق العام ؟ . . إنما يفعل ذلك شخص لا يراعى شعور الناس ولا يحرص على كرامة الفتاة التى معه ، وهى فى الغالب إما خليلة أو رفيقة ! . . وهل ألفه الشئ القدر أو المنكر تعتبر من أسباب إباحته والسكوت عليه أيها الناس ؟ . . هل نبيح النفاق مثلاً لأنه صار مألوفاً ؟ . . هل نبيح السرقة بمختلف أساليبها لأنها صارت مألوفاً ؟ . . هل نبيح شرب الخمر لأنه صار مألوفاً ؟ . . هل نبيح الخيانة الزوجية لأنها صارت مألوفاً ؟ . . أفتونى أيها الناس فقد ضاعت معالم الطريق ! .

ألم يأتكم أن هذا العذر الغريب كان حجة الضالين من القدماء فى تفحشهم وإتيانهم السيئات ؟ . . يقول القرآن : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا . . . والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » فهم قد احتجوا على جواز الفاحشة بأنها كانت معروفة مألوفاً لآبائهم وافتروا على الله فادعوا أنه أمرهم بها ، وهذا كذاب صراح ، ولذلك رد عليهم فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . . » ثم نرى الله يقول فى الآية التالية : « قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تهودون » .

والقرآن يشتد فى الإنكار على الذين يتابعون سابقهم فى العادات المنكرة والتقاليد الأثيمة ، فيقول : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير وإلا قال مترفها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قل

أو لو جثتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنما أرسلم به كفرون .
ويقول : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .
أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ . والإسلام يحارب الفاحشة
في أى مكان وبأى لون ، والفاحشة هى كل شئ^{*} جاوز قدره ، ولا تكون
إلا فى القبيح ، وقيل إن الفاحشة هى كل ما ينفر منه الطبع السليم ويستنكره
العقل السليم ، وقد حمل القرآن الكريم حملة قوية على الفاحشة والفحشاء فى
عدة مواضع منه ، وحسبنا قوله : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها
وما بطن » وقوله : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .
وقوله : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء .

وقصة هذا الفتى الذى طوق الفتاة بذراعه تذكرنا بقصة قريبة العهد ،
موضوعها أن بعض الشبان تعرضوا لفتاة فى الطريق العام بألفاظ قلرة
وعبارات جارحة ، ولما عرضت القضية قيل إنه لا جريمة هناك ولا عقوبة .
أتدرون لماذا ؟ . . لأن الفتاة لم تشتك ولم تطالب بالعقوبة ، مع أنها لم تشتك
فى الغالب خوفاً على سمعتها ، أو تخلصاً من متاعب الشكوى والتحقيق
والمقاضاة . . . والحمد لله فقد تدارك رئيس النيابة الأمر ، وعارض فى
نتيجة القضية ، قائلاً إن مكافحة الجريمة من واجبات المجتمع لا من واجبات
الأفراد ، وفى الحديث : « إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها ، وإذا
ظهرت فلم تغير ضرت العامة » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذكروا أن بعض الباحثين الأمريكيين يقررون أخيراً نسبة الإقبال على
الزواج فى أمريكا قد انخفضت بشكل مخيف ، لأن الرجل أصبح غير مرتاح
إلى هذه الحرية الواسعة التى تمرح فيها المرأة ، ولأنه يستطيع قضاء لذته عن

طريق غير طريق الزواج بسهولة ، وأذكروا أن أحد الذين اشتركوا مع قاسم أمين في دعوته كتب يلعن كل امرأة متبرجة تجشم ولا تتفرغ لبيت الزوجية ولتربية أطفالها ، ويقول إن قاسم أمين لو عاد ورأى هذا التبرج لنادى بالعودة إلى الحجاب ، واذكروا أن أخلاقنا وأخلاق أبنائنا ودعائم مجتمعنا مهددة بالويل والثبور إذا لم تأخذ الأيدي القادرة على هذه الفواحش طريقها ، وإذا لم يحاول كل منا قدر استطاعته ألا يكون شريكاً في إشاعة الفحشاء بين المسلمين : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

عقوبة الإعدام^(١)

الحمد لله عز وجل ، وهو بديع السموات والأرض ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حد الحسدود وأوضح المعالم « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أفضل من عبد خالقه والتزم طريقه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بفعاله ومقاله : « وإن للمعتقين لحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد ابتلى مجتمعنا بطائفة من المتحللين الذين لا يغارون على دين ، ولا ينطوون على عقيدة ، وقد جعلوا كل همهم أن يبشوا التحلل والتخلص من التعاليم الدينية والقيم والروحانية والأحكام الإلهية ، وقد نظم هؤلاء أخيراً ما يشبه الهجوم العام ضد تعاليم الإسلام ومبادئ الشريعة ، فهذا فريق منهم يدعو إلى الخروج على ما أمر الله فيما يتعلق بشئون الأسرة المسامة من زواج وطلاق وحضانة وقوامة للرجل على المرأة ، وهذا فريق ثان يبتث الشكوك والإلحادية والريب المصطنعة في المعتقدات الدينية ، وهذا فريق ثالث ينشر مفتريات الشيوعيين ضد العقيدة والدين من غير أن يفندوها أو يرد عليها ، متظاهراً بأنه غير راض عنها ، وهو في الواقع يسبب العصف بإيمان القراء عن طريق النشر الواسع لهذه المفتريات . . . ثم هذا فريق آخر أيضاً ينظم حملة لاحتطالة بإلغاء عقوبة الإعدام ، مع جريان البشرية الرشيدة منذ بدايتها على المماثلة في العقاب ، وكما تدين تدان . . .

أقيمت في يوم الجمعة ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١١ من ديسمبر سنة ١٩٥٩ م .

ويلوح أن هؤلاء لا يعارضون عقوبة الإعدام لأنهم أرحم من سواهم ، أو لأنهم مؤمنون في سرائرهم بما يقولون ، بل لعلهم يعارضونها لأنها تربطنا بنظام من نظم الدين ، وحكم من أحكامه ، وهم يريدون أن يتحللوا من القيود والحدود ، لكي ينطلقوا على وجوههم كما يشاءون . . .

يقولون مثلاً إن عقوبة الإعدام عقوبة قاسية مؤلمة ، لأنها لإزهاق للروح الإنسانية وقضاء عليها ؛ فلماذا لا يتذكر هؤلاء تلك القسوة البالغة التي قساها القاتل حين أزهاق حياة المقتول « عمداً مع سبق الإصرار » ؟ . ولماذا لا يتذكرون الفرق الواسع بين الحالتين ففي عقوبة الإعدام للقاتل جزاء معه عذره القوى الناهض ، لأنها عقوبة تأديب وزجر ، ولكن قسوة القاتل على المقتول ليس معها مبرر محترم . فكيف يقال للجزاء العادل إنه قسوة ، ولا يقال للاعتداء الآثم إنه طغيان يستحق صارم العقاب ؟ . . . والقاتل حين أقدم على جريمته . ولو ث يديه بدم النفس الزكية المعصومة التي أزهاقها قد حكم على نفسه بهدر دمه وضبايع حرمة . فلما ذا نحاول أن نسترجع عصمة زاهقة لشخص سفاح عاث في الأرض فساداً ، وارتكب الجريمة التي عدها الله كأنها قتل للناس جميعاً ، فقال : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » ، فإذا أراد القاتل من المجتمع أن يكون به رحيماً ، فذلك في الواقع ليس في يد المجتمع بقدر ما هو في يد ذلك المجرم ، فليرحم القاتل غيره ، قبل أن يطالب غيره برحمته . . .

ويقول هؤلاء فيما يقولون : كيف نعدم القاتل وإعدامه على حرمة الشخصية وحياته الخاصة المملوكة له ؟ . . . وهذا ضلال في القول وإفك مبين . فحياة الإنسان ليست ملكاً خاصاً له ، بل هي ملك لله الذي أبدعها وبرأها وأحياها ، فله كل ما في السموات والأرض ، والحياة البشرية ودبعة عند الإنسان لا يملك هو ولا غيره من الناس أن يتصرف فيها ، ولذلك يقول

الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه » . . والله سبحانه واهب الحياة ومبدعها هو الذى شرع القصاص ، وأمر تقبل القاتل ، فقال جل جلاله فى محكم تنزيله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » وقال أيضاً : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً (أى حقاً فى القصاص) فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » ، وواهب الحياة ومبدعها هو الذى يحكم بسلبها واستردادها من صاحبها حين يعتدى على حياة شخص آخر عصم الله دمه وصان حياته ، والإسلام العظيم قد غنى عني عناية كبيرة بصيانة الدماء والتحذير من الاعتداء عليها بقصد إزهاق النفوس والأرواح : فقال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » وقال الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقال : « لا يزال العبد فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » وقال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » .

كما أن المجتمع والدولة لها حق فى حياة المواطن ، ولذلك يؤخذ المجتمع الشخص الذى يحاول إزهاق حياته بالانتحار ، والدولة فى أوقات الحروب تدفع بالمواطن إلى أداء واجبه فى الميدان ولو أدى ذلك إلى موته فى المعركة ، ولا يستطيع الفرد أن يمتنع عن أداء هذا الواجب ولو رأى الموت بعينه ، وهذه هى الدول شرقاً وغرباً تحكم بالإعدام على من تثبت خيانتته العظمى للوطن ، فإذا يكون مصير هؤلاء الخونة الآثمين إذا أخذنا برأى هؤلاء فألغينا عقوبة الإعدام من القانون ؟ . .

ويعترض هؤلاء أيضاً على عقوبة الإعدام بأنها عقوبة إذا نفذناها لم نستطع تغييرها إذا ثبت لنا بعد تنفيذها أنها كانت خطأ ، ويجاب عن ذلك بأن الشارع حينما شرع عقوبة القصاص فى النفس قد حاطها بكل الحوافظ الداخلة فى طاقة البشر ، لتكون الأدلة متوافرة على استحقاق الشخص للقتل (م ٥ - خطب ج ٢)

قصاصاً ، بحيث لا توجد شبهة في الموضوع ، فإذا وجدت هذه الشبهة انتقل الأمر من الإعدام إلى ما يليه من عقوبة ، والرسول صلوات الله عليه يقول : « ادروا الحدود بالشبهات » ويقول أيضاً : « ادفعوا الحدود عن عباد الله ما وجدتم لها مدفعاً ، ويقول خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : « ادروا الحدود ما استطعتم في كل شبهة ، فإن الوالى إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة » .

ولنفرض أننا ألغينا عقوبة الإعدام أيها الناس . . . ألا يؤدي ذلك إلى اجترأ الكثيرين جداً على ارتكاب جريمة القتل ما داموا يعلمون أن حبل المشنقة قد تقطع ، وليس في انتظارهم هناك ، . . . ألا يؤدي ذلك أيضاً إلى مضاعفة حوادث الأخذ بالثأر ، وهى تلك الحوادث المرعبة المفجعة التى تهدم الأسر وتخرّب البيوت ، وتنشر الأهوال والكوارث ؟ . . وإذا كنا نقاسى الأمرين من حوادث الأخذ بالثأر مع وجود عقوبة الإعدام للقاتل فما يكون المصير والحال لو ألغينا هذه العقوبة ؟ . . ألا يكون ذلك تحريضاً على الإكثار من تلك الفواجع الأليمة ؟ . .

ومن الغريب أن هناك أمماً غريبة يقلدها هؤلاء ويتابعونها كحذو الفعل بالفعل ، ومع ذلك نجد هذه الأمم قد قررت إلغاء عقوبة الإعدام فيما مضى ، ثم استبان لها بالتجربة الدامغة أن وجودها لازم فاعادتها كما كانت ، فهذه إيطاليا مثلاً ألغت عقوبة الإعدام سنة ١٨٨٩ ، ثم عادت إليها سنة ١٩٢٦ فى الجرائم السياسية ، ثم عادت إليها سنة ١٩٣٠ فى جرائم القتل الداعية للتشديد فى العقوبة . . . ومن الدول التى ألغت هذه العقوبة وعادت إليها ألمانيا والنمسا وأسبانيا ، فهل عرف هؤلاء المقلدون تلك الحقائق ؟ ولماذا

لا يقلدون هنا ؟ ... ألئن الإسلام الخنيف قد جعل قتل القاتل حكماً من أحكامه ؟ ألئن القرآن المجيد يقرر شرعة القصاص في محكم آياته ... « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ! » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن للايمان غربة في زحمة الإلحاد ، وإن للحق غيبة في ظلام الباطل ، ومن واجب الأنصار الذين ظلوا أوفياء لدينهم وربهم أن يتعرفوا طريقهم في الحياة ، وأن يبشروا بكلمة الهداية بين أهل الضلال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

العقوبة اختصاص الدولة

الحمد لله عز وجل ، جعل العقوبة للمتقين ، وكتب المدة للفاسقين :
« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد
خاب من دساها » . أشهد أن لا إله إلا الله ، رسم المعالم للإنسان ، ويسر
أمامه طريق الإيمان : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . وأشهد
أن سيدنا محمداً رسول الله ، حكم فعدل ، وأدب فقوم ، فصلوات الله
وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وأتباعه وجماعته ، « ومن يعتصم
بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أقبل الإسلام يحمل لواء الدعوة إلى الوحدة البشرية والأخوة
الإنسانية ، والتواصل بين الناس بالأرحام المشتركة بين بنى آدم ، فهم من
أب واحد وأم واحدة ، يقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ،
واتقوا الله الذى تساءلون به الأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » ، فإذا
انضم إلى هذه الأخوة الإنسانية أخوة فى العقيدة أو الوطن قويت الروابط
بين الأفراد وتوثقت ، واستوجبت مزيداً من العناية والرعاية ، ووجب على
الفرد الذى يحمل بين جنبيه نفساً بشرية أن يصون النفس البشرية التى تماثلها ،
فلا يعتدى عليها ليرهتها أو يزهد بها ، لأن الإنسان بناء الله فلا يمسه سواه ،
بغير حق ولذلك كان للنفس البشرية حرمتها ومكانتها فى الإسلام بسبب ما فيها
من معنى الإنسانية الذى كرمه الله وشرفه ، وما يرمز إلى ذلك أن جنازة

لرجل غير مسلم مرت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جالساً فنهض لها ، فقال له الصحابة إن الميت غير مسلم ، فأجابهم النبي قائلاً: أليست نفساً ؟ ! . .

والمشاهد أن كل أمة تتكون من أفراد كثيرين ، تتعدد منازلهم ومشاربهم وتختلف أهواؤهم ومطالبهم ، وتكثر خصوماتهم على شئون الحياة ، فلو تركوا وشأنهم ، لتضاربت آراؤهم ووجهاتهم ، ولصارَت حياتهم معركة تتطاحن فيها الأهواء وتتناثر الأشلاء ، فلا بد لكل أمة من دولة وحكومة ، ولا بد لها من وازع وقانون ، ولا بد لها من ولاية أمر يكونون أصحاب الحل والعقد ، ويكون من هؤلاء الولاية قضاة مختصون يفقهون تطبيق القانون ، ويعينون لكل جريمة عقوبتها بالحق والعدل ويصدرون حكمهم بعد التحرى والبحث والفصل ، ومنهم منفذون مختصون يقومون بتنفيذ هذه الأحكام باسم الأمة . .

ومن طبيعة المجتمع أن تحدث فيه بعض الجرائم ، وهذه الجرائم لا بد من مقاومتها وعقاب أصحابها ، ولكن بيد الدولة المهيمنة على شئون المجتمع المسؤولة عن أمنه واستقراره ، لا بيد الأفراد الذين لا يحسنون فصلاً في قضية ولا يملكون أهلية أو اختصاصاً في توقيع عقوبة ، والإسلام يقرر مثلاً أن القصاص واجب : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، ولكن الذى يتولى إثبات القصاص هو ولى الأمر الحاكم ، وهو الذى ينفذه أو يشرف على تنفيذه بعد التمكن منه ، ولا يجوز لصاحب الثأر أن يأخذ تأره بيده دون إذن الحاكم ، لأن فى هذا فساداً وتخريباً ، ولو أن الإسلام ترك كل فرد يأخذ ما يراه أو يظنه حقاً له - وبخاصة فى الدماء - لكانت هناك الطاعة الكبرى ، ولعادت الجاهلية بفجورها وشرورها ، وطغيانها وبهتانها ، لأن الطرف فى الخصومة لا يستبين الرشد فى خطواته وتصرفاته لو جعل نفسه حاكماً ، ولذلك اشترط الإسلام أن يفصل فى الخصومات من

لا يد له فيها ، واشترط في القاضي صفات وأخلاقاً تجعله بمعزل عن التهم والظنون .

فأولئك الذين يندفعون في حق وجهالة فيعتدون على غيرهم ، لأن خطأ حدث ، أو لأن جريمة وقعت ، و يقيمون من أنفسهم حكماً ومنذرين بغير حق ، أولئك خارجون على النظام ، مخالفون للدين والشرعية ، يعرضون أنفسهم بهمجيتهم لغضب الله والناس ، وصرامة القانون والعقوبة ؛ ومن فرط الجهالة والحماسة أن يندفع متهور أثم إلى الاعتداء على من ظنه خصماً له ، فيقبل أهل المعتدى أو جيرانه ليشاركوا في هذا العدوان بلا تعقل أو تبصر ، كشأن أهل الجاهلية حين كانوا يرددون : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فهم يؤيدون قريبهم ولو كان ظالماً باغياً ، وقد جاء الإسلام فهذب هذا الشعار وأصلح معناه على لسان الرسول حين أفهم المسلم أن ينصر أخاه إذا كان ظالماً بأن يرده عن ظلمه لا أن يعاونه فيه ، ولا شك أن رد الظالم عن ظلمه فيه مناصرة له ، إذ سينجو بذلك من الزلل والعقاب ، وسيبتلى به إلى سواء السبيل .

ويزداد الأمر سوءاً وبلاء وهمجية حين تدفع الثورة الحمقاء ، والغضب المجنون بعض الناس إلى التوسع في الاعتداء حتى يشمل غير الخصم من صحبته أو قرابته ، فبأى دين أم بأية ملة يجوز هذا الطغيان ، والله تعالى يقول : « كل نفس بما كسبت رهينة » ؟ . ولقد روى التاريخ أن زياد بن أبيه طلب أحد خصومه ليعذبه فهرب منه ، فقبض زياد على شقيق ذلك الهارب وسجنه وقال له : لن أطلق سراحك حتى يأتيني أخوك . فقال له الرجل : لو جئت بك كتاب من أمير المؤمنين يأمر بك بإطلاق سراحى ، أكنت تطلق سراحى ، قال زياد : نعم فأنا عبد أمير المؤمنين وخادمه ، قال الرجل : فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحميد ، وهو خير منى ومنك ومن أمير المؤمنين ، وأقيم

لك عليه شاهدين من الأنبياء هما موسى وإبراهيم عليهما السلام . يقول الله تعالى : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . فارتدع زياد وقال : اطلقوا سراحه ، فإنه رجل قد لقنه الله محبته ! . . .

بل لقد طلب الله تبارك وتعالى من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسد الباب على التوسع في الاقتصاص والانتقام ، حتى مع ألد الأعداء ، فقد قتل المشركون حمزة يوم أحد ، وحمزه هو عم الرسول وساعده وسيد الشهداء ، ومثل المشركون بحبته وجثث غيره تمثيلاً شنيعاً ، فقال الرسول وأصحابه : لئن أظفرنا الله بالمشركين لنفعلن بهم ولنفعلن (يريدون التوسع) فنزل قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ثم نهى الإسلام عن التمثيل بجثث الإنسان والحيوان حتى قال الرسول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

وماذا يكون الحال في المجتمع إذا استباح كل إنسان لنفسه أن يأخذ حقه بيده ، ويقتص من المذنب بنفسه ، ويجعل ذاته خصماً وحكماً في آن واحد ؟ . ألا ينقلب المجتمع بهذه القوضى إلى غابة يتهارش فيها أهلها تهارش الذئاب والسباع ، أو إلى محيط تنهش فيه الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة دون عدالة أو إنصاف ؟ . وأين تذهب إذن فائدة القانون ، وهيبة الدولة ، والخضوع لما شرعه الله عز وجل من حدود وقيود ؟ . ألا يؤدي ذلك إلى تعدد جريمة القتل التي كانت أول جريمة على وجه الأرض ، وكانت أبشع جريمة في نظر الدين والقانون والعقل ، واعتبرها الحق تبارك وتعالى جناية على الإنسانية كلها فقال : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما

قتل الناس جميعاً ، ومن أحيائها فكأنما أحييا الناس جميعاً » كما عدها الرسول هدماً لما شيده الله تعالى فقال : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن نبي هذه الأمة يقول : « ليس الشديد بالصرعة (أى القوى الذى يغلب من يصارعه) إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . وكَم من جرائم وكوارث حدثت بسبب الاستجابة لهذا الغضب الأرعن الأحمق ، فلنتعود التعقل والتريث والإنصاف ، ولنحارب فى أنفسنا الإندفاع والطيش والتسرع ، حتى نكون أهلاً للحياة فى مجتمع نظيف منظم ، يعرف كل واحد فيه واجبه فيؤديه ، فى إتقان وإحسان ، وحقه فيطالب به فى حكمة وانتظام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

الخمر أم الخبائث (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « والله يحب المتطهرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى العباد إلى خير الدنيا والآخرة ، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة : « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الصالحين وإمام المصلحين ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى ذريته وآله ، وأصحابه ورجاله ، ومن سار على منهجه ومنواله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أذاعت كبرى شركات الأنبياء خبراً لعل الكثيرين لم يقفوا عنده ولم يحفلوا به ، مع أن له قيمته ودلالته ، وهو أن سكان قرية هندية وضعوا قانوناً للقضاء على الخمر ، وهو يقضى على شارب الخمر بحلق نصف شاربه ، ثم يركبونه حماراً ، ويطوفون به فى أزقة القرية وحواريها ، لإعلان فضيحتة والسخرية به ، ثم يغرمونه خمس عشرة روبية بعد كل هذه الفضيحة (٢) ، ومنذ قليل نشرت جريدة « برافدا » الروسية أن غرامة ستوقع على كل من يضبط مخموراً أو مقامراً (٣) ، ومنذ حين نشرت الصحف أن أكثر من ستين فى المئة من الطيارين الأمريكيين يشكون اضطرابات عصبية بسبب الإفراط فى المسكرات ، والإسراف فى لعب القمار ، وبسبب الانحرافات الجنسية (٤) . . . !

ذكرتنا هذه الأنباء بعلة مستعصية من عللنا ، وهى علة انتشار الخمر

-
- (١) ألفت بمسجد الرفاعى يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٨ م .
 (٢) جريدة الأهرام ٢٨ أغسطس ١٩٥٨ م .
 (٣) جريدة الشعب ٢٨ يولييه ١٩٥٨ م .
 (٤) جريدة الشعب ١١ مايو ١٩٥٨ م .

في بلادنا ، واعتياد الكثيرين من المتحللين والمترفين لتناولها جهراً أو سراً ، وتلطخ الكثير من الحفلات والسهرات في الأفراح والملاهي والأندية الليلية الخبيثة بالخمير على اختلاف الأنواع والألوان ، وهناك مع الأسف من يصرح بأن المخدرات كالخشيش والأفيون هي التي يجب أن تقاوم وتحارب وتبذل في محاربتها الجهود وتجند الجنود ، وأما الخمر فلا خوف منها ولا خطورة فيها ، بل هناك من يقترح محاربة المخدرات بنشر شرب الخمر أو شرب نوع منها ، ومن أعجب العجب أن بعض هؤلاء يفترون على الله الكذب وهم يعلمون فيقولون إن الخمر لم يحرمها القرآن ، مع أن ربكم وخالقكم هو الذي يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تغفلون » .

والخمير أيها الناس — بمختلف أنواعها المسكرة المنهبة للرشد والعقل — حرام حرام ، بنص القرآن والسنة والإجماع ولو لم يحرمها الدين لحرمها العقل ، وإنما حرمها الإسلام لما فيها من أخطار وأضرار ، وقد أراد من وراء تحريمها حفظ الأموال لأنها تتبدد فيها بسعة وجنون ، وحفظ الأجسام لأن الخمر تهديهما وتقوضها وتصيبها بوبيل الأمراض والعلل ، وحفظ العقول لأنها تذهب بها وتسبب لمدمنها الضلال والخيال ، وحفظ الأعراض لأن من سكر انفلت منه القياد فكان حيواناً أو كالحیوان ، ولقد رووا أن عجوزاً من الأعراب جلست إلى فتیان يشربون نبيذاً لهم ، فسقوها قدحاً فطابت نفسها وتبسمت ، ثم سقوها قدحاً ثانياً فاخمر وجهها وضحككت ، فسقوها قدحاً ثالثاً فقالت : خبروني عن نساءكم ، أيشربن من هذا الشراب ؟ قالوا نعم : فقالت : زنين ورب الكعبة ! ..

ومن لؤم الذين يشربون الخمر جهاراً أو من وراء ستار أنهم يخادعون الله وهو خادعهم ، فيوهمون الناس أن الأصناف التي يشربونها اليوم ليست

من الأصناف التي حرمها الإسلام ، لأن الإسلام لم يذكر تحريم « الوسكى والكونياك والشمبانيا » إذ لم تكن هذه الأسماء موجودة ، مع أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن هذا الاحتياك الذي وقع بعد عهده بأجيال فيقول : « ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها » . ثم وضع لنا قاعدة التحريم في هذا الباب فقال في الحديث الصحيح المتفق عليه : « كل شراب أسكر فهو حرام » . ومن لؤمهم كذلك أن يقولوا إن « التبيذ » حلال وقد أباحه بعض الفقهاء ، ولكن التبيذ المذكور في كتب السيرة الإسلامية أيها الناس هو نقيع التمر أو الزبيب الذي لا إسكار فيه ، فهو مثل « الخشاف » المعروف اليوم ، وعن أنس قال : سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هذا الشراب كله : العسل والتبيذ والماء واللبن . فهل يعقل أن يشرب نبي الطاهرين المطهرين شراباً مسكراً أو فيه شبهة إسكار ؟ . ومن لؤمهم أيضاً أنهم يتعللون في شربها بأنها دواء لمرض أو علاج لعل ، وهذا مكر بمكرونة بين الناس فأكثرهم يشربونها للسكر والإدمان ، وعلاء الطب لم يدعوا حالة من حالات المرض يستعمل فيها دواء مسكر إلا أوجدوا لها دواء آخر ليس مسكراً ، ومع هذا فقد سئل الرسول عن التداوى بالخمر فأجاب : إنها داء وليست بدواء ! . . .

ولما كانت الخمر بهذه الدرجة الخطيرة الخسيسة حذر منها الرسول فقال فيما ينسب إليه : « اجتنبوا الخمر ، فإنه والله لا يجتمع والإيمان أبداً إلا يوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . ولا عجب فالخمر أهم الخبائث ومفتاح الشرور وباب البلايا ، ولقد روت بعض كتب السنة أن رجلاً استدرجته امرأة فاجرة ، وغلقت عليه الأبواب ، وكأنها أرهبتة حين خيرته بين أمور ثلاثة : أن يشرب كأساً من خمر كان عندها ، أو يقتل غلاماً كان معها ، أو يزنى بها ، وكأنما أراد الرجل أن يختار في ظنه أخف الأمور ، فشرب من الخمر ،

فلما دارت برأسه زين له الشيطان أن يواقع المرأة فأقدم على ذلك ، وكأنهما خاف من الغلام أو ضاق به فقتله ، فكانت الخمر كما رأيتم سبباً في شر عظيم وبلاء مستطير . ولذلك لا يشرب الخمر إلا من ضل ضلاله وساء حاله ، وكأن هذا سبب في أن السنة النبوية تخبرنا بأن شارب الخمر كان يجلد أربعين ، وكان الجلد بالنعال . . . نعم بالنعال ، لأن المرء الذي أهدر آدميته وأذهب عقله لا يستحق إلا الحداء ، وشتان بين إنسان يحافظ على عقله وكرامته وبين حشرة تأتي إلا إهلاك نفسها وسواها :

إن عادت العقرب عدنا لها بالنعل ، والنعل لها أنسب !

وهناك من يرى أن مقاومة الخمر ومهاجمتها لون من الرجعية والجمود ، لأن الخمر قد ذاعت وانتشرت ، وأصبح من العبث الوقوف في وجهها ، وهذا منطق غريب مقتضاه أن النار إذا زادت في الاشتعال تركناها حتى تأتي على الأخضر واليابس ، وما هكذا كان المصلحون ولا الذين يغارون على الفضائل والأخلاق ، فهذا عمر بن الخطاب نراه حينما شاهد أن عدد الذين ينحرفون فيشربون الخمر قد زاد عما كان عليه في عهد النبوة فيضعاف حد الشارب فيزيده من أربعين جلدة إلى ثمانين ، لأن التوسع في الذنب يستلزم التشدد في العقاب . . .

إن الله جل جلاله قد خلق لنا الخلو الذي يخلط الطيب الحلال الطاهر من ألوان الشراب ، فخلق اللبن الذي يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وخلق العسل الذي يخرج من بطون النحل شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، وخلق الماء العذب الفرات الذي يروى ويمتع ، وخلق عصير الفواكه وما أكثرها وأكثر منافعتها . . . ولقد كان النبي صلوات الله عليه يدخل بستان « بيرحاء » لأبى طلحة بجوار المسجد النبوي ويشرب من ماء فيه طيب كأنه يحبه ويتلذذ به ، وكان الماء العذب يجلب للنبي من عين

تسمى « بيوت السقيا » على يومين من المدينة ، وقيل لأنها قرية بين مكة والمدينة فأين هذا الهدى من ولوع الإنسان بإفساد الصالح وتعويج المستقيم وتعقيد السهل ؟ . . كان الطعام لسد الجوعة فجعله الإنسان للتخمة والبطنة ، فتعددت ألوان الأكل ، فكثرت الأمراض وتضاعفت العلل ، وكان الشراب للرى ودفع الظمأ فاصطنع الإنسان ألواناً منه لقتل العقل وإثارة الشهوة ، وكانت الثياب لستر العورة ، فجعلها الرجل للزينة الكاذبة والفخر الزائد ، وجعلتها المرأة مصايد للشيطان ، فأى شقاء جره الإنسان على نفسه بسبب هذا الانحراف وذلك الاسراف ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد تكونون ممن لا يشربون الخمر ولا يدمنونها ، وقد تكونون ممثلين لبقايا الخير في هذا المجتمع الصاحب ، ولكنكم قد تختلطون بمن يسكرون أو يدمنون ، ومن واجبكم النصيح لهم والإخلاص في تذكيرهم ، وقد تكون لكم ذرية ناشئة تتوزعها مناكب الحياة الآن ، فن واجبكم أن ترعوها حتى رعايتها حتى لا تصبح من ضحايا المسكرات والمخدرات ، وأنتم أعضاء في مجتمع يلزمكم التعاون على تطهيره ، حتى لا يعمنا الله بعذابه ونقمته ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

اياك والاعتذار^(١)

الحمد لله عز وجل ، يحصى القليل والكثير ، ويحاسب على القليل والقطمير : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .
أشهد أن لا إله إلا الله إليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من راقب ربه ، وخاف حسابه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المتقين : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من الحكم المقررة المشهورة بين العقلاء أن الوقاية خير من العلاج ، لأن الوقاية فيها صيانة وحصانة ، وفيها تباعد عن الخلل والعلل ، فيظل الشيء المصون المحوط بالوقاية سليماً قوياً ، ولكن العلاج يكون مع شيء قد تطرق إليه فساد أو اعتلال ، وقد يفشل العلاج وقد ينجح ، وعند نجاحه يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، فليس الشيء السليم كالشيء المكسور الذي جبرنا كسره برباط أو لحام أو سبب . . . ومن هنا يظهر أن وقاية المرء نفسه من وجوه الانحراف والضلال خير وأفضل بكثير من تعرضه لها ووقوعه فيها ، ثم عودته إلى محاولة التخلص منها أو التنزه عنها ، بالاعتذار أو الاستغفار أو غيرهما من الوسائل ؛ ولذلك رأينا معلم الإنسانية ومهذب البشرية محمداً

القيت في يوم الجمعة ٢١ من رجب سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٩٥٩ م .

صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إياك وما يعتذر منه » وفي رواية : « إياك وكل أمر يعتذر منه » . فهو يدعو إلى أن يحرص ما استطاع على الابتعاد عن كل أمر يشينه ويدفعه إلى الاعتذار ، ومن لطائف الإشارات أن القرآن الكريم ذكر مادة الاعتذار أكثر من عشر مرات ، وفي أغلبها نجد أن هذا الاعتذار منسوب إلى الكافرين أو الظالمين أو المطرودين من رحمة الله ، وكأن هذا إيحاء مستور بأن الاعتذار موطن قد يتعرض فيه الإنسان للمقت أو الحرمان .

وبعض الناس من حقهم وسوء سلوكهم لا يدركون أن تكرار المعاذير معناه تكرار الأخطاء التي تدعو إلى هذه المعاذير ، فأنت ترى هذا البعض وتراه يصر على إتيان الفواحش والسيئات ثم قوله « المسيح كريم » يصدملك لأنه غير منتظم في سيره ثم يعتذر إليك ، وقد يظأ حذاءك النظيف بأرض حذائه الوسخة لأنه لا يتبصر ما أمامه ثم يعتذر إليك ، وقد يبصق أو يتمخط في مواجهتك ثم يعتذر إليك ، وقد يصب فوق المارة ماء نظيفاً وغير نظيف ثم يعتذر إليهم ، وقد يصفع شخصاً من خلفه ثم يعتذر إليه بأنه حسب صديقاً يشبهه وقد تعود المزاح معه ، وتتردد منه كلمات « آسف » أعتذر ، معلهش » وأشباهاها بلغتنا أو بلغة دخيلة علينا ، كأن هذه الألفاظ قد صارت جواز المرور إلى الخطأ والزلل ، فلا يتحرج الإنسان من تكرار الخطأ والزلل ، ما دام عنده المنقذ الميسور وهو الاعتذار . . .

ولو قدر الخطيء أو المذنب موقفه بعد خطئه ، وأحس إحساس الرجل صاحب الكرامة والشرف وهو يقول : سحبت كلمتي النائية ، واعتذر عن الخطأ الذي ارتكبته ، أو ما شابه ذلك ، ، لأدرك هول ما سيتعرض له إذا تساهل في أمر الخطأ فلم يبال بالوقوع فيه ، ولم يحرص على الابتعاد عنه ، لأنه إذا كان حساساً كريماً فسيشعر في حالة الاعتذار بأنه حين خطئته قد

تنكر لإنسانيته وبشريته القويمة ، وهو بالاعتذار يحاول رد الاعتبار إلى ذاته حتى يرجع إنساناً ، ويعود بشراً سوياً كما كان . . .

وليس معنى هذا أن الإنسان محفوظ من العيب ، أو معصوم من الخطأ ، فالكمال لله وحده ، وليس معنى هذا أيضاً أن الإنسان إذا زل أو أخطأ لا يعتذر . . . بل المعنى هو أن نحاول ما استطعنا الابتعاد عما يسبب الاعتذار من هفوات وزلات ، لأن موقف الاعتذار وخيم أليم ، والذين لا يحسون بوجعه وألمه لا يحسون بشئ ، وإذا حدث برغم حذرنا وحرصنا أننا وقعنا فيما يستوجب الاعتذار كان علينا أن نسارع إليه لنمحو به ما اقترب أيدينا ، وكان علينا أن نعتبر ما وقع من خطأ كان جهالة منا نترع عنها بسرعة ، ولا نفكر في العودة إليها . ولذلك يقول القرآن الكريم : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب عليهم الله وكان الله عليماً حكيماً » . وكثير من الناس يستهينون بطائفة من الأخطاء والهفوات ، فيأتونها مكررين لها معتبرين إياها من الصغائر الخفيفة التي ليست بذات بال ، فيفتحون على أنفسهم أبواباً من الانحراف والضلال تؤدي بهم إلى أسوأ حال ، وكم من شئ يحسبه الإنسان هيناً وهو عند الله عظيم ، والإنسان إذا أصر على هذه الهفوات الهيئة وواصل إتيانها بلغت به مبلغ الكبائر المهلكة ومن هنا جاء في حديث رسول الله عليه صلوات الله : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » . وقال الإمام علي : « أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .

وفي رواية : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود ، وذا بعود حتى حملوا ما أنفضجوا خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » .

ويجب علينا أن نتذكر هنا أن مقام الاعتذار محفوف بالشك والارتياب لأن الاعتذار قد يكون كاذباً مخادعاً ، ورب مستغفر من أمر بلسانه وهو مصر على إتيانه في قلبه وجنانه ، وقد يقابل بالظن والتكذيب ولقد اعتذر معتذر إلى الخليفة المهدي ، فقطع المهدي عليه اعتذاره قائلاً : « قد علزتك غير معتذر ، إن المعاذير يشوبها الكلب » . وقال الشاعر :

إذا كان العذر ليس بيمين فإن اطراح العذر خير من العذر
وذكر الميداني في مجمع الأمثال « أن الذي قال هذا هو إبراهيم النخعي حين جاءه رجل يعتذر إليه ! . . بل ذهب البعض إلى أن الاعتذار كالذنب لأنه تبع له لاحق به ناشئ عنه ، فقال : « ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنباً » ! . . ولا شك أن في هذا لوناً من المبالغة والتشدد ، لأن الله غفور رحيم ، ولأن الحسنات يذهبن السيئات ، ونحن مأمورون في الإسلام بأن يقبل عذر المعتذر وأن نعفو عنه ، وقد علمنا الحديث الشريف أن من لا يقبل عذر المعتذر يعرض نفسه لغضب ربه ، وكما يحرض المرء على أن يغفر له ربه ما قدمت يدها يجب أن يتقبل عذر المعتذر الصادق متابعة لهدى الله : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » ! . . وفي الحديث : « المعترف بالذنب كمن لا ذنب له » وفيه : « الاعتراف يهدم الاقتراف » !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الكلمة النبوية الرائعة : « إياك وما يعتذر منه » شعار نبيل للأحرار الفضلاء الذين يريد منهم نبيهم أن يكونوا متصونين محافظين ، يجنبون أنفسهم مواطن الزلل ليوفروا على أنفسهم حجل الاعتذار ، وهذا هو هدى الإسلام الأصيل ، قاله يقول لنبيه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » والحديث يقول : « قل آسنت بالله ثم استقم » والاستقامة اعتدال على الطريق المستقيم ، وإقامة على السير فيه ، والله يهدي العاملين ، واتقوا الله الذي أنتم مؤمنون ..

السخرية من رجال الدين^(١)

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى الحق وأمر بالصدق ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ . أشهد أن لا إله إلا الله ، لمن أهل الإفك والبهتان ، وأجزل الثواب لمن اعتصم بالإيمان ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، المبعوث ليتنم مكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك ظاهرة مؤسفة نجدها في أغلب المسرحيات والتمثيليات والأفلام التي تقدم عن طريق المسرح والشاشة وبقية وسائل الإعلام ، وهي إظهار شخصية رجل الدين بصورة هزلية مضحكة ، سواء أكان واعظاً أو مدرساً أم مأذوناً ، وأغلب الأمور التي ينسبونها إلى هذه الشخصية غير صحيحة وغير مطابقة للواقع ، فهم مثلاً يظهرون شخصية « المأذون » وهو يرطن بكلمات أجنبية ، وهو يتقعر في نطقه باللغة العربية ، وهو يتحدث عن أنواع الخمور والمسكرات كأنه لها مدمن وبها خبير ، وهو يحلق بعينه في مفاتن النساء كأنه حليف الرذيلة ، وهذه الصورة لا تطابق واقع الدين يقومون بوظيفة « المأذونية » . ومثل هذا يقال في الصور الهازلة الساخرة التي يعطونها عن رجل الدين أو مدرس الدين واللغة العربية ، وأساس التشويه الذي يحرصون عليه في هذه الشخصية هو إظهارها على أنها شخصية منافقة تظهر غير ما تبطن وتردد كلمات الدين وهي لا تعمل بها ، وهي في الوقت نفسه تتقعر في

^(١) القيت في يوم الجمعة ٢٣ من صفر سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٣ يولية سنة ١٩٦٤ م .

كلامها وألفاظها ، وهم بهذا التشويه لا يريدون الإضحاك والتنكيت فقط ، بل يريدون إظهار الرسالة الدينية التي يرمز إليها هؤلاء في مظهر السخرية والاستهزاء ، فهم في الواقع لا يشوهون أشخاصاً ولا يهدمون أفراداً ، وإنما يشوهون القيم والمبادئ التي تخطر بالبال عند مشاهدة هؤلاء الذين جعلوهم موضع التفكه والتندر ، فلمصلحة من هذا ؟ وما الهدف من ورائه أيها الناس وقد تعارف الخلق في الغرب والشرق على احترام رجل الدين ، لا لذاته أو شخصه ، بل للمعاني الدينية والقيم الروحية التي يمثلها ويرمز إليها ؟ .

ولقد عاينت هذه السخرية الأثيمة الوقحة على استفحال جريمة أخرى أشنع وأفظع ، هي جريمة الاستخفاف بمدرس الدين ومدرس اللغة العربية ، فالتلاميذ في مختلف المراحل الدراسية يتطلعون إلى مدرسي الدين واللغة من خلال الصور المضحكة التي تعودوا رؤيتها لهذه الشخصيات في الأفلام والمسرحيات والتمثيلات ، ولذلك يطلق التلاميذ عليهم أسماء مضحكة مثيرة ، ويستخفون بدروسهم ولا يستفيدون الفائدة المرجوة منهم ، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشبهة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط » أي عادل ، ويقول أيضاً : « ليس من أمتي من لم يحل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا » أي يعرف له حرمة ومكانته وجلال الدين الذي يمثله ويدعو إليه ، ولقد جرت أمة محمد الرشيدة الواعية منذ كانت على احترام الدين وأهله ، فهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان يحل الأئمة والشيوخ والعلماء ، ويقول عن علمه الدين : « لأن يكون لي مجلس من شيوخ عبيد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها » . ولقد قال الرشيد ليحيى بن أكرم : ما أنبل المراتب ؟ قال : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ، فلا أحد أجل منك . فقال الرشيد : بل أجل مني رجل يعلم في حلقة ويقول : قال رسول الله ، لأن اسمه مقترن باسم رسول

الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبداً ، ونحن نموت ونفنى ، والعلماء باقون ما بقى الدهر . وهذا هو المأمون يروى عنه أنه كان إذا حضر مجلس الفقهاء لبس ملابسهم إعزازاً لشأن العلم وإجلالاً لمكانة أهله ، ولقد أحضر لولديه عالماً يعلمهما الدين والعربية ، فكان الولدان يتسابقان إلى تقديم النعل إلى شيخهما ، حتى كان يقتسمان تقديم النعل ، ولما علم المأمون بذلك سر منه ، وسأل الشيخ يوماً بقوله : من أعز الناس ؟ . فقال له : أنت يا أمير المؤمنين . فقال المأمون : بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله إليه وليسا عهد المسلمين .

لا يراد من هذا الكلام أبداً أن رجال الدين معصومون من الخطأ ، أو أنهم منزهون عن العيب ، أو أنهم فوق النقد والمراجعة ، كلا ، فهم بشر كسائر البشر ، ولكن مهاجرتهم من زاوية المعاني الدينية التي يمثلونها تؤدى إلى احتقار هذه المعاني والاستخفاف بها ، ولو فرضنا أن هذه المفترضات التي ينسبونها إليهم حقائق لما كان من الخير أن نجسمها هذا التجسيم ، أو نلفت الأنظار إليها هذا اللفت ، فكيف وأغلبها غير صحيح ؟ وهناك من رجال الإصلاح الاجتماعى من ينادون بكتمان العيوب والعورات وعدم تجسيمها أمام الأنظار المختلفة حتى لا توجد الجرأة والوقاحة ، وحتى لا يتجارأ الباقون على اقتحام الآثام وارتكاب الفضائح ، وهذا قريب من هدى الإسلام حينما نراه يصد أتباعه عن تسقط العيوب وتتبع العورات وذكر السيئات ، فيقول سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس ، فمن تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في عقر بيته » . ويقول أيضاً فى هذا المجال : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » . ولعل القرآن الكريم

يشير إلى مثل هذا حين يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الدين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

ولسنا ندرى لماذا تقتصر السخرية على رجال الدين الإسلامى فقط ، ولماذا لا يعمد أهل الأديان الأخرى إلى السخرية ممن يمثلون دينهم ؟ أياكون معنى هذا أن أولئك العابثين يعتقدون أن الإسلام وحده هو الذى يستحق رجاله السخرية والازدراء ، وأن سواه من الأديان يستحق الإجلال والاحترام أفيجوز فى شرعكم أو يرضيكم يا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يفوز مدرس الموسيقى ممثلاً بالاحترام والتعظيم ، ويبدء مدرس القرآن أو الدين أو لغة القرآن بالسخرية والاستهزاء ؟ . ثم ما ذنب اللغة العربية حتى يسخروا منها هذه السخرية ، ويتندرُوا برجالها كل هذا التنذر ؟ أهم يريدون الإضحاك فقط أم أن ذلك يؤدى إلى الاستهانة بلغة القرآن والاستخفاف بالعروبة والتطاول على القومية العربية ؟ . إن من واجبنا أن نوقر اللغة العربية ، وأن يترهب فريق منا فى خدمتها ، فقد روى أن رجلاً لحن أمام النبي فقال لصحابته : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » فجعل الخلط فى اللغة ضلالاً يحتاج إلى إرشاد وتوجيه ، والإمام الشافعى يقول : « وعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده » فكأنه جعل تعلم العربية فرضاً واجباً فى الدين والإمام المعالي يقول : « من أحب الله تعالى أحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التى نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته إليها » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يجب أن تعود للدين حرمة ، ولعالم الدين كرامته ، وللشعب إيمانه

وعقيدته ، ويجب أن تنطهر وسائل الأعلام والتوجيه من كل ما يحقر الدين
 في نفوس الناس ، أو يشوه قيمه وتعاليمه أمام الناظرين والسامعين ، ونحن
 لا يهمننا الأشخاص فإنهم زائلون ، وفيهم المخطئ والمعيب ، ولكن يهمننا
 أولاً وقبل كل شيء احترام الدين وتوقير العقيدة ، وإلا ساءت الظنون وذهبت
 في التفسير كل مذهب ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء
 السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

غربة العلماء^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو علام الغيوب ومحبي القلوب : « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأتى تؤفكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « الرحمن علم القرآن » خلق الإنسان ، عامه البيان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قائد الأنبياء وإمام العلماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله « فأولئك هم الفائزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

في الخطبة الماضية كنت أحدثكم عن البحر والبحرية في تاريخ المسلمين ، بمناسبة الاحتفال بأعياد البحرية ، وذلك جرياً على طريقتنا وهى الحرص على وصل الدين بالمجتمع ، لأن الدين يجب أن يكون للحياة ، وأن يكون مؤثراً وموجهاً للأحياء ، ولقد لقينى كثيرون عند ذلك وحملوا هذا المسلك ، وطالبوا بالمزيد منه ، فذكرنى هذا بمن حمل حملة معوجة على علماء الدين بلا موجب ، ووصفهم بأنهم يدسون أنوفهم فى كل شئ ، وأنه كلما تم إصلاح أو جاء عمل من أعمال الخير ، ذهبوا يقولون إن الإسلام قد سبق إلى هذا أو أمر به ، ويتكلفون لإيراد الشواهد والأدلة من القرآن والحديث ، ويفسرونها كما يشاءون ، ويسرفون فى التأويل والتجريح ؛ وزاد هذا المتهم عن حده إذ لم يجد من يرده فطالب من علماء الدين أن يعتزلوا ويسكتوا . . .

يا عجباً كل العجب ، ويا حيرة علماء الإسلام بين قوم يضيقون بالإسلام

القيت فى يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ الموافق أول
سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

وكأنهم يتمنون أن يفتحوا أعينهم ذات صباح فلا يجدوا له ظلاً ولا لواء ،
 وخاب ما يحسبون : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره
 ولو كره الكافرون » . . . لقد تحير علماء الإسلام مع هؤلاء الناس ، إن
 جاهلوا البدع وقاوموا المآثم ، واستنكروا التبرج الفاضح والاختلاط المعيب ،
 وشرب الخمر ولعب القمار ، والتهتك في المظهر والحديث والكتابة ، اتهمهم
 المتحللون بأنهم رجعيون متخلفون يعيشون في القرون الوسطى ، ولا يحسون
 بالحياة المتجددة والمجتمعات المتطورة ، وطالبوهم بأن يكونوا عصريين
 تقدميين ؛ حتى تهور متهور ، بل ضل ضال فطالب بتطوير الدين وتجديده
 مبادئه وقواعده ، لأن كل شيء في الحياة قد تطور وتغير ، فيجب في زعمه
 أن يتغير الدين ، مع أن الله تبارك وتعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا
 له لحافظون » ويقول الرسول : « من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد »
 أي مردود عليه ومعاقب به ، وإن حاول عالم الإسلام أن يصل الحياة بهذا
 الدين ، وأن يؤيد طيباتها وحسناتها بما فيه من نصوص حكيمة وشواهد
 قوية اتهموه بأنه يتكلف ويتأول ، ويسرف في التمزيج ، ويحاول أن يفس
 أنفه في كل شيء . . .

فماذا يفعل عالم الدين إذن أيها المتحللون ؟ . إنه لا يعجبكم إن حافظ
 وقاوم ، ولا يعجبكم إن أيد ووافق ، فماذا تريدونه أن يفعل ؟ أيسكت
 فلا يتكلم أبداً ، إنه إن فعل فستقولون عنه إنه رجل سلبي مهمل لا ينطق
 ولا يبين ، أيعارض كل شيء سواء كان جميلاً أم قبيحاً ؟ . . إنه إن فعل
 فسيقولون عنه إنه جامد معوق للحياة . . . أيؤيد كل شيء سواء كان حقاً
 أم باطلاً ؟ . . إنه إن فعل فستقولون عنه إنه ذليل ذليل وتابع مهين . فماذا
 يفعل عالم الدين ؟ . .

وهناك من يقول : إننا لا نريد أن نعود إلى ماضي الإسلام لنستشهد منه

بشواهد ، أو نستدل منه بمواقف ، مع أن رئيس الجمهورية خطب منسذ قليل عن القرارات الاشتراكية فأحسن حين استشهد بالماضى المجيد ، وقال إن الإسلام أول دين اشتراكى ، وإن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذى أنشأ أول مجتمع اشتراكى ؛ فإذا يقول هؤلاء المظلون فى هذا الاستشهاد ؟ . أو كلما استعرضنا مبدأ من مبادئنا أو مثلاً من مثلنا ، أو صفحة من تاريخنا قالوا إن هذه رجعية ؟ فهل يكون الاعتزاز من القيم بالقديم الثابت والمبادئ والعقائد رجعية مدمومة ؟ . . أنكر وجود الله جل جلاله مثلاً لأنه قديم لا أول له أنكر شخصية محمد لأنه ماضى على وفاته أكثر من ألف عام ؟ ألا نفتخر بأجدادنا العرب والمسلمين ؟ ألا نعز بعروبتنا التى ورثناها من عهد بعيد أيتفق هذا مع العقل والمنطق ؟ أيتفق هذا مع روح الإسلام وتعاليمه أيتفق هذا مع الاتجاه القومى العربى الذى يستلزم أن نثير فى الأمة حوافر العزة أو الكرامة بعرض صفحات من تاريخها وتذكيرها بأجسادها وتحديثها عن أبطالها ومبادئها وموارثها الدينية والروحية والأدبية والاجتماعية ؟ . . قولوا لنا أيها الناس ؟ ! .

واستغل هؤلاء المحرفون إشارة عابرة جاءت فى خطبة سياسية عن تصرف فردى غير موفق من بعض المنتسبين إلى العلماء ، فأخذوا يعممون النقد والتجريح لعلاء الإسلام ، ويتهمونهم بأنهم يتخذون نصوص الدين كالعجينة يحورونها كما يشاءون ، وأنه لم يوجد فيهم من نطق بصدق أو دافع عن حق أو قال كلمة فيها جرأة وشجاعة ، فهل هذا صحيح أيها الناس ؟ . إن تاريخ العلماء ملىء بأنباء ماثات ومثات ممن جاهروا برأيهم فى صراحة وثبات ، ولا أريد أن أعود بكم إلى الورا طويلاً أو إلى الماضى البعيد بل حسبنا أن نتذكر أن الحرب العالمية الثانية كانت مشتعلة ، وكانت بلادنا يومئذ خاضعة لحكم الإنجليز يستبدون بها ويسخرونها من أجل الحرب التى لا دخل لها فيها ،

ومع ذلك وقف شيخ للأزهر فوق منبره يقول إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، وقامت قيامة الإنجليز يومئذ بسبب هذه العبارة الجريئة ، وهذا شيخ آخر يريده رجال القصر الملكي الطاغى على الخضوع لرأى معين فيأبى ، فيهددونه فيقول : أيمعنى هذا التهديد من التردد بين بيتى والمسجد ؟ فيقولون : فى الظاهر : لا ، فيقول : إذن فهو لا يضيرنى ! . وهذا شيخ ثالث كان يطالب بحقوق الأزهر الضائعة وأمواله المبددة فقليل له إن الدولة تحرص الآن على الاقتصاد بينما كان الملك الطاغية حينئذ يبعثر الأموال بلا حساب هنا وهناك فى أوربا .

فقال الشيخ معرضا كيف يكون تقدير وإسراف هناك ؟ وهذا شيخ رابع عارض حكائماً لهم شأنهم وقال لهم : إني لا أقبل أن تنقص حقوق الأزهر وأنا شيخ له ، فلما أن تزيد ولما أن أترك منصبى : وما هى إلا أيام حتى ترك منصبه عزيز النفس موفور الكرامة . . . ومن قبل هؤلاء بقليل كان هناك الشيخ حسن الطويل الذى ذهب لمقابلة الخديوى وعليه عباءة فأراد رجال التشريفات على أن يخلع العباءة فرفض وقال : أنا ألقى بها ربى فكيف لا أقابل بها الخديوى ، ولما أراد الخديوى أن يزور مدرسة دار العلوم والشيخ الطويل يدرس فيها وكان لا يعنى بملابسه ، أشار عليه ناظر المدرسة أن يلبس ملابس حسنة ، فأرسل إليه الشيخ كسوة جديدة وقال لمن حملها : قل للناظر إن كان الخديوى يريد الثياب الجديدة فهذه هى الثياب ، وإن كان يريد مقابلتى أنا فلا دخل للثياب فى الأمر ! ! . إلى غير ذلك من المواقف والأمثال .

قد يقال إن هناك من علماء الدين أو من المنتسبين إليهم من حرق أو بدل ونحن لا ننكر ذلك ، بل نتألم له أعمق الألم قبل هؤلاء المتباكين بدموع التماسيح ، ولكننا نقول إن هؤلاء قلة وبحوارهم كثيرون ممن جاهدوا وناضلوا

ونطقوا بالحق وتعرضوا للعتة والإرهاق ، وكل مجموعة كبيرة يوجد فيها جانب غير طيب مهما كانت ممتازة ، فإذا كان هناك بضعة نفر قصرُوا أو حورُوا فهناك مئات ومئات نصحوا وصارحوا ، فكيف نعمم الحكم هكذا بلا تخصيص أو استثناء ؟ أليكون المراد من وراء ذلك هو تهوين شأن علماء الدين في نظر الناس حتى إذا هانت كرامتهم هانت تبعاً لذلك مكانة التعاليم التي يدعون إليها وهي تعاليم القرآن وهدى النبوة ؟ . ألا ساء ما يصنعون ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . إن العلماء يحسون بغربة قاتلة ، فقد كان العلماء في الماضي يلقون احتراماً وتوقيراً ، فكان الواحد منهم يعتز بمكانته ويحرص على رسالته ، لأنه بين قوم يؤيدونه ويشلون أزره ، ثم فقد العلماء احترامهم الأدبي وتقديرهم المادي ، فانقرط العقد وقل الجهد وإذا كان العلماء يتحملون جانباً من التبعة في ذلك فإن الذين دأبوا على تحقير العلماء وتهوين شأنهم يتولون كبر هذا الإثم ويبوءون بتبعته ، ولكي يعتدل الأمر ويستقيم الطريق يجب على المجتمع أن يحفظ لعلماء الدين كرامتهم وحرمتهم كما يجب على العلماء أن يقبلوا احترام المجتمع لهم ويعتزوا بمبادئهم ، ويبذلوا جهودهم لأداء رسالتهم في استقامة وإخلاص ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

القرآن مادبة الله^(١)

الحمد لله عز وجل ، « يدبر الأمر يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل لعباده قرآنه ، ففضل فيه الأحكام ، وبين به الحلال والحرام ، وجعله حبله المتين ونوره المبين : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اتخذ القرآن لنفسه سراجاً ، ولقومه شرعة ومنهاجاً ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقولون إن الحديث إذا أعيد وتكرر أصبح مملولاً تكرهه الأسماع وتسأمه النفوس ، والشاعر يشير إلى مثل ذلك حين يقول :

أمور بدأناها وسوف نعيدها دواليك ، واللحن المكرر يسأم !

ولكن هذا السأم يأتي فيما لا يحب الإنسان أو فيما لا يريد ، وأما إذا أحب الإنسان موضوع الحديث فإنه يتمنى إعادته وتكراره إلى ما شاء الله ، وأظن أنه لا يوجد أحب إلى المسلم وأعز عليه في دنياه من قرآن ربه ودستور دينه ، فالحديث عنه إذن لن يمل ولن يهون مهما تكرر وأعيد ، بل سيكون كالرحيق المصنفي الذي يشرب منه المرء نهلاً وعذلاً ، فيزداد حباً وطلباً : « وما أحلى مذاق الشهد وهو مكرر » ! . . .

إي والله ، إنه لجميل وحييب وواجب أن نتحدث ونتحدث حتى

^(١) لقيت في يوم الجمعة ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٧٧ هـ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

ولو قال عنا الجهلاء : إن هؤلاء بالقرآن مجانين . . . فإنه القرآن ، نور المفكر ، وبشرى السعيد ، وسلوى الحزين ، وهداية الخائر . . . القرآن الذى يقول فيه الرسول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » ، ويقول : « يقول الله تعالى : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفصل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ويقول ابن مسعود : « إذا أردتم العلم فانثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين » ، ويقول الفضيل بن عياض : « حامل القرآن حامل راية الإسلام » ! . . .

وإذا كنت قد حدثتكم من قبل لتتبرعوا لتحفيظ القرآن الكريم وقد فعلتم مشكورين فلإني أحدثكم الآن عن واجب الأفراد والجماعات ، والشعوب والحكومات نحو القرآن حتى نثبت دعائم هذا التنزيل المجيد ، وحتى نرضى ربنا عن طريق العناية بكتابه ، فإنه المحور الذى يجب أن تدور حوله حياتنا ، والأساس الذى يلزم أن ينهض عليه بناؤها ومجتمعنا ، والمصدر الذى ينبغى أن ينبعث منه إشعاعنا ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فإن من أسباب حفظه ووسائل بقائه أن ننشره فى المصاحف ، وأن نحفظه فى القلوب ، وأن نردده فى الجامعات والخلوات ، وأن نفسره للملأ وللأفراد ، وأن نواظب على دراسته وتفهمه ، وأن نتحمل بآدابه وتعاليمه وأن نخضع لأوامره وأحكامه . . . ولقد نذكر أو نتذكر هنا أن الإذاعات المختلفة تذيع القرآن فى كل مكان ، وأن المحطات الإسلامية وغير الإسلامية تبثه هنا وهناك ؛ ولكن هذا ليس عناية خالصة مخصصة بالقرآن ، بل لأكثرهم فى ذلك مآرب أخرى ؛ والمهم هو أن نحفظ نحن المسلمين هذا القرآن ، وأن نعتر به ونتفهمه ونتأدب بأدبه ونتقيد بحكمه ،

والمهم هو أن نفهم كتاب الله ونفسره كما أراد الله لنا أن نفهمه وأن نفسره ،
لا أن نقول فيه بحسب الأهواء والرغبات ، أو نخضعه لشقى المآرب
والشهوات . . .

والواقع المؤسف أننا قد هجرنا مائدة القرآن في أغلب أوقاتنا وأغلب
حالاتنا منذ أمد بعيد ، وكنا في عهد قريب نكتفى بترديده وتحفيظه لأولادنا
والمكفوفين فينا ، ثم لحقت الكارثة حتى بهذا الترديد وهذا التحفيظ ، فأصبح
أكثرنا لا يعنى بترديد القرآن وترتيبه حسب نظام متبع أو ميقات معلوم ،
وأصبح تحفيظ القرآن في محنة قاسية ، حتى تعرضت جمعياته ومدارسه للهوان
أو للضياع ، وهذه المدارس محتاجة أولاً إلى إسعاف عاجل من الدولة ومن
الأغنياء والقادرين ، ثم تحتاج بعد ذلك إلى تثبيت حصين وتدعيم موصول
ورقابة أمينة شاملة ، ثم تحتاج مع هذا إلى أن تكون في موطن العناية والرعاية
والتكريم ، فلا نظل تعتمد في سيرها وأداء رسالتها على الإعانة أو الصدقة
أو التبرع ، بل يجب أن يكون لها مصادر معلومة وموارد كافية ، حتى
لا يقال إن تثبيت القرآن في أمة القرآن لا يتحقق إلا عن طريق التسول
والشحاذة . . . فتكون تلك فضيحة ليس وراءها فضيحة ! . . .

والعناية بالقرآن في أقطار المسلمين هو واجب الدولة أولاً من الناحية
الأساسية الفعلية ، ولكن هذه العناية بالقرآن ليست بعد هذا مقصورة على
الدولة أو العلماء أو أعضاء الجمعيات أو الأزهر أو وزارات المعارف والتربية
بل إن العناية بالقرآن — بمعناها الشامل — هي واجب كل مسلم ، وكل موحد ،
وكل فرد من أهل القبلة ، وكل إنسان يقول لا إله إلا الله ، وكل تابع من
أتباع محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيسأل كل مسلم منا نفسه في
حساب دقيق وإخلاص عميق : ماذا يعنى من القرآن ؟ وماذا يحفظ الذين معه

في الأسرة أو العمل من القرآن ؟ وما الروابط التي تربطه بخدمة القرآن ؟ وماذا قدم من معونة مادية أو أدبية لنشر القرآن أو تحفيظه ؟ وما مبلغ التزامه لآداب القرآن وخضوعه لأحكام القرآن ؟ ! . .

لقد كان من عادة المسلمين شيوخهم وشبابهم أن يحملوا المصاحف في جيوبهم غالباً ، وأن يقرأوا جوانب منه في خلواتهم أو فترات راحتهم أو أثناء ركوبهم القطارات أو السيارات أو العربات الأخرى ، وقد تعطلت هذه العادة أو كادت ، وأصبح الشاب المسلم ينجل أن يحمل هذا المصحف ، أو أن يقرأ فيه أمام الناس ، لأنه يعتقد أنهم سيصفونه بالرجعية وضيق الأفق والجمود ... فإذا يكون المقصد من وراء هذا الإهمال للقرآن ؟ وماذا تكون النتيجة القريبة أو البعيدة لهذا الإغفال ؟ . . هجرنا أولاً أوامر القرآن ، ثم نسينا حفظه ، ثم أهملنا تحفيظه ، ثم نظرنا إليه نظرة السخرية والاستخفاف ... فإذا وراء ذلك ؟ . . أنريد أن يصدق علينا حكم القرآن : « وقال الرسول : يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ؟ . . أنريد أن نعلن الحرب على الله وأن نجاهره بالعدوان ؟ . . أنريد أن نضيع القرآن الذي وعد الله بحفظه ؟ أيقول خالقنا : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ونقول نحن : « إنا له لمضيعون » وكبرت كلمة تخرج من الأفواه ؟ ! . .

فلنربع على أنفسنا ، ولنتذكر واجبنا نحو كتاب ربنا وأساس دينتنا وعماد حياتنا ، ولنتذكر أن هذا الكتاب الإلهي المجيد الخالد لم تزده الأيام ، إلا تأييداً وتصديقاً ، ولا عجب فهو كتاب من خلق الخلق وقدر الأمر ، وهو القائل : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . ليبحت كل منا عن مكان
المصحف من قلبه وعقله ، ومن يده وبصره وبيته ، ومن أيدي أهله وأسرته ،
ومن أيدي الناس حوله . . . وليعلم كل منا أنه مسئول أمام القرآن ، وأن عليه
واجباً نحو هذا القرآن ، فليحاسب كل منا نفسه ، وليقم بواجبه في هذا
الباب ، والله يهدي العاملين ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع
الذين اتقوا والذين هم محسنون .

العلم في نظر القرآن^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . أحمدته سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذي قال له ربه « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله ينابيع الحكمة ، وأصحابه الشاكرين للنعمة ، وأتباعه المستحقين للرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »..

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نتواصي منذ حين بأن نبني مجتمع العلم والإيمان ، ومن ذا الذي يضيق بالعلم أو يعرض عنه ، اللهم إلا أن كان من أهل الجهالة والضلالة ومن ذا الذي لا يحب الإيمان ولا يريد اليقين ، اللهم إلا أن كان من أهل الإلحاد والكفران ؟ . ولكننا مع هذا لم نتفق على المراد بالعلم ، فهل كثرة المعلومات أيا كانت تحقق معنى العلم المطلوب ؟ كم من أناس يعرفون الكثير الغزير من المعلومات التي لا تنفع ولا تفيد ، بل تدمر وتبيد ، والذي يعرف فنون الاحتيال والخداع ، ووسائل الغدر والمكر ، وألوان الاستمتاع بالشهوات والملذات ، هل يعد عالماً في عرف الفضلاء أو الشرفاء ؟ والذي يتجسس حتى يحيط علماً بأسرار البيوت والعائلات ، وخبايا الأفراد ، والجماعات ، هل يكون عالماً في شرعة الأمناء ؟ والذي يحصل العلوم والمعارف المادية ، ثم لا يكون لديه رصيد من حياة الروح واستقامة الأخلاق هل يكون

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ١٧ مايو سنة ١٩٧٤ م .

عالماً في نظر الأتقياء ؟ . إن للإسلام العظيم منهجاً في تحديد العلم وتوجيهه ، فالقرآن رشدنا أولاً إلى أن العلم في أساسه وأصله من فيض الله وعطائه ، فالقرآن الكريم يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . ويقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ومهما بلغ الإنسان من العلم فعلم الله أكبر وأعظم . وفوق كل ذي علم عليم ، والقرآن المجيد يخبرنا بأن الله « قد أحاط بكل شيء علماً » . « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

والقرآن لا يكتفي بمدح العلم أو التنويه بشأنه ، بل يأمر به ويدعو إليه : « وقل رب زدني علماً » ، ويرشد الإنسان إلى أن يكون مؤدباً حين يطلب العلم ، متواضعاً في طلبه ، وهذا موسى لا يتكبر عن طلب العلم من عبد الله الصالح ، مع أن موسى نبي ورسول : « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً » وإذا كان القرآن قد أمر بطلب العلم والأدب في طلبه ، فقد أمر العلماء بنشر العلم وبثه وهدد الذين يكتُمون شيئاً من هذا العلم : « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » وأوجب الأمانة في نقل العلم وعدم التحريف فيه أو التضليل على أهله فيقول : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » . وأوجب حسن الاختيار للعلم النافع في الدين أو الدنيا ، ولذلك تحدث عن عباد الله قائلًا : « فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » ويقول « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » ، ويقول فيهم : « والذين هم عن اللغو معرضون » . ويندد بالذين يتعلمون علوماً تسيء إليهم ولا تفيدهم

فيقول : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » أى لا نصيب له من الخير ولذلك حذر من الجدل العقيم والمرء الباطل ، فقال : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » أى متجبرعات متفرغ للفساد ، وقال عن بعض المجرمين : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » . وقد طالب القرآن الكريم بأن يؤخذ العلم من أهل الخبرة والاختصاص : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، « ولو ردوه إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » أعمال الطب والعلاج تحتاج إلى طبيب متخصص ، وأعمال البناء والتعمير تحتاج إلى مهندس متخصص ، وأعمال القضاء والفصل في الخصومات تحتاج إلى قانوني متخصص ، والعجيب في دنيانا أننا نعرف احترام التخصص في كثير من المجالات ، ولكننا في مجال الدين لا نعرف احتراماً للتخصص ، فالإفتاء في الدين كلاً مباح لكل راغب ، فكل من هب ودب يرون لأنفسهم الحق في تفسير القرآن كما يشاءون ، وفي تصور الدين كما يريدون وفي القذف بالفتاوى كما يحبون ، مع أن الدراسات الدينية واسعة وعميقة ، ويحتاج إلى صبر وجاد ، والقرآن الكريم نفسه قد رمز إلى ما يشبه التخصص في الدين والفقه حين قال : « فاولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وليس معنى هذا أننا نزعم وجود فئة في مجتمع الإسلام لها سلطة وساطة أو حرفة كهنوت أو نزعة احتكار للحديث في الحديث ، بل معناه أننا محتاجون دائماً وأبداً إلى مجموعة من العلماء تتخصص في الدراسات الإسلامية كي تكون خبيرة بصيرة قديرة على بحث الموضوعات واستخلاص الأدلة وأخذ الأحكام من النصوص ، حتى لا يتناول على الافتاء في الدين من لا يعرفون فرائض الموضوع حسب التعبير الشعبي المشهور .

وأخيراً يدعو القرآن إلى التنزه عن الهوى في العلم ، والتجرد للحق والحقيقة ، ولذلك يقول : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » ويقول : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم لإنك إذن لمن الظالمين » . وهكذا يجب أن نبحث عن الحق ، وأن نتمسك به ، وأن ندعو إليه ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد توأصينا بأن نجعل العلم إحدى دعائنا لبناء مجتمعتنا ، فلنعرف المراد بالعلم أولاً ، ولنستمد منه مصادرنا النقية الطاهرة ثانياً ، ولنطلب من العلم ما نحتاج إليه في ديننا ثالثاً ، ولنستكمل ما نحتاج إليه من علم ينفعنا في دنيانا رابعاً ، ولننطلق بعد ذلك في طريق التنفيذ والتطبيق ، حتى لا نضل موصومين بتلك التهمة العميقة الجذور ، وهي أننا أمة لا تحسن غير الكلام ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهذا كم أجمعين .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق مخلصين يستجيب لكم .

أدركوا القرآن^(١)

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » ، فعلم به من الجهالة ، وهدى به من الضلالة : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ينعم على المؤمنين وينتقم من الظالمين : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أقام دولة القرآن بعزائم الإيمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الصالحين وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المتقين : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هل جاءكم أو مرَّ ببالكم أن كتاب ربكم فى خطر ، وأن القرآن الكريم فى محنة ؟ . . هل أحست آذانكم أن قرآن بارئكم يناجيكم وينادىكم ويستنجد بكم ، ويطلب منكم العناية والمعونة يا أمة القرآن ويا أهم القرآن ؟ . . . القرآن المنزل من لدن الحق ومن حول العرش ، الذى تكلم به قيوم السموات والأرض ، وهبط به أكرم سفير للرحمن وهو جبريل عليه السلام ، وتلقته أظهر أذن وهى أذن محمد ﷺ ، واهتدت به خير أمة أخرجت للناس وهى أمة اليقين والإيمان ، وانبثق فى جوانب الدنيا نوراً مبيناً وماء معيناً ، انقشعت به ظلمات ، وتفجرت منه ينابيع للهدى والحكمة . . . القرآن الذى

(١) القيت فى يوم الجمعة اول ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق

٢٥ اكتوبر سنة ١٩٥٧ م .

جعل الله دستوراً للحكم ، وقانوناً وازعاً للنفس ، ومؤدباً يصف الحكمة ويقص الأنباء ويفصل الآيات ، وديواناً حافظاً للغة ، وبياناً معجزاً بلفظه ومعناه ، وحكمه وعلمه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظييراً » . . . « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ؟ » .

لقد كان القرآن الكريم في المجتمع الإسلامي السليم عماد الحياة ، وشعار البيت ، وأساس التعليم ، وسمير الفرد ، وشغل الجماعة ، وكان رعاية المسلمين وهداتهم يجعلون في طليعة واجباتهم العناية بالقرآن وتحفيظه ونشره بين الجميع وكانت أمة محمد كلها تتعاون بكل ما استطاعت على إجلال شأن القرآن وإحلاله قمة التكريم والتقدير ، ولا عجب فقد عرفوا أن رسولهم قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وقال : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وقال : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » . . . وكان حفاظ القرآن في الأمة يعدون بالآلاف ، وكان المسلم يرى من واجبه أن يبدأ نهاره بتلاوة جانب من القرآن ، وكثيراً ما كان ينختم ليلته بجانب آخر ، ثم دارت الدوائر على المسلمين ، وأصابتهم النكبات في نفوسهم وعزائمهم ، فأخلوا بعرضون عن القرآن شيئاً فشيئاً ، ويهملون حفظه وتحفيظه رويداً رويداً ، وتعاونت أسباب وعوامل على ضعف العناية بأمر القرآن حفظاً ونشراً ، فقد ضعف إقبال الناشئة على التعليم في الأزهر الذي يشترط نظامه على طلابه حفظ القرآن ، وإنما ضعف الإقبال على الأزهر لأن المجتمع يهضم حقوق خريجيه ولا يفسح لهم المجال المناسب ، ولأن بريق التعليم المذني مع التماع مستقبله

بما يشوق ويجذب ، وضعف الإقبال على مدارس تحفيظ القرآن بسبب المجانية الشائعة في المدارس المدنية ، وضعف الإقبال على حفظ القرآن في بعض الجهات بسبب إلغاء النظام القاضى بإعفاء الحافظ للقرآن من الخدمة في الجندية وإن كانت الجندية أمراً واجباً على كل قادر من المسلمين وزاد الأمر خطورة تلك المذاهب الإلحادية الهدامة التي أخذت تتفشى الطواغين الخبيثة أو الحميات الخطيرة ، وكان من نتائجها الأليمة الاستخفاف بالدين ، والتطاول على الإسلام ، والاستهانة بشأن القرآن ، فأصيب أمر تحفيظه بما أصيب به من إهمال قتال وتضييع شنيع ! . .

هل جاءكم يا بنى آدم أن أهل الخير فينا استطاعوا منذ عهد قريب أن ينشئوا بيننا أربعة آلاف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم بجهودهم وتبرعاتهم وأريحياتهم الإسلامية العالية ، وهل جاءكم أن هذه المدارس كانت تدوى في أرجاء الوادى بأصوات القارئ والمقرئين كأنها خلايا نحل قرآنية لا تكف عن ترتيل القرآن المجيد ، وهل جاءكم أن هذه المدارس خرجت آلاف الحفاظ من أبناء المسلمين ؟ . . ثم هل جاءكم أخيراً أن هذه المدارس اليوم في فقر وبؤس وضنك شديد ، وأن الدهر قد أخفى عليها فقات التبرعات ، وجفت الأيدي من الخيرات ، وتعرضت دور التحفيظ للأزمات والنكبات وانصرف عنها الكثير من الطلاب أفير ضيكم يا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن تغلق هذه الدور في حياتكم أو على أيديكم ؟ وبأى وجه نتلقى حكم التاريخ أو نلقى وجه الله يوم الدين ؟ . . وكيف نرضى هذا التضييع لتحفيظ القرآن مع أننا لو أنفقنا عليه ما ننفقه على جانب من حفلات اللهو والفجور ، أو النفاق والرياء . لبقى حفظ القرآن شائعاً ذائعاً . .

لقد كدنا ننسى القرآن وننسى سماعه ؛ نعم هو يذاع كل يوم في المذياع ،

ولكن ما عدد الأسر التي تفتح الراديو ليستمع أفرادها إلى كتاب الله ؟ وما عدد المستمعين الذين يصغون إلى تلاوته بالنسبة إلى الذين يستمعون « مطبات في الهواء » و « ساعة لقلبك » ، وتمثيلات الجريمة ، وأغاني الخلاعة والمجون ؟ . أليس من المخجل أن نسمع الأطفال في كل مكان يحفظون أغنية « يا أمة القمرع الباب » وغيرها من الأغنيات المبتدلة وهم لا يحفظون سورة الفاتحة من القرآن ؟ .

إن أعداء الإسلام وأعداءكم الذين يلحدون في آيات الله ويصدون عن دين الله يريدون أن نهمل حفظ القرآن ونضيعه ، حتى يخفت هذا الصوت المذكر بالله وحقوقه ، الداعي إلى الفضيلة وطريقها ، المنفر من الرذيلة وأسبابها ، وبذلك يستطيعون أن يسرحوا في الوادي الأمين يخلطون ذنابه بظبائه ، ويأتون في أنديتهم المناكر ، ويفعلون ما يشاءون أو ما يشاء الشيطان.. يريدون أن نهمل القرآن حتى تضيع اللغة العربية الفصحى التي حفظها وأبقاها هذا القرآن المجيد ، وحتى تسود اللغة العامية ، وبضياع الفصحى وذوبوع العامية لا تبني لنا شخصية ولا قومية ، فهل تتفق هذه المحاولة الأثيمة مع ما تشتهه الدولة الآن في الأذهان من معاني القومية العربية المؤمنة ؟ .

وفي طوفان الباطل كان لابد لنا أن نسمع صوتاً من أصوات الحق والخير ، فهذه جريدة « الشعب » المصرية حياها الله بما تستحق من تحية ، نراها قد التفتت إلى هذا الموضوع ، وعينت به ، وكتبت عنه ، وفتحت بابها لجمع التبرعات للمدارس المحافظة على القرآن الكريم ، ومن الخير أن نوجه إليها ونحن في بيت من بيوت الله ، نتحدث عن كتاب الله ، التقدير والشكران على مجهودهما ، فقد قال النبي : لم يشكر الله من يشكر الناس . . فحيا الله جريدة الشعب ، وشكر الله لجريدة الشعب ، وضاعف الله مجهودها ، وأثاب

الله المهتمين بهذا الموضوع فيها ، ووفق الله الباقيين للاقتداء بجريدة « الشعب »
 في العناية بتحفيظ القرآن وجمع التبرعات لمدارسه ، إذ من العجيب ألا نغنى
 بذلك الموضوع الإلهي الجليل ، ولو كان الموضوع يدور حول تكريم عظيم
 من عظماء الجاه والمال ، أو تملق سلطان مقتدر لسارعنا إلى العناية والاهتمام . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن القائمين على أمر هذه المدارس
 القرآنية يسعون إليكم اليوم يطلبون منكم باسم القرآن ، ويريدون منكم قرصاً
 لكتاب الرحمن ، فهل أنتم فاعلون ؟ . . . إن القليل إلى القليل كثير ، ولا يكلف
 الله نفساً إلا وسعها ، وفيما من يطبق التبرع بالقرش ، ومن يطبق التبرع
 بالقروش ، ومن يطبق التبرع بالجنهيات ، ولا حد لأقل التبرع كما لا حد
 لأكثره ، فلندفع اليوم عن أنفسنا معرة التضييع للقرآن بدفع ما نستطيع لتظل
 مدارس تحفيظ القرآن تجاهد في الميدان . . . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ...

رسالة القرآن^(١)

الحمد لله عز وجل ، شرع الإسلام صبيغته ، وجعل القرآن مآدبته :
« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟ . أشهد أن لا إله إلا الله ،
العز كل العز في التمسك بأسبابه ، والهدى كل الهدى في نور كتابه : « تبارك
الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً
رسول الله ، جعل القرآن دواءه وشفاءه ، واتخذ من نبعه غذاءه وضيائه ،
فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الخائفين يوم حسابهم ، وأصحابه
الموقنين بصدق كتابهم ، وأتباعه الذين انتفعوا بهدى ربهم : « ونزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نحن الآن في الأيام الأولى من رمضان . موسم الطاعة الذى يقبل على
المسلمين كل عام ليغربلوا حواسهم ونفوسهم ، فيبقوا على الصالح النافع
لها ، ويطردوا عنها الرواسب الضارة والفضلات الفاسدة ؛ ورمضان هو
شهر القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من
الهدى والفرقان » . ولقد ينسى القرآن خلال العام ناسون ، وقد يعرض عنه
معرضون ، فإذا تجلى رمضان بنسماته ونفحاته ذكر المسلمين بأنه شهر القرآن
والترتيل ، وشهر النظر في كتاب الله العلى لأعلى تلاوة وتدبراً وفهماً ، ولقد
أقبل رمضان ونحن نسمع أو نقرأ أحاديث شتى عن القرآن ورسالته ، وإعجازه
وبلاغته ، وصلته بالكون والعلم والحياة ، وقصد العليم الخبير من وضعه بين
أيدي عباده ، واكنا نلاحظ أن كثيراً من هذه الأحاديث يتسم بالغلو في

القيت بمسجد الأزهر في يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٧٨ هـ
الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٥٩ م .

أحكامه ، والغلو في الأحكام عيب من عيوبنا ، لأنه يدل على النظر إلى الموضوع من زاوية واحدة ، فصاحبه لا يرى إلا من هذه الزاوية ويحكم بالنسبة إليها ، وأما بقية الجوانب فلا يقيم لها الاعتبار اللازم ، مع أن استعراض كافة الجوانب في البحث أمر لا بد منه لإصدار الحكم العادل القويم ، فهذا قائل يؤكد أن القرآن كتاب علم ، قد تحدث عن كل صغيرة وكبيرة من مسائل العلوم الطبيعية والكونية والمادية ، وهذا غلو وإسراف ، وتحميل للقرآن ما لا يريد الله أن يحمله إياه ، وهذا قائل يزعم أن القرآن لا علاقة له بالعلم ، لأنه كتاب دين وبلاغة وبيان فقط ولا صلة له بالعلوم ، وهذا غلو أيضاً ، فيه ظلم للقرآن وإجحاف . . .

والحكم المعتدل القاصد هنا هو أن القرآن دين وعلم وبلاغة ؛ ولكل قاعدة من هذه القواعد الثلاث نصيبها فيه ؛ والواقع أن المائدة القرآنية حافلة بألوان من المطاعم الروحية والعقلية والبيانية التي ترضى مختلف الرغبات والمطامح ، ولكن هذه المائدة تحتاج لتعطي ما عندها إلى بصر نافذ عند الجلوس إليها ، وذوق سليم عند التناول منها ، والقرآن كالكثير المنطوي على أنواع النفائس والجواهر ، فهو يمد الساعي إليه المستفتح لأبوابه بما يتطلبه ويرتجيه ، فمن أراد تشريعاً وجدّه ، ومن ابتغى علماً أو قصصاً أو عبراً فاز بما يكفيه ويرضيه . ولعل هذا هو السر الذي يجعل اللبيب الحصيف إذا تلا الآية القرآنية أدرك لها معنى وتأثيراً ، فإذا عاود تلاوتها تكشفت له عن معنى جديد وهكذا ، حتى لقد روى عن أحد أعلام هذه الأمة أنه قضى ليلة يكرر آية في تهجده ، وفي كل مرة يظهر له فيها معنى جديد ، ويتبلى له منها مذاق خاص ، ولم تر البشرية في قديمها وحديثها كتاباً تنتقى عليه أفهام الخاصة والعامة ، ويرتوى منه كل امرئ بما يناسبه ويتطلبه ويطبقه

مثل هذا الكتاب الذى سيظل نور الله فى الدنيا حتى تزول ، وسيبقى خالداً فى الأرض إلى أن تدول ١ . . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولكن الله جل جلاله أعطى كل لون من مقاصد القرآن حقه وقدره ، لأن كل شئ " عنده بقدر " وكل شئ " عنده بمقدار " ، وهذا الكتاب المجيد قد نزل أولاً ليكون هداية ونوراً ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، وهو ثانياً كلام الله المبين ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب سيد المرسلين ، قرآناً عربياً غير ذى عوج ، معجزاً فى مختلف الأزمان والعصور وهو ثالثاً يضم قدراً كافياً من أصول العلوم وقواعد المعارف ، وحسبنا فى عناية هذا الكتاب بناحية العلم أن الآيات الأولى منه نزولاً تمجد هذا العلم وتشيد به : « اقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . فبدأ نزول القرآن بكلمة « اقرأ » والقراءة أوسع أبواب العلم ، ثم ذكر خلق الإنسان وبدأه من علق — أى دم متجمد — وهذا لفت للبصائر إلى أطوار الإنسان عند التكوين لكى تتأمل وتبحث فتعرف وتعلم . ثم انتقل إلى ذكر التعليم فى تصريح ، وأن الله القادر هو الذى علم الإنسان ما يجهل . وتنتقل فى رياض القرآن المزهرة المشمرة فنجد فى أرجائها الشواهد المتناثرة على حديث العلم فى القرآن ، سواء ما تعلق منه بالحياة الإنسانية وهى أرق أنواع الحيات فى الأرض . كقوله : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والرائب ، إنه على رجعة لقادر » . أو ما تعاق بالأرض وحركتها كقوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » أو ما تعلق بالآفاق العليا كقوله : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ،

والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

ولكنه ليس من المعقول ولا من المقبول أن يستطرد القرآن في حديث العلم فيذكر سائر التفاصيل في العلوم والسنن الكونية والظواهر الطبيعية ، وإلا كان ذلك تعطيلًا للعقل البشري عن البحث والتأمل والاستنباط ، مع أن الإسلام قائم على تحريك هذا العقل وتمجيده إذا بحث واستقام تفكيره ، ومن هنا جاءت آيات الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » ، « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض » « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وكثير من الآيات الكونية والعلمية في القرآن تميل إلى التعميم وتترك التفاصيل والتحديد ، لينشط العقل بعد إرشاده وتوجيهه فيستخرج ويستنبط ، فالقرآن مثلاً يقول : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها » فأشار إلى بناء السماء وإغطاش الليل وإخراج الضحى ودحو الأرض وإرساء الجبال ، ولكن كيف ؟ ولم ؟ . ترك التفاصيل لمجهود العقل . والقرآن يقول : « وأرسلنا الرياح لواقح » ولكن كيف ؟ . ترك هذا لمجهود العقل ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ويقول : « والسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع » ولكن كيف ؟ فليبحث العقل سنريهم آياتنا . . .

وموقف القرآن من العلم يفسره القرآن نفسه ، فإنه في موطن يخبرنا بأن

ما بلغناه من العلم ضئيل قليل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ثم يرشدنا في موطن ثان إلى أن الله هو المعلم الأكبر : فتجب الاستعانة به « وعلمك ما لم تكن تعلم » ، ثم يحرض على طلب المزيد من العلم والتبجر فيه : « وقل رب زدني علماً » فإذا يراد بعد ذلك من عناية القرآن بالعلم ؟ ! .

على أن القرآن مع هذا ليس كتاباً علمياً مدرسياً بالمعنى المفهوم 'نسا اليوم ، بل هو كتاب عقيدة وهداية ، وهو تقويم للنفس وتشريع للدولة وتنظيم للمجتمع ، ولا يضره أن يترك التفاصيل ما دام قد ذكر الأصول لأن هذا هو الميسور المعقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ولو أنه ذكر التفاصيل وهي كثيرة وضخمة لما كان هناك سهولة أو تيسير .

ويحسن أن نلاحظ أن النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل ، ولا ترتفع النظريات العلمية إلى مستوى الحقائق العلمية المسلمة الثبوت التي لا ريب فيها إلا بعد مراحل من التمهيد والتعديل ، وأما القرآن فهو كلام الله جل جلاله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولذلك يجب علينا أن نحترس ونحن نفسر آياته المتعلقة بالعلم ، فلا نسارع بإخضاع هذه الآيات لنظرية معينة لم تثبت ثبوتاً متيقناً منه ، فقد تتغير النظرية أو تتبدل . ولقد ظل علماء الجغرافيا أجيالاً يقولون إن الأرض منبعجة من الوسط ومدببة قليلاً من الطرفين ، ولكن العلماء عادوا أخيراً بعد إطلاق الصواريخ يقولون إنه أمكن تحديد الأرض بعد الخروج من دائرتها ، وأنها ليست تامة التكوير ، بل هي تشبه الكمثرى .

والمهم أنه لا توجد حقيقة علمية مسلمة يخالفها القرآن الكريم ، وما يوهم بالخلاف بين الدين الصحيح والعلم الحق إنما يكون اختلافاً بين دين وخطب جاهل يسمى باطلا باسم العلم ، أو بين علم صحيح وتخريف ضال يسمى زوراً باسم الدين .

ومن العجيب أن الجدل يدور ويثور حول موضوع العلم في القرآن ، ويتحدثون عن هذا فيطيلون الحديث ما بين إثبات ونفي ، ويتركون الحديث عن الغرض الهام للقرآن وهو أن يكون كتاب توحيد وهداية وتشريع وأخلاق وكان هناك من يريد أن يشغل الأمة الإسلامية عن مقاصد القرآن الأساسية ببحوث لفظية ومحاولات نظرية وجهود كلامية ، ونحن نريد هذا القرآن ليرشدنا إلى سبيل الحق ، وليعدل النفس البشرية على طريق الاستقامة بعد أن يطهرها ويعمرها بمقامات الحياة الفاضلة ، ونريده لكي ننفذ أحكامه ونطبق تعاليمه . والملاحظ أنه في الفترات المظلمة التي تخللت تاريخ الأمة الإسلامية كان الطغاة من الحكام والبغاة من المتجبرين عليها يعملون لكي ينصرف العلماء المفسرون إلى تشقيق الكلام الطويل عن بلاغة القرآن اللفظية وعن نحوه وصرفه وفلسفته بدل أن يشغلوا أنفسهم بدعوة الناس إلى العمل بما في هذا القرآن والتقييد بقيوده والخضوع لحدوده .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . فلنتذكر أن الأساس في القرآن أنه كتاب دين واعتقاد ، ومصدر هداية وتشريع ، وبلى ذلك أنه كتاب علم ومعرفة وثقيف ، ويكمل ذلك ويجمله أنه كتاب معجز بليغ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلنقبل على مائدة القرآن نأخذ منها ضياء لقلوبنا ، وشفاء لصلوبنا ، وغذاء لعقولنا ، ورائدًا لحياتنا ، ففيه دستور الحياة ، وفيه العصمة والنجاة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

القرآن أساس التعليم^(١)

الحمد لله ، نزل القرآن شفاء للمؤمنين ، وجعله نوراً وضياءً للمهتدين :
 « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم ،
 في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » . نشهد
 أن لا إله إلا أنت ، ضمنت كتابك خلاصة الحكم ، وأتممت فيه بصائر
 الأمم ، « ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » . ونشهد أن
 سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يقرأ ولم يكتب ، ولكنه علم
 الأوائل والأواخر ، وغرس أصول المكارم والمفاخر ، « وعلمك ما لم تكن
 تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى
 آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ؛ « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك
 لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن موضوع اليوم خطير جليل ، ولكني سأوجز فيه القول وأجمله ،
 لأنني منلر ومحلر ، وطويل الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وإيقاظ القلوب
 أو قرع الأسماع يحتاج إلى الصراحة والإيجاع ، لا إلى الإكثار والإشباع . . .
 إن لكل دعوة في الوجود أساساً تنهض عليه ، وهصدراً ترجع إليه ،
 وينبوعاً تستمد منه ، وقد جعل الخلاق العليم للإسلام الحنيف أساساً وعماداً
 هو القرآن ، وأبان عن ذلك حين قال سبحانه : « قد جاءكم من الله نور
 وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من

الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . وقد صنع الله كتابه على عينه ، ووضع فيه مكنون سره وكنوز أمره ، فجعله كتاب الثقافة العامة بما فيه من قصص وتاريخ وأخلاق وعلوم كونية وطبيعية ، وجعله منهل الدين والملة بما فيه من تقنين حكيم وتشريع قويم ، في العبادات والمعاملات والحدود ، وجعله كتاب العربية الأعلى الذي يحفظ شبابها ويصون كيائها ما دامت السموات والأرض ، وأولاه لبادت العربية كما بادت سواها من اللغات ، وجعله كتاب الأدب والبلاغة بما فيه من بيان وإعجاز وإيجاز ، وتقدير وتأثير ، ومعنى هذا أن القرآن الكريم يجمع أصول التربية والتعليم ، ويضمن لحافظه ودارسه العاكف عليه والمستمد منه فقهاً في الدين وتبصرة في الدنيا ونوراً في العقل والثقافة ، ولذلك حرص المصطفى عليه صلوات الله على تعلمه وتعليمه فقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وقال : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وروى عن ربه في الحديث القدسي قوله : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفصل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وشوه صورة الذي لا يحفظ شيئاً من القرآن فقال : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » .

ولقد أدرك المسلمون الأوائل منزلة القرآن السامية ومكانته العالية ، فاتخذوه أساساً لتربيتهم وتعليمهم ، يتلقاه الأبناء عن الآباء منذ أول الطريق ، ثم يعكفون عليه دارسين مستنبطين مطبقين ، ثم يستخرجون منه بسببه ما يتيسر لهم من آداب وعلوم وفنون ، وظلوا على ذلك أزماناً طويلة سعدوا فيها وعزوا خلاها ، ووصلوا عن طريق القرآن والتعلق به إلى الكثير ، حتى (م ٨ - خطب ج ٢)

لو نظرنا إلى العلوم العربية والإسلامية التي تعددت وتفرغت وتضخمت لوجدناها ثمرات أنبتتها روضة القرآن الكريم ، ثم مرت بالمسلمين فتن ومحن شغلتهن عن قرآنهم ، وحالت بينهم وبين تربية ربهم ، وأخذوا يستعبدون أنماطاً في التربية والتعليم من هنا وهناك . ومن أسف وعجب أنهم لا يستعبدون إلا عن أعدائهم والمتربصين الدوائر بهم ، ولا يأخذون إلا أخذ الجهول الذي لا يدري ما ينفع وما يسوء ، حتى أصبحت الثقافة في الأمة الإسلامية الممزقة الأوصال المبعثرة الأشلاء خليطاً من فضلات ، ومزيجاً غريباً من استعارات :

فجاءت كتوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات !!

واليوم نشهد في الأمة بواذر نهضة واسعة النطاق لتعميم التعليم ، وجعله كالماء والهواء والغذاء ، وهناك مشروعات تعليمية عامة تأخذ طريقها إلى التنفيذ الملزم والشمول التام ، والإسلام الحنيف أول من يرحب بالوثبة الواسعة في محاربة الجهل أينما كان ، وغرس العلم في عقل كل إنسان لأن الإسلام هو الذي جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولكننا لا نريد أبداً أن تكون هذه المشروعات مستعارة من الخارج ، ولا نرضى أبداً أن تكون مبنية على أساس مادي مدني بعيد عن الدين ، ونطلب بأن يكون أساس التعليم للمسلمين هو القرآن ، ولا مانع أبداً أن يضاف إلى الأساس روافد وسواند تسعى في ركابه وتعمل لغايته ، وإلا فالويل كل الويل لأمة تؤمن بربها وتعتقد في دينها ثم تجعل كتابها الأقدس نسبياً منسياً في التعليم ، أو ذيلاً من الديول بين المواد والعلوم . . « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن القرآن الكريم في خطر ، فقد أخذ حفاظه في التقلص والانقراض ، وأغلقت كتاباته في القرى بسبب تعميم التعليم في المدارس ، وسدت السبل الموصلة إلى مدارس تحفيظه حتى باتت مهددة بالزوال ، وإن استمر الأمر على ذلك لا قدر الله فسيطوى علم القرآن من البلاد ، ويومئذ يفرح أعداء الإسلام ، لأنهم يعرفون أن حياة المسلمين معقودة ببقاء هذا الكتاب ونشره في الآفاق ، وهم يبذلون الجهود والأموال سرّاً وعلانية باحتيال لئيم ومكر عجيب لتحقيق تلك النكبة ، فطالبوا ولاية أموركم فوراً - كل حسب استطاعته - بأن يكون كتاب الله هو الأساس في التعليم ، لأنه تقويم للسان وتثقيف للجنان وتثبيت للإيمان وفيض من الرحمن ؛ وعودا إلى مصاحفكم من جديد لتسامروها حافظين متدبرين ، وخذوا أولادكم بحفظ ما يمكن حفظه من القرآن الكريم ، وإلا فقد حقت علينا اللعنة وسوء القرار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

القرآن أساس الثقافة^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان »
 أشهد أن لا إله إلا الله ، فضل الإنسان بالعقل والعلم ، ليقر له بالفضل والطاعة
 « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » . وأشهد أن سيدنا محمداً
 رسول الله ، بعثه ربه إلى الناس « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
 والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . فصلوات الله وسلامه عليه ،
 وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر
 عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« الثقافة » كلمة تدل على الفهم والحدق والذكاء ، ومعناها في العرف
 الحاضر أن يكون للانسان ملكة ومعارف يستطيع بها أن يدرك الحقائق في
 دقة وتفصيل ، وأن يشارك في أمور الحياة بوعى وبصيرة . ولكل أمة من
 الأمم في ثقافتها أصل وركيزة ، فهي تمضي في طريق ثقافتها وعلمها مرتبطة على
 الدوام بالمنبع الفكري الذي تستمد منه وتصدر عنه ، وأساس الثقافة عند
 الأمة المسلمة المؤمنة هو كتاب الله العلي الأعلى الذي « لا يأتيه الباطل من
 بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، « تنزيل من الرحمن الرحيم » ،
 كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعالون » . ومن لوازم هذه الأمة
 الأساسية أن يكون القرآن الكريم هو أساس الثقافة ، ونقطة البدء في المعرفة ،
 ومصدر الانطلاق إلى غايات العلم القريبة والبعيدة ، لأن القرآن هو مآدبة الله ،

القيت في يوم الجمعة ٢٨ من المحرم سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٢٦
 من ابريل سنة ١٩٦٨ م .

وكتابه الذى يعلم ويقوم ، ويهذى ويرشد ، تنغير الشرائع وهو لا يتغير ، وتبدل الأنظمة وهو ثابت لا يتحول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، ولأن فيه أصول الثقافة ، ومنابع العلم وروافد المعركة ، بشهادة رب العالمين وهو أصدق القائلين « إن هذا القرآن يهذى للتى هى أقوم » ، « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهذى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهذىهم إلى صراط مستقيم » .

والقرآن الكريم يعنى بفروع الثقافة المختلفة ، فهو يعنى بالثقافة العقلية ، فيحدثنا عن التشريع والتاريخ ومشاهد الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ويستثير العقل للنظر والتأمل والاستنباط والإدراك والاعتبار ، وينوه بمكانة العقل المؤدى إلى دقة الفهم وصدق العلم ، حتى قال : « تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » . وهو يعنى بالثقافة النفسية ، فيتحدث عن القلوب والمشاعر ، وعن الأهواء والشهوات ، وعن دقائق النفوس وأعوازها وطرق تهذيبها ، فيقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ويقول : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وهو يتحدث عن الثقافة المادية التى تيسر مطالب الحياة ومصالح البشر ، فيذكر ما أنعم الله به على الإنسان من نعم خافية وبادية ، ويقول : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ويدعو الإنسان إلى تحصيل هذه المنافع عن طريق أسبابها ووسائلها فيقول : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . والقرآن مع ذلك قد تحدث عن العقائد والعبادات والمعاملات والأفراد والأسرة والمجتمع والأخلاق والسلوك ومختلف العلاقات بين الناس : « يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

ونحن نجد عند مراجعة العوامل التي أدت إلى نشأة العلوم الإسلامية والعربية أن هذه العلوم نشأت في الغالب بسبب القرآن ، ولخدمة القرآن ، ومن القرآن أيضاً ، فعلوم اللغة قد وصفها المسلمون ، وعنوا بأسفارها ليفهموا عن طريقها معاني القرآن ، والنحو قد وضعوه ليتجنبوا بالتزام قواعده اللحن في القرآن ، والتفسير قد نشأ ليعدد وجوه الإعجاز والتشريع في القرآن ، والحديث قد صار علماً ليحفظ سنة الرسول التي تعتبر مذكرة تفسيرية للقرآن ، والفقه قد نشأ ليستمد الأحكام أولاً وقبل كل شيء من القرآن ، ونستطيع أن نتابع استعراض البقية من هذه العلوم لنعرف عند التدبر أن القرآن كان دافعاً إلى وجودها ، وكان مدداً وسنداً لأهلها ، وهذه العلوم هي مجموعة المعارف التي تتكون منها ثقافة الأمة ، فكأن القرآن الكريم كان الينبوع الذي تفجرت عنه مباشرة أو بطريق غير مباشر هذه المعارف (١) . وما زال هذا الكتاب الإلهي - وسيظل أبد الدهر - القاعدة الأساسية لانبثاق الثقافة المؤمنة الربانية التي تصل أسبابها بأسباب الله قيوم السموات والأرض ، ومن أوجب الواجبات على الأمة المؤمنة أن تعي هذه الحقيقة الكبرى ، وأن تحرص على رعايتها وصيانتها ، وإلا تعرضت للذوبان والخسران .

والعجيب أن القرآن الكريم قد حث أقوى الحث على المعرفة ، وحرص أشد التحريض على طلب العلم والتوسع فيه إلى أبعد مدى مستطاع ، فهو أولاً يذكرنا ببداية الإنسان الخالية من المعرفة ، ويرشدنا إلى الوسائل التي ينبغي استخدامها في التعلم فيقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ، ثم يذكرنا بأن القدر الذي نحصل عليه من العلم أولاً قليل ضئيل ، لا يجوز معه اعتزاز به ولا اغترار فيه ، ولا اقتنار عليه ، فيقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وهو لا يريد منا أن نكتفي بهذا القليل ، ولا أن نحمد عليه ، بل

(١) من كتابي « محاضرات الثلاثاء » ص ١٠ طبعة ١٩٥٢ م .

يدعوننا إلى تلمس المزيد منه والمزيد ، ويعلمنا أن نستعين الله جل جلاله في أن يهبنا من أسباب التوفيق ما يجعلنا أهلاً لسلوك السبل المؤدية إلى هذا المزيد ، فيقول : « وقل رب زدني علماً » ، وأمرنا بدخول البابين الأساسيين للتعلم والثقافة ، وهما القراءة والكتابة بالقلم ، فيقول للمثل الأعلى من خلقه وهو القدوة الواجب اتباعها من عباده ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ويسلك الإنسان الفاضل طرق العلم ، فيتوسع فيه ويتبحر ، وينال من فضل الله ما ينال فيقدر ذلك ، ويحسن الانتفاع به ، ويشكر ربه عليه قولاً وعملاً ، ويشير القرآن إلى ذلك فيقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ، ثم تأتى نتيجة العلم الصحيح الواسع والثقافة الفسيحة البصيرة ، فتكون خشية واستقامة ، وصلاحاً وإصلاحاً ، ونفعاً وانتفاعاً ، وهداية ووقاية : « إنما نخشى الله من عباده العلماء » . ثم تكون الرفعة والسمو في الحياة إلى أعلى المراتب عن طريق العلم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد قال سيدنا وسيدكم وسيد الناس أجمعين محمد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال : « إن الذى ليس في جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب » وقال : « القرآن مأدبة الله في الأرض فخذوا من مأدبته ما استطعتم » ، وذلك تستوجب منا أن يكون القرآن أساس علمنا وثقافتنا نبدأ به ، وندور حوله ، وننتقل من لدنه إلى أوسع مجالات العلم والبحث والمعرفة ، ثم نعود إليه ، لنجعله الإمام والزمام ، فنظل على طريق الأمان والسلام ، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

لغة القرآن^(١)

الحمد لله عز وجل ، أنزل كتابه جلاء للعقول وضياء للبصائر : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أراد لعباده السيادة والقيادة : « ولا تهنؤا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الفصحاء وشيخ البلغاء ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الناطقين بالحكمة والصواب ، وأصحابه الهادين إلى طرق الرشاد ، وأتباعه « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ونحن نشاهد أن القرآن المجيد قد كرر القول وأعاد الحديث ، فيما يستحق التكرار والإعادة ، فهو قد عرض قصص الأنبياء والمرسلين فى أكثر من موطن ، وكرر قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » نحو ثلاثين مرة ، وقوله : « فكيف كان عذابي ونذر » عدة مرات ، هو قد فعل ذلك لتأكيد العظة وترسيخ المعنى ، ونريد أن نهتدى بهدى القرآن فى هذا الباب ، فنؤكد الحديث عن وجوب العناية بلغة القرآن ، اللغة التى كادت تضيع بين قوم ينسبون أنفسهم إلى الإسلام دين القرآن ، وإلى العروبة التى نزل بلغتها هذا القرآن « قرآنًا عربياً غير ذى عوج لعلمهم يتقون » . فقد كتب صحفى مشهور^(٢) يسخر من رجل قرأ كثيراً بالعربية حتى تأثر لسانه بها ، فصار يتحدث حديثاً أغلبه فصيح وأقله عامى ، وجعل الصحفى يحمل على هذا الأديب ، لأن كلاماً

(١) أقيمت فى يوم الجمعة ٩ صفر سنة ١٣٧٩ هـ ١٤ اغسطس ١٩٥٩ م .

(٢) انظر جريدة الاخبار (نحو النور) يوم الاثنين ١٠/٨/١٩٥٩ م .

له جاء فيه ألفاظ لم يفهمها سامعوه مع أنهم مثقفون يحملون شهادات جامعية ،
فهذا طيب لم يفهم كلمة : « وفي غضون هذه المدة » ، وهذا آخر لم يفهم
كلمة « حينئذ أتئاءب » .

ونحن نتذكر أن الرسول صلوات الله عليه قد نهى فعلا عن التعقر
والتشدق ، وعن التفيق والتبظع في الكلام ، وأنه قال : « نحن معاشر الأنبياء
أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم » . ولكن كتابة
الصحفي كان يبدو فيها روح السخرية بالرجل الذي أحب اغته وتأثر بها وحافظ
عليها ، ونسى هذا الصحفي أو تناسى أن يستنهض همم الجاهلين بلغة وطنهم
ودينهم ، لكي يتعلموا فيها ما يكفي لفهمهم الأسلوب الفصيح المتوسط . .

إن الإسلام يوجب على أبنائه أن يتعلموا العربية ما استطاعوا ، لأنها لغة
قرآنهم ، ولغة نبيهم ، ولغة أجدادهم وأسلافهم الذين نشروا الإسلام ،
ولأنها لغة أهل الجنة يوم القيامة كما أخبرنا الرسول ، ولا يستطيع المسلم أن
يدرك بلاغة القرآن وطلاوته إلا إذا فقه العربية ، واللغة من أقوى عوامل
الوحدة ، فلا بد للمسلمين من لغة مشتركة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم ، لأن
الله تبارك وتعالى أراد المؤمنين أمة واحدة ، وجعلهم إخوة ، ودعاهم إلى
التعارف والتآلف ، ولا يتيسر هذا إلا بلغة واحدة ، ولا يمكن أن تكون
هذه اللغة غير العربية الفصحى التي نزل بها أعظم كتاب على أكرم رسول . .
ولقد قال الباحثون إن الاتحاد لا يتم ولا يكمل بين الأمة إلا إذا كان لها لغة
واحدة ، وطالما تمت أمة أن تكون لها هذه اللغة الموحدة ، وكأن الله تبارك
وتعالى قد أراد أن يجمع عباده المؤمنين على لغة واحدة وهي اللغة التي اختار
لها أن ينزل بها خير كلام في الوجود ، وهو القرآن المجيد ، ولقد قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والآب واحد ،

وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى^(١) .

ونحن نتلاقى بإخوة أشقاء لنا من أطراف العالم العربى ، فنجد لكل طرف لهجة عامية خاصة به لا نكاد نعرفها أو نفهمها ، ويعسر علينا التفاهم مع هؤلاء الأشقاء بلهجتهم أو لهجتنا ، فإذا فزعنا إلى اللغة العربية الفصحى واستخدمناها فى الحديث سهل علينا التفاهم . . وما أعظم حكمة الإسلام حين ضمن لأسماع المسلمين أن تصغى أينما كانت الخطبة الجمعة التى تلقى باللغة العربية الفصحى فى كل أسبوع ، وأن تسمع كلمات الأذان الإسلامى باللغة العربية الفصحى تتردد فى الأسماع كل يوم خمس مرات داعية إلى الصلاة ، تتردد كلمات هذا الأذان خمس مرات أخرى كل يوم فى الإقامة عند الشروع فى الصلاة ، ثم يسمع المصلون صوت الإمام فى الصلاة الجهرية ثلاث مرات كل يوم وهو يردد فاتحة الكتاب وجانباً من آياته باللغة العربية الفصحى ، وملايين الشفاه المؤمنة تستجيب لربها وتردد كل يوم على انفراد أو على اجتماع آيات القرآن العربى البليغ ، ويأمرنا الحق تبارك وتعالى بالانتباه والإصغاء لكتابه إذا ترددت على الأذان كلماته : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » . . أليس هذا كله حملاً من الله عز وجل لنا على ربطنا المستمر الدائم باللغة العربية الفصحى لغة القرآن حتى تكون جامعة لنا على منهج واحد فى الحياة والتفكير والتعبير ؟ ! . .

ونحن نستعرض أحوال الأوربيين فنجد لهم عناية كبرى بلغاتهم والمحافظة عليها ونشرها بين أبنائهم وخارج أوطانهم ، وهذه هى اللغة الإنجليزية مثلاً تغمر أكثر من نصف العالم ، والإنجليزى يفاخر بهذه اللغة ، ويتحدث بها فصيحة نقية ، حتى أنه لا تكاد توجد لغة عامية بين الإنجليز كعاميتنا ، وذلك

(١) الوحى المحمدى لرشيد رضا ص ٢٣١ .

من عنايتهم بتجويد لغتهم ونفى الدخيل عنها ، ومن عنايتهم بنشر الثقافة ، فكلما اتسع نطاق الثقافة وتأصلت شاعت معها اللغة الفصحى وقلت معها العامية ، والأمة الضعيفة في ثقافتها تشيع فيها اللهجات العامية ، لأن لغة الثقافة واحدة موحدة لا تتعدد ولا تتشعب . . . ومن المضحك المبكى أنه ما زال بيننا فريق من المصابين بمركب النقص ، فهم يفنون في غيرهم ، ولا يعنون بحفظ شخصيتهم القومية أو الاعتزاز بكرامتهم الوطنية ، فتراهم يلوون ألسنتهم بلغة غيرهم من الأجانب كالفرنسية والإنجليزية ، ولو أنهم لووها بهذه اللغات مع إجادتهم للغتهم العربية القرآنية لما كان هناك بأس ، فإن تعلم اللغات أمر يندب إليه الإسلام وقد جاء في الأثر الإسلامي : « من تعلم لغة قوم أمن مكرهم » . ولكنهم يلوون ألسنتهم بهذه اللغات الأجنبية عنهم وهم بلغة وطنهم ودينهم جاهلون ، وتراهم يبالغون في الحرص على النطق بالكلمات الافرنجية في دقة وضبط ، يراعون مخارج حروفها ونغمة صوتها وهيئة التلفظ بها ، وإذا سمعوا شخصاً ينحرف — ولو قليلاً — في نطق كلمة أجنبية ، فلم يعطش مثلاً الجيم من كلمة « أوكسجين » أو لم يضغط على الباء من كلمة « بليز » هاجوا وماجوا ، وشنعوا على الخطأ وطالبوا بالتصحيح ، ولكنهم هم أنفسهم وغيرهم قد يتكلمون بالعربية فيخطئون فيها الأخطاء الفظيعة الشديدة ، دون أن يتحرك منهم ساكن حرمة هذه اللغة العربية الإسلامية الرفيعة ، وقد يخطئون أخطاء شنيعة فظيعة في آيات القرآن ، فإذا راجعهم مراجع استنكروا هذه المراجعة ، وقالوا إنهم ليسوا خلفاء سيديوه ، أو ليسوا أساتذة لغة عربية ، أو ليسوا من علماء الأزهر . . فلم تغارون إذن أيها الناقصون هذه الغيرة المسرفة على لغة الإنجليز والفرنسيين ، ولا تغارون بعض هذه الغيرة على لغة آبائكم وأجدادكم ، ولغة قوميتكم وعقيدتكم ؟ ألا شأهت الوجوه ، وذلت الأعناق ، ولا يرغم الله ، إلا هذه المعاطس إن شاء الله ! ! .

إن قوماً يكيلون للإسلام والعروبة يبذلون جهودهم الأثيمة لنشر العامية وضياح الفصحى ، حتى تنمى معالم القومية الصحيحة ، وحتى تنقطع صلة المسلمين بقرآنهم العربى المبين ، وإن طوفان العامية اليوم غامر كاسر ، بطاردنا فى الأحاديث العادية ، وفى الإذاعة المتغلغلة ، وفى ساحات الدروس بالمدارس والمعاهد ، وأما الفصحى فياحسرة عليها ، وهى لغة القرآن وقوام العروبة وعز العرب . . . لقد صارت أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام ، وأصبحت غريبة لا تجد لها جنوداً أو أنصاراً ، وأمام هذا يجب علينا أن نشجع كل سبب يؤدى إلى نصره الفصحى وإذاعتها ، لا أن نسخر منها أو من أهلها ، ولو أن الفصحى سادت بيننا وتحكمت فينا لجاز لنا عندها أن نقول : خففوا من غلواء هذه الفصحى ، وأقوى سبب يحفظ الفصحى ويصونها وينشرها هو حفظ القرآن الكريم أو ترديد النظر فيه وتحريك اللسان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يجب على كل مسلم منا أن يتعلم ما يستطيع من لغة دينه وقرآنه وهى العربية ، وأن يحرك لسانه كل يوم بجانب من سور القرآن أو آياته ، ليعوده بهذا البيان العربى الإلهى المشرق الجوانب ، وأن يحرص على مطالعة ما يستطيع من أحاديث الرسول ، وأن يطالع الممتع المفيد من كتب الأدب العربى والبيان السليم ، حتى يغرس فى صدره الألفة لهذه اللغة العظيمة ذات الأسرار والأعاجيب ، ويجب على كل مسلم منا أن يعلم أبناءه لغة دينه وقرآنه ، وأن يبدأ بها قبل أن يطنى عليها سواها من لغات الأجانب أو رطانات الأعاجم أو فساد اللهجات ، والله يهتدى إلى صراط مستقيم .

أدركوا لغة القرآن^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل أمة الإسلام خير الأمم ، وزكاها من العالمين بالعلم والعمل : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله « الرحمن » ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علم البيان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتى جوامع الكلم وصوادر الحكيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

خفق قلب أمتنا هذا الأسبوع خفقات حارة ملتهبة حينما استقبلت بظلة الجزائر « جميلة » لأن الأمة تذكرت وهى تستقبلها ما نالها من تعذيب مرير على أيدي الطغاة البغاة المجرمين من أبناء فرنسا ، الذين احتلوا الجزائر أكثر من مئة وثلاثين عاماً بقوة الحديد والنار ، يمتصوا دماءها ، ويزهقوا روحها العربية والإسلامية ، ويستغلوا خيراتها ، ويزعموا كاذبين أنها قطعة من بلادهم ، لا يقبلون المساومة فيها أو الرحيل عنها ، ولقد رأيت فتاة الجزائر « جميلة » وهى تخطب فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة^(٢) ، ولم تستغرق خطبتها سوى دقائق معدودة ، أتدرون السبب فى ذلك ؟ . إنها لا تعرف - وهى الفتاة العربية الحرة الأصيلة - كيف تخطب باللغة العربية ، والسبب فى ذلك هو فرنسا البغى الأثيمة اللعينة التى حاولت بكل وسيلة دنية

(١) أقيمت فى يوم الجمعة ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٢ هـ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٢ م .

(٢) يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٢ م .

أن تمت اللغة العربية في الجزائر ، لأنها اللغة القومية ، ولأنها لغة العروبة ، ولأنها لغة القرآن ، كما حاولت بكل وسيلة أن تزهد روح الإسلام في الجزائر ، لأن الإسلام هو الدين الإلهي الخفيف الذي يدعو إلى الحرية والعزة والكرامة وإبلاء الضيم ، والمجاهدة للدخلاء غير المسلمين حتى تكون لا لهم سيادة أو كلمة على أبناء الإسلام : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وقفت « جميلة » لتتكلم في ذلك الحفل الحاشد ، فاستقبلت من جمهور الحاضرين بعاصفة من التصفيق الشديد والهتاف المدوي وبدأت كلامها بالعربية في صعوبة ، وما كادت تبدأ كلامها بقولها : « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى زادت عاصفة التصفيق وتضاعفت شدتها من الجمهور المسلم المؤمن الذي تنطوى صدوره على فطرة الإيمان ونزعة التدين ، حتى ولو أهمل فريق منه شعائر دينه وتعاليم شريعته ، وكأن كلمة « بسم الله الرحمن الرحيم » التي بدأت بها فتاة الجزائر كانت شرارة كهربية هزت السامعين ، وذكرتهم أنهم يجتمعون مع المتكلمة في أكثر من رابط ، على رأس هذه الروابط يأتي رابط الدين وعادت « جميلة » لتقول : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فازدادت عاصفة التصفيق والتهليل علواً وسمواً ، واستمرت طويلاً . وخيل للجمهور أن فتاة الجزائر المناضلة ستنتقل في حديثها إلى أشقائها وشقيقاتها باللغة العربية المبينة التي نزل بها القرآن ، وتحدث بها محمد ، وتحدث بها العرب خلال القرون والأجيال ، وتحدث بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها . وصار لنساء بها أدب جليل وتراث فكري عظيم^(١) ، وإذا الفتاة تعتذر في خجل لعجزها عن التكلم باللغة العربية ، لأن الاستعمار الفرنسي لم يهيئ لها الجو الذي تتكلم فيه لغة وطنها ودينها ، ثم تكلمت بالفرنسية دقائق معدودة ، وخيم على الجمهور

(١) راجع مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع في كتاب « وسائل تقدم المسلمين » ص ١٢٨ .

صمت رهيب ، إذ لم يتوقع ولم يفهم ، ولم يقطع هذا الصمت إلا أصوات تقول : « نريد الترجمة » . .

وانتهت الخطبة وأنا أحس في قلبي بمس أليم كمس الخنجر المسموم ، لما صنعه بغى الفرنسيين في الجزائر حتى أضاءوا معالم قوميتها ولغة عروبتها ، ولولا جمعية العلماء الجزائريين المسلمين بالجزائر ، ولولا مدارسها العربية الإسلامية التي جاهدت ما جاهدت حتى فتحتها وأنفقت عليها لما بقي للعربية ولا للإسلام أثر هناك ، وتذكرت حفلاً أقنانه باسم الجزائر منذ قرابة سبع سنوات في دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ووقف فيه شاب جزائري يخطب فحاول أولاً أن يتكلم بالعربية ولم يكذب ينطق ببعض الجمل في صعوبة حتى انفجر باكياً ، وقال لمستمعيه : اعدروني لأنني لا أستطيع الكلام باللغة العربية ، وهذه جناية الاستعمار وجناية فرنسا علينا وأخذ يتم حديثه بالفرنسية فحزنت يومها حزناً شديداً ، لأنها لو كانت اللغة الأردنية أو الفارسية أو الأندونيسية لحف الأمر وهان ، فإن هذه لغات شرقية وشقيقة ، ولو كانت الانجليزية لما جلت الكارثة بهذه الصورة ، ولكنها الفرنسية لغة الأمة الداعرة التي أذاقت الجزائر الهول والبلاء ، وألوان العنت والشقاء ؛ وكأن فرنسا أرادت أن تسخر من أبناء الجزائر فطبعت ألسنتهم على لغتها ، حتى إذا قالوا : لقد استقللنا وتحررنا ، أخرجت لهم فرنسا اللثيمة لسانها ساخرة وقالت : وكيف تقولون إنكم تحررتم أو استقللتم ، وهذه ألسنتكم ما زالت مقيدة بقيود لغتنا ، حتى أنكم تبدون وكأنكم فرنسيون ؟ !

ألا ما أعظم التبعة الملقاة في أعناق العرب والمسلمين عامة ، وأعناق أبناء الجزائر الأشقاء خاصة ، أمام هذا الأمر الخطير ، فقد كانت الجزائر دولة

عربية إسلامية حرة ، تتجلى في أنحائها صبغة العروبة وروح الإسلام ، ثم جاءها الاحتلال البغيض ، وما أشد وطأته وأثقل مصيبتة ، ثم قامت الثورة ، وبذل فيها أبناء الجزائر الأبطال ما بذلوا ، وصبروا في ميدانها ما صبروا ، وقدموا في ساحة التضحية والفداء ما يقرب من مليون ونصف مليون من الشهداء ، ثم نالوا الحرية والاستقلال بعد سبع سنوات عجاف ، وهذا الاستقلال له تبعاته وواجباته ، وله ثمنه ومنزلة ، وهو يصبح عديم القيمة عقيم الثمر إذا لم نطرد الاستعمار الأجنبي الأثيم من الدواوين والألسنة وموائد الطعام ومجالات التعليم والثقافة ، وكل ناحية من نواحي الحياة ، إذ لا يكفي أبداً أن أطهر بلادى من الجندى الدخيل ، بل يجب أن أطهر لسانى من سيطرة لغته ، وأطهر ثقافتى من سيطرة ثقافته ، وأن أبنى من جديد مجتمعاً عربياً إسلامياً ، تسوده العروبة بلغتها وتقاليدها ، ويقوده الإسلام العظيم بهديه وتعاليمه .

إن الخبر الوحيد الذى يعزينا أمام هذا الواقع الوجيع الأليم الذى سببه الاستعمار الفرنسى خلال سنوات الاحتلال الطويلة الويلة ، هو أن الجزائر الشقيقة الحبيبة الغالية قد طلبت من الجمهورية العربية المتحدة ثلاثة آلاف متخرج من علماء الجامع الأزهر الشريف لتعليم اللغة العربية ونشر التعاليم الإسلامية في ربوع الجزائر الحرة ، ولا شك أننا نتمنى من هؤلاء العلماء أن يكونوا الرواد الأمناء الذين ينبثون في كل مكان ، ويسلكوا كل شعب وواد ، ليطاردا الكلمة الفرنسية الأجنبية ، ويغرسوا الكامة العربية الأصيلة ويتناولوا كل لسان جزائرى ليحصنوه بلغة القرآن وهدى الإسلام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

اذكروا جيداً أن لغتكم جزء من دينكم : لأنها لغة قرآنكم ونايكم وتاريخكم
وفى سيادتها سيادة لعقيدتكم ومبادئكم : فاحرصوا عليها فى كل مكان يناسبه
الحرص عليها ، وذودوا عنها عدوان المعتدين وسهام الدخلاء : واعلموا أن
أن الأمة لا شخصية لها بدون لغتها ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً
إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين
هم محسنون .

في مؤتمر الأدباء^(١)

الحمد لله عز وجل ، أكرم الإنسان بالعقل والجنان ، وأيده باللسان والبيان : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب البقاء للخلق والخير ، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد في سبيل ربه بقوله وعمله ، ولسانه وسنانه ، فكتب الله له العزة والقيادة ، والرفعة والسيادة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بمقاله وفعاله ، أولئك « يرجون تجارة لن تبور » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أنا عائد إليكم من مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقدت جلساته في الكويت حيث اجتمع نحو مائتين من أدباء هذه الأمة العربية وكتابتها ومفكراتها وأصحاب الرأي والبيان فيها ، ليتدارسوا شئون القلم والكلم ، وأمور الأدب والكتب ، ولا شك أن هذه أمور لها مكانتها ومنزلتها في نظار الإسلام ، فإن أول ما نزل كتاب ربنا جل جلاله فيه تمجيد للقلم وهو وسيلة العلم والأدب ، وفيه أمر بالقراءة وهي مفتاح التفكير والتعبير : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . ويعود القرآن فيقسم بحرف الكلمة وهو « النون » وبالقلم وهو الذي

(١) الجمعة ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ ٢ يناير سنة ١٩٥٩ م

يخط به الكتاب ما ينشئون وبما يسيطرون أى ما يكتبون ، فيقول : « ن والقلم وما يسطرون » ويعود فيذكر نعمة الله الكبرى على الإنسان بتعليمه البيان وهو التعبير عما فى الضمير فيقول : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » . وكذلك أخبرنا قرآن ربنا وحديث نبينا أن نخلقنا ومبدعنا قلماً ولوحاً محفوظاً ، ومجد الرسول الأدب والبيان حين قال : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة » وقال : « المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه » . فعناية الأمة بأدبها وكتاباتها عناية يباركها الإسلام ويرتضيها رسوله عليه الصلاة والسلام . . .

وكان الموضوع الرئيسى للمؤتمر هو البطولة فى الأدب ، وظللنا تسعة أيام فى جلسات موصولة صباح مساء ، نستعرض نماذج البطولات والعقريات فى أدب هذه الأمة العربية ذات التاريخ الطويل فى مختلف العصور ، وعلى الرغم من اصطباغ المؤتمر بالصبغة القومية الواضحة ، ووجود غير مسلمين فيه فإن موضوعه لم يتيسر له التخلص من روح الإسلام ، لأنك لا تستطيع أبداً أن تفصم العروة الوثقى التى أوجدتها يد الله تبارك وتعالى بين العروبة والإسلام ، فالعروبة وعاء هذا الإسلام ، والإسلام روح هذه العروبة ، ولذلك كانت أكثر البطولات التى استشهد بها الباحثون والمتحدثون فى المؤتمر بطولات إسلامية زكته اليد الإلهية وطهرتها الروح الدينية ، وإن لم يعن أغلب المتحدثين بتجلية هذه الناحية ، ولو أننا سمينا ديناً من الأديان بأنه دين البطولة والبطولات لكان أحق الأديان بهذه التسمية دين الإسلام ، لأنه دين قد جاء ليصنع البطولات ، أو يهذب البطولات ، فالعالمقة من أبنائه الذين كانوا جبارين فى الجاهلية من أمثال عمرو خالد وأبى سفيان قد هذب الإسلام بطولتهم وأحسن توجيهها ، واستخدم طاقاتهم ومواهيمهم فى ميادين الخير والبر ، فازدادوا تألقاً واتماماً ، وكذلك « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » كما يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

وكذلك صنع الإسلام بطولات وبطولات . . . أليس من البطولة كل البطولة أن يخرج الإسلام من رعاة الشاء والغنم هداة الشعوب وقادة الأمم ؟ .. ومن القبائل المتفاخرة المتنافرة المتناحرة أمة واحدة موقنة شاكرة ، ومن عبدة الأصنام والأوثان مؤمنين موحدن خاشعين للرحمن ؟ . . أليس مما يعلو على البطولات كلها أن نسمع رسول الصلاح والإصلاح محمداً يتحدى قوى الشرك والبغى ، وهو فى قلة من أتباعه وأنصاره ، فيقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ؟ . . . أليس من أرفع ألوان البطولات أن نسمع الشيخ البكاء الوقور أبا بكر الصديق يتحدى المتمردين من المرتدين فيهتف : « والله لو منعونى عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » ؟ . وهكذا نستطيع أن نمضى فنذكر مئات من ألوان البطولات التى تخرجت فى مدرسة الدين الحنيف الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور . . .

ومن أجل هذا قلنا للقوم هناك : إذا كنتم تؤدون حق الوطن فتفتتحون الساعات فى الحديث عن القومية والتأييد لها فلا تنسوا أن تجعلوا بجوار هذه الساعات ساعة أو ساعات للحديث عن الإسلام عقيدة هذا الجمع الكبير الهائل من أبناء العرب الذين يكافحون من أجل قوميتهم ووطنيتهم ، وليس ييسر عندهم أن يهون عليهم دينهم الذى ارتضاه لهم ربهم وخالقهم ، وإذا كنتم تبذلون جهوداً ضخمة لمحاربة الشعوبية الأثيمة والانحراف عن القومية السليمة ، فابذلوا جهوداً مثلها لمحاربة الإلحاد والزندقة ، لأن الذين لا دين لهم ولا إيمان عندهم لن تكون لهم قومية صحيحة ، ولن يغاروا غيرة صادقة على ديار أو أوطان . . . وأخشى ما يخشاه الإنسان أن يسرف مسرفون فى التعصب

للنزعة القومية والاقتصار عليها ، مارجين العقيدة وراءهم ظهيرياً ، فيأتى يوم يتعصب فيه متعصبون أو يسرف مسرفون فى وجهتهم الدينية ، ناسين القومية أو متجاهلين لها ، فتصير الحرب سجالات بين الفريقين ، ويستغل ذلك أعداء الإسلام والعروبة معاً ، فإذا رأى هؤلاء الأعداء أن القومية العربية قد اشتد ساعدها ضربوها باسم الإسلام ، وإذا اشتدت سواعدها الوجهة الإسلامية ضربوها بالقومية العربية ، فتحسر النزعة القومية وتخسر الوجهة الإسلامية ، ولو أننا أحسننا التوفيق بين الإسلام والعروبة كما يجب أن يكون ، لسارا معاً فى موكب واحد تحفه المهابة والجلال ، وتتضاعف منه الخيرات والثمرات .

وقد لاحظنا أن عدداً كبيراً من المتحدثين فى المؤتمر لا يحافظون على الضبط اللغوى أو النحوى فى الكلام ، ويبدو أن هذا ناشئ عن عدم القرس بأسباب لغة القرآن ، وعدم الاستعداد الكافى من ينبع الأدب العربى الصميم الذى أشرق وتضوأ تحت لواء الإسلام ، ولعل ملكاتهم وألسنتهم قد نالها الانحراف لأنهم طعموا من آداب غريبة أو قراءات سطحية لا تسمن ولا تغنى من جوع ، كما لاحظنا أن الدين نشأوا نشأة تعليمية موصولة الأسباب بالقرآن الكريم هم أقل الأدباء والخطباء لحناً وأكثرهم رعاية لقواعد العربية ، وكأن الله عز وجل قد أودع فى قرآنه من أسرار تقويم اللسان وتصحيح البيان وتجويد اللغة ما يعمل عمل السحر العجيب فى تهذيب النطق والملاكمة البيانية وضبطها عند صاحبها . ومن الواجب علينا قومياً وإسلامياً أن نعطى العناية الوافية بلغة القرآن وأدب العرب الذى صفاه ونقاها روح الإسلام ، لأن هذا من أول شرائط القومية ، فالباحثون فى القوميات يذهبون إلى أن اللغة هى أقوى الروابط والدعائم للقومية ، والعناية بلغة العرب طريق لحسن الفهم عن القرآن العربى المبين

الذى تردد فى خلد الزمان آيات بينات ، محكمات معجزات : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . هذه خواطر عاجل عن موضوع له جلاله وخطورته ، وإذا كان لنا أن نأخذ منه عبرة ، فهى أن نؤدب أولادنا بأدب الإسلام وتربية الإسلام من أول الطريق ، فلنقوم ألسنتهم ولنصحح لغتهم ولنضبط تفكيرهم وتعبيرهم بالاغتراف من منهل القرآن وبكثرة الترتيل له فإنه المعجم الأدبى اللغوى الإلهى الذى تستقيم به الألسنة وتعادل الأفكار ولنضف إلى ذلك زاداً من أدب الرسول ومن الآثار الأدبية المزكاة بنور الإسلام خلال العصور التى ازدهرت بروعة البيان مع جلال الإيمان ولتمكنهم من مطالعة السير ، والتاريخ الإسلامى ليتعرفوا إلى بطولات فيها عروبة ومعها إسلام وفيها قوة ومعها إيمان ، وفيها عبقرية ومعها هداية ربانية لنجمع بين أدب وعقيدة ، وبين قومية ودين ، والله يهدى العاملين واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون .

امتحان للأمة^(١)

الحمد لله عز وجل ، تقلست أسماؤه ، وتعال كبرياؤه : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل القرآن ضياءً لخلقهم وتبياناً لحقه : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتر بعزة الإيمان ، واهتدى بهدى القرآن : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الثابتين في يقينهم ، وأصحابه الأوفياء لإيمانهم ، وأتباعه الناصرين لدينهم : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تعرض الأمة العربية المؤمنة في هذه الآونة الفاصلة من تاريخها لتجربة شديدة قاسية ، سببها أعداؤها وادعيائها والدخلاء عليها ، فأخذوا يحاولون صدع بنيانها ، ولزهاق إيمانها ، وزلزلة كيانها ، فهم يكيّدون لها بالليل والنهار ، وهم يعوقون نهضتها بالجهل والإسرار ، ولم يكتف أعداء هذه الأمة ببلاء واحد ، بل صوبوا إليها سهام كيدهم ورمح يؤمهم ، حتى تكسرت النصال على النصال ، فالاستعمار بنخبته وحياله ، والإلحاد بقتاه وإجرامه ، والشيوعية بكفرها وفجورها ، والخارجون على وحدة الأمة بأهوائهم ونزواتهم ، وأذئاب أعدائها بوضاعتهم وآثامهم ؛ كل هذه البلايا تواجه الأمة محاولة قص أجنحتها وعرقلة سعيها وصددها عن أهدافها ، ولكنها تمضي بعون

(١) الجمعة ١١ من رمضان سنة ١٣٧٨ هـ ٢٠ مارس ١٩٥٩ م .

الله تشق طريقها بين المصاعب والمتاعب ، موقنة بأن الليل وراءه نهار وأن الإيمان يعقبه انتصار ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولعل أشد الأخطار التي تتعرض لها الأمة أن يشد عن طريقها نفر من المنتسبين إليها المحسوين عليها ، فينالون من وحدتها ، ويفتحون الأبواب لنفوذ أعدائها إلى كيائها ، والداء إذا انبعث من الداخل وحاول التمكن من الأعماق كان أدهى وأنكى من علة تهاجم من الخارج فتجد أمامها حوافز الدفاع والمقاومة . . . ومن ذا الذي كان يتصور أو يعقل أن يتردد في وطن العروبة وعلى مسمع أمة الإسلام هتاف يقول : « لا عروبة ولا إسلام » ؟ ! .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . . . إنها كلمة تطعن نصفها الأول جموع العرب الذين يؤمنون بأنهم سلالة العروبة المؤمنة التي صنعت الأعجاد وزانت التاريخ ، وكان لها رصيدها الطويل العريض من المفاخر والمآثر ، إذ نصفها الثاني المسلمين ، الذين يحيون بالإسلام ، ويعيشون عليه ، ويضحون سبيله ، وكل منهم يهتف :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعي

وإذا قال الذين يكفرون بدينهم وقوميتهم : « لا عروبة ولا إسلام » فماذا يبقى ؟ . . . أتبقى الشيوعية التي تقول إن الدين خرافة ، والتي تلغي كيان الفرد وتستعبده للدولة ، والتي تتخذ من الشعب أحجاراً لحرم ضخم تربيع على قته الدولة في استبداد وجبروت ؟ ! . . وماذا ينتقم هؤلاء من العروبة ؟ أينقمون منها أنها وريث الناس في عصورها المزهرة المؤمنة المواريث الضخمة السامية من مكارم الخصال ومحامد الفعال ، وأنها كانت وعاء الإسلام فحملت أمانته وأدت رسالته ونشرت أضواءه في العالمين ؟ . . وماذا ينتقم هؤلاء من الإسلام دين الحرية والعدالة والمساواة ؟ . أينقمون منه أنه قرر وحدة الجنس

البشرى فقال : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ؟ أم ينقمون منه أنه سوى بين الناس ولم يقدم أحداً على أحد إلا بالعمل الصالح فقال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ؟ أم ينقمون منه أنه جمع الأمة على كلمة سواء فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ؟ أم ينقمون منه أنه نزه الدين عن الاستغلال والاحتيال فقال : « ألا لله الدين الخالص » ؟ أم ينقمون منه أنه حرر المستضعفين من بنى الأكاسرة والقيصرة ، وأطلق الجموع التى كانت تكبل بالسلاسل لتحقق للجبابة شهواتهم وللطغاة آربهم ، وقال قولته السائرة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟ !

وهذا القرآن المجيد الذى سرت الأنبياء بأنهم مزقوه وأحرقوه ، أى ذنب جناه ؟ وماذا غاظهم من نوره وهداه ؟ . . أغاظهم أنه قرآن كريم « فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » ؟ أم غاظهم أنه كتاب يدعو الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؟ . أفحسبوا أنهم يقضون عليه بما فعلوا ؟ ألا ساء ما يحسبون ، « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » والله متم نوره ولو كره الكافرون « ... لأنهم حين يمزقون القرآن يحاولون أن يمزقوا الإسلام ويقضوا على المسلمين ليحققوا مأرباً للاستعمارى المشهور « غلادستون » رئيس وزراء انجلترا منذ عشرات من السنين حين وقف فى مجلس العموم البريطانى صائحاً : « لن نستقر أبداً فى مستعمراتنا بالبلاد الإسلامية إلا إذا قضينا على أمرين : أولهما القرآن وثانيهما الكعبة » ! ! ! .

وهذا التفريق للكلمة والتزيق للشمل . . أليس إجراماً فى حق الأمة التى

لا تسلم ولا تأمن إلا بالوحدة والجماعة ؟ أليس محاربة لله الذى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ومحاربة لرسوله الذى يقول : « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار » ويقول : « من فارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية » ؟ . . والشعوبية التى تحقر العرب وتصغر شأنهم وتنكر فضائلهم ، ما مدى قربها من الإسلام ؟ لأنها تصغر العرب وهذا يقتضى تصغير لغتهم وهى لغة القرآن الذى أنزله الله عربياً غير ذى عوج ، وتحقير العرب يقتضى الأعلام من سادات العرب الذين استجابوا لله والرسول ، وبذلوا فى سبيل العقيدة وتحرير العالم النفوس والنفائس وتحقير العرب يقتضى تكذيب الصادق الأمين والتطاول عليه لأنه النبي العربى الذى يقول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ويقول : « أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى ، ولأن القرأت عربى ، ولأن لسان أهل الجنة عربى » . . .

ولكن رب ضارة نافعة أيها الناس « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فقد ظهرت الاستهانة بالدين ، وشغلت المسلمين عن عقيدتهم شواغل مختلفة ، ثم صرح لؤم الملحدين عن طويته ، واستعلن المبطلون بباطلهم ، وتوقع المفسدون فى ضلالهم ، فإذا القرآن يمزق ، وإذا المجرمون يرددون : « الدين خرافة ، والقرآن كاذب » ، فكان من جراء ذلك أن ثارت الأمة ، وظهرت منها الغضببة لله ولقرآنه ودينه ، حتى الذين لم نعرفهم بتدين سابق غضبوا وثاروا ، ولعل هذا من عجيب صنع الله لدينه ، فقد كشف لنا ما يضمره الإلحاد الأثيم والكفران اللئيم من خبايا وطوايا ، فأدرك الجميع مبلغ الخطر الذى يهددهم ، وعرفوا أنه لا بد من وقفة حازمة ترد على الأمة وحدثها ، وعلى العقيدة كرامتها ، وتضرب على أيدي الذين يثيرون الفتنة

عزم وصرامة ، وثبتت دعائم القومية بسنادها القوى المتين من الإيمان واليقين ، « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . الغمرات ثم ينجلينا ، وتأتى الأحداث وتمضى ويبقى الرجال كما هم ، فلنعتصم بوحدةنا ، وانستمسك بعقيدتنا ، ولنقف في وجوه أعدائنا ، والله معنا ومن ورائنا : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . .

محمد سيدنا^(١)

الحمد لله عز وجل « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون »
أشهد أن لا إله إلا الله ، هو قيوم السموات والأرض : « قل الله خالق كل
شء وهو الواحد القهار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان عبد الله
ونبيه ، وحبيبه وصفيه ، وكان خير القانتين ، فصلوات الله وسلامه عليه ،
وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم
بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تلقيت من بعض الإخوة الذين يصلون معنا رجاءين متناقضين ، فأحدهما
يلاحظ أنني أصف النبي عليه الصلاة والسلام بوصف « سيدنا » حيث أقول
دائماً . . . أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ويقول الرجاء أن السيد هو الله
تعالى ، ويرجو أن لا أذكر وصف السيادة ، وأن أكتفي بوصف النبوة
أو الرسالة ، والرجاء الثاني يلاحظ أنني أقول بعد مقدمة كل خطبة :
« يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام » ولا أذكر وصف السيادة ، ويرجو أن
أذكر هذا الوصف في كل مرة أذكر فيها رسول الله عليه أفضل الصلاة
والسلام .

طالعت الرجاءين وتأملت فيهما طويلاً ، وتحيرت بينهما زمناً ، ثم قلت :
حقاً إن رضا الناس غاية لا تترك ، واختلاف وجهات النظر يؤدي إلى تباين
الآراء وتعدد الأفكار ؛ فمع أن الأمر في طرفيه لا يتعدى دائرة الجواز

(١) الجمعة ١٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ ٨ فبراير سنة ١٩٦٢ م .

والإباحة ، ومع أننى أتوسط فى الأمر فأذكر وصف السيادة تارة وأتركه تارة ، فلانى لم أرض الأول ولا الثانى ، ومن ثم احتاج الأمر إلى شئ من البيان ، فكلمة « السيد » لها عدة معان أهمها ثلاثة : الأول أنها تكون وصفاً لله تعالى إذا أطلقت دون إضافة أو قيده ومن هنا قال الرسول فى بعض أحاديثه : « السيد الله » ، والثانى بمعنى الرجل الذى يسود قومه ، أى يسبقهم ويترأس عليهم بالعلم أو الكرم أو الصلاح وعمل الخير ، ولذلك قيل إن السيد هو المتولى للسواد ، أى الجماعة الكثيرة ، ولما كان من شرط المتولى للجماعة أن يكون مهذب النفس قليل لكل من كان فاضلاً فى نفسه : إنه سيد^(١) ، ومن هذا القبيل وصف القرآن الكريم ليحيى بن زكريا بأنه كان « سيداً وحصوراً أو نبياً من الصالحين » . قال المفسرون إنه كان سيداً بالعلم والعبادة ، وبذلك صار رئيساً للمؤمنين . والمعنى الثالث للسيد هو الزوج ، ومن هذا القبيل قول القرآن الكريم فى قصة يوسف وزليخا : « وألقيا سيدها لدى الباب » أى زوجها^(٢) . ومنه أيضاً ما جاء فى حديث عائشة حين سألتها امرأة عن الخضاب ، فقالت عائشة : « كان سيدى رسول الله ﷺ يكرمه ربه » أى زوجى ، وكذلك قالت أم الدرداء : « حدثنى سيدى أبو الدرداء » أى زوجى . وفى وصف القرآن ليحيى بأنه كان « سيداً » ما يدل على جواز تسمية الإنسان سيداً ، كما يجوز أن يسمى عزيزاً وكرماً ، ولقد قال الرسول الأنصار : « قوموا إلى سيدكم » ، يعنى كبير الأنصار سعد بن معاذ ، وفى الصحيحين أن الرسول قال عن الحسن « إن ابنى هذا سيد ، وامل الله يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . ولقد قيل لرسول الله : من السيد ؟ فقال : يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ،

(١) فى تفسير الطبرى : « السيد مأخوذ من سواد الشخص فقيل سيد القوم بمعنى مالك السواد الأعظم وهو الشخص الذى يجب طاعته لماله ، هذا اذا استعمل مضافاً أو مقيداً وأما اذا أطلق فلا ينبغى إلا لله » ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) فى تفسير المنار « أى وجدا زوجها عند الباب ، وكان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، واستمر هذا الى زماننا » ج ١٢ ص ٢٨٦ .

قالوا : فما في أمتك من سيد ؟ : قال : « بلى ، من آتاه الله مالا ، ورزق سماحة ، فأدى شكره ، وقلنت شكايته في الناس » . بل قال الرسول : « كل ابن آدم سيد ، فالرجل سيد أهل بيته ، والمرأة سيدة أهل بيتها » ^(١) . وقال صلوات الله وسلامه عليه عن نفسه « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . وقد قال هذا إخباراً عما أكرمه الله به من الفضل والشرف ، وتحديثاً بنعمة الله عليه ، ولذلك قال : « ولا فخر » أى إن هذه الفضيلة كرامة لم ينالها بقوة شخصه ، بل بفضل ربه ، فليس له أن يفتخر بها ، ولله الحمد والمنة .

ولكن القرآن الكريم مع هذا قد ذكر رسول الله عليه صلوات الله باسمه المجرد أكثر من مرة فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، وقال : « ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، وقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . فلو تابع الإنسان أسلوب القرآن فذكر رسول الله باسمه مجرداً في مواطن ملائمة لم يكن مرتكباً خطيئة أو جريمة ، كأن يقول مثلاً : « محمد مصلح الإنسانية ، محمد هادى البشرية ، محمد الذى حرر الإنسان ، محمد الذى ثبت دعائم الإيمان ، محمد خير من يسعى على قدم » إلخ .

وينبغى أن نتذكر أن الصيغة الواردة في الأذان هي : « أشهد أن محمداً رسول الله » والفقهاء ينهون عن قول المؤذن : « أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله » كما لا ينبغى أن يقول المؤذن : « أشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله » . وكذلك الصيغة الواردة في التشهد أو « التحيات » تقول : اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد . . إلخ ، وجمهرة الفقهاء على أنه يكره الإبتان بكلمة « سيدنا » عند الأذان أو الإقامة أو التشهد ، وإن كان وصف السيادة للرسول مباحاً ، لأننا هنا نتقيد بالصيغة الواردة ، والطاعة خير من الأدب

(١) وفي حديث قيس بن عاصم : « اتقوا الله وسودوا أكرمكم » . وفي الحديث : « لا تقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن كان سيدكم وهو منافق فحالكم دون حاله ، والله لا يرضى لكم ذلك » .

كما يقولون ، ولقد ورد في الحديث أن رجلاً قال لرسول الله : « أنت سيد قريش » . فقال : « السيد الله » ، أى هو الذى تحقق له السيادة الكلية المطلقة ، وكأن النبي كره أن يحمّد في وجهه ، وأحب التواضع ، ومعنى هذا أن تسويد النبي أمر مباح مندوب في غير العبارات الشرعية الواردة في العبادة ككلمات الأذان والإقامة والتشهد ، وأن ذكر النبي بصفات أخرى غير صفة التسويد أمر جائز ، إذ ليس ذكر هذه الصفة فرضاً أو واجباً أو سنة ماثورة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إن نبينا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الأولين والآخرين ، وهو سيد ولد آدم ولا فخر ، وإن نبينا هو محمد الأمين الذى ملأ كل مكان ، واستغنى عن النعوت والأوصاف ، فلا حرج علينا إذا سودناه وزكينا أوصافه كما زكاها الله عز وجل ، فإنه المستحق لكل تشريف وتعظيم ، ولا إثم إذا جاء اسمه الكريم متلاً لئلا وحده كما يتلأل البدر لا يحتاج إلى سند يقويه أو حلية تزكيه : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليتنا نشغل أنفسنا بالأصول قبل الفروع ، وبالواجبات قبل المنذوبات ، وليتنا نثنى على رسول الله خير الثناء ، ونسوده أفضل التسويد بأن نتبع هديه ، ونلتزم شريعته ، وننفذ ما دعا إليه ، فلو فعلنا ذلك لكان ثناءنا على رسولنا ثناء عملياً مذكوراً مشكوراً ، ولأحسننا عظمة محمد على وجهها سواء ذكرنا وصف السيادة مع اسمه أم ملأنا باسمه وحده أفواهنا وآذاننا ، فكان له أعمق التأثير في القلوب والعقول ، وسبحان من لو شاء هلكى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أتم به المؤمنين إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الرسول كما يصوره القرآن^(١)

الحمد لله الموجد من العدم ، البارئ للنسم ، الرازق للأفراد والأمم ،
ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو
صاحب الفضل والأمر بالعدل ، وهو أحكم الحاكمين ، وأشهد أن سيدنا
محمداً رسول الله ، صنعه الله على عينه ، وأيده بلطفه وعونه ، فكان خير
المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، التابعين من
أهل صحبته ، والسالكين طريقهم في نور هديه وسنته : « الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زلنا على مقربة من ذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ،
والحديث عن رسول الله لا يمل مهما طال أو تكرر : « وما أحلى مذاق الشهد
وهو مكرر » . والذكرى تدبر واعتبار ، وهي لا تثمر ثمرتها ، ولا تحقق
فائدتها ، إلا إذا أوجدت في نفس الإنسان تأثيراً يدفع به إلى هدى ، أو يصده
عن خنا ، ولذلك يقول القرآن : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »
ويقول : « فذكر إن نفعت الذكرى سيدكر من يخشى ، ويتجنبها الأثقى الذى
يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » . والحديث عن رسول الله
قد ملأ الدنيا وشغل الناس منذ حمل أعباء الرسالة إلى ما شاء الله ، وحق له ذلك
فإنه الحديث عن البطولة في أسنى معانيها ، وعن القدوة في أطهر مجاليها : « لقد
كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر

(١) الجمعة ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٩٢ هـ ٢٨ أبريل ١٩٧٢ م .

الله كثيراً . وإذا كانت هناك ألوان أو أشكال من الحديث عن الرسول ، فإن خير الحديث عنه هو ما ينطق به كتاب الله وتنزيله المجيد ، لأنه أصدق الحديث ، ومن أصدق من الله قيلاً ، ومن أصدق من الله حديثاً ، ولقد رسم القرآن الكريم للرسول العظيم صورة باهرة رائعة ، ينبغي أن يشغلنا استعراضها والتمعن فيها مرات بعد مرات ، وهذه الصورة للشخصية المحمدية تقوم في أصولها على خمسة عناصر ، هي التشريف ، والتكليف ، والربط بين التشريف والتكليف ، والتذكير بالبشرية وعدم القدرة أمام قدرة الله عز وجل والمعانية أو المحاسبة ، وفي كل عنصر من هذه العناصر عبرة وعظة لأولى الألباب .

ولذلك يحب المؤمن أن يبدي ويعين ، وأن يؤكد ويوطد ، الصورة الجليلة النبيلة ، العظيمة الكريمة ، التي رسمها كتاب الله العلي الأعلى لشخصية رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إن القرآن الكريم فيما يتعلق بتشريف الرسول وتكريمه ، قد ذكر آيات كثيرة رفعت شأن الرسول إلى أعلى عليين ، وجعلته خير الخلق أجمعين ، وأقرب الناس إلى رب العالمين ، فقال فيما قال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال يخاطب الرسول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقال : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » ، وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، بل زاد القرآن نبي القرآن تكريماً وتوقيراً وتشريفاً ، حينما أخبرنا بأن طاعة الرسول من طاعة الله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وأن متابعتة ومحبتة من محبة الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وأن مبايعته من مبايعة الله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وأن حكمه من حكم الله : « فلا وربك يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . وكأن القرآن قد أراد بذلك (م ١٠ - خطب ج ٢)

— والله أعلم بمراده — أن يقول إن منصب الرسالة قليل عظيم ، فلا بد أن يكون صاحبه مصنوعاً على عين ربه ، مزداناً بالفضائل التي تؤهله ليكون القدوة الحسنى والمثل الأعلى لعباد الله في مجال الخير والصلاح .

وقد يظن غافل أو جاهل أن هذا التشريف الإلهي للنبي لون من ألوان المحاباة أو التدليل ، ولكننا حينما نستعرض العنصر الثانى عن عناصر الشخصية المحمدية كما يصورها القرآن نجد أن هذا التشريف يقابله أثقال وأحمال وأعباء كالجبال من التكاليف والمسئوليات ، والتبعات والواجبات ، لأن العظام كفوها العزاء ، فالله تبارك وتعالى قد ألقى على كاهل رسوله من ألوان التكاليف ما لم يحمله غيره ، ولا تستطيع العصبية أولى القوة أن تنهض به . فبعد قليل من إسناد النبوة إلى رسول الله ، يقبل عليه سفير الرحمن ليتلو عليه قول ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » ، وبعد قليل يعود إليه ليطلبه بتكاليف خاصة لا يكلف بها عامة الناس ، وما أجلها من تكاليف . يقول له : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو نقضى منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قليلا إن لك في النهار سبحاً طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكثيراً » ، ثم تتوالى الأوامر والتكاليف : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » ، « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » ، « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . . » .

ثم يأتي العنصر الثالث ، وهو الربط أو الجمع في مقام واحد بين التشريف والتكليف ، حتى لا ينسى الإنسان واجب التكليف وهو في عمرة التشريف ، حتى يتذكر الإنسان وهو يتعب في النهوض بالتكليف أن هناك عوضاً ومقابلاً فيه تكريم وتشريف ، وهذه مثلاً سورة الضحى تتضمن أولاً طائفة من وجوه التشريف ثم تعقبها طائفة من وجوه التكليف : « والضحى والليل إذا سجما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فاوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث ، ومثل هذا يقال عن سورة الإنشراح : « ألم نشرح لك صدرك . . » .

ويقبل العنصر الرابع ، وهو تذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه أمام الله بشر ، وأنه لا إرادة له أمام إرادة الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إلى واحد . . » . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » « ليس عليك هدام » « ليس لك من الأمر شئ » فالرسول الذى لا تستطيع هاماتنا مهما ارتفعت أن تبلغ موافق قلمييه ، هو هو نفسه الذى يقف أمام جلال ربه خاشعاً خاضعاً خائفاً ، لا يحس إلا بروح العبودية لخالقه ومولاه ، حتى لا يكون هناك معبود سوى الله .

ثم تختم الصورة المحمدية كما رسمها القرآن المجيد بعنصر المعاتبة : « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » ، « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ، « وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » وكان المراد من ذلك هو أن نتذكر بوضوح وجللاء أن

شرعة الحساب شاملة للجميع وأن الحساب يترتب عليه الجزاء ، والجزاء إما ثواب أو عقاب « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : هذه صورة نبيكم كما صورها قرآن ربكم ، وهي صورة يجب أن نتدبرها دائماً ، وأن نستهدىها دائماً ، فنعرف بتكريم الله لنا ، وننهض بما فرضه الله علينا ، ونحسن الجمع بين التشريف والتكليف ، ونتذكر أن المعبود واحد . وأن الله سيحاسبنا على ما قدمت أيدينا « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ألوان النفس^(١)

الحمد لله عز وجل ، برأ الفطرة وجلى العبرة : « ونفس وما سواها ، فأنفثها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .
أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، أظهر آياته في أصداف مخلوقاته :
« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بهدى ربه فزكى النفوس وطهر القلوب ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

حينما تتعرض الأمم والشعوب للنكبات تزلزلها وتبلبلها ، يكون من الواجب على أفرادها أن يعودوا إلى أنفسهم ليتبينوا مواضع أقدامهم ومواقع خطواتهم ، لأنهم يكونون حينئذ في أشد الحاجة إلى عملية تجديد أو بناء جديد ، حتى تعود نفوسهم لبنات صالحة لإقامة صرح الأمة المشيد ، ولذلك يقول الحق جلّ جلاله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه. « عليك بنفسك » ولورجعنا إلى كتاب ربنا لوجدناه يتحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس ، فهو يتحدثنا عن النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المسولة للشر ، والنفس الموسوسة بالإثم ، والنفس اللوامة على التقصير والنفس المطمئنة بالرضى واليقين ، فالنفس الأمارة بالسوء هي التي تدعو صاحبها إلى

(١) الجمعة ١١ رجب سنة ١٣٩٣ ١٠ أغسطس سنة ١٩٧٣ م .

ارتكاب الذنوب والسيئات ، وتحرضه على الانحراف والفجور ، وتدفع به إلى مهادى الضلال والخبال وكلمة « أماره » صيغة مبالغة من الأمر وفيها يقول التنزيل : « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي » .

والنفس المسولة هي التي تزين القبيح فتعرضه في صورة الجميل ، وتسوغ أهواءها بمكر وبراعة ، فترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل على أن شهواتها معقولة مقبولة لأنه يقال : سولت له نفسه كذا تسويلاً زينته وحبيته إليه ليفعله أو يقوله ، وسول له كذا : زينته وحبيته إليه ليفعله وفي هذه النفس يقول التنزيل المجيد في سورة يوسف : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » أي بل زينت لكم أنفسكم أمراً ، والتسويل هو تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه ، وكأنه أمنية للنفس تطلبها فيزيئها الشيطان لها ويقول في سورة محمد : « إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » والنفس الموسوسة هي التي تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفى الذي يكاد يسمع من الأعماق ، لتذكره بخواطر الإثم ومشاعر المنكر ، وفيها يقول القرآن الحكيم في سورة ن : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . والنفس اللوامة ، كلمة اللوامة صيغة مبالغة من اللوم بمعنى العذل والتأنيب والمراجعة ، وفيها يقول القرآن الكريم : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وهي التي تلوم صاحبها لوماً شديداً موصولاً ، على ارتكاب الشر أو التقصير في الخير ، وتندم على ما فات وتحاسب عليه ، والإمام الحسن البصري يقول : « إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه » . فالنفس اللوامة إذ ذن نفس متيقظة خائفة حذرة ، تتلفت حولها ، وتتدبر أمرها ، وتساأل ذاتها في الحين . أين أنا من الطريق .

ثم تأتى النفس المطمئنة ، تأتى فى الذروة وعلى القمة ، والطمأنينة هى السكون بعد الانزعاج ، واليقين بلا ارتياب ، والرسوخ بلا اضطراب ، لأنها نفس آمنت بالله ، واعتصمت بحبل الله ، ولجأت إلى حمى الله ، ومن كان كذلك فقد استوى على صراط مستقيم : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وهذه النفس المطمئنة المؤمنة الموقنة الراضية بالله ، والراضية عن الله ، يناديها ربها أكرم نداء ، ويدعوها ألطف دعاءه ويستقدمها إلى أعظم أمل وأحلى رجاء ، فيقول لها فى تنزيله : « يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . ومتى يناديها هذا النداء الحاو الجميل النبيل ؟ إنه يناديها به عند الهول الأكبر وفى وقف الكرب الأعظم ، ومن ثانيا الرعب المزلزل الذى يصوره صوت الحق جل جلاله بقوله : « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجىء يومئذ مبجهم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » . ومن خلال تلك الأحوال الثقال ينبعث ذلك الصوت الإلهى الرحيم العظيم ، « على مسمع النفس الواثقة بربها ، المعتزة بدينها ، الحريصة على قيمتها ، الراضية بقدرها : « يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

هذه خمسة أصناف من النفوس ذكرها كتاب الحق ودستور الصديق ، وكل صنف منها له طعم وله مذاق ، ولا شك أن شر هذه النفوس هى تلك النفس الأمارة بالسوء ، الداعية إلى الضلال المحرصة لصاحبها على الانحراف والاعتساف ، ولا شك أن خير تلك النفوس هى تلك النفس المطمئنة الموقنة الثابتة الراضية ، وبينهما مراحل ومنازل ودرجات ، فالإنسان الغافل الضال حينما تدركه الرحمة بعد طول شقاء ، ينازع نفسه ويقاومها لينقلها من منبت

السوء إلى منبت الخير قدر طاعته ، فهو ينقلها من منزلة الأهر بالسوء إلى أخف منها ، وهى منزلة التسويل بالشر ، ثم يعود إلى منزلة أخف ، وهى منزلة الوسوسة بالإثم يعود فيزكى هذه النفس ، ويوقظ فيها صوت الضمير ، فإذا هى نفس لومة ، تفكر وتتدبر ، وتعتبر فتتزجر ، ثم تبلغ القمة ، فإذا هى النفس المطمئنة التى لا تزلزلها الأهوال ولا الشدائد الثقال ، بل تأخذ لها مثلها الأعلى ممن ثبت فى أخرج المواقف . وهو رسول الله : « ألا تنصروه فقد نصره الله : إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

هذه نفوس خمس : نفس أماراة بالسوء ، ونفس مسولة للشر ، ونفس موسوسة بالإثم ، ونفس لومة على التقصير ، ونفس مطمئنة رضوان الله العلى القدير ، فليت كل واحد منا يسأل ذاته : أين نفسى بين تلك النفوس ؟ وفى طريق تسير ؟ أهى فى المقدمة أم المؤخرة ؟ أهى تتقدم أم تتأخر ؟ أهى تعلو أم تسفل ؟ أهى صالحة للاستقامة أم أنها فقدت الأمل والرجاء ؟ .

لقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب لنا القدوة فى الحرص على إصلاح النفس ، فيدعو ربه قائلا : « اللهم اجعل فى نفسى نوراً » ويستعين بالله من انحراف النفس ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » . ويقول : « وأعوذ بك من نفس لا تشيع » فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين ، فماذا يكون شأننا نحن الراتعين فى الضلال المبين ؟

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« عليكم أنفسكم » . هذا ميدان جهاد لا يحتاج إلى جيش ، ولا إلى دبابات أو طائرات ، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة ، ولا بد لنا من معركة مع أنفسنا لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا ، ولنتذكر قول ربنا « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

أربع دور للإنسان^(١)

الحمد لله عز وجل ، بيده الحياة والممات ، وله الأولى والآخرة ، ألا إلى الله تصير الأمور . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى دنياه ، وآثر أخراه على أولاه ، فأكرمه ربه ، واعلاه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه العظام ، وأتباعه حماء الإسلام : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

صددت نفسى صداً عنيفاً صارماً عن التحدث فى حاضرننا ، لأنه حاضر أليم محزن ، بشع شنيع ، مؤسف مخجل ، وقلت لها : فلنتحدث عن موضوع بعيد عن الأحداث المخجلة التى تمثل فيها ماتم المسلمين ومخازى العرب ، وليكن حديثنا عن الدور التى يتنقل فيها الإنسان بأمر ربه وقدرة خالقه ، فقد جعل الله للإنسان أربع دور ، تبدأ من الضيق إلى السعة ، والدار الأولى هى دار الأرحام فى بطون الأمهات ، والدار الثانية هى دار الدنيا ، بما فيها من خير وشر أو سعادة وشقاء ، والدار الثالثة هى دار البرزخ ، أو دار القبر ، والدار الرابعة هى دار القرار ، أى الدار الآخرة ، دار الجنة والنار . والدار الأولى وهى دار الرحم تذكرنا بقول الله جل جلاله : « وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف شاء » وقوله : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام

(١) الجمعة ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٩٣ هـ ١١ مايو سنة ١٩٧٣ م .

وما تزداد وكل شئ* عنده بمقدار « وقوله « يخلقكم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » وهى ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيه الرحم ، ومن داخل هذه الظلمات الثلاث يتنقل القوى القدير بسالة من طين إلى نطفة في قرار مكين ، فتصبح النطفة علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم تكسى العظام لحماً ، ثم ينشئه الله خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ومن أعماق هذا المكان الحساس الضيق يخرج الإنسان إلى الحياة واسع الأمل فسيح الرجاء شديد الحرص على المتاع وعلى الحياة كما قال رسول الله « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى معه الثانى ، ولو كان معه الثانى لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . ولا شك أن دار الرحم تذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — بقدرة الله وعظمته ، وتجلى أمامنا الدليل الساطع على أنه سبحانه هو الخالق من العدم والمبدع لكل كائن ، وذلك مما يقوى الإيمان ويوطد اليقين : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »

والدار الثانية هى دار الدنيا العريضة الواسعة ، بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وبما فيها من أشجار وأزهار وثمار ، وأنهار وبحار وأطيار ، وهى دار ضيافة موقوتة ، وطريق اختبار وابتلاء يجتمع فيها الطيب والخير بالشر ، والفضيلة بالرزيلة ، والهدى بالضلال : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » والذكى اللبيب العاقل من فاز بين هذا وذاك ، وأثر أن يعتدل على صراط ربه وهدى خالقه ، ولذلك يقول الحق لنبيه : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وهذه الدار الثانية ترينا مظاهر النعم وشواهد الفضل ، وتذكرنا

بأن الله تبارك وتعالى هو الذى سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وهو الذى أنعم عليه بما لا يستطيع إنكاره ولا يستكمل شكرانه : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا ألا تطفوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنعام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

والدار الثالثة للإنسان هى دار القبر : أو دار البرزخ والبرزخ فى الأصل هو الحاجز أو الحد بين الشيتين ، ويراد به هنا ما بين الموت والبعث ، فالإنسان بعد أن طال وجال ، وتباهى بنفسه واستطال ، وتقلب فيما تقلب فيه من أحوال وأعمال — يأتية أجله المحتوم : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، ويفضى إلى قبره الضيق ، وكأنه تذكير بما كان فيه من دار الأرحام الضيقة ذات الظلمات الثلاث ، وتمثل دار البرزخ قنطرة الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، وهى أشبه بمقدمة لما بعدها من ثواب أو عقاب ، ولذلك قال الحق جل جلاله : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . ويقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » . فمن صلحت داره الثانية وهى الدنيا صلحت حاله فى قبره ، فهو يتقلب فى رياض من النعيم التى لا نترك اليوم حقيقتها ولا سمعتها ، حتى يلقي الله الذى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . ومن ساء عمله وانحرف فى دنياه وضل مع هواه ، فإن داره الثالثة — دار القبر — تكون عليه وبالا

وبلاء ، حتى يلقي الله فيوفيه حسابه وعقابه ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله عن آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدوياً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

ثم تأتي الدار الرابعة الخاتمة : وهى الدار الآخرة ، دار الحساب والجزاء دار الثواب والعقاب ، وهى ذات جناحين ، فهى إما جنة وصفها القرآن بأنها عقي الدار ، وأنها دار السلام ، وأنها دار المقامة ، وأنها دار النعيم ، وإما نار وصفها بأنها دار البوار وبئس القرار ، وهى دار قائمة على أدق حساب ونظام : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ، « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وقد ضمن الله جل جلاله نعيم هذه الدار للأخبار الأبرار : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » ، والعجيب أن الله تبارك وتعالى قد ربط بين الدار الثانية والدار الرابعة ، بين الدنيا والآخرة ، فلم يحرم الله عباده من نعيم الدنيا ، وضمن لهم نعيم الآخرة إذا اعتدلوا فى الدنيا ، يقول الحق : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا » . وقال رسول الله ، « ليس خيركم من عمل لأخراه وترك دنياه ، ولا من عمل لدنياه وترك أخراه ، ولكن خيركم من عمل لأخراه ودنياه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن ضيق الإنسان بالحياة والأحياء هو الذى جعله يفرع إلى الحديث عن

دار الأرحام ودار الدنيا ودار البرزخ ودار البقاء ، ولذلك لم أحدثكم عن مذابح لبنان التي غطت على مذابح المسلمين في القليبين ، ولا أحدثكم عن الصهيونية التي ظلت تخرج لسانها مرات ومرات خلال الأيام الأخيرة ساخرة من العرب والمسلمين ، لأن هؤلاء المغفلين - إلا من رحم الله - يقومون الآن للصهيونية بأعظم الخدمات دون مقابل ، استغفر الله بل بمقابل هو أن تحتل الصهيونية ديارهم وتجسم عارهم وتضيق ثأرهم ، ولم أحدثكم عن المؤامرات الصليبية الماكرة المحكمة الإذلال المسلمين أو القضاء على دين الإسلام فليت الأرحام تدفع إلى الحياة بجبل أنظف من أجيال ، وما ذلك على الله بعزيز . أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق مخلصين يستجب لكم .

بين اللسان والأذنين^(١)

الحمد لله عز وجل هو الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ، وهو المحصى لأعمال عباده وأقوالهم فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . نشهد أن لا إله إلا الله يسمع ويرى وهو رب الآيات الكبرى ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من اهتدى بطريقه المثلئ ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى دوحته الزكية ، وعصيته القوية الظاهرة ، وأتباعه العاملين للأولى والآخرة ، « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشأت اللغة أول ما نشأت ليستعملها الإنسان عند الضرورة والحاجة ، وليقتصر فيها على المقدار اللازم منها ، يجوع فيطلب الطعام ، ويعطش فيطلب الماء ، ويريد شخصاً فينادى عليه ، ويحس بخطر فيحذر منه ، وهكذا ، ولكن الناس على مرور الأجيال والأيام ، أساءوا استعمال النطق والكلام ، فصاروا « يلتون ويعجنون » ، ويلوون ألسنتهم فى أفواههم بسبب وبغير سبب ، ويثرثرون ويصخبون عند المناسبة وعند انعدامها ، حتى أصبحت أمنية الكثيرين الذين ضاقوا بالكلام والمتكلمين ، وضجوا من الثثرة والثرثارين ، أن يجدوا لهم مهرباً عن هؤلاء وهؤلاء ، ولكن كيف السبيل والمرء يقضى عليه أن يقبل ما لا يرتضيه ، وأن يصبر على ما يعاينيه ويعاديه ، وشتان بين ما يكون وبين ما يتمنى المرء أن يكون ؟ . .

(١) الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٧٠ هـ ٦ إبريل سنة ١٩٥١ م

ولو تدبر أولئك في أمر نفوسهم لأدركوا أن اللسان آلة تستخدم عند اللزوم ، وأن اللغة وسيلة يتلذع بها صاحبها إلى قضاء أمر أو بلوغ غاية ؛ وكأن الله سبحانه خلق للإنسان لساناً واحداً كما خلق له قلباً واحداً وعقلاً واحداً ، ليشعره بأن اللسان يجب أن يكون في الضبط والإحكام ، وفي علو القيمة وسمو الرتبة ، كالعقل والقلب سواء بسواء ، لا أن يكون للاستعمال المستمر أو الحركة البدائية كالقدمين واليدين والعينين ، وكأن الله سبحانه قد أعطى الإنسان رجلين ، لأن الرجل يحتاج إلى أخت معها ليوجد التوازن والتعاون ، ولأنه لو أعطاه رجلاً واحدة لكان سيره وثباته وقفزا ، ولما استطاع الذهاب والإياب كالاعتاد ؛ وأعطاه يدين لأن اليد تستلزم أخرى ليستطيعا إمساك الأشياء والقبض عليها ، ولتكون اليمنى لرفيع الأمور وطاهر الأشياء ، وتكون اليسرى للنسيس من الحاجات ، ولأن اليد لا تصفق وحدها كما يقولون ، وأعطاه عينين تقرأن وتبصران وتتجهان في سهولة ذات اليمن وذات الشمال ، وبذلك يمكنه إدامة النظر واستخدامه دون إجهاد ، وأعطاه أذنين ليطلق بهما الاستماع إلى ما يفيد وينفع ، ولكي يلتقط بإحدهما ما يفوت الأخرى ، ولكنه مع هذا كله أعطاه لساناً واحداً ليكفيه القليل من الكلام ، ولا يسرف في استخدامه كغيره من متعدد الأعضاء ، أو بعبارة أخرى : أعطاه الله لساناً واحداً مع أنه أعطاه أذنين ليوحى إليه من طرف خفي بأن الواجب عليه أن يسمع ضعف ما يقول ، فإذا تكلم ساعة سمع ساعتين ، وهكذا ، ولكن الكثير من الناس سلبوا آذانهم فلا يسمعون ولا ينتصحوون ، وأطلقوا أعنة ألسنتهم فغدت عقارب لا تكف عن اللدغ ، أو ثعابين لا تمل الحركة ، أو سيافاً لا تنقطع عن الفرقة والطين ، قراهم يفرضون كلامهم على الناس في الغث والسمين ، وفي الحق والباطل ، وفي المشروع والمنوع ، ولكنهم لا يحسنون الاستماع ، بل لا يريدون أن يستمعوا ، وإذا سايرتهم

أو لا ينتهم أبوا أن يقتنعوا ، ولنا أن ندرى ماذا كان يحدث لو أن الله وضع في فم كل واحد من هؤلاء لسانين ، مع أننا لم نطق بلأيا لسان واحد ؟ . . . لو حدث هذا لكانت الداهية الدهياء ، ولكن الله لطيف بعباده الضعفاء ! . . .

ولو أن هؤلاء « اللتاتين » يتكلمون في خير ، أو يشرحون في دعوة ، أو يحضون على معروف ، لحمدنا لهم أمرهم ، مع أن خير الكلام ما قل ودل ، والبلاغة الإيجاز ، ومن الإيجاز ما هو إعجاز ، ولكن هؤلاء في الأعم الأغلب لا يتحدثون إلا في فضول الكلام وفاسق الحديث من السباب والشتائم ، والسخرية والاستهزاء ، والشقاق والنفاق ، وطعن الأعراض وفرض اللوم البشرية بلا استحياء . . . وهل ابتليت يوماً باستماع ما يدور من جدل سقيم وحديث باطل وحوار أثير في المجالس والجماعات ، وفي محيط الأسر والعائلات ؟ لكان هؤلاء لم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وكأنهم لم يسمعوا أن عقبة بن عامر قال : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك ! . وأن الرسول قال أيضاً : وهل يكب الناس في النار على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم . . . كأنهم لم يسمعوا هذا فانطلقوا بلا حساب يستخدمون تلك الآلة الصغيرة الخطيرة التي تسمى اللسان فيما يذهب المروعة ويخدش الشرف ، ويقطع أواصر الأخوة والصفاء بين بني الإنسان ! . . .

فلنسأل أنفسنا عما في مجالنا من علم صادق ينتفع به ، أو توجيه كريم نجتمع عليه ، أو حديث رفيع نتمتع فيه ؟ . . . وأين نظام الكلام وحسن الاستماع في هذه المجالس ؟ . يتحدث المتحدث فيسارع الآخر بالاعتراض أو الإعراض ، وقد يسبق بحكم أو تعليق قبل أن تتم جملة المتحدث الأولى ، وقد يتحدث ثلاثة أو أربعة دفعة واحدة ، وكل منهم يطمع ويلح في أن يسمع (م ١١ - خطب ج ٢)

له الآخرون ، وقد تستبد شهوة الكلام بخفيف عقل أو ثقل ظل أو سليط لسان أو ضييع أسلوب ، فلا يمكن سواه من عرض رأيه أو إبداء حجته ، وهكذا تمر الساعات دون أن تقضى الواجبات ، ويخرج الجمع من المجلس الطويل الثقيل بلا اتفاق على رأى ، أو اتحاد فى اتجاه ، ولو عرف كل منهم متى يحسن أن يتكلم ، ومتى يحسن أن يسكت ، ومتى يحسن أن يستمع لاستقامت الأحوال وظهرت الرجال . . .

لقد أوصى الله الحكيم العليم رسوله أن يكون نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبداً ، فجعل له ثلاثة أحوال هى النطق والصمت والنظر ، ولكل منها بطبيعة الحال نصيب ، فليكن للنطق مقدار الثلث فى هذا المجال ، لا أن يستبد بكل الأوقات والحالات ، فيجعل المرء كالثرائر الخبول ، أو الحاكي الذى لا يفقه ما يقول ! . . . ولقد أدبنا القرآن فى كثير من آياته بأدب الاستماع وجعله شعار الخيار الأبرار ، فهو يقول : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ويقول : « ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ويقول : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . وهو أيضاً يقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويقول رسوله الكريم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . فهل من الخير أن ترائى شخصاً بمدحك ما دام موجوداً فإذا غاب أنشبت مقاريضك فى لحمه وعرضه ؟ . وهل من الخير أن تطلق لسانك فتقصى ما تعرف وتنشر ما ينطوى من أسرار البيوت والعائلات ؟ . وهل من الخير أن تتطاول بالذم والقدح على الشرفاء ؟ وهل من الخير أن تعد الوعود الطنانة الرنانة ثم تكذب فيها ؟ . وهل من الخير أن تعتاد الولوع فى العوارى وأحاديث المجانة والرديلة بلا خجل أو حياء ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أحسنوا أن تستمعوا كما تحسنون أن تنطقوا ، ورب مستمع خير من ناطق
وأحكموا رباط هذا الثعبان المسمى باللسان ، فإنه قتال إذا أطلق بلا عقل ،
وليكن حديثكم مما تحبون أن تروه في صحائف أعمالكم ، وتذكروا أن الحديث
يقول : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم وقوعاً في الباطل » . . .
ورب كلمة سوء هوت بصاحبها في نار جهنم ، ولأن تصمتوا أو تقولوا طيباً
فتفوزوا ، خير ألف مرة من أن تنطقوا بهجر أو نكر فتؤخلوا وتندموا
وتقولوا « وكنا نخوض مع الخائضين » ولكن حيث لا ينفع الندم من الآثمين
واتقوا الله . . .

سب الدين^(١)

الحمد لله عز وجل ، يقول الحق وهو يهتدى السبيل . أشهد أن لا إله إلا الله ، ألزم عباده كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شئ عليمًا . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طاب قوله وحسن عمله ، فكان خير مثل للمؤمنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك من الكبائر التي تقع بين الناس كبائر تبلغ غاية الفحش والنكر ، ولكن تكرارها أو تعود الناس لإتيانها ومشاهدتها ، يجعلهم بمضى المدة يسكتون عليها ، وكأنهم يعلونها ظاهرة من الظواهر التي لا مفر منها ، أو علة مزمنة دائمة لا سبيل للقضاء عليها ، أو مرضاً ملازماً باقياً لا يفكرون في علاجه أو البعد عنه ، وبذلك تهون في أنظارهم بشاعة الإثم وفضاعة المنكر ، مع أن الله تعالى يحذر من مثل هذا حين يقول عن بعض كبار الذنوب : « يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » . ولقد فشيت فينا خلال السنوات الأخيرة رذيلة قلرة وقحة متبجحة ، لا ندرى كيف سرت إلينا ، ثم تمكنت منا ، ثم استحكمت فينا ، فعرضتنا لغضب الله ونقمته ووعيده ، وتلك الرذيلة هي عادة سب الدين ، فقد أصبحت تسمع هذا السب علناً في كل مكان : في البيت والشارع والديوان ، وأصبحت تسمعه من كبار وصغار ، ومن نساء

(١) الجمعة ٨ شعبان سنة ١٣٨٧ ١٠ نوفمبر سنة ١٩٦٧ م .

ورجال ، ومن مثقفين وجاهلين ، وأصبح من المتكرر المؤلف أن تسمع حماراً يهق فيقول لغيره : « يلعن دينك » أو « يلعن دينك ودين أملك ودين أبوك كمان » أو يعمم فيقول : « يلعن دينكم » أو « يلعن دين الناس كلها » إلى آخر هذه العبارات السافلة المنحطة التي لا تدل على إنسانية أو كرامة أو إحساس .

ولقد بدأ هؤلاء الحمير ضلالهم وانحرافهم على مراحل ، بدأوا بإهمال الفرائض العملية في الدين ، ثم تركوا الكلام الطيب والرد الحسن في الخطاب ، ثم استسهلوا كلمات الشتم والسيب ، ثم انتقلوا إلى ذكر العورات ، ثم انتقلوا إلى لعن الآباء والأمهات ثم وصلوا إلى لعن الدين وسبه ، ولسنا ندرى ما يجد بعد ذلك من تنقلات المتحليلين الفاسقين : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . أو لم يكفهم أنهم أهملوا الفروض والواجبات ، وعطلوا الطاعات والقربات ، ورتعوا في الآثام والسيئات ، ونسبوا أنفسهم في شهادة الميلاد إلى الإسلام ، ثم كالوا له الطعنات والضربات ، وكأنهم أمنوا أن يكون هناك من غير منكرهم باليد ، واستخفوا بمن ينكر عليهم باللسان ، ولم يبالوا بأن يكون هناك من ينكر عليهم بالقلب ، لأنهم فقدوا كل ذرة من ذرات الحياء ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

والعجيب أن الإسلام ينهانا عن سب الدين ، حتى ولو كان ديناً مغايراً لديننا ، لأن المسلم يجب أن يكون عف اللسان وقور الكلام ، يدعو إلى دينه بالحكمة والرحمة وطيب القول ، والله تعالى يقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ويقول : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » ويقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » . أى لا تسبوا أيها المؤمنون معبودات المشركين

الكافرين ، فيترتب على ذلك سبهم الله سبحانه وتعالى عدواناً منهم وتجاوزاً إلى الشتائم التي تغيب المؤمنين ، وكأن هذا يذكرنا بمن يتسبب في شتم أبويه حينما يشتم أبوى غيره ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الكبائر أن يسب الرجل أبويه . قالوا : يا رسول الله ، هل يشتم الرجل والديه؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه . وإذا كان الإنسان المتحامل يسب دينه هو فهذا أوقع وأفحش . لأنه يجرح شعور من وجه إليه السب ، ويجرح شعور كل المسلمين ، ويطعن نفسه لأنه يزعم أنه على هذا الدين ومع ذلك يلعنه ويسبه ، وهكذا ترون جريمة لعن الدين تتضمن جرائم ، فجريمة نحو الذات ، وجريمة نحو الآخرين ، وجريمة نحو الدين ، وجريمة أخرى أشنع وأفظع ، وهى جريمة التطاول على مقام الله ورب العالمين ، لأن من لعن دين الله ، فقد سب الله ، ومن سب الله فقد باء بغضب من الله في أولاه وآخره : « ألا لعنة الله على الظالمين » .

وقد يكون من حقنا هنا أن نتساءل : هل يجرؤ هذا الدني المتطاول على دين الله تعالى أن يسب نظاماً وضعياً للدولة ؟ . الجواب لا . هل يستطيع أن يسب كبيراً له مكانته وقدرته ؟ . الجواب لا . هل يستطيع أن يسب أحداً يرجوه أو يخافه ؟ . الجواب لا . ولكن هذا الحيوان لا يجد في نفسه غضاضة من أن يلعن دين الله جل جلاله ، وكأنه يعلم أنه ليس هناك من يردعه أو يوجعه فاستباح الحمى المصون ، وانطلق انطلاق المجنون ، يلعن الدين ويسبه ، وهو لا يسعى بهذا إلى نفسه فقط ، بل يطعن كل متدين في أشرف ما يعتز به وهو إيمانه وبقينه . والمؤسف أن بعض هؤلاء الحمير يحاولون التطرف في وقاحة وسفالة فترونهم يقولون في سبهم لغيرهم : « يلعن ديكك » فإذا راجعت أحدهم قال لك : أنا لعنت الديك وليس الدين . وهذا لا يبعده عن الإثم والذنب ،

لأن عبارته تذكر بلعن الدين وتحضره في الزهن ، وهذا هو حجة الإسلام الإمام الغزالي يذكر أنه لو جلس اثنان يشربان ماء قراحاً أو شرباً حلالاً مع من يشربان الخمر ، فأتخذوا كأسين من كتوس الخمر ، وقرعا الكأسين عند الشرب ، لكان ذلك حراماً ينبغي للمسلم أن يخدره ، لأن من تشبه بقوم فهو منهم ، ومن عرض نفسه لسوء الظن لوم على الناس إذا أساءوا به الظنون « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لا أتصور بطبيعة الحال أن واحداً منكم يسب الدين أو يلعنه ، لأنكم بقايا الخير في حنايا المجتمع ، وخطواتكم إلى بيوت الله ، وحرصكم على الصلاة ، واستمساكم بدينكم بين من لا يرعون للدين حرمة ولا كرامة ، كل هذا يدل على أنكم لا ترضون أبداً بالتطاول على حرم دينكم ، ولا السخرية من عقيدتكم . ولكن الذي يرجى هو أن يبذل كل منكم ما يستطيع من نصيح ونقد وتوجيه لمقاومة هذه الآفة القنرة السافلة بين من لكم عليهم ولاية من أبناء أو نساء أو أقارب أو رؤوسين ، ومن واجب المسئولين في المجتمع — قبل ذلك وبعده — أن يعالجوا هذا الوباء ، لأنه جريمة يحرمها الدين والقانون ، والله يزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

انتفاضة الخوف^(١)

الحمد لله عز وجل ، كتب الأمان للخائفين منه ، وجعل الهوان للغافلين عنه : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يذكر ويحذر ، ويعد وينذر : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خشى ربه فأكرمه ، واعتز به فأسلمه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين من ذريته ، والموقنين من صحابته ، والمؤمنين من أهل ملته : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول ربكم جل جلاله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، ومقتضى هذه العبودية لله أن يتمسك الناس على الدوام بصراطه المستقيم ، وأن يتقوه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فقد قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . وقد فسر ابن مسعود حق التقوى فى هذه الآية بقوله : « هو أن يطاع الله فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى » ، ويروى أنه لما نزلت هذه الآية صعب أمرها على المسلمين فأجهدوا أنفسهم فى الطاعة ، واشتدوا عليها فى العبادة ليبلغوا حق التقوى لله — وما أعظمه من حق — فتلطف الله بعباده وأنزل قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

والواقع أنه لو أراد العبد أن يتقى ربه حق تقواه ، ويخشاه حق خشيته ،

(١) الجمعة ٢٦ ربيع الاول سنة ١٣٧٨ هـ - ١٠ أكتوبر ١٩٥٨ م .

لصعب عليه المراد ، ولعل هذا هو الذى جعل عمر بن عبد العزيز يقول عن الغفلة التى تعرض للانسان أحياناً : « إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة بهم كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . . . ولكن المسلم مطالب - فى حدود استطاعته - بأن يقبل على ربه ويستجيب لأمره ، ويطيعه قدر طاقته ، ويخاف سطوة عذابه ونقمته : ولذلك يقول القرآن : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » ويقول : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وإذا كان السابقون قد حاولوا أن يبلغوا القمة فى الخشية والتقوى والإقبال على الله ، فنحن قد صرنا على النقيض منهم ، نزداد كل يوم استخفافاً بحق الله ، وإعراضاً عن حماه ، بل أصبح كثيرون يخشون الذين يرغبون فيما عندهم ، أو يرهبون منهم أكثر مما يخشون جبار السموات والأرض ، فهم يتحملون ما يتحملون فى سبيل المجاملات والمخادعات ، وفنون الرياء والنفاق ، وأساليب التضليل التمويه ، ولا يفكرون فى أن يتحملوا قليلاً من تعب ، أو نصيباً من مشقة فى أداء طاعة ، أو تحرز من إثم ، مع أن الحق تبارك وتعالى يقول : « فلا تخشوا الناس واخشون » ويقول « تخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » .

وكان من نتيجة هذا الإعراض الفاحش عن حوافز المراقبة والمحاسبة والتقوى أن الإنسان أصبح يقدم عليه من سيئات ومنكرات ، بلا تردد أو خوف ، أو بلا مبالاة أو مداراة ، مع أن السابقين من المؤمنين كانوا « إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » ، وإذا أخطأت منهم يد فامتدت إلى حرام ، أو انحرفت بهم قدم فسعت بهم إلى محذور ، اقشعرت جلودهم ، وانتفضوا انتفاضة الخوف الذى يجعلهم يندمون على ما فعلوا ، وينصرفون عما هموا به متذكرين أن الله تبارك وتعالى الذى وصف

نفسه بصفات الجمال والرحمة والمغفرة هو الذى وصف نفسه فى الوقت ذاته بصفات الجلال والرهبنة والانتقام : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم » . « وإن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » « لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً » .

واستشعار عاطفة الخوف من الله والخشية من عقابه مكرمة يتحلى بها الأوفياء من أهل التقى والصلاح ، فليس الخوف أمراً مقصوراً على مواطن الخطأ والزلل ، بل إن المؤمن يسير على الطريق القويم ، ويتحلى بالخلق الكريم ، ومع ذلك يظل قلبه ممتلئاً بالهيبه من الله ، والرهبه من غضبه ، حتى لا يغتر بخير قدمه ، ولا يزهو بتجميل فعله ، لئلا يمحى الاغترار والازدهار ما قدم وفعل ، ويتقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ... وهذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان أعبد الناس وأنقاهم ، ومع ذلك كان أشدهم خوفاً وأخشاهم ، ولقد كان يدخل الصلاة فإذا لجوفه أزيز (أى غليان) كأزيز المرجل من البكاء ، ولقد كان يسمع القرآن من بعض صحابته فتسيل دموعه ، وهو القائل : « شيبتنى هود وأخواتها » (١) . . وهذا عمر الفاروق كان يتقرب إلى الله بصلاحه وإصلاحه ، ومع ذلك كان شديد الخوف والخشية ، وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم إني أعوذ بك أن تأخذني على غرة ، أو تتركني في غفلة ، أو تجعلني من الجاهلين » . ولقد كان أبو بكر من شدة خوفه ورهبته من غضب ربه يقول : « لو كانت رجلى اليمنى داخل الجنة ورجلى اليسرى خارجها لما أمنت مكر الله ، ونخشيت أن أعود إلى النار » . وهذه فاطمة بنت عبد الملك تحدثنا عن زوجها عمر بن عبد العزيز فتقول : « لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم » . وإذا كان

(١) روى أن أخواتها هي : سور الواقعة ، والنبأ والشمس .

هؤلاء الأعلام قد خافوا ربهم هذا الخوف وهم على ما هم عليه من الطهارة والخير والاستقامة ، فإذا يكون أمرنا نحن الراتعين في مراتع الأهواء والشهوات الذين كدنا ننسى هذه الانتفاضة التي تذكرنا بعقاب الله ، وهذه القشعريرة التي تردنا إلى رحاب الله ؟ . . .

ألا ما أشد حاجتنا إلى أن نخاف ونخشى . . . لا نخاف إنساناً أو عدواً ، ولا نخشى فقراً أو مرضاً ، وإنما نخاف الله رب العالمين ، ونخشى حساب يوم الدين « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . . . ولعل أحوج الناس إلى انتفاضة الخوف من الله هم أولئك الذين يتصلون في حياتهم وأعمالهم بجموع الناس ، فهذا الموظف الذي يهرع الناس إليه طالين حقوقهم وقضاء مصالحهم ، وهو يعرض عنهم ويتخلص منهم ، ويلهو بأحاديث مع أصدقائه أو صديقاته ، ويقتل الوقت في التدخين وتناول المشروبات ، والسؤال عما يهمه من الدرجات والعلوات ، يعقد لأصحاب الحاجات أمورهم ، ويملا الطريق أمامهم بالأشواك والعقبات ، ما أحوج هذا إلى انتفاضة الخوف وقشعريرة الخشية من الله مالك الملك سبحانه ، وهذا الطبيب الذي يتحكم في علل الناس وأمراضهم ، فتكالب على المال ، ويطيّل أمد العلاج ، وقد يرى المريض في أشد حالات الخطر ، فلا تثور عنده الرحمة ليسارع بعلاجه أولاً ، بل يظل يفاوض على الأجر ويساوم ، حتى ولو باعت زوجة المريض من أجل ذلك حليها أو متاع بيتها ؛ والمرثى الذي مرنت يده على أخذ الرشوة فلا يقضى أمراً ولا يعمل عملاً إلا إذا امتلأت يده من السحت الحرام ، الأثيم الجري المتهم على الأعراض والحرمات ، ورجل الدين الذي يضل ويحرف ، ويأكل الدنيا باسم الدين ، هؤلاء وأمثالهم في أشد الحاجة إلى انتفاضة خوف تذكركم بالله ، وتخوفهم من الحساب والعقاب : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » ١٢ .

هذا عمر بن عبد العزيز قرأ قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فارتعش وارتجف ، وجعل ينتفض خوفاً ، ويجول في أنحاء داره طول الليل وهو يقول : ويلى من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ! ...

يا أتباع محمد عليل الصلاة والسلام ..

لقد كان صحابة رسول الله يقولون للناس من بعده : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر » . يقولون هذا في الصلوات الأولى . فكيف لو أدركوا زماننا هذا ؟ . لقد أصبح الإنسان يتهجم على الآثام بلا تورع ، ويتوغل في المنكرات بلا احتشام ، ولا يسائل نفسه عن حلال أو حرام ، فلنستعن بالله وهو أكرم مسئول وأفضل مأمول في أن يجعلنا من الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون ، وأن يجعلنا ممن يشعرون بانتفاضة الخوف من الله حتى نفوز ونسعد فمن المنسوب إلى الرسول قوله : « إذا اقشعر قلب المؤمن خشية الله تحاتت عنه خطاياه (أى تساقطت) كما يتحات من الشجرة ورقها » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ! ...

حول الغناء^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين : « ومن أصدق من الله حديثاً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، زان الأخيار من عباده بحسن القول والعمل : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتي جوامع الكلم ، وقاد خير الأمم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المخاضين وأتباعه الصادقين ؛ « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الكلمة سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة لها قوتها وتأثيرها ، فإن كانت طيبة جميلة طاب أثرها وثمرها ، وإن كانت سيئة قبيحة ساءت نتيجتها وعاقبتها والله تبارك وتعالى يقول : « ألم يعلم الذين ضربوا الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يتب الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . وقد تكون الكلمة المنطوقة أقوى تأثيراً من الكلمة المكتوبة ، لأن المنطوقة تجمع بين تأثيرها الذاتي وتأثير قائلها المنفعل بها ، فإذا كانت هذه الكلمة منغومة في شعر زاد تأثيرها بوزنها واتساقها ، والرسول يقول : « إن من الشعر لحكمة » ، فإذا

(١) الجمعة ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨١ هـ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦١ م

قيلت هذه الكامة الموزونة بصوت عذب جميل ، كما في الغناء الرائع ، تضاعف أثرها وتزايد خطرهما ، ولذلك روى الأوائل أنهم كانوا يعالجون المريض بعلّة السوداء بالصوت الطيب فيرجع إلى حال صحته ، والطفل يبكي في المهد لوجود ألم ، فيسمع الصوت الجميل فيسكت وينام ، بل إن الصوت الجميل يؤثر في الحيوان الأعجم ، وقد ألف العرب منذ أقدم عصورهم نظام « الحداء » وهو الغناء للابل حتى تهتز وتطرب ، فتقوى وتنشط في المسير ، ولقد يحدو الحادى للابل فتظل تمشى دون إحساس بالألم حتى تمرض أو تموت ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأنجشة حادى إبله : « يا أنجشة ، رفقا بالقوارير » يريد بذلك ألا يسرف في حدائه وغنائه ، حتى لا تسرع الإبل فتعنف حركتها فتتهتز النساء فوقها اهتزازاً مؤلماً فيتعبن منه ، وقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه « الإحياء » أنه « من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج » . وعندما قال الله تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » فهمنا منه أن الصوت القبيح يؤذى وينفر ، وفهمنا منه أيضاً أن الصوت الجميل يجذب ويؤثر ، والله في خلقه شئون .

والغناء في الواقع سلاح ذو حدين ، فقد تستعمله على وضع فيفيد وينفع ويوجه ، وقد تستعمله على وجه آخر فيضر ويفسد ، وإذا كنا نجد في النصوص الدينية أقوالاً كثيرة بعضها يحمل على الغناء حملة واضحة ، وبعضها يؤيده ويدعو إليه ، فليس هناك تناقض بين هذه الأقوال ، ويمكن التوفيق بينها بيسر وسهولة ، لأن بعضها يكمل البعض الآخر ، فالذين حملوا على الغناء وحاربوه من رجال الإسلام إنما حاربوا ما يسبب ضرراً أو يحدث خطراً ، من كل غناء تافه أو مائع أو خليع أو وقع العبارة أو مخنث الأداء ، والذين أيدوا الغناء أو أجازوه قد أرادوا منه كل غناء حميد مشكور ، يثير عواطف الخير والبر ، ونوازع السمو والفضيلة في نفس الإنسان .

والذى لا جدال فيه أن أكثر الأغاني المعاصرة التى تتردد على لهوات المتحليلين من المغنين والمغنيات تعد من النوع الذى يستلزم المقاومة ويحتاج إلى الإصلاح لأننا لا نجد فيه عفة اللفظ ولا قوة الأداء ولا تماسك الصوت ؛ بل نجد فيه العبارة المكشوفة والمعنى المخجل والمحن المتخاذل والأداء المتميع ، ولقد سبق للعلاء والخطباء فى مناسبات كثيرة أن حملوا على الأغاني الخليعة المائعة ، ولكن هذه الحملات كانت لا تحقق أثرها ولا تؤتى ثمرها ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ولأن أصوات هؤلاء إنما تتردد فى المساجد والمعابد ومجالات الإسلام وجمعياته ، ويحال بينها وبين الدبوع والانتشار فى المجالات العامة ، ولأن الصحافة كانت تحبذ هذه الألوان المائعة من الأغاني وكانت تمجد المغنيات والمغنين الذين يتخلعون أو يتميعون ، ولكن بعض الصحف أحست أخيراً بما فى الموضوع من خطر ، فأخذت تدعو إلى محاربة الأغاني الخليعة ، وهذا برهان على أن الله تبارك وتعالى يأخذ بنواصى خلقه إلى صراط حقه ولو بعد حين .

واللافت للنظر أن أهل الغناء قد دخلوا علينا بالسأم والسقم من كثرة ما غنوا عن الحب الجسدى والهوى المتهالك والصلوات الأنيمة بين الرجل والمرأة ، وأعجب العجب أن يسموا هذا حباً ، وأن يوهوا الناس أهذا هو « الحب وحده » ولا شئ سوى هذا يكون حباً فى نظرهم واعتبارهم ، والحب براء من هذا الفهم السقيم العليل ، لأن الحب هو أسمى عاطفة فى الوجود ، وهو أوسع نطاقاً وأسمى رتبة مما يصورون أو يعبرون. لكننا لسنا ندرى : لماذا يقصرون معنى الحب على هذه الرابطة الجسدية أو الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة ، مع أن هذه الصلة ليست حباً فى الواقع ، وإنما هى شهوة ورغبة واستجابة للدافع بدنى جنسى ، إذا لم يستقم الإنسان فى إرضائه على طريقة مشروعة أدى إلى أوخم العواقب وأسوأ النتائج ، ونحن باسم الإسلام نسبق

غيرنا في الدعوة إلى الحب الصحيح السليم ، وإلى الإكثار من الأغاني في الحب السامى الطهور ، ولكن يجب قبل كل شئ أن نفهم الحب على حقيقته ، وأن ننزله عن هذا المنحدر الذين انحدروا إليه حينما قصروا الحب على الشهوة الجنسية أو الرغبة البدنية ، بينما توجد ألوان من الحب هي أسمى وأصنى بكثير من هذا اللون المادى التافه ، فهناك حب الله والرسول والوالدين والزوج والزوجة ، والأبناء والبنات ، والإخوة والأخوات ، والأمرة والعائلة ، والوطن والطبيعة ، والفضيلة والمبادئ الإنسانية الكريمة ، وغير ذلك من أنواع الحب الشريفة الطاهرة ، فلماذا لا يعرفون هذه الأنواع من الحب ، ولماذا لا يغنون فيها إن كانوا صادقين حينما يقولون إننا نريد إرضاء العواطف الإنسانية في صدور السامعين .

نريد منهم أغاني في حب الله الواحد الأحد ، الذى أبدع السموات والأرض ، وخلق كل شئ فقلده تقديراً فتبارك الله أحسن الخالقين ، ونريد أغاني في حب الرسول مثل الإنسانية الأعلى الذى قضى حياته مجاهداً في سبيل الحق ، مناضلاً من أجل كرامة الإنسان ، حتى قال فيه ربه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ونريد أغاني عن حب الوالدين اللذين تعبوا وسمهرا وجاهدا جهاد الأبطال في سبيل الأبناء ، حتى قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وقال : « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » . ونريد أغاني عن الوطن العزيز الغالى الذى قال فيه الأثر الهلالي : « حب الوطن من الإيمان » ، ونريد أغاني عن حب الطبيعة التى نرى فيها ملكوت السموات والأرض ، والتى تعطينا البرهان على وجود الخالق العظيم ، وقدرته على الخلق والإبداع :

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد !

ونريد أغاني عن حب الزوج لزوجته وما بينهما من رابطة تباركهما يد الله تعالى حين يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ونريد أغاني عن حب الأسرة حتى يتعلق الفرد بأسرته تعلق المحب المستهام ، فيحقق قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » . ونريد أغاني عن حب الأستاذ والمعلم ، حتى تتوثق تلك العلاقة النبيلة الكريمة بين التلميذ ومربيه التي أشار إليها « شوقي » حين قال :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن وسائل الإعلام - وفي طليعتها الراديو والتلفزيون - قد جعلت الأغاني تتردد على الأذان في الصباح والمساء ، وتدخل البيوت والحدود وكل مكان ، وهناك في المجتمع رجال ونساء ، وشباب وشواب ، وصبية وأطفال ، وهؤلاء أمانة غالية يجب أن ترعى وتصان ، ولذلك يجب على المسئولين وعلى المغنين وعلى المستمعين أن يتعاونوا جميعاً لتطهير الغناء من عوامل الفساد ومثيرات الفتن ، حتى لا نتعرض لغضب ربنا وحتى لا يقال لنا يوم القيامة : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ذمة وفاء^(١)

الحمد لله عز وجل ، يحب الوفاء ويدعو إليه : « وأوفو بالعهد إن العهد كان مسئولاً » ويوصى بالشكر ويثيب عليه : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » . نشهد أن لا إله إلا الله ، أوسع الغافرين وأفضل الشاكرين : « إن ربنا لغفور شكور » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حفظ الميثاق وحارب النفاق ، فأعلاه ربه وفضله على العالمين : وكذلك نجزي من شكر « فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى فروع دوحته وجموع صحبته وأتباع ملته : « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لكل امرئ ذمة ، إذا لم يصنها ويحفظها كان من بين الناس لثيماً وضيعاً . والإنسان إذا لم يرع عهده وميثاقه فقد رجولته واكتسب مهانته . والنعمة إذا لم يقابلها الشكران مع التقدير صارت نقمة ولو بعد حين : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . وكمن من شيطان يلقاك ، وأنت مبسوط اليد موفور القوة آمن الحال ، بالوداد والإخاء ، والإقبال والصفاء ، فإذا عرضتك الأقدار يوماً لتجربة أو ابتلاء ، لم يكتف هذا الشيطان بالإعراض بعد الإقبال ، أو بالتقاضي بعد طول الاحتفال ، بل تطوع وتبرع ، فأراك من كفرانه فنوناً ، وكان لهادريك معواناً ؛ وشيوع هذه الأخلاق الدون يفضي إلى تقلص الخير والتداعي إلى الشر ، حتى يقول الأول وقد ضاق بقلة الشكر :

(١) الجمعة ١٦ رجب سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١١ أبريل سنة ١٩٥٢ م

يزهدنى فى كل خير فعلته إلى الناس ما جربت من قلة الشكر
ويأتى الآخر فيزيد فى المعنى شيئاً ، لأنه ازداد بالكفران من الناس بلاء ،
فيقول :

يزهدنى فى كل خير فعلته إلى الناس ما جربت من كثرة الغدر
ولو أن الأمة التى تنتسب إلى محمد صلوات الله عليه عرفت الوفاء فى
صلاتها الفردية والعامية ، فذكرت إحسان المحسن ودافعت عنه ، وتذكرت
إساءة المسيء واقتصت منه ، وأقرت بالفضل لذويه قربوا أم ابتعدوا ،
واشمازت من المجرمين علوا أم سفلوا ، لما أصيبت الأمة فى أخلاقها ، ولما
ضيمت فى حقوقها .

وإن شئتم فخذوا العبرة من التاريخ . . : لقد كان عهد أحمد بن طولون
عهداً مليئاً بالفتن والقلائل ، والاضطرابات والزلازل ، وكان الجو مناسباً
كل المناسبة للغدر والتلون والرشوة والمحسوبية ، وغير ذلك من أساليب الضعة
واللؤم ، ومع ذلك كان هناك بعض الأحرار ، الذين يحفظون عهدهم
ويصونون وعدهم ، ولا يتغيرون بتتابع السراء والضراء ؛ فهذا ابن طولون
مثلاً كان شاباً يسير فى طريقه ، فرأى غلاماً لأمر المؤمنين يقود دابة عليها
نفائس للخليفة ، ثم هجم اللصوص من مكن يريدون سرقة الدابة بما عليها ،
فأسرع ابن طولون وطاردهم ، وأنقذ الغلام والدابة ، وعلم بذلك المستعين
فقربه وأكرمه ، ثم تغيرت الأحوال بعد ذلك وتبدلت الأمور ، وتنكرت
الدنيا للمستعين ، فخلعه أعداؤه ونفوه إلى مدينة « واسط » بالعراق مهاناً
ذليلاً ، وأصبح ابن طولون جندياً خاضعاً لسلطان الدولة الجديدة التى رأسها
المعتز ، والتى أسندت إلى ابن طولون حراسة المستعين المخلوع فى منفاه ،
وبعث الخليفة الطارىء إلى ابن طولون يحرضه على القسوة فى معاملة المستعين ،

ويلمح له بالمنح والعطايا ، ولكن ابن طولون أبى أن يستجيب لتلك الرغبة الخسيسة ، وأكرم معاملة المستعين كأنه لا يزال خليفة ، وأباح له التنزه والصيد ، وحفظ له عهده القديم . . .

واغتازت أم المعتز من ذلك وكانت مستبدة بالأمر يومئذ وكانت تسمى « قبيحة » ولعلها كانت قبيحة أيضاً في أفعالها ، وأرادت أن تبذل المحاولة الأخيرة للقضاء على المستعين المخلوع بطريق الخداع والإغراء ، فبعثت إلى ابن طولون خطاباً تقول فيه : « إذا قرأت كتابي هذا فجنني برأس المستعين ، وقد قلدتك (أى ولينك) واسط » . فأبى ابن طولون أن يطيع أم الخليفة الحاكمة بأمرها ، وضرب في الوفاء مثلاً عالياً ، فكتب إليها يقول : « والله لا يرانى الله عز وجل أقتل خليفة له في عنتي بيعة وأيمان مغلظة أبداً » . . . ويشاء ربك بعد هذا أن يسطع نجم ابن طولون ، وأن يسوق الله إليه ملكاً كبيراً ، لا مدينة « واسط » وحدها ، لأنه صدق ما عاهد الله عليه ، فصدقه الله وعده ، « ومن أفى بعهد من الله » ؟ . . . ساق الله إليه ملك مصر بنحيراتها وبركاتها ، فلم يغتر ابن طولون بالنعمة ، ولم يفته شكرها ، بل ترجم عن فضل الله قائلاً : « الحمد لله حمداً كثيراً ، تركنا لله عز وجل شيئاً واحداً فعوضنا منه أشياء أعظم وأجود وأحمد عاقبة ، كانت نهاية ما وعدنا به على قتل المستعين تقليد واسط ، فخفنا الله عز وجل في قتله ، فلم نقتله ، فعوضنا الله جل اسمه مصر وغيرها » . . . وصدق العلي الكبير : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول رسولكم العظيم عليه الصلاة والسلام : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غدرة فلان

ابن فلان » ! . وإن اللئيم الغادر قد يفوز بعرض عاجل أو مغنم سريع ، ولكن عقارب التأنيب وأشباح الجريمة ستظل تلاحقه وترهقه حتى تسقطه صريعاً ، طال المدى أم قصر ، ومن وراء ذلك لعنة الناس وسبة التاريخ وعقاب الجبار ! . وإن الأمة التي تعرف الغدر أو ترضى بالخيانة والجحود لا تستحق الحياة أو البقاء ، وإن الانسان إذا زين له شيطانه أن يغدر وسم نفسه بميسم الفضيحة والعار ! . فلنعلم أنفسنا الوفاء إفراداً وجماعات ، ولنطبعها على شكر النعمة وحفظ العهد وصيانة الميثاق ، لنستوجب رحمة ربنا وننأى عن عذابه وعقابه : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بوادر فيها بشائر^(١)

الحمد لله عز وجل ، من استمسك بحبله نجا ، ومن أعرض عنه ضل وغوى : « قل إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، عز من توكل عليه ودعا إليه : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى العالمين بشرعة الإيمان واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه المهتدين بهديه المبين : « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من ثمرات وعينا الحاضر أننا بدأنا ندرك أن المجتمع لا ينهض على الدعائم المادية وحدها ، بل لابد له من الدعائم الروحية الحافظة من الهدم ، الواقية من الحطم ، وإذا كان للفرد جسم وروح ، وكان الجسم لا يستغنى بوجه من الوجوه عن روحه ، وإذا كان جثته بالية هامة ، وكانت الروح بحاجة إلى جسم تحل فيه لتقوده وتحركه ، وإذا كانت شيئاً بعيداً عن دنيانا ، لا نبلغه ولا نتمكن من الانتفاع به ، فإن المجتمع كذلك له جسم وروح ، وجسمه هو هذه اللبنة المتتابعة المتلاحقة التى نسميها أفراداً ؛ وأما روحه فهو الإيمان الصادق الذى يجعل المجتمع موصول الأسباب والأواصر بالله ديان العالمين ، ورحمن الدنيا والآخرة ، وقيوم السموات والأرض ، فتجعله هذه الصلة قوياً فى كيانه ، حصيناً فى أخلاقه ، سعيداً فى حياته . . . وقد تبذرت فى أفقنا

(١) « لم يذكر أستاذنا الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله تاريخاً لالقاء هذه الخطبة . . » د. السيد محمد ديب .

بعض الظواهر الطيبة التي تدل على الاتجاه الحميد نحو غرس الجذور السليمة لشجرة الإيمان المورقة في صدور الأفراد والجماعات ، فقرأنا مثلاً أن مؤتمر التعبئة القومية الذي انعقد بالإسكندرية قد قرر جعل الدين مادة أساسية في مراحل التعليم ، وقرر أن يمتحن طلاب الشهادات الإعدادية والثانوية في مادة الدين ، بعد أن كان هؤلاء الطلاب بالأمس يدرسون هذه المادة ولا يمتحنون فيها ، فيتخذون حصتها وسيلة للسخرية منها والتندر عليها وعلى مدرسيها ، ما داموا يعلمون أنهم لن يمتحنوا فيها آخر العام كما عنيت وزارة التربية والتعليم بموضوعات مادة الدين ، ولقد اشتركت في لجنة مناهج التربية الدينية للمدارس ، وانهينا إلى منهاج يضم الموضوعات التي يتطلبها التوجيه الديني القويم للشبيبة الناشئة ، من قرآن وحديث وأحكام وسير رجال ، واعتقد أنه لو طبق هذا المنهاج في صدق وإخلاص لأوجد أطيّب الثمرات المرجوة منه بمشيئة الله . . .

ومن الظواهر الطيبة الجديرة بالذكر والتنويه أنه قد أنشئت في الجيش إدارة للتوجيه المعنوي الروحي ، يراد منها إعداد مجموعات من الضباط في مختلف أسلحة الجيش وفروعه يتثقفون ثقافة دينية وروحية ومعنوية تؤهلهم لأن يكونوا طلائع التوجيه المعنوي بين الجنود والضباط ، وهذا من غير شك عمل طيب حميد يستحق التنويه والتمجيد ، كما يستحق من فكر فيه ومهد له وسهر عليه الشكران والثناء ، ونسأل الله تباركت آلاؤه أن يفسح المدى أمام هذا العمل الروحي الديني ، حتى نرى التربية الروحية السليمة صبغة كريمة تعم صفوف المجاهدين في شتى الميادين . . . ولقد دعيت إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات على هلاء الضباط في نواحي التربية الروحية ، وأشهد لقد رأيت خلال إلقائي هذه المحاضرات ضباطاً متعطشين إلى الثقافة الإسلامية

ويثير إعجابهم - وأحياناً دهشتهم - أن يسمعوا ويطلعوا على جوانب رائعة مشرقة في الإسلام تنظم شؤون الفرد والجماعة مادياً ومعنوياً ، في الحرب والسلم ، وتضع القواعد الراسخة الثابتة للمجتمع القوى الفاضل الذي يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه يلقي ربه غداً ، ولقد كانت أسئلة هؤلاء الضباط وتعليقاتهم على المحاضرات تدل بوضوح على رغبتهم في معرفة قواعد التوجيه المعنوي والتربية الروحية والتهديب الديني ، كما تدل في الوقت نفسه وجوب التوسع في تزويدهم بالمعلومات الدينية والثقافة الإسلامية والجوانب العسكرية والروحية التي تتعدد وتتوالى في تراث هذه العقيدة السمحة التي أشرقت بها أرجاء الأرض ، واهتدت جموع الناس في المشارق والمغارب : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ولقد قلت هؤلاء إن التوجيه الروحي يجب أن يسبقه التوجه الروحي ، فهناك فرق بين التوجه والتوجيه ، لأن التوجه عمل يقوم به الإنسان لشخصه وذاته ، فيتوجه بنفسه إلى جهة الخير ، ويظهر روحه ، ويتسامى في خلقه وتصرفه ، حتى يصبح متوجهاً توجهاً روحياً كريماً ، وبعد ذلك يبدأ في المرحلة التالية ، وهي مرحلة التوجيه الروحي لغيره من الناس ، أو بتعبير آخر : لا بد للإنسان أن يكون صالحاً في نفسه أولاً ، ثم يأخذ في إصلاح غيره ، وشوقي يقول فيما يقرب من هذا المعنى : « الصالحون يبنون أنفسهم والمصلحون يبنون الجماعات » .

وقلت لهم إن الجندي في الميدان لا يمكن أن يثبت في معركة ، أو يصبر على هول ، أو يصدق في تضحية ، إلا إذا كان قلبه عامراً بالإيمان ، لأن هذا الإيمان يجعله يقدم على القتال ، وهو لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، فهو ينتظر إحدى الحسينيين ، فلما نصر تعقبه عزة في الحياة ،

ولما شهادة يعقبها خلود في جنة عرضها كعرض السموات والأرض . . . وفي تاريخ المسلمين مئات الشواهد على ما صنعه الإيمان من عجائب ، وهؤلاء مثلاً هم المسلمون على عهد الرسول يخرجون في ثلاثة آلاف إلى غزوة مؤتة ، ليحرروا الإقليم السوري من احتلال هرقل وأتباعه له ، ويخرج لهم الأعداء في مئة ألف ، حتى خشي بعض الجنود من هذا التفاوت الصارخ ، فقال لهم ابن رواحة : « يا قوم ، والله إن للتي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة » . وترددت الأصوات : من حوله « صدق والله ابن رواحة » . وبدأت المعركة وإذا نحن نرى جعفر بن أبي طالب يحمل اللواء مؤمناً مقدماً وهو يردد :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها ، على إن لاقيتها ضرابها
وما زال يجاهد حتى قطعت سيوف أعدائه ، فخلفه ابن رواحة وأقبل
يجاهد حتى سقط شهيداً وهو يردد قوله :

يا نفس ، لا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلی فعلهما هديت وإن توليت فقد شقيت
وهل كسب المسلمون الأولون غزواتهم بغير الإيمان؟ وهل فتحوا المشارق
والمغارب على اسم الله بغير الإيمان؟ وهل انتقلوا من رعاة للابل والغنم إلى
قادة للشعوب والأمم بغير الإيمان؟ . . « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله
أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد استبان الصبح للذي عينين ،

ودلتنا الطبيعة والعقل والنقل والتجربة والشواهد على أن الإيمان بالله هو مفتاح
الصفاء والعلاء ، وأن الأمة لا تسمو ولا تعلو دون تربية روحية ومبادئ
أخلاقية وثقافة دينية ، وها قد بدت بوادر فيها بشائر ، فلننتهزها فرصة
نزيها ونقويها ، ولنجعلها باكورة نضاعها ببواكير ، تتجلى في أخذنا
لأنفسنا وأولادنا وأسرنا ومن حولنا بهدى الله الذى لا يضل من استنار بسناه ،
حتى تتم لنا النعمة من الله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى
ورضيت لكم الإسلام ديناً » وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

حضارة الذئاب^(١)

الحمد لله ، عدل وأمر بالعدل والقسطاس ، وسوى في النشأة بين جميع الناس وألغى فوارق الألوان والأجناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى » نشهد أن لا إله إلا أنت ، تفتقم بلا إجماع ، وتكرم بلا إسراف ، وأنت العلي الكبير ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، آخى بين العرب والعجم ، وألف بين السادة والخدم ، فكان رسول الكرامة الإنسانية ، وحافظ الهيبة البشرية ، ومجدد قيمة الإنسان ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأسرتهم ، والفائزين بشرف صحبته ، والمستمسكين بهديه وسنته : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا غضب الله على أمة معرضة عنه ، تتابعتم منها المخازي والسيئات ، حتى تبدو شوهاء نكراء ، تقيم من نفسها الدليل على خستها ، وتقدم البرهان من ذاتها على أنها لا تستحق الحياة الفاضلة أو التكريم الإلهي ، مهما طال التبجيج والادعاء بأنها ذات حضارة ومدنية ، وهؤلاء الذين عمى الله بصائرهم فلا يدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالإسلام ، قد أوتوا ما أوتوا من علم وقوة ، وسيطروا على ما سيطروا عليه من خيرات وأسباب ، وعلوا في الأرض علواً كبيراً ، ومع ذلك ظلوا منحطين انحطاطاً روحياً شديداً ؛ وكأن الله سبحانه قد أتاح لهم كل هذه الوسائل والأسباب ، بينما حرمهم نعمة الإيمان

(١) الجمعة ١٦ شوال سنة ١٣٧٠ هـ ٢٠ يولية سنة ١٩٥١ م .

ليريهم رأى العين أنهم بلون نصره أذلاء ، وبلون هديه أخساء ، وبلون تأديبه سفهاء ؛ « أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » .

ألا تقرأون أيها السادة ؟ . . . لقد نشرت الصحف أن أربعة آلاف من البيض الأمريكيين « المتحضرين المهلهلين المثقفين جداً » ثاروا في إحدى ضواحي « شيكاغو » على عائلة زنجية مسكينة ، نزحت إلى هذه الضاحية واستأجرت شقة فيها ، وسبب هذه الثورة أن هؤلاء البيض المؤدبين الراقين جداً في شعورهم لا يريدون أن يعيش بجوارهم أحد لونه أسود ، وقد قامت مظاهرات من الآلاف الأربعة استمرت ثلاث ليال كاملة ، وأخذ المتظاهرون الأبطال جداً يقذفون مسكن الأسرة الزنجية المسكينة التي كل جريماتها أنها ولدت سوداء البشرة ، أخذوا يقذفون المسكن بالمواد المحرقة حتى أشعلوا فيه النار ، ثم عمدوا إلى تحطيم نوافذ المسكن كله ، وإلقاء الأثاث في الشارع ثم أحرقوه . . . وهكذا فلتكن خسة المتحضرين ، وهكذا فلتكن مدنية الذئاب وهكذا فليكن رقى الوحوش ، وإلا فلا ! . . . وهؤلاء الوحوش أيها السادة هم مع شديد الأسف القبلة التي يتجه إليها بعض كبارنا ليستمدوا منهم الثقافة والمدنية وأصول الحرية وقواعد التربية والأخلاق ، وهؤلاء مع شديد الأسف هم الذين بضحكهم على ذقوننا وذقون سوانا بمساخرهم البهلوانية التي يسمونها هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو الضمان الاجتماعى أو محكمة العدل الدولية أو ميثاق الإنسان والحريات والمساواة بين الناس . . . وهؤلاء هم مع شديد الأسف أئمة لبعض الناس في السياسة والأدب والاجتماع ! . . .

أين تذهب هذه الخسة أو نجى أمام هدى الله المبين ، وتكريم الإسلام لقيمة الإنسان ، وسحقه لعصبية الجنس واللون والوطن ، وتسويته بين الناس جميعاً لأنهم من أصل واحد ولرب واحد ؟ وأين هذا اللؤم الوضيع من

سماحة الإسلام وتعظيمه للعبيد والموالى والإماء فالرسول صلوات الله عليه يقول في مولاه زيد بن حارثة الذي كان عبداً وفي ابنه أسامة : « وایم الله إن كان خلیقاً بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده ، فأوصيكم به فإنه من صالحكم » . ويقول الرسول الأسامة : « أنت أخونا ومولانا » ويعده من أهله ، ويقدمه في الحب على غيره ، ويأمر أهله بحبه . ولقد أعطى عمر بن الخطاب أسامة هذا عطاء أكثر من عطائه لابنه عبد الله ، فسأله ابنه : لم فضلت أسامة على ، فوالله ما سبقني إلى مشهد ؟ فأجاب عمر : لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك ، فأثرت حب رسول الله على حبي . وكان بلال بن رباح الحبشي الأسود أول من مؤذن في الإسلام ، وأخبر عنه الرسول بأنه يمشي أمامه في الجنة ، وأنه سمع صوت نعليه حين مشيه ، وعنه يقول عمر : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعني بلالا - » . وهذا سالم مولى أبي حذيفة المملوك الفارسي جعله الرسول أحد أربعة هم أئمة الناس في قراءة القرآن وقال عنه عمر حين طعنه أبو أؤاثة : لو كان سالم حياً لوليته خلافة المساميين ! . وهذا صهيب العبد الرومي يقول عنه الرسول : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . وهذه أم أيمن مولاة الرسول ، الأمة التي ورثها عن أمه ، أعتقها الرسول ، وكان يبرها مبرة الوالدة ، ويقول عنها : « أم أيمن أمي بعد أمي » . . . ثم يصنع الرسول صلوات الله وسلامه فيقول : هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » . وها هو ذا يشاهد صحابياً من صحابته يخاضم آخر ويسبه بقوله : يا ابن السوداء . فيغضب الرسول ويقول لصاحبه : طف الصاع

إنك امرؤ فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . . . ولا عجب فهو الذى يقول عن المتكبرين من الخلق : « إنه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه » . ويقول عن المجاهدين المستضعفين : « رب أشعت أغبر لو أقسم على الله لأبره » . ويقول : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه هي حضارة الذئاب وهذه هي سماحة الإسلام ، فأى الفريقين خير وأهدى سبيلاً ؟ . . إن كذبة الساسة وطغاة السادة فى الأرض يخدعوننا عن بهتانهم ببريق مظاهرهم وزور حديثهم ، ثم يأتون الكبائر فى هضم الحقوق وإهدار الكرامات وإزهاق الحريات ، وتسخير الملايين كالعبيد أو الأغنام فى سبيل شهوة مجنونة أو لذة مخبولة ، وهم فى سبيل ذلك يصطنعون فروقاً من السماء والألوان والطبقات لا يقرها الله ولا يعرفها الإسلام ، وهذه مثلاً فرنسا التى تتاجر صباح مساء بألفاظ الإخاء والحرية والمساواة ، وتدعى أنها أم الثورات الإنسانية ، ومثبتة الحقوق البشرية ، هى نفسها التى تريد أن تستأصل الملايين من أبناء الجزائر العربية المسلمة ، لا لشيء إلا لأنهم يريدون أن يعيشوا عرباً مسلمين ، فى حرية واستقلال ! . . وقد آن للبشرية الحائرة أن تكفر بكل غدار ، وأن تأخذ بعنق كل مفتر كذاب ، وأن تهدم بيدها الصالحة المصلحة ما أقامته ذئاب البغى من فخاخ للكرامة الإنسانية وقبور للحقوق البشرية ، « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . وأن للمسلمين بصفة

خاصة أن يكفروا بكل ميثاق إلا ميثاق الرحمن ، وأن يعرضوا عن كل ينبوع إلا ينبوع القرآن ، وأن يسخروا من كل تدجيل ، ويقبلوا على هدى الرسول ، ثم يحملوه إلى الناس قائلين : هذه مضخة الإطفاء وقارورة الدواء وزورق الإنقاذ قد جاءكم من الله نور . . . « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سواربكم التوفيق يستجب لكم . . .

من أشعة الهدى^(١)

الحمد لله عز وجل ، يحق الحق ويبطل الباطل : « قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ، قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد » ؟ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدي المصلحين ويضل المفسدين ، وما ربك بظلام للعبيد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى الهدى ، وأمر بالتقوى ، فصولات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن سار على طريقته واعتصم ببابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من خلال الأنبياء الكريمة التي تدور حول الطعام والشراب والثياب ، أو غير ذلك من شئون التمتع بالحياة والتلهي بأعراضها ، تشع بعض الأنبياء التي تشير إلى أمل ، وتدل على إصلاح ، والخير في أمة محمد — مهما قل — موصول دائم لا ينقطع إلى يوم القيامة بإذن الله عز وجل ، وهذه الأنبياء الخيرة المتناثرة تقوى عامل الرجاء في صدر المؤمن الذي لا يقنط ، ولذلك نراه يتبعها ويلتقطها ويتمعن فيها ، ويتطلع إلى المزيد منها ، ويذهب يؤكد لنفسه ويقرر للناس أن هذه بشائر تتبعها أمثال لها ، فإذا الخير سائداً ، وإذا الإيمان قائداً ، وإذا الأرض تشرق بنور ربها ، وتستضيء بهدى خالقها ، ومن هذه الأنبياء ما نشرته الصحف من أن مجلس محافظة المنيا قد قرر لإعلاق جميع المحلات العامة لمدة ساعتين كل يوم جمعة عند الظهر ، ليتمكن عمال هذه المحلات من أداء صلاة الجمعة^(٢) ، وهذا قرار يدل على تقدير لحق العقيدة

(١) القيت في مسجد الرفاعي بالقاهرة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٩٦٢ م .

(٢) جريدة الاخبار ٢٣/٨/ ١٩٦٢ م .

والدين في نفوس هؤلاء العمال ، وعلى تقدير للفريضة الإسلامية التي يجلبج بالالدعوة إليها صوت القرآن المجيد حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

والواقع أن الصلاة في الإسلام لها مكاتبتها الكبرى ، فهي تسمى بعد شهادة التوحيد ، وهي عماد الدين ، وهي الصلة اليومية المتكررة بين العبد وربّه ، ولعل هذا هو الذي دعا إلى إعلان فرضها في السماء ليلة الإسراء ، بينما كان إعلان الفرائض الأخرى على الأرض ، ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ . فقال : الصلاة لوقتها . ولقد كتب كاتب متحلل يتهم على الصلاة ، ويزعم أنها مشغلة ومضیعة للوقت ، وأنها لا تناسب سرعة العصر الذى نعيش فيه ، وكبرت كلمة تخرج من فيه ، إن يقول إلا كذباً وضلالاً ، ففروض الصلاة خلال اليوم يمكن أداؤها باعتدال في نصف ساعة ، كل فرض يستغرق دقائق معدودة ، وهذه الدقائق هامة وضرورية في حياة الإنسان حساً ونفساً ، ومبنى ومعنى ، وظاهراً وباطناً ، وخلقاً وخلقاً ، لأنها تخلص من شواغل الحياة وتخفف من أثقال الدنيا ، وتزود بطهارة الجسم وحياة القلب ، ومناجاة للذى أبدع الحياة وسوى الأحياء ، واستمداد من واهب القوى والقدرة ، الذى وسعت رحمته كل شئ ، الذى جعل رحمته قريباً من عباده المحسنين .

والعجيب في أمر الصلاة أنها الفريضة الإسلامية الوحيدة التي لا تقبل التأجيل أو التسويف ، فمن الممكن تأجيل الصوم : « فن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، ومن الممكن تأجيل الحج : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » فن لم يجد الزاد والراحلة أو من الطريق كان الحج مؤجلاً بالنسبة إليه حتى تتوافر له الاستطاعة ، والزكاة

(م ١٣ - خطب ج ٢)

قد يدخلها التأجيل على لون من الحجاز ، فمن لم يملك نصاب الزكاة لا تجب عليه الزكاة حتى يملكه ، وإذا كان عنده أقل من النصاب فلا زكاة ، وزكاة المال مؤجلة فيه حتى يحول عليه الحول ويمر العام ، وأما الصلاة فلا تأجيل فيها ولا تسويق ولا تفريط : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين » . والسليم الصحيح القادر يصلى قائماً ، يؤدي حركات الصلاة كاملة كما رسمها الإسلام ، فإن عجز عن القيام صلى قاعداً ، فإن عجز عن القعود صلى مستلقياً بالإيماء ، حتى قال بعض الفقهاء إن الإيماء قد يكون بأهداب العين : والإسلام يطالب المسلم بالصلاة كاملة إذا كان مقيماً ، فإذا سافر طالبه بها مقصورة ، فإن عرضت ضرورة طالبه بها مجموعة : الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء ، فإذا كان المسلم في حرب طالبه بها مقسومة موزعة ، ومعنى هذا كله أن الإسلام يعطى فريضة الصلاة أهمية كبرى ، حتى أغلظ الحكم على من تركها عمداً وأهلها استهتاراً وإنكاراً فقال الرسول : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » . وقال عن الكافرين : « العهد الذى بيننا وبينهم ترك الصلاة » .

وإذا كانت فروض الصلاة عامة لها هذه المكانة ، فإن لفريضة الجمعة مزيداً من الرعاية ، ولذلك نص القرآن الكريم عليها بالذات ، وسمى سورة من سوره باسمها ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لقد هممت أن آمر رجلاً ليصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » . وهذا تهديد ليس وراءه تهديد ، وإنما كانت الصلاة الجمعة هذه منزلة لأنها العيد الأسبوعي للمسلمين ، ولأنها مظهر لتلاقيهم على كلمة الله ، واجتماعهم باسم الله ، مع الجماعة « كما يقول الرسول ، وفي الجمعة تأكيد لروابط الأخوة بين المؤمنين ، والقرآن يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفي صلاة

الجمعة تذكير بالله وتفقيه في الدين ، عن طريق خطبتها التي تعتبر درساً إسلامياً أسبوعياً دائماً ، والرسول يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وفي صلاة الجمعة فرصة لتبادل الرأي والمشورة ، وهذا أصل من أصول الإسلام : « وأمرهم شورى بينهم » . وفي صلاة الجمعة فرصة كى يبيت كل مسلم أخاه جانباً من شئونه وأموره ، فيكون هناك تبادل للمعاونة والمؤازرة ، والقرآن يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

ومن هنا نستطيع أن نعتبر قرار مجلس محافظة المنيا عملاً إسلامياً يستحق التقدير ، ونرجو أن يثمر ثمراته ويحقق غاياته ، كما نرجو أن يكون هذا العمل موضع اقتداء عند بقية المجالس ، وأن تكون هذه الخطوة الأولى فاتحة لخطوات أفسح وأوسع يكون فيها للدين تطبيق وتأيد ونرجو أن يتمكن كل موظف في الدولة من أداء صلاته التي يعرض وقتها في أثناء وظيفته ، وأن تتخذ مدارسنا ومعاهدنا وكلليات جامعاتنا من الوسائل ما يهيئ للتلاميذ والطلاب القيام بالصلوات المفروضة عليهم . كما نرجو أن يحسن العمال استخدام هذا القرار ، بأن ينصرفوا حقاً وفعلاً إلى صلاة الجمعة ، لا أن يضيع بعضهم هذا الوقت في اللهو أو العبث ، فهناك بعض الناس يتعلمون باسم الدين حتى ينالوا حقوقاً ، ثم يستخدموها فيما يسمى إلى الدين أو فيما يتفق معه على أقل تقدير ، وبذلك يجردون غيرهم على الاستهانة بالمطالب التي تطلب باسم الدين ، والدين براء من المستغلين له ومن المستخفين به على السواء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد اقترن هذا القرار الطيب بخبر سار آخر أتانا من البلد العربي المسلم الشقيق الجزائر ، وهو أن علماءها قد قرروا المطالبة بجعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة هناك ، ولا شك أن تقرير

المبدأ العظيم أمر لا بد منه فى أول الطريق ، ولكن ثمرته تظهر بالتنفيذ والتطبيق فإذا كنا نؤكد أن الإسلام دين الدولة ، فإن من واجب الدولة أن تبنى لنفسها ولأفرادها ثمرات هذا المبدأ الأصيل عن طريق الاهتداء بهدى الله الذى أشرقت لوجهه الظلمات ، وصلاح به أمر الدنيا والآخرة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

اهتداء الى الله (١)

الحمد لله عز وجل ، له دعوة الحق ، دعا إليها وحرص عليها ، وأوجب التبشير بها : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أتم الحجة وأوضح المحجة : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى سبيل النعمة والرحمة : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

إن الله تبارك وتعالى يقدم لعباده فيما بين الحين والحين دليلاً على ربوبيته ووحدانيته ، وبرهاناً على جلال دينه وصادق دعوته ، وبتوالي الأيام تتوالى الأدلة وتتصل البراهين ، وكلها تمجيد لله وتأييد للإسلام : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » . ومن أمثلة ذلك ما نشرته الصحف منذ قليل (٢) ، وهو أن محامياً يهودياً مشهوراً ، كان عميد اليهود في هذا البلد ، وهو من كبار رجال القانون ، قد تقدم إلى الجهات المسئولة يطالب منها اتخاذ ما يلزم لإعلان إسلامه وتسجيله ، لأنه قد اقتنع بعد الدراسة العميقة والمراجعة الدقيقة بصدق مبادئ الشريعة الإسلامية ، وقرر في طلبه أنه قد مال إلى الإسلام واقتنع به منذ عهد بعيد ، ولكنه لم يسجل إسلامه رسمياً ولم يعلنه فيما مضى لبعض الاعتبارات والظروف ، وخشية أن يقال إنه أسلم خفية أو رهبة أو مما لآفة . . . وهذا

(١) الجمعة ٢٠ شوال سنة ١٣٧٩ هـ ١٥ أبريل سنة ١٩٦٠ م .

(٢) جريدة الجمهورية ١٢ أبريل سنة ١٩٦٠ والاهرام ١٣ أبريل

سنة ١٩٦٠ م .

الرجل الآن في سن الشيخوخة ، لأن عمره يزيد على خمسة وستين عاماً ، وهو قد جرب الحياة وعرك الأحداث ، وظل نحو خمسين سنة يترافع أمام مختلف المحاكم ، والمحاماة صنعة تعلم صاحبها كثرة النظر في الأدلة والبراهين ، وهو يقرر أنه قد حفظ القرآن وطالع كل كتب الشريعة والفقه ، فطرق الإسلام فؤاده برفق ، ثم ملأ عليه جوانب نفسه ، فلم يجد مفرأ من الإذعان والإقرار بأن الدين عند الله الإسلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ونلاحظ هنا أن إسلام رجل كهذا أمر لا يبدو منه أنه رغبة في شهوة ، أو طموح إلى جاه ، أو خضوع لمؤثر ، وصاحبه ليس كأولئك الذين يتلاعبون بدينهم وعقيدتهم ، فيخرجون من ملة إلى ملة ، بسبب الشروع في طلاق أو زواج أو حضانة أو غير ذلك من المؤثرات ، ولعله لا يفرحنا كثيراً بمجرد دخول شخص غير مسلم في الإسلام ، فالأمر هنا ليس متعلقاً بالكم والعدد ، بل يجب أن يتعلق بالكيف والمعنى ، وعدد المسلمين ليس قليلاً حتى نفرح لمجرد الزيادة العددية فيه ، بل هناك أكثر من أربع مئة مليون من المسلمين في الأرض ، فلو نقص هؤلاء ألفاً مثلاً لما أضعفهم ذلك ، ولو زادوا واحداً أو آحاداً لما قواهم ذلك ، ولكن المهم أن الرجل الذي أعلن إسلامه طواعية واختياراً شخص مثقف دارس ، قد عرف الإسلام عن بصر وخبرة فأمن به ، وهذا يزيدنا ثقة واعتزازاً بديننا ، والرجل الذي أسلم كان يهودياً ، والعداوة بين اليهود والمسلمين قديمة موروثة ، وقد زادت هذه العداوة حدة بعد مأساة فلسطين ، فإذا أقدم يهودى مثقف ضليع على اعتناق الإسلام بعد دراسة وتمحيص كان ذلك دليلاً قوياً على أن الإسلام نور الله يهدي إليه أولئك الذين يتجردون من أهوائهم وشهواتهم وغاوتهم ، ويريدون الحق لذاته . والإسلام دين قد نشر نفسه وبث مبادئه في العالمين بسهولة وسماحته وسطوح أضوائه ، ولقد كان يفتح القلوب والعقول قبل أن يفتح المدائن

والحصون ، وإذا كان هناك جهلة أو سفلة يزعمون أن الإسلام ين انتشر بالسيف فإن التاريخ الحق يشهد أن ذلك افتراء واجترأ ، ففتوح الإسلام لم يكن فيها إرغام لغير المسلمين على اعتناق الإسلام ، بل كان هناك تبشير وتخير ، فلما أن يقبل غير المسلمين دين الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولما أن يعطوا قدرأ من المال لجنس الإسلام في مقابل صيانة لأنهم ودفاعه عنهم باعتبار أنه المتمكن الغالب في المنطقة ، ولما أن يتجنبوا اعتراض الدعوة الإسلامية ، ويحذروا قطع الطريق عليها والتهديد لها والإقبال بعد أن أعلن من أنذر : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » ، ولم يثبت في تاريخ المسلمين الحق أن الإسلام أرغم قوماً على الدخول فيه من أول الطريق ، بل لقد هم طاغية من الحكام أن يرتكب مثل هذا باسم الإسلام ، فوقف في وجهه هداة الأمة ورددوا في ذلك حكم الله : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

ولقد كان المسلمون الأولون يدعون إلى دينهم بالحكمة الهادية ، والموعظة الحسنة ، والقنوة الصالحة ، والتصرف النبيل الأسر . . . فالمسلمون مثلاً قد أخذوا في بعض الأوقات جزية من قوم لم يسلموا حتى يقوموا بحمايتهم في مقابلها . وحينما أحسن المسلمون بأنهم قد يعجزون عن خاية هؤلاء القوم بسبب بعض الظروف الحرجة ، ردوا إليهم الجزية ، وأعجب القوم بهذا التصرف النبيل إعجاباً شديداً ، فدخلوا في دين الله أفواجا ، وكان كل من هؤلاء المسلمين الصادقين يعطى القنوة السامية من نفسه في مظهره وغميره ،

وقوله وعلمه ، فكان غير المسلمين يشاهدون الإسلام طاهراً مطهراً ، رافعاً مؤثراً ، من خلال تصرفات هؤلاء الكلمة من المسلمين ، فيخرج الناس إلى هذا الدين الذي صنع أمثال هؤلاء الرجال الأبطال ، وكان المسلم في الصدر الأول يبشر بالإسلام ، فيتجلى فيه الاخلاص الذي يجعل هذا التبشير مشمراً نافعاً بالغاً أعماق الأفتدة وطوايا السرائر ، فيلين له العقي ، وينقاد معه العصي ، ويدنو به القصي ، ويفرح المسلمون بذلك التوفيق فرحاً بليغاً ، لأنهم يتذكرون قول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

ومن المؤسف أنه في الوقت الذي يدخل فيه رجل مثل هذا الرجل في الإسلام ، بعد أن بحثه ودرسه واقتنع به ، نرى المثات من أبناء المسلمين يهملون دينهم ويجهلون تعاليمه وقواعده الأساسية ، فهم محسوبون على الإسلام ثقلاً وعدداً ، ولكنهم لا يلتزمون له قاعدة ولا حداً ، ولقد ذكر الرجل أنه كان يحدث ابنته كثيراً عن الإسلام وعظمته ، حتى أخذت تشعر بنفس الأحاسيس التي دارت بقلب والدها وعقله ، ولما كتبت إليها يخبرها أنه قد أعلن إسلامه فرحت بذلك وكتبت إليه تهنئته ، فهل سمع هذا أو تدبره أولئك المنسوبون إلى الإسلام الذين يهملون أبناءهم ويناتهم فلا يتحدثون معهم بشيء من العقيدة والدين ؟ ... واحسرتاه على كثير من أبناء الإسلام ... لقد أهملوا شأنه في نفوسهم وأهملوا الدعوة إليه والتبشير به ... أهملوا هذه الدعوة في البيت ، فضاعت القدوة الدينية العملية التي كان يجلبها الآباء والأمهات ، وأهملوا هذه الدعوة في المجالات الأخرى لأن شياطين المكر والخديعة قد أوهموهم أن حياة المدنية والحضارة لا يلائمها التدين ، ولا يناسبها الدين والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر ولنعتبر . . . فإن الذكرى تنفع المؤمنين . . . إن الدين الإسلامى الذى يفرض فيه أهله ويهمله أبناؤه ، يقبل عليه الدين كأنوا بالأمس من أعدائه أفليس هذا زاجراً كافياً لإيقاظ من غفلة ، وهداية إلى طريق مستقيم ؟ . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

فلنحذر الفتنة (١)

الحمد لله عز وجل ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وأشهد أن لا إله إلا الله أمر بكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الجماعة ، وصاحب الشفاعة فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يحاول الشيطان قدر طاقته الشريرة أن يتعرض للأمة المؤمنة من حين إلى حين ، ليوجد في حصنها ثغرة ، أو يحفر أمام أقدامها حفرة ، فإن استجابت لوسوسته ، ولم تنبه إلى خديعته ، أوقعها في فتنته ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسراً ، ولفتنته امتحان واختبار وكلمة الفتنة مأخوذة من كلمة الفتن وهو امتحان الذهب بالنار لتظهر أصالته ، ويظهر عنصره ، والله تبارك وتعالى يحذر أمته من مخاطر التعرض للفتنة ومعاطب الوقوع فيها ، جل جلاله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » . أى احفظوا أنفسكم وصونوا بديانكم من التعرض للفتنة التي قد تبدأ صغيرة أو مستورة ، ثم تتزايد وتتوارد ، فإذا معظم النار من مستصغر الشرر ، وإذا الفتنة يتسع خرقها على الراقع ، وإذا لم تجد العلاج صيرت الديار بلاقع ، لأنها حيثئذ نعم وتجمع ، فتصيب الفاسد والصالح ،

(١) الجمعة ٢ ذو الحجة سنة ١٣٨٧ هـ أول مارس سنة ١٩٦٨ م.

أما الفاسد فلائنه سعى فى الفتنة ، وأراد بها الشر والخلل ، وأما الصالح فلائنه سكنت عن مقاومة الفتنة ، ولم يعاون فى القضاء عليها وعلى أسبابها وبواعثها ، والله تعالى — كما قال ابن عباس — أمر المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بينهم ، أو يسكتوا عليه ، حتى لا يعمهم الله بعذاب من عنده ، ولذلك قال فى ختام الآية السابقة : « واعلموا أن الله شديد العقاب » ، وهذا تهديد ووعيد من رب العزة والجبروت للأمة إذا تركت عقارب الفتنة تسعى بين ظهرانيها ، فلم تبادر إلى علاجها ، ولذلك علمنا ربنا أن نقول داعين له راجين منه : ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، يتعاونان على الفتان » أى الشيطان لأنه يفتن الناس عن الحق والهدى ، وفى رواية : « يتعاونان على الفتان » بضم الفاء ، والفتان جمع فتن ، أى يعاون كل منهما الآخر على مجاهدة الذين يضللون ويشيرون الفتن والقلقل . كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « إن السعيد لمن جنب الفتن » ، وكان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يستعين بالله من فتنة الحيا وفتنة الممات ، ومن كلمات أجدادنا الحكيمة البليغة : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » . ولقد حذر كتاب الله تبارك وتعالى من خطر المنافقين المخادعين الذين يقولون ما لا يفعلون « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » ، وهم أولئك الذين يعملون على إثارة البلبلة والخلل ، ويسارعون إلى التفريق والتزيق ، تطلباً لمغنم رخيص أو مأرب خسيس ، فيقول القرآن عن أولئك الفاسدين المفسدين : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم

بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

إن واجب الأمة أن تعرف طريقها ، وتظهر صفوها ، وتعتصم بعقيدتها ومبادئها ، فن وفي لها وحرص عليها وجاهد في سبيلها ، فله جزاء الحسن ، ومن تنكر لها أو استخف بها أو خان فيها لقي جزاءه العادل الرادع ، فقد أخبرنا القرآن منذ أربعة عشر قرناً بأن الإنسان محكوم عليه بالوبال والخسران ما لم يسلك طريق الإيمان والإحسان في العمل والاستمسك بالحق ، والصبر على طريق الهدى : « والعصر ، إن الإنسان لئ خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ثم على الأمة بعد ذلك أو مع ذلك أن تحرص الحرص كله على صيانة وحدتها ، وتعزز أخوتها ، حتى تستفيد بكل طاقاتها في سائر مجالاتها ، وبذلك لا تقع في مصيبة التفرق والتزق فيمسها عقاب الله الأليم : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم : اكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » .

إن الأمة المؤمنة لم تنس بعد ، ولا يجوز لها أن تنسى في حال من الأحوال ذلك الشعار اللئيم الخبيث الذي كان الاحتلال الأجنبي يسعى بالفتنة والخسران داخل ظلماته ، وهو شعار : « فرق تسد » وكأن هذا الاحتلال الأليم ما زال يسعى سعيه من وراء ستار الاستبقاء آثار وبيلة لهذا الشعار بين الذين يأمرهم ربهم ونبيهم وقرآنهم ودينهم وعقلهم ووطنهم ومصيبتهم بأن يكونوا أقوياء ، أشقاء ، حكماء بصراء ذاكرين قول الحق جل جلاله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تختلفوا فلن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » . وإذا كان

هذا الرسول الكريم نفسه هو الذى يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فكيف يتنكر إنسان لهذا الهدى العظيم ، فيحاول أن يكون معولا يهدم أخاه أو يناله بسوء ، وكيف والعدو فى ديارنا ، وأمام وجوهنا ، وليس أمامنا إلا أن نتلاقى كلنا على مجاهدته هو ، وضربه هو ، ونسيان كل خلاف وشقاق فى سبيل التغلب عليه وإخراجه من الأرض التى احتلها وتعمر فيها ، حتى طغى وبغى ، وكأنه يقول : للقوة الغاشمة التى لا تجد رادعاً أن تفعل ما تشاء ، وفى أى شريعة من شرائع الله ، أو فى أى مذهب من مذاهب العقلاء ، نترك نيران العدو موقدة فى ديارنا وأقدامه القلعة تجثم على صدورنا ، ثم نتحاور أو نتحارب فيما بيننا ، ولن يستفيد من هذا التصدع الموجه إلا أعداؤنا ؟ وكيف يجوز هذا ولقد سئل رسول الله عليه الصلاة والسلام : من خير الناس فى الفتنة ؟ . فقال : « رجل فى ماشيته ، يؤدى حقها ، ويعبد ربه ، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخيفونه » وكأن الرسول يريد بهذا أنه يجب على المؤمنين خلال الفتنة أن يطفئوا نارها ، ويحولوها إلى عمل طيب ، وإنتاج مشمر ، واعتصام بالتقوى ، وإقبال على الواجب الأكبر وهو مجاهدة الأعداء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا يجوز بحال من الأحوال أن نضيف إلى نكبتنا بالعدوان نكبة أخرى بصراع داخلى ، فلنتق الله فى أنفسنا وأوطاننا وحرماننا ومقدسائنا ، فعلونا يتبع كل يوم ويتوقع ، ولسنا ندرى ماذا يكون المصير ، من هول ما نرى وما نسمع ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

التحريض على الرذيلة^(١)

أحمد الله عز وجل ، سن الشرائع لتهدى إلى الخير والفضيلة والرشاد ، وسد الذرائع ليحول بين عباده وبين الشر والرذيلة والفساد : « فليذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بالثواب كما توعد بالعقاب « ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أضياء القلوب بنور ربه فهداها وطهر النفوس من فجورها فزكاها . . . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقنه ، فأولئك هم الفائزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت بعض الصحف أن رجلاً من لا دين لهم ولا مروءة فيهم قد حرص زوجته وأكرهها على أن تكون بغياً تبيع جسمها وتناجر بعرضها لتجمع له المال الذي يريده ، وهذا الخبر الشائن الخجل يذكرنا بالخبر الذي نشرته بعض الصحف وقالت فيه إن أحد أعضاء مجلس الأمة أعد اقتراحاً لإصدار تشريع بإعادة البغاء ، ونحن لم ننس تلك الضجة التي أثيرت حول هذا الخبر ، وكيف طال الكلام عنه ما بين تفسير وتحوير ، وإثبات ونفي ، واعتراض واعتذار ، والموضوع مؤسف في حالتي الثبوت والانتفاء ، فإن كانت الصحيفة قد اخترعته من عندها فهي جرأة تستحق المؤاخذه ، وتشجيع على الفساد في أمة تود صلاح نفسها ، واقتراء للباطل بين قوم ينشدون الحق ، وإن كان الخبر صحيحاً على طول الخط فيا لها من كارثة ، وإن كان صحيحاً

(١) الجمعة ١٨ صفر سنة ١٣٧٧ هـ ١٣ سبتمبر ١٩٥٧ م .

في أول الأمر ، وأريد التخلص منه بعد الثورة عليه والتنديد به ، فياله من موقف لا يليق بالرجال ومن يدري ، فقد يعود هذا الخبر إلى الظهور يوماً من الأيام ، عن طريق الإشاعة والافتراء ، أو عن طريق تجديد النية والعزم :

والليالي من الزمان جبالاً مثقلات يلدن كل عجيب

كما تذكرنا حادثة الرجل المحرض لزوجته على الدعارة بقول الله جل جلاله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » أي غفور لمن رحيم بهن ، لأنهن مكرهات روى أن هذه الآية الكريمة نزلت في شأن قوم كان عندهم إماء مملوكات لهم وكانوا يحرضون هؤلاء الإماء على البغاء ليجمعوا من وراء ذلك أموالاً ، وكان الإماء أحياناً يكرهن الانحطاط بكرامتهن وإنسانيتهن إلى هذا الدرك القذر ، فكان المالكون لمن يفرضون عليهن ذلك ، ويستعملون معهن وسائل الإكراه والإرغام ، فجاءت الآية الكريمة مصورة لتلك الحالة البشعة الفظيعة التي كان عليها القوم ، والتي وصلت بهم إلى أن تريد إماؤهم وجواربهم التعفف والتحصن ، فيأبى الرجال أو أشباه الرجال — بتعبير أدق — إلا أن يكونوا تيوساً قوادين ، ولا يستفاد من الآية أن الله ينهى عن التحريض على البغاء في حالة كراهة الفتاة له فحسب ، لأن الآية إنما صورت ما كان عليه القوم من شناعة وبشاعة في هذا المجال ، والبغاء أمر خبيث ملعون من الله ومن فضلاء الناس بجميع صورته وأحواله وألوانه وأشكاله ومقدماته ونتائجه ، وحسبنا أن الحق تبارك وتعالى يقول : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ، ويقول : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ويقول : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وإنما عني الدين والعقل بالتنفير من البغاء ومن التحريض عليه ، لأن البغاء

يهدم كرامة النساء ، ويهدم فضيلة الرجال ، ويضيع الأنساب ، وينشر الفاحشة فتتخبط الأخلاق ، والبغى لا تشبع منهم مضاجعها ، ولا ترده عن الفساد مع غيرها ، مهمتها غالباً أن تعلمه كيفية انتهاك العرض ، ثم هو عقب تعلمه تعلمه منها ذلك يزهد فيها لأنها للجميع ، ويسعى كالذئب فيسطو على كل عرض يستطيع إليه الوصول ، وإذا بلغت الأمة هذا فقل عليها وعلى مجتمعها وأخلاقها العفاء .

ويظهر أن بعض الناس اليوم قد عاهد الشيطان على أن يكون أوقع من أهل الجاهلية في هذا الباب ، فأهل الجاهلية الجهلاء كانوا يحرضون على البغاء الفتيات الإماء المملوكات لهم ، والمرء لا يهتم عادة بالغيرة على خادمة إن خدمته اليوم فستخدم سواء غداً ، ولا يهتم بالغيرة على أمة إن كانت في ملكه الآن فستكون ملكاً لغيره بعد الآن ، وإنما يغار المرء كل الغيرة على أم وأخت ، وزوجة وبنت ، وما شابه ذلك ، وها نحن أولاء اليوم في عصر الحضارة والرقى ، وعهد العلم والنور ، نجد من يحرض زوجته على البغاء ، ومن يحرض بنته على الفساد ، لأننا نعيش بلا دين وبلا أخلاق :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
وإذا كان القوم قديماً قد أكرهوا فتياتهم على البغاء فإن كثيرين اليوم يكرهون نساءهم وبناتهم على الفحشاء والمنكر ، وذلك بوضعهم في ظروف تهيج للفساد ، وتعريضهم لعوامل تحرض على المنكر ، وإلقائهم في أوساط وتيارات تدفع إلى الإثم دفعاً شديداً ، فتكون الفتاة في هذه الحالة كالمكرهة على الإثم ، لوقوعها تحت إغرائه وسلطان جاذبيته ، فلا تستطيع أمامه تمنعاً أو تماسكاً أو مقاومة ، ولو أرادت ذلك ، فهي كالشخص تلقى في الماء وتقول له : احذر البلبل ، وهو لن يبتل فحسب ، بل سيغرق أيضاً ، أو هي

كالقط الجائع تضيق بين يديه اللحم المثير ، ثم تحذره من التطلع إليه ، وهو لن يتطلع إليه فحسب ، بل وسيأتى عليه كله . . . أليس من إكراه الفتيات على الفحشاء أو تحريضهن على المنكر أن نفعل تربيتن تربية دينية أخلاقية اجتماعية قويمه ، وأن نضعهن فى وسط متحلل ، وأن نغريهن بمختلف الوسائل فنذهب بهن مثلاً إلى الشاطئ ، ونجردهن من الثياب ونخلطهن بالفتيان ، ونجعلهن يتطلعن إلى الأجسام الشابة واللحوم المثيرة ، فى الاجتماعات وفى الخلوات وداخل الماء ، وعلى الرمال ، وخلف الصخور ، وفى « الكابينات » وليس هناك عاصم من دين رفيق أو خلق وثيق ؟ ! . . .

ولقد سمعنا بقصة رجل أراد أن يجعل ابنته مجددة متطورة ، فكان يجلسها مع أصدقائه وزواره ومساھريه ، وكانوا يلعبون الورق فلعبت ، وكانوا يرقصون فرقصت ، ثم كانوا يشربون الخمر فشربت . . . ثم ماذا كانت النتيجة ؟ . . . حلت الفتاة واستنأها والدها عن كان السبب ، فإذا هو أحد الأصدقاء زوار البيت ! . . . والنتيجة هنا طبيعية ، فقد بدأ أعطوا لامرأة عربية جانباً من الخمر فشربته ، فأدركتها النشوة ، فاهتزت وطربت ، ثم سألت الذين أعطوها الخمر : أتشرب هذا نساءكم ؟ . . . قالوا نعم . فقالت : زين وركب الكعبة ! . . .

وسمعنا بقصة رجلين متزوجين ، كانا يتزاوران ويسهران ويشربان مع زوجتيهما باسم المدنية والتجدد والتطور والتنفيس عن الغرائز . . . وتهيات فرص اللقاء والخلوة والتطلع ، وأخذ كل زوج يتبين مشتهيات له فى زوجة الآخر ، وكل منهما قد شبع طبعاً من زوجته أو كاد ، وهو يريد التنويع والتلون و « الرمرة » كما تقول العامة ، وكانت النتيجة أن ولغ هذا فى إناء ذاك ، وولغ ذاك فى إناء هذا ، والقصة طبيعية معلومة مفهومة ! . . . خبرونى بربكم . . . كيف تستمسك أمام الإغراء فتاة تسمع هذه الأغاني القذرة ، (م ١٤ - خطب ج ٢)

وترى هذه الأفلام الأثيمة ، وتشهد في بيتها هذه السهرات الفاضحة ، وتختلط بالشبان والرجال هذا الاختلاط الشائن الذى لا ضابط له ولا حدود ، وتلبس تلك الملابس الخليعة المثيرة ، وتطالع تلك القصص الداعرة ، وتعيش في هذا الوسط المتحلل الفاجر الداعر ؟ . . . أليست كل هذه الأمور ألواناً من ألوان الإكراه على الفساد والتحريض على الرذيلة ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد كان في الأمة بغاء على رسمى ، وخيل إلينا أننا قضينا عليه وعلى جذوره بالقانون المحرم له ، ولكن القانون قد يقضى على أمر من الأمور في الظاهر ، ويبقى ذلك الأمر من وراء ستار ، ولقد وضعنا قانوناً لمحاربة البغاء السرى ، وحسبنا أننا بذلك قد قضينا على الرذيلة ، ومع ذلك فالرذيلة فاشية تقض مضاجع الرجال الأحرار في كل وقت ، لأن هذا ليس بطريق الإصلاح ، وإنما الطريق كل الطريق أن نحسن تربية البنين والبنات ، وأن نبني الأسرة على الدين والفضيلة والقدوة الصالحة ، وأن نزرع في صدور الشباب مكارم الأخلاق ، وأن نحارب الأسباب المهيبة لشهوة الأجسام وعواطف الجنس ، وأن نمنع العوامل الموقدة لرغبات الحيوان في صدر الإنسان ، وبلون ذلك سنظل نضحك على أنفسنا وعلى الناس ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

الخوف من الحرام^(١)

الحمد لله عز وجل ، وضع الخير فيما أحل وأباح ، وجعل السوء فيما حرم ومنع : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بضاعف الحسنات ويمحق السيئات : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أُولِي الْأَلْبَابِ لعلكم تفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أمره ربه بالحرص على الطيبات والعمل الصالح : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ، ونحن في هذه الحياة الصاخبة اللاغية نحتاج إلى نماذج واعظة زاجرة نأخذها من هنا أو من هناك ، لنضعها أمام أبصارنا وبصائرنا ، وإن لم نعمل بها كلها فلا أقل من أن نخفف غلواء الجشع فيها ، وإن لم نسع لتطبيقها فلا أقل من الاعتبار بها حتى لا نلج في سحت أو نسرف في حرام . وهذا درس عاجل نأخذه من بيئة غير مسلمة ، فقد نشرت إحدى الصحف أن محامياً إنجليزياً كبير السن تبنى فتاة شابة ، وكان يتولى الإشراف على أموال ضخمة لليتامى والأرامل ، فاختلس منها مئات الألوف ، فسهل عليه أن يمطر الفتاة بالهدايا ، وأن يعطيها ثلاثين ألفاً من الجنيهات . ومات المحامي المختلس ، واكتشفوا اختلاساته بعد موته ،

(١) أُلقيت في يوم الجمعة ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٧

فبراير سنة ١٩٥٩ م .

والقانون ليس فيه نص يطالب المهدي إليهم برد الهدايا إذا كانوا يجهلون أن مصدرها حرام ، ومع ذلك ذهبت الفتاة برغم فقرها إلى المحكمة وسلمت القاضي الثلاثين ألف جنيه ، قائلة : لأنني أعرف أن القانون لا يلزمني برد هذه النقود ، ولكنني لا أستطيع أن احتفظ بالمال الحرام ، . وأعجب القاضي بتصرفها وتعفّفها ، وأعلن مندوب اليتامى والأرامل التنازل باسمهم عن خمسة آلاف جنيه لهذه الفتاة ، فقدمها القاضي إليها قائلاً : إن هذا المبلغ حلال ، وسيبارك الله لك فيه ! . . .

هذا هو الدرس العابر الذي يجب أن يحرك مع أمثاله النفوس الغافية والضائير النائمة ، ونحن نتناوله بالتعليق في ضوء الإسلام الذي يزكى هذا التعفف ويدعو لما هو أسمى وأكرم ، فنذكر أن التبنّي الذي بدأت به القصة هنا شيءٌ حرمه الإسلام وقضى عليه في بيئته ، لما يترتب على التبنّي من خلط الأنساب وتمويه الحقائق ، ولما يصحبه أو يعقبه من حرمان لمستحق ، وإعطاء لغير مستحق ، وإنحراف في العلاقات ، وتعرض لهتك الحرمات ، وغير ذلك . وأما اختلاس أموال اليتامى والأرامل الذي ارتكبه ذلك المحامي ، فهو أمر شنيع بشع ، حمل الإسلام عليه حملة عنيفة قاسية ، وحسبنا فيه قول الحق تبارك وتعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراَ وسيصلون سعيراً » ومن أجل ذلك يقول عز وجل : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً » ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله شهِيداً » ويقول : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً فخافوا عليهم فليتقوا الله ليقولوا قولاً سديداً » . وأما أن القانون هناك لا يلزم برد

الأموال المأخوذة من حرام فالإسلام لا يحاكم الناس بقانون الناس الذى يصل إلى الجريمة حيناً وقد تخفى عليه حيناً آخر ، ولكنه يحاكمهم فوق هذا القانون بدينهم وخشيتهم ومراقبتهم للذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويحاكمهم بذلك القانون الإسلامى المحمدى الواعظ : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ! . .

ولقد غنى الإسلام عناية ملحوظة بتحريض الناس على أكل الحلال والكسب الطيب ، وتحذيرهم من السحت والحرام والشبهات ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم لإياه تعبدون » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » ويقول أيضاً : « من أكل طيباً ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » . . . بل أراد الإسلام أن يبعد بأبنائه عن المواطن المريبة التى قد يعرض لها الظن أو الشك ، خشية أن يبلغ بهم ذلك موطن الحرام فيقعون فى المعصية أو يرتكبون المحذور ، فهذا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ينادى فى الخلق : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

ولقد شدد المسلمون الأوائل على أنفسهم فى هذه الناحية ، فلم يقبلوا لأنفسهم أن تنال شيئاً حراماً أو ما فيه شبهة ، وهذا رسول الله عليه صلوات الله يرى الحسين بن على وهو صبي صغير يتناول ثمرة واحدة من تمر كثير فى بيت المال ، فينهره النبي قائلاً له : ألقها يا حسين ، فإن أهل البيت لا تحل

لنا الصدقة » . وجاء الحاكم العادل وجاء عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فاهتدى بالهدى النبوى حين رأى ابنه يأخذ تفاحة من تفاح يقسمه بين المسلمين فانتزعها منه ، فبكى الولد وذهب إلى أمه ، فلما عاتبت زوجها على ذلك قال : والله لقد انتزعها وكأنى انتزعها من قلبي ، ولكنى كرهت أن أضيع نفسى عند الله عز وجل بتفاحة من فى المسلمين وهذا أبو بكر الصديق نراه لا يأكل طعاماً حتى يسأل عن مصدره ليتأكد من حله ، وذات يوم أنساه الجوع الشديد أن يسأل ، فعجب غلامه وقال : لقد كنت تسألنى كل يوم عن مصدر الطعام فلم لم تفعل اليوم ذلك ؟ فتوقف أبو بكر عن الأكل معتذراً بالجوع ، وسأل عن مصدر الطعام فذكر الغلام له ، فرأى فيه نوعاً من الشبهة ، فجعل يضع يده فى حلقه ليتقياً ما أكل وهو يصيح : لقد كدت تهلكنى يا غلام . ولما بالغ فى التبع وهو يقول : اللهم اغفر لى ما شربته العروق واختلط بالدماء ، قالوا له : يرحمك الله ، أتفعل كل هذا من أجل لقمة ؟ . فقال : والله لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، ولقد خشيت أن ينبت شئ من جسدى من هذه اللقمة الحرام فأصير به إلى النار . . .

ولقد انتهى عمر بن عبد العزيز يوماً أن يأكل تفاحاً ، فأهدى إليه بعض الناس جانباً منه فرفضه عمر ، فقبل له : لم ترفض والنبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ؟ فأجاب عمر : إن الهدية كانت لرسول الله هدية ، وهى اليوم لنا رشوة ! . . بل لقد كان المسك مثلاً يحمل إلى عمر بن العزيز فى مال المسلمين ليقسمه بينهم فإذا وضعوه بين يديه سد أنفه حتى لا يشم المسك ، فإذا قالوا له : إن هذا ربح فقط ، أجابهم : وهل ينتفع من المسك إلا بريجه ! ! . . وهكذا نرى هذه الأمة المؤمنة بدينها المراقبة لربها الخائفة من يوم حسابها يتألق تاريخها فى كل عصر وجيل بهذه النماذج

العالية الرائعة التي تضرب أعلى الأمثال في التقوى والإيمان ، والخلد من الريب والشبهات ، والابتعاد عن سوء الاستغلال ومكر الاحتيايل وفنون الابتزاز لأموال الناس بالباطل ، وبهذا الخلد وتلك الخشية نالوا الدرجات العلى عند من لا يضيع أجر من أحسن عملا : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن قصة الفتاة التي رفضت الثلاثين ألفاً لأنها من مصدر حرام ، تذكرنا بقصة المكفوف الذي رفض أن يضعوا له عيني رجل قاتل محكوم عليه بالإعدام ، لأنه لا يريد أن يبصر بعيني رجل محرم ، وهاتان القصتان تذكران كل مسلم بما في دينه من هدى كريم بليغ في هذا الباب ، وبما في تاريخه من روائع القصص الواعظة الزاجرة ، وإذا كنا لا نستطيع بلوغ مراتبها لقصر الهمم وضعف العزائم ، فلا أقل من السير في هذا الطريق القويم مهما كان السير وثيد الخطوات ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . . .

حق التحليل والتحرير^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو وحده الذى يحل الحلال ويحرم الحرام :
« والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » . أشهد أن لا إله إلا الله ،
هو ولى الرشاد والتوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق : « صبغة الله ومن أحسن
من الله صبغة ونحن له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نخضع
لربه ، وتأدب بأدبه : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » .
فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الخاشعين للرحمن ، وأصحابه المستضيئين
بنور الإيمان ، وأتباعه الخاضعين لكلمة القرآن : « ومن تزكى فلنما يتزكى
لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل أخطر الأمور التى يأتيا الإنسان فى حق الدين أن يعطى نفسه حق
التحليل لما حرم الله أو التحريم لما حلل ، لأن هذا يعد تدخلاً فى اختصاص الخالق
جل جلاله ، وإذا استباح الإنسان - كائناً من كان - أن يشرع للناس ما ليس
من الدين ، فقد بلغ الأمر مبلغه من الفوضى والاضطراب ، ولقد نشرت
الصحف أن أحد الملوك قد طلق زوجته وفارقها منذ زمن بعيد ، ولكنه يحرص
على منعها من التزوج بأحد ، ويشترط عليها ألا تتزوج حتى يتزوج هو ، ومتى
يكون زواجه هذا ؟ لا يعلم الغيب إلا الله - وهذا يذكرنا بما فعله ملك طاغية
من قبل ، إذ طلق زوجته أيضاً فى ظروف مؤسفة ، ثم طلب هذا الطاغية من
الأزهر أن يصدر له فتوى خاصة تفضى بتحريم زواج الملكة المطلقة من
غيره ، حتى لا يقال إن فرداً من أفراد الشعب - مهما كان - قد تزوج

(١) الجمعة ٧ من رجب سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٦ يناير سنة ١٩٥٩

الملكة ، ولو كانت ملكة سابقة ، وللطغيان أن يفعل ما يشاء إذا لم يجد أمامه حقاً يقاومه : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

إن مثل هذه المحاولة تذكرنا أن هناك مواريث ثقيلة من ظلم الرجال للنساء ، وتحكم الأزواج في الزوجات حتى بعد انفصام عروة الزواج بلا مسوغ من دين أو عقل ، ولقد كانت هذه المواريث طاغية باغية في ظلمات الجاهلية ، فأقبل الإسلام العظيم المنصف ليزيل عن كاهل المرأة الضعيف ، وبرغم هذا بقي هناك من الرجال من يحاول اتخاذ المرأة سلعة تباع وتشترى . . . لقد كان الطلاق في الجاهلية لا نظام له ولا ضابط ، فالرجل يطلق المرأة ثم يراجعها وهي في عدتها بلا عدد أو توقف ، وحدث أن قال رجل لامرأته في بدء الإسلام : والله لا أطلقك فتبينى ، ولا آويك أبداً . قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلمت عدتك أن تنفضي راجعتك . فذهبت المرأة المسكينة فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان » . وقال الإسلام لأتباعه : إذا أوقعتم الطلاق على المرأة لداع دعا إلى ذلك ، وقاربت انتهاء العدة ، فلما أن تعيدوها إلى عصمتكم برفق وطريق أليف معروف ، وإما أن تخلوا سبيلها بمعروف وإحسان ، حتى تستطيع زواج رجل آخر إذا أرادت ، يقول القرآن : « وإذا طلقتم النساء فبلغهن أجلهن فأمسكوهن أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » . ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بكل شئ عليم » . وفي موضع آخر يقول القرآن مخاطباً الرجال في حسن معاملتهم لمطلقاتهم : « ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن » . ولقد كان من عادة

الجاهلية الجهلاء أيضاً أن الرجل يعضل زوجته المطلقة ، أى يمنعها أن تتزوج غيره آنفة منه وكبرا أن يرى امرأته السابقة عند رجل غيره ، فكان يمنعها من الزواج ويصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، فجاء الإسلام فأبطل هذا الظلم وهذا الإجحاف فقال القرآن : « وإذا طلقتم النساء فبلغهن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم والآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون . فن ذا الذى يريد أن يشارك الله فى حكمه ليحل حراماً أو يحرم حلالاً ؟ « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ .

إن للمرأة شهوتها الجنسية ورغبتها الطبيعية فى الرجال كـرغبة الرجال فى النساء ، وليس بعيب من المرأة أن تطلب لإرضاء هذه الشهوة بطريق مشروع سليم ، بل إنه يجب عليها لإرضاء هذه الرغبة بالطريق المشروع إذا أيقنت أنها سترضيها بطريق غير مشروع . وماذا تفعل فتاة جميلة شابة مترفة إذا طلقت وعاشت بلا رجل ؟ . ألا يكون هذا مدعاة لسوء الظن والريب فيها ؟ . ألا يفتح هذا أبواب الانحراف والزلل أمامها ؟ . . . لو كان المطلق رجلاً عاقلاً ومنصفاً لرحب بتزوج مطلقته طلاقاً نهائياً من زوج آخر ، بدل أن تبقى بلا زواج ، فتثور حولها الشكوك والتهمة ، ثم يقول الناس عنها بالحق أو بالباطل هذه مطلقة فلان تفعل كذا وكذا ، فيناله عارها وشنارها ، ولو أنها تزوجت من بعده لنسبها الناس إلى زوجها الثانى وتركوا زوجها الأول : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

والإسلام يذكر فى هذا الباب أنه متى انتهت عدة المرأة المطلقة ، وانتهت علاقتها بزوجها الأول ، فلا مانع يمنعها شرعاً ولا عقلاً من أن تتزوج بغيره ،

بل يكون ذلك في الغالب أستر لها وأصلح . والعامة تقول : « ظل الرجل للمرأة ولا ظل الجبل » . ولو كانت المرأة حاملا من مطلقها ووضعت حملها بعد ذلك انتهت عدتها ، ولو كان الوضع بعد طلاقها أو موت زوجها بأيام والقرآن المجيد يقول : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . . . » ولقد أفتى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة (وهي سبيعة الأسلمية) بأنها حلت للزواج حين وضعت حملها ، وكانت قد ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر ! ! ! .

إن الإسلام يقرر أن الزوج إذا طلق زوجته ثلاث تطليقات ، وبانت منه بينونة كبرى ، فإنها لا تعود إلى عصمته إلا إذا تزوجت غيره زواجا صحيحا ، وطلقها أو مات عنها ، وانقضت عدتها ، وفي هذه الحالة يجوز له أن يراجعها ، وجعل الإسلام ذلك تأديبا للرجل وتهديبا ، حتى يرعى حرمة الزواج ، ولا يقدم على فسخ عقدة الزواج فصما نهائيا إلا عند الدافع الضروري الذي لا حيلة معه .

وكان الإسلام يريد أن يقول للزوج المطلق : إن الزوجة لم تكن زوجة لتصير ألعوبة في يد زوجها ، يطلقها كل حين ، فيحرمها متعة اطمئنان الحياة الزوجية ، واستقرار المعيشة المشتركة ، بل كانت هذه الزوجة زوجة لتسعد بحياة زوجية : فيها إرضاء لحسها ونفسها ، وقلبها وعقلها : فإذا تكرر من الزوج التطليق لها حتى بلغ ثلاثا ، كان من حكم الله أنه يحرم عليه إعادتها إلى عصمته حتى تتزوج زوجا غيره ، وتذوق عسيلته ، وتحيا معه حياة زوجية صحيحة : وإذا فرضنا وطلقها الزوج الثاني - وهذا قد ينذر - أو مات وهذا غير متوقع في الغالب - فإن الزوج الأول يجوز له بعد هذا أن يعيدها إلى عصمته .

ولا شك أن الزوج يغار غيرة شديدة ويأنف أن تكون زوجته حليلة
 لزوج آخر ، ومن أجل ذلك يجب عليه أن لا يعرضها لهذا الوضع ، فإذا
 حدث هذا بحماقته أو بظروفه السيئة ، فلا يجوز له أن يقف في وجه زوجته
 المطلقة ، بل لها أن تتزوج غيره ، ولا يجوز له هو - أى الزوج الأول -
 أن يستردها إلى عصمته إلا إذا تزوجت سواه ! ! . .

أيتفق هذا النظام الإسلامى القويم مع محاولة البعض الوقوف في وجه
 المطلقات حتى لا يتزوجن ، فيظللن كالمعلقة ، فلا هى بالباقية مع زوجها
 الأول ، ولا الطريق بممهد أمامها لتشارك في حياتها زوجاً آخر ! ؟ . .

وأباح الإسلام للرجل الراغب في زواج المرأة المتوفى عنها زوجها أن يعرض
 لها بحديث زواجه منها وهى ما زالت في العدة . حتى إذا انتهت عدتها شرع
 في زواجها ، يقول الله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة
 النساء أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً
 إلا إن تقولوا قولاً معروفاً ، ولا تفرقوا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب
 أجله » ! ! ! . .

هذا هو حكم الإسلام ، فمن ذا الذى يريد أن يعرض نفسه لغضب الله
 الشديد ونقمته البالغة ، فيدعى لنفسه أنه يستطيع أن يجعل الحلال حراماً
 أو الحرام حلالاً ؟ . . إنه لا يقدم على ذلك إلا طاغية متجبر مثل ذلك الملك
 الباغى الذى غضب على شيخ من شيوخ الأزهر لأنه أصلى فتوى بحرمة
 رقص الرجال مع النساء بالطريق المعروف ، وكان هذا الطاغية يحب حفلات
 الرقص الخليلع والمجون السافر ، وإنه لمن المؤسف حقاً أن نرى كباراً أو صغاراً
 يتجارأون في تبجح وتوقع على تحريم الحلال وتحليل الحرام ، ناسيين ذلك إلى
 الدين ، مسرفين في التحريف والتأويل والتخريج الأنيث ، والأنكى من ذلك
 والأدهى أن بعضهم يقول يوماً بتحريم أمر من الأمور ، ثم يعود بعد ذلك

من الزمان وقد تبدلت الأحوال والرجال ، فيطلع على الناس بتحليل هذا العمل ومحاولة إيجابه على الناس ، فبعض الحياء يا هؤلاء ! ! . .

إن هؤلاء الملحدون في آيات الله ، المتطاولين على حرمان الله ، يريدون أن يخضعوا الدين للحياة ، فكلما اتجهت الحياة إلى جهة من الجهات حرص هؤلاء على تكييف الدين تبعاً لهذا الاتجاه ، وكلما تغير الاتجاه بتغير المتحكمين فيه عاد هؤلاء إلى تحريف الكلم من مواضعه ، وتفسير الدين من جديد بما يتفق مع هذا التبدل والتغير ، يفعلون هذا ناسين أو متناسين أن الحياة هي التي يجب أن تخضع للدين ، وأن يكيف الأحياء دنياهم على مقتضى تعاليم هذا الدين ، لأن الدين قانون ، والناس يخضعون للقانون ولا يصح أن يخضع القانون لأهواء الناس : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن المشرع هو الله جل جلاله وحده ، فمن ذا الذي يريد أن يكون إلهاً ؟ . . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، وكذلك نجزي الظالمين . « لو كان فيهما آلة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . فليبدل كل منا طاقته كي يهتلى بهلى ربه . ليكون من عباده وحزبه ، وأولئك هم المفلحون ، واتقوا الذي أنتم به مؤمنون .

عوامل للتحريض على الفساد^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، وله الحمد في الآخرة والأولى ، سبحانه يصدر عنه الخير كل الخير ، ويحرضنا على ما استطعنا من البر ، ويصدنا جهد طاقتنا من الشر ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أخلص لك الطاعة والاستجابة ، وصدق في التقوى والإنابة ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وفروع دوحته ، وأنصاره وأولى صحبته ، وأتباعه الثابتين على ملته : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل ميزة الإسلام الكبرى أنه دين وسط معتدل مقتصد ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا إسراف فيه ولا إجحاف ، بل خطاة مستوية راشدة ، تأخذ طريقها إلى غايتها قاصدة بعيدة عن الانحراف والالتواء ، مختارة أقرب الطرق وأحكم الوسائل : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » ومن اعتداله وسلام إفضاله أنه ينصح المسلم بأن يسد كل باب تأتى له منه الرياح ، ليهدأ المسلم ويستريح ، فهو ينفر من الرذائل ومن المحرضات عليها والأمور المذكورة بها أو المؤدية إليها ، وهو يدعو إلى الفضائل

(١) الجمعة ٣٠ من ذى القعدة سنة ١٣٧٦ هـ ٢٨ يونية سنة

والمرغبات فيها والأموال المعاونة عليها ، وهو يرعى مصالح الحبس والنفس ، والروح والجسد ، في غير قصور أو فجور ، ولذلك كان هذا الدين هو الدين الماجد الخالد ، الراقى الباقي ، الصالح لكل زمان وكل مكان وكل إنسان . . .

ولكننا مع هذا نجد أن الكثرة الهائلة تسرف في الشر ، وفي الانعتاق من التكليف والواجبات ، وهذه الكثرة توجد غالباً في صفوف الشباب ، وذلك لأن الصغار لم يدركهم أمر التكليف بعد ، ولأن الكبار الطاعنين في السن ، يكتوون بنيران التجارب والعبر ، فيفيثون ويندمون ، وأما عهد الشباب فإنه كما يقولون قطعة من الجنون ، والشباب محتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية ، لأن دمه فائر ، وجسمه ثائر ، وعقله طائر ، وخياله دائر وذاته تتعرض لأزمات نفسية وزلزلات عاطفية إذا لم تجد المرشد الأمين والموجه الحكيم عصفت باتزانته وكيانه ، والناس يتساءلون عن انحراف الشباب ، ويلعنون فساد الشباب ، ويضعون على أكتاف الشباب كل التبعة فيما هم عليه من خسران وضلال ، ومع أننا لا نخلى الشباب من التبعة ، نرى أن هنسأك كثيراً من الأسباب القوية والعوامل العنيفة تدفع الشباب إلى التحلل من الواجبات ، وتعاونهم على الانغمار في خضم الشهوات ، وحسبنا أن ننظر إلى العوامل التي من صميم واجبتها أن تثقف الشباب وتهذيبهم ، فتجدها بدل ذلك تدفعهم دفعا إلى الانحراف في السلوك والاختلال في التصرف عمداً أو بغير عمد.

خذوا المدرسة مثلاً . . . إنها إنما أوجدت لتهدب وتؤدب وتربي ، ولكن هل نجحت المدرسة في رسالتها ، وهل حافظت على أمانتها ؟ ها هوذا سيد مفضل ، هو لواء طبيب ، وثقف بالثقافتين الشرقية والغربية ، يكتب إلى رسالة حزينة كلها لوعة ، ويذكر فيها أن كتب النصوص الأدبية المقررة على طلاب المرحلة الثانوية وطلاباتها فيها قصائد غزلية مكشوفة ، وقصائد

خمرية فاضحة وهذه القصائد مقررة على الطلاب يدرسونها ، ويتفهمون شرحها ويحفظونها ، ويمتحنون فيها : البنين والبنات على السواء ، ويقول اللواء المسلم إن الطلاب ومعهم الطالبات - تكون أعمارهم في هذا الدور من التعليم بين الخامسة عشر والثامنة عشر ، أى يكونون في دور المراهقة والثوران العاطفى والهياج الجنسي ، ويقول اللواء إنه قد أخذ كتاب النصوص من ابنة شقيقه وأرسله إلى مع خطابه الذى يذكر فيه على سبيل المثال أرقام الصفحات التى وردت فيها القصائد ، فهذه قصيدة فى وصف جسم امرأة ، وقصيدة ثانية فى تصوير الضمات والقبلات ، وثالثة فى وصف راقصة ، ورابعة فى وصف كأس الخمر . . . الخ . . . فهل هذا الزاد المثير المنزل يعاون على التأدب وتحسن الأخلاق ؟ ..

وهذا عالم أزهرى يحدثنى فى الموضوع نفسه ، فيذكر أنه كان يجلس مع ابنه - وهو طالب فى المرحلة الثانوية - ليشرح له نصوص الأدب الغزلية والخمرية المكشوفة ، فيحتاط فى الشرح ، ويتحفظ فى التفسير ، ومع ذلك كان التلميذ يتسم حيناً ، ويطأطئ رأسه خجلاً ، أو متكلفاً الخجل حيناً آخر ! ! ! فإين المعوان على تلطيف النفوس وتهذيب الغرائز وكبح جماح الشباب ! ؟ ..

وخلوا الصحافة بعد المدرسة . . . الصحافة الموجهة للرأى المكيفة للمشاعر . . . أتحمّل إلى الشباب الدين والأخلاق وكريم المبادئ أم تحمل إليهم التغرير والتضليل ؟ . أتهديهم سواء السبيل أم تبعدهم عن كل سبيل قويم ؟ . . . أنفتح عيونهم على ما يسر أم على ما يسوء من أخبار أو أسرار ، ومجون وفجور ، ومثيرات للشهوات ومحرضات لغرائز الحيوان ؟ . . . ماذا تترك فى نفس الشباب - مثلاً - تلك المجلة الزائفة الانتشار مع الأسف التى

ينقل إليه خبر طراز الخبر الذى يقول إن رواد الملاهى والبارات كانوا يشكون فى الأيام الأخيرة من الظمأ والعطش لندرة الخمر الأجنبية ، بسبب انقطاعها من الخارج ، ومنذ أيام انفرجت الأزمة لأن إحدى الشركات استطاعت التغلب على هذه العقبة ، وأخذت تمد المحال العامة بحاجتها من الخمر المختلفة ، وقد تعاقدت الشركة مع هذه الملاهى على توريد كميات كبيرة من أفخر أنواع « الويسكى » وأجودها ، وعادت الابتسامات إلى شفاه رواد الملاهى « والكازينوهات »^(١) .

ماذا يكون شعور الشاب حين يقرأ فى مجلة أخرى متحللة أن إحدى النساء قد اشترت كلباً جميلاً ، وقامت باستعدادات هائلة فى منزلها من أجل هذا الكلب ، فاشترت له مجموعة من الملائق والأطباق الحمراء ليستخدمها الكلب المصون فى طعامه ، وأعدت له حجرة نوم كلها من الحرير الأحمر ، وهى تدعو كل أسبوع مجموعة من صديقاتها لمقابلة الكلب « الغالى المحروس » . . . ! فى حجرته الحمراء^(٢) ! . . . ماذا يكون شعور الشباب حين يقرأون مثل هذا وكثير منهم لا يتمتع ببعض ما يتمتع به ذلك الكلب المحفوظ . . . ! . . . أيستقيم الشبان بمثل هذا الخبر أم ينحرفون ؟ . . .

فلإذا انتقلنا إلى ميدان السينما وجدنا دورها قد كثرت بيننا كثرة مخيفة مفرعة ، وأصبح إقبال الشباب عليها إقبالا مخيفاً مفرعاً ، والطلاب يهربون من دروسهم ليندهبوا إلى السينما ، ويسرقون النقود من آباءهم أو أمهاتهم أو زملائهم أو الغرباء عنهم ليدخلوا السينما ، وليس هناك رقابة دينية أو روحية على ما يجب أن يعرض وما لا يجب ، وليس هناك نظام لدخول الطلاب دور

(١) روز اليوسف .

(٢) صباح الخير ٢٠ يونية سنة ١٩٥٧ م .

(١٥ م - خطب ج ٢)

السينما ، فهم يدخلون كل الأفلام ، ومنها الأفلام المثيرة ، والأفلام البوليسية الإجرامية ، والطلاب يشاهدون ويتأثرون ، ويخرجون فيقلدون ، وحسبنا أنه قد نشر أن التلميذ الذى صوب فوهة المسدس إلى صدر أستاذه ومدرسه كان فى هذا متأثراً بالسينما ، لأنه كان من رواد الأفلام الخاصة بحرب العصابات . . . ! ! .

فإذا تركنا السينما إلى الإذاعة التى تغلغت فى كل مكان وجدناها هى الأخرى تعين على دفع الشباب فى نفس الاتجاه ، فثلاثة أرباع ما يذاع منها تقريباً يدور حول الحب والهوى والغرام والعلاقات الجنسية ، وتحرص الإذاعة على أن تذيع أمثال سلسلة « سمارة وعودة سمارة » لتعرض تفاصيل البيئات المثقلة بأوزار الجريمة ، كما تعترف الإذاعة نفسها ، ومن هنا يتعلم الشباب فنون الإجرام ، ويذهبون لتطبيق ذلك هنا وهناك .

ولعلكم لم تنسوا بعد تلك العصابة التى تكونت من تلاميذ المدارس متأثرة بسلسلة « سمارة » الأولى ، والتى ذهبت تطبق بعض ما سمعته من فنون الإجرام ، وضبطوها وهى متلبسة بما اقترفت ، وقد يكون هناك بسبب هذا أيضاً كثير من الجرائم لم تصل إليها يد الكشف والضبط : : . وما خفى كان أعظم .

وتحصر الإذاعة على أن تذيع أمثال « مطبات الهواء » حيث تعرض فنوناً من الجرائم الخلقية والاجتماعية ، وتعلم السامعين كيف يتخلصون من تبعات هذه الجرائم بالزور والافتراء والتضليل ، فهذه سارقة ساعة يعلمونها كيف تتخلص من عقوبة سرقتها ، وهذه زوجة خائنة يدربونها على تضليل زوجها ، وهذا صديق مخادع يعرفونه كيف يستر خداعه ، وهكذا . . . فحدثوني بربكم كيف يستقيم الطريق أمام الشباب ومن حولهم كل هذه العوامل تحرضهم على الانحراف والتحلل ، وفوق هذا كله مصيبة الفجور الذى برعت فيه المرأة فعرضت لحمها وفتنتها على أنظار الجميع فى كل مكان بلا خجل

أو حياء ! ! . . حتى صار الشبان الضعفاء يتعللون بهذا الفجور ويعتذرون بهذا التبدل الوقح ، فيقولون إن الشاب لا يستطيع أن يعصم نفسه من الإثم أمام هذه الفتنة وذلك الفجور إلا إذا كان ملكاً معصوماً قد نزل من السماء ! ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يا أبناء الإسلام ، يا حفدة المسلمين الأوائل ، يا رواد المساجد ، يا بقايا الخير في حنايا المجتمع الصاخب .
يا سلالة محمد بن عبد الله ستقولون : وماذا نصنع ؟ ! . . إنكم تستطيعون أن تصنعوا الكثير أيها الناس . . . تستطيعون أن ترعوا أولادكم من أول الطريق ، وأن تتقوا الله فيهم ، وأن تنشئوهم على الإسلام والعبادة ومراقبة الله . . .
وتستطيعون أن تكتبوا إلى ولاية الأمور ليصلحوا هذا الفساد ، وتستطيعون أن تكتبوا للمشرفين على المدارس والصحف والإذاعة والسينما ، لتقولوا لهم إنكم لا ترضون هذا التخريب للنفوس والأخلاق . . . إنهم يتعللون بأن الرأي العام يريد هذه الاتجاهات ، وأنتم خلاصة الرأي العام ، فأشعروهم أنكم لا تريدون هذا الضلال ولا تقبلونه . . . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حول طائفة الاسماعيلية (١)

الحمد لله عز وجل ، أبان المعالم وأوضح السبيل ، وأنزل الهدى وأرشد إلى أقوم طريق : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذاكم وصاكم به لعلكم تتقون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حذر من الفرقة وحض على الجماعة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ثبت دعائم السنة وأرسى قواعد الملة ، وجاهد في الله حق الجهاد ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المعتمدين بربهم ، وأصحابه المستمسين بكتابهم ، وأتباعه الحريصين على دينهم « أواملك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ..

إن نشر الإسلام بين أهليه الأولين لم يكن بالعمل اليسير أو القليل ، فقد كان إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أضواء اليقين والإيمان عملاً جليلاً خطيراً ، وقد بذل الرسول جهوداً ضخمة جبارة لجمع الناس على كلمة ربه ، ولم يوفق إلى ذلك إلا بفضل الله وعونه ، « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . ولقد ترك النبي أتباعه وهم موحدون متحدون على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وهذا التوحيد فى العقيدة والجماعة أمانة عظمى يجب أن نحرسها ونصونها ، وألا نفتح الباب لما يفسدها ، ومن فضل الله علينا أنه هداانا إلى سواء السبيل ، فتحن نأتم بالقرآن ، ونهتدى بالسنة ، ونهتج نهج السلف الصالح ، فلماذا عرض

(١) الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

لنا ما يخالف ذلك كان واجباً علينا أن نخلّعه ، وأن نباعد بيننا وبينه ، حتى لا تفسد علينا حياتنا ، ولا تنحرف عقيدتنا التي يجب أن نحفظ وتسان :

وقد نشرت صحيفة صباحية^(١) منذ أيام مقالا لأحد محرريها يذكر في صدره أنه سيصل إلى مصر في أول يناير القادم عشرة آلاف شخص من أبناء الطائفة الإسماعيلية قادمين من أقطار مختلفة للاشتراك في الاحتفالات الدينية الخاصة بهم التي ستقام في مدينة أسوان لنقل جثمان زعيمهم وإمامهم أغا خان إلى مقبرته الجديدة ، وقد يبقون شهراً أو شهرين ، ويقترح المحرر سامحه الله أن تستعد الدولة من الآن لاستقبالهم وتستخدم في ذلك استراحات الحكومة والبواخر النيلية وعربات النوم في السكك الحديدية وغيرها ، ويوصي المحرر الدولة بأن لا تضيق في النفقة من أجل ذلك ، لأن فيه دعاية طيبة لنا . . . والمقبرة المذكورة قد بنيت بمئة ألف من الجنيهات غير ثمن قطعة الأرض ، نعم مئة ألف من الجنيهات لمقبرة شخص قد صار جيفة وحطاماً وأشلاء ، وهناك في كل واد مئة ألف فقير يحتاج إلى جنيه ليستر به جسمه في هذا الشتاء .

وتقول صحيفة صباحية أخرى^(٢) إنه في الوقت الذي سيكي فيه أتباع أغا خان الماضي وهم ينقلون جثته ستدق أجراس العرس لأغا خان الجديد وهو يحتفل بزواجه من ممثلة فرنسية ناشئة ، وهو كما يصفونه شاب وسيم الطلعة يتعلم الآن في إحدى جامعات أمريكا . . . ولسنا ندرى وجه الصلة بين هؤلاء « الزعماء الروحيين المعصومين » كما يزعمون وبين الزواج من غانيات باريس وممثلات فرنسا التي أذاقت المسلمين والعرب ألوان الخسف والعذاب . . . ! !

إن أتباع الإسماعيلية لا يعرفون الصوم ولا الحج ، ولا يصلون إلا مرتين

(١) انظر جريدة الجمهورية يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر جريدة الاهرام يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

في اليوم ، مرة في الصباح وأخرى في المساء ، وصلاتهم هي أن ينظروا إلى صورة أغاخان الحاطة بالأزهار بينما يتلو أحدهم أدعية خاصة ، وكلما ذكر إماماً من أئمتهم انحنوا للصورة . . . وهم كذلك يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير - كما روت الأهرام - ويدفعون الزكاة وهي خمس ما يكسبونه سنوياً للإمام ، والإمام يتصرف فيها كما يشاء ، وهذا الزعيم الديني للطائفة الإسماعيلية التي يكثر فيها الفقراء تبلغ ممتلكاته سبعمائة مليون وخمسين مليوناً من الجنيهات ، لأنه يوزن كل عام بذهب أتباعه ، يأخذ هذا الذهب لينفق منه كما يشاء ، ويفقد منه على الرافضات في باريس ، بينما الألوف من طائفته في حاجة إلى الغذاء والكساء ، وهم مع هذا يعتقدون أنه معصوم يعلم علم الباطن ، وباطن الباطن ، ولا يسأل عما يفعل إلا الخير^(١) ، ومن العجيب أن باحثاً سأل أغاخان : هل تعتقد حقاً أنك إله ؟ فأجابه : إن في الهند من يعبد البقر ، واعتقادي أنني خير من البقر ! . . . والمؤرخون يذكرون أن الإسماعيلية من طائفة الباطنية الذين يحرصون على التخفي والتستر وجعل عقائدهم أسراراً مطوية ، ولقد نشر باحث مصري بعض تعاليمهم فتلقى خطابات منهم تهدهده بالقتل ، والباطنية هم الذين استغلوا فرصة هجوم الصليبيين على الشام وبلاد الإسلام فانضموا إلى الصليبيين وخانوا المسلمين ، ولما استولى الصليبيون على ما استولوا عليه قربوا منهم هؤلاء الباطنيين واستعانوا بهم ضد المسلمين ، وظلوا يكيّدون للعرب والمسلمين في عهد صلاح الدين ، ولما أغار التتار على الشام انضم هؤلاء الباطنيون أيضاً إلى التتار ومكنوهم لهم من رقاب المسلمين ! .

والإسماعيلية يعتقدون أنهم أولى الناس بالأزهر الشريف لأن أجدادهم الفاطميين هم الذين بنوه ، ويريدون أولاً أن يدرسوا مذهبهم فيه ، ثم يتدرجوا بعد ذلك إلى ما يريدون ، وهم يقولون فيما يقولون إن زعيمهم « داعي الدعاة المؤيد في الدين » قد ألقى محاضرات بالأزهر في النصف الثاني من القرن الخامس

(١) انظر كتاب المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة ٩٥ ، ٩٦ .

المجزي ، ومعنى هذا - بالمفهوم والفحوى - هو : ولماذا لا يلقي الاسماعيليون اليوم محاضرات في الجامع الأزهر ؟ . فهم أحق به وأولى . . . ! . ومن الحقيقة أن الأزهر قد أقيم أولاً ليكون معهداً للدعوة الفاطمية ونشر مذهبها ، ولكن الله شاء للأزهر أن يصير حصناً للإسلام ومعقلاً للغة القرآنية وجامعة كبرى للعلوم الدينية والعربية ، فهل نريد انتكاس الداء وبعث الفتنة وتكرار المأساة ؟ ! .

إن فتح الباب على مصراعيه لنشاط طائفة غريبة منحرفة عن الإسلام في بلاد الإسلام ، وللقايرهم واحتفالاتهم ووفودهم أمر له خطورته وعواقبه السود ، لأن هذا سينشر أفكارهم وآراءهم في وسط الأمة المسلمة المطمئنة ، فيدخل عليها التبلبل والاضطراب ، ومن الواضح إن جمع الأمة على كلمة سواء يحتاج إلى أشق الجهود ، ولكن تفريقها إلى عصبية لا يحتاج إلى مثل ذلك ، والرسول يقول : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . وعدوى المريض للسليم مشهورة ، ولكن السليم لا يعلو المريض بصحته ، وهؤلاء قد بنوا اليوم مقبرة لزعيمهم ، وسيبنون غداً بجوارها مسجداً ومدرسة وهم جراهم سيعتبرون مقبرة « إمامهم » مكاناً مقدساً يحجون إليه كل عام أو في كل حين وأوان ويبثون من حوله تعاليمهم ومبادئهم في وسط شعب مؤمن متمسك بتعاليم قرآنه وسنة نبيه وطريقة أسلافه الأئمة الصالحين ، ونحن الآن في فترة تجميع للمسلمين وتوحيد لكلماتهم ، لا في فترة بحث للخلافات والعصبية ، أو تحريك للدعوات والمذاهب ، واستعانة بالمال والجاه في إثارة طائفيات دينية ، ونحن في بلادنا لا نعرف والحمد لله هذا التطرف الديني ، فليس بيننا حزب للسنة وحزب للشيعة وحزب للاسماعيلية ، بل من فضل الله علينا أنه جمعنا على الكتاب والسنة وأقوال الأئمة الأربعة المألوفة ، فلا تحركوا العصبية أيها الناس ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ،

والرسول يقول : تفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، ثنتان وسبعون في النار : وواحدة في الجنة وهي الجماعة . ويقول : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن من واجبتنا أن نسمع هذا الحديث ، لكي نعرف هذه الطائفة ومبلغ بعدها عن صراط الجماعة الإسلامية ولكي نحلهم ونبتعد عنهم ، وننبه المسئولين إلى خطورة الموضوع ، فلا يزال هناك من متسع لوضع حد لهذه المساعي الغريبة المثيرة للريب الشديد والظن المعلق ، ونسأل الله أن يوفق كل فرد في الأمة لأداء ما يستطيعه لجمع الكلمة وإطفاء نار الفتنة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مدرسة للشيطان^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، ينصر الحق وأهله ، ويخذل الباطل وشيعته :
« والعصر ، إن الإنسان لئى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا
بالحق وتواصوا بالصبر » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يغار من الحرام ويغار على
الحرمات ، ويأمر بالتعاون على فعل الخيرات ومجاهدة المنكرات : « وتعاونوا
على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وأشهد أن سيدنا محمداً
رسول الله ، لم يخش فى الحق لومة لائم ، ولم يخف فى الله غصبه غاصب ،
فعلية من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، وأتباعه
هداة الأنام : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن
القلوب » ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ...

يوجد فى المجتمع الحديث مدرسة خطيرة كبيرة الخطر ، مؤثرة بعيدة
الأثر ، ابتدعها عقل الإنسان ، وكان من الممكن — بل إنه من الواجب —
أن تكون مدرسة للاهتداء بهدى الرحمن ، أو لتثبيت أركان العقيدة والإيمان ،
لتدعيم قواعد الديار والأوطان ، ولكنها مع الأسف صارت مدرسة للشيطان ..
أتدرون ما تلك المدرسة أيها الناس ؟ .. إنها مدرسة السينما .. السينما التى انتشرت
فى كل مكان ، واجتذبت إليها الملايين بعد الملايين ، والتى زاد عددها زيادة
هائلة مرعبة ، وغلبت المساجد والمدارس والجمعيات والتى انحرفت انحرافاً
كبيراً عن جادة الطريق واستبدت بالأموال والأوقات ، واستحوذت على
قلوب الناس واهتمامهم .. ولقد تجدد مثلاً بعض نواحي القاهرة لا يوجد فيها

(١) ألفت فى يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ ٢٩
نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

مسجد أو مدرسة ، ولكنك قد تجد فيها أكثر من دار للسينما ، وفي القاهرة شوارع يوجد في كل منها عدة دور للسينما ، بل يوجد في ميدان الطاهرة البتول السيلة زينب مثلاً أربع دور كبيرة للسينما . . .

والدراسة في مدارسنا بضع ساعات من النهار ، وأكبر المدارس تأخذ بنظام « نصف اليوم المدرسي » لقلة المدارس وضيقها عن التلاميذ ، وأما ساعات السينما فإنها تبدأ من العاشرة صباحاً وتمتد إلى منتصف الليل ، أى أنها تستمر أكثر من اثنتى عشرة ساعة ، لأنها تعرض أفلامها كل يوم أربع مرات ! . . . وناهيك بالعرض الأول ، وهو عرض الساعة العاشرة صباحاً . . . إنه ممكن الداء ، فالتلاميذ الذين لا رقابة عليهم يهربون من المدارس ويتواعدون مع الفتيات أو غير الفتيات على الذهاب إلى السينما في هذا الوقت . . . كما يذهبون إليها في غير ذلك من الأوقات ولم لا يفعلون والسينما عندهم أكثر جاذبية من المدرسة ، ونجوم السينما وممثلاتها وراقصاتها أجمل في أنظار التلاميذ من وجوه مدرسيهم ، وفي المدارس يتعلمون أشياء ثقيلة الظل عليهم ولكن السينما تعلمهم الحب الرخيص والهوى الملوث والتفسخ من الأخلاق والتحلل من الواجبات ؟ . . .

ولم يفعلون والرقابة ضعيفة ، والتسلية البريئة قليلة ، والمحرضات على جذب الأحداث والتلاميذ والطلاب إلى السينما كثيرة يتفنن فيها أهلها تفنن الأبالسة : حتى جعلوا هؤلاء التلاميذ يستهينون بكل حرمة في سبيل الذهاب إلى السينما ، فهم يتركون دروسهم ويهربون من مدارسهم لأجلها ، وهم يسرقون النقود كى يحصلوا على تذاكرها ، وقد يسلكون أقلر الوسائل وأحطها لدخولها ، والمستولون عنهم لا يشعرون ، أو هم يشعرون ولكنهم يهملون ويفرطون ! . . .

هذا ممثل سينمائي أراد أن يعلن عن فيلم من أفلامه ، فابتدع طريقة جديدة في الإعلان ، هي أنه طبع هذا الإعلان على جدول من جداول حصص الدروس ، وأخذ يوزع نسخه الكثيرة على طلاب المدارس ، وطالباتها وعلى هذا الجدول المطبوع ظهر بطل الفيلم وبطلته متعانقين متحاضنين في قبلة عميقة فاجرة ! . . . وحول خانات الحصص المدرسية طبعوا أسماء المهملين والمهملات وكأنهم يريدون أن يقولوا للتلاميذ والتلميذات : دعوكم من مدارسكم ودروسكم ومدرسيكم ، وتعالوا إلى مدرستنا فهي أجمل ، وإلى مثلثاتنا فهن أروع وأرشق ! . وكتب الممثل على الجدول يقول إنه « يهني » الطالبات الفاتنات الناجحات بالسنة الدراسية الجديدة ويتمنى لمن أطيب التمنيات وتحقيق آمالهن السعيدة بمشاهدة فيلم . . . » . . . رأيتم وسمعت ؟ . . . إنه يهني الطالبات « الفاتنات » — وأظن أن معنى الفتنة معروف — يهني الفاتنات فقط ، أما الطالبات غير الفاتنات فلا ، وأما المتوسطات في الجمال فلا ، فالمقياس عنده في الطالبات هو الفتنة ، لا الدين ولا العلم ولا الأخلاق ! . . . وهو يحصر تحقيق آمال هؤلاء الطالبات في مشاهدة فيلمه المعلن عنه ! . . . ولست أدري السر في أن البطل الرجل يهني « الطالبات » الإناث ، بينما نجد البطلة المرأة تهني — في هذا الجدول المطبوع — الطلاب الفتيان الذكور ؟ ! : : : ألكللك حكمة أيها الحكماء ؟ . . .

وقد وضعوا اسم الفيلم في هذا الجدول تحت عنوان « الحصص الثامنة » ! . أى ختام الدروس عند هؤلاء يجب أن يكون في السينما لتهدم ما بنته المدرسة ! . وجاء في الإعلان أيضاً أن يوم الجمعة « مخصص لمشاهدة الفيلم ما عدا أيام الزوغان » ! . ومعنى هذا أن أيام الزوغان من المدرسة لها ذكر وسيرة عند صاحب الفيلم ! . . . أفليس هذا تحريضاً ملفوفاً على الهروب من المدرسة لأجل السينما ؟ . . . أليس هذا تشجيعاً على الإثم والانحراف ؟ ! . أليست هذه

دعوة لإفساد الطلاب والشباب ؟ .. أين أنت يا وزارة التربية ؟ .. أين أنت يا وزارة الإرشاد ؟ .. أين أنت يا هادى الطريق ؟ .. أهكذا نترك هؤلاء يوزعون على طلابنا وتلاميذنا وبناتنا جداول حصص تكون تحت أبصارهم باستمرار وفيها هذه السموم المثيرة للخطيرة ؟ .. دون هذا ويذهب حلم الحلیم ..

لقد قرأنا في الصحف بالأمس أن ثلاثين صبياً من الأحداث قد فروا من مؤسسة البنين بحى العجوزة ، وتشتتوا في أرجاء القاهرة بعد أن سرقوا بعض الأشياء ، وقد تقرر تقديمهم للمحاكمة غيابياً لأنهم لم يجلبوهم ، ومن يلوى ، فلعلهم قد ذهبوا ليتلقوا الدروس هناك .. هناك في ظلمات السينا !! ..

يا عالم ، يا ناس ، يا خلق ، يا بنى آدم ... إن البلاء قد طم وعم على أيدى هذه السينا ... فهذا والد يقرر كما نشرت الصحف - أن زوجته ذهبت مع ابنته الطالبة لمشاهدة فيلم سينمائى تعرضه مدرسة ثانوية للبنات ، ففوجئت الزوجة بأن الفيلم غرامى صارخ ملء بالقبل والخلاعة ، وأن العامل المشرف على عرض هذا الفيلم كان يقرر عرض بعض المناظر المثيرة التى تنال استحسان البنات وجميعهن فى سن المراهقة ، ويقول الوالد إن المدرسة قررت عرض الأفلام السينمائية أسبوعياً ، وهو يطالب باختيار الأفلام الصالحة للعرض بدل الأفلام الخادشة للعرض ! .. وهذا هو « البابا » المسيحى قد ضج بالشكوى من موجة الأفلام الغريزية التى تحتاج المراقبين بوسائلها الخبيثة الماكرة ، وتخطب أخطر ما فى أعماقهم من غرائز وأحاسيس ، وتنحرف بهم عن سواء السبيل ، وقد طالب « البابا » بالقضاء على هذه الأفلام القذرة حفظاً للبشرية من التردى فى هاوية الرذيلة ! .. هذا فى الوقت الذى تغمر فيه الأفلام الغريزية الفاضحة من الخارج ، والذى تغمرنا فيه الأفلام الجنسية القذرة من الداخل ، وهناك ما يقرب من خمسين فيلماً لا تخرج موضوعاتها

عن الحب واللذة الجسدية والاتصال الأثيم بين الرجل والمرأة . . . والعجيب عندنا أن الفيلم إذا زادت وقاحته منعوا دخوله عن الذين لم يبلغوا ستة عشر عاماً من أعمارهم ، أى الذين يبلغوا سن المراهقة والتأثر والانفعال ، أما الذين بلغوها وصاروا وقوداً صالحاً للاشتعال فهؤلاء يدخلون هذه الأفلام ، وليعطيني أحدكم عقله لأفهم به ، فهذا منطق تضييع معه العقول ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يا أحفاد المسلمين الأوائل . . .
يا بقايا الخير في حنايا المجتمع الصახب . . .

الأمر في هذا المجال منكم وإليكم أولاً وقبل كل شيء : : : أنتم الجمهور الذى يؤثر في إقباله وإدباره ، فابدلوا جهدكم لحفظ أنفسكم وأبنائكم وبناتكم من هذا الطوفان ، واجأزوا بالشكوى إلى ولاية الأمور من هذا البلاء ، ولا تدعوا وسيلة من وسائل القول أو الكتابة أو النقد أو التوجيه في هذا الباب ، وعلى الدولة أن تتذكر جيداً أنها قد تبنى في جهة ومعاول التخريب على هذا الطراز تهلم في جهات ، فلتضرب الدولة على أيدي هؤلاء الهادمين ليسلم الوطن الأمين ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

حول التلفزيون^(١)

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق ، وأجرى الرزق : « ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أقام المعالم ، وحدد المحارم ، ووعد بالتواب وأوعد بالعقاب : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرشد وعلم ، وهدى وقوم ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه المدنية الحديثة فيها وسائل كثيرة من وسائل الثقافة والترفيه وترقية الحياة ، وكل وسيلة من هذه الوسائل لها جانبان ، أحدهما يجلب الخير ويحقق الفائدة ، والآخر يسبب الشر ويفضي إلى الأذى ، فالمسرح والسينما والإذاعة والصحافة أدوات عظيمة التأثير وهي تنفع وتفيد على أوسع نطاق ، حين يسيطر على توجيهها وتصريف شئونها الإخلاص والحكمة ، وهي تسيء وتؤذى على نطاق واسع إذا انحرفت عن الصراط أو اعتسفت في المسير ، ومن واجب المسؤولين عن هذه الأدوات والوسائل أن يحولوا دون استغلالها فيما يهدم أو يحطم ، حتى يمكن الانتفاع بما في هذه المدنية من طيبات ، وتجنب ما تحويه من سموم وآفات . . . وهذا مثلاً هو جهاز « التلفزيون » قد أقبل على بلادنا كأداة حديثة براقية جذابة من أدوات المدنية المعاصرة ، ولا شك

(١) الجمعة ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٦٠ م .

أن جهوداً كبيرة قد بذلت لتحقيق الإذاعة بالتلفزيون ولكن هذا التلفزيون بدأ يسبب لنا متاعب وقلاقل ، ، فقد تسابقنا إلى شراء جهازه ، وجعل بعضنا يكلف نفسه شططا في سبيل الحصول عليه ، ولو بالدين أو الاقتراض أو غير ذلك من الوسائل ، كيلا يقال عنه إنه متخلف عن غيره الذى اقتنى الجهاز .

وهذا الجهاز يحتاج في رعايته وصيانته إلى جهد وإصلاح ، ويحتاج إلى غطاء مرتفع الثمن ، ويستنفذ من التيار الكهربائى جانباً كبيراً ، وكل هذا قد يحتمله الكثيرون من الناس ، وقد يكون بجانب غيره من المشكلات والأضرار ، فهناك خمس ساعات تمضى من حياة أصحاب الأجهزة ، وقد أطفئوا الأنوار ، وأقبلوا على مشاهدة العرض ، الكبار والصغار ، والنساء والرجال والفتيان والأطفال ، وكثيراً ما يترك الأولاد واجباتهم ودروسهم في سبيل هذه المشاهدة ، وقد تتألم عيونهم من انبهارها بضوء الشاشة الساطع وقد يحسون بهذا الألم في قوة ، ومع ذلك يواصلون السهر والمشاهدة ، وقد يمكن احتمال هذا كله لو أن الثمرة المقطوفة من ورائه تزيد على هذه المتاعب ، ولا بد دون الشهد من إبر النحل ، ولا ننكر أنهم يعرضون في التلفزيون أشياء لها فائدتها وقيمتها ، مما يزيد في الثقافة ويوسع المدارك ، ولكن جانب الشر أغلب ، فهناك هذا الإلحاح المستمر في عرض الرقصات المثيرة الخليعة ، وقد زعموا لنا فيما زعموا أن الرقص من نوع «الباليه» الذى يرتدى فيه العارضات له ثياباً فضفاضة ساترة للجسم ، ويؤدين حركات رياضية رمزية لا تمت للناحية الجنسية بصلة ، فإذا بالرقص يصير عرضاً للأفخاذ والأرداف والصدور والنحور ، وإذا رقصات البطن تأخذ حظها من العرض مع غيرها من المشاهد الجارحة المثيرة ومن العجيب أنهم يسمون هذه المشاهد «ليالى

القاهرة ، كأن القاهرة العربية الإسلامية الواسعة ليس في لياليها إلا الغث
واللهو وهز البطون ! ! .

وكان هؤلاء قد نسوا أن كثيراً من الأسر المسلمة المحافظة على آدابها
وتقاليدها قد اشترت جهاز التلفزيون لتعوض نساءها وبناتها عن التردد على
السينما والمسارح والسهر خارج البيت ، وقد كان الواجب أن يراعى هذا فيما
يقدم على شاشة التلفزيون ، حتى لا تجرح مشاعر هذه الأسر ، فإذا قيل
إن هناك أسراً أخرى تتطلب هذا اللون المتحلل من المشاهد فالجواب أن هذه
الأسر ترى هذا المبالذ من قبل ومن بعد في المسارح والسينات والمواخير التي
تردد عليها صباح مساء ، فاتقوا الله فيما بقي من الحياء . . .

ومنذ أيام قليلة عرضوا على الناس في جهاز التلفزيون فيلماً سينمائياً استمر
ساعتين ، وهو يصور لك حياة الرهبان النصارى ، وكيف قاموا بنشر عقيدتهم
المسيحية في الصين ، وكيف نجحوا في بث تعاليمهم ومبادئهم ، والفيلم يحتوى
على دعاية للمسيحية قوية محبوكة مؤثرة ، بحيث قال بعض الذين شاهدوه إنه
يجب في هذا الدين بصورة خطيرة ، فلأى هدف يعرض هذا الفيلم على
شاشة التلفزيون في بيوت مسلمة كثيرة أبناؤها من أتباع محمد عليه الصلاة
والسلام ؟ وبأى لسان يعتلرون عن فيلم يصور أجداد الرهبانية النصرانية الغربية
الدخيلة في الصين البعيدة عنا ؟ . . وهل فكر هؤلاء مثلاً - من قبل أو من
بعد - في أن يعرضوا أفلاماً إعلامية تتناسب في عددها وقوتها مع هذه الكثرة
الضخمة من المسلمين ؟ . إن الأفلام الدينية الأجنبية أفلام مخدومة خدمة
واسعة جداً ، في حبكة الموضوع وروعة الإخراج وبراعة التصوير وأصحابها
ينفقون عليها المال الكثير الصخم ، ويتفننون في عرضها وجذب الناس إليها ،
وما زلنا نذكر طائفة من الأفلام الأجنبية الدينية التي توالى عرضها هنا منذ حين

فأثارت الأقاويل ، فإذا جاء التلفزيون ليعرض علينا فيلماً من هذا النوع الخطير كان كمن يضع ضغثاً على إِبالة ، أو كمن يبشر بتعاليم دينية بين مجموعة تؤمن بتعاليم غيرها ، فهل هذا إحياء بأن يتركوا تعاليمهم ، أو استخفاف بمشاعرهم ؟ . ليتنا نعرف الجواب .

والعجيب أن التلفزيون يعرض ألواناً من البرامج ، فهناك الغناء والرقص والرياضة والأخبار والمرأة والأزياء والأفلام والحفلات الساهرة والحيوانات المختلفة ، وكل شئ^{*} استطابوه ، ولكنهم لا يعرضون شيئاً عن الإسلام أو الإيمان ، فليست هناك أحاديث دينية ولا مسرحيات إسلامية ، وليست هناك إذاعة للقرآن الكريم ، وقد احتجوا في منع الأحاديث بأنه يثقل على المشاهد أن يتطلع إلى وجه المتحدث فترة ممتدة ، فلماذا لا يقولون هذا عن مديع الأخبار الذي نراه بشخصه كل ليلة لا يتغير ؟ ولماذا إذن لا يمنعون المحاضرات من الأندية والجمعيات ؟ . . . وهم يعتنرون عن عدم إذاعة القرآن بأن المرتل يحرك وجهه ويديه بهيئة خاصة غير مستطابة ، فن الذي زعم لهم هذا ؟ ولماذا إذن لا يمنعون المرتلين من الحفلات والمجتمعات التي يرتلون فيها ؟ ولماذا لا يمنعون المغنية في التلفزيون من هز رأسها وتحريك يديها والإشارة بمنديلها وضرب الأرض بقدميها وغير ذلك من الإشارات ؟ .

إننا نستطيع أثناء إذاعة القرآن في التلفزيون مثلاً أن نخرج صوت القارئ بالصورة المناسبة ، فإذا تلا مثلاً قوله تعالى : « وأن المساجد لله » شاهدنا معه صورة الكعبة والمسجد الأقصى ومسجد الرسول والأزهر والجامع الأموي ، وإذا تلا آيات فيها ذكر السموات والأرض استطاعوا أن يعرضوا علينا مشاهد للطبيعة والنجوم ، والشروق والغروب ، وإذا جاء ذكر للماء والأنهار استطاعوا أن يعرضوا علينا النيل وبردى والفرات . . . وهكذا يمكن أن تكون إذاعة القرآن في التلفزيون ترتيلاً واعظاً ، وتفسيراً ببعض الصور أثناء

التلاوة ، فما يذكر السامع والناظر بجلال خلق الله سبحانه ، ولكن المشكلة في الواقع هي محاولة إقناع هؤلاء بأن التلفزيون يجب أن يكون فيه للدين نصيب ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . : إنهم يتعللون دائماً في مثل هذا المواقف بأن الجمهور يريد إرضاء رغباته باللغو والرقص والغناء المتحلل ، وأنتم جزء كريم من هذا الجمهور فاشعروهم بالسنتكم وأعلامكم أنكم لا تريدون هذه السفاسف من المشاهد ، بل تريدون ثقافة صحيحة ولها برزخاً ومنتعة طيبة ، وأنا أعلم أن فيكم من لو تحدث إلى هؤلاء لاستجابوا له وسمعوا منه ، ونحن نتحدث بقدر ما نستطيع هنا وهناك ، والله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

الاختلاط في المدارس^(١)

الحمد لله عز وجل ، سن شرائع البر والخير ، وسد ذرائع الإثم والشر :
 « يريد الله أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا
 عظيماً » أشهد أن لا إله إلا الله ، أمر بطهارة الحس والنفس ، وتزكية
 الروح والقلب : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » وأشهد
 أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعز كلمة الفضيلة والعفاف ، ونهى عن الشطط
 والانحراف ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه وورجاله ، والآخذين
 بمقاله وفعاله : « أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الإسلام دين المشورة والجماعة ، فبالشورى تتضح الأمور وتتمحض
 الحقائق ، وتلتقى الأمة على كلمة سواء ، ولذلك وصف الله المسلمين بقوله :
 « وأمرهم شورى بينهم » ، وأمر نبيه وقدة عباده بقوله : « وشاورهم في
 الأمر » ، والرأى العام السليم في الأمة الفاضلة المستقيمة له قيمته ومكانته ،
 لأنه يكون عصارة لتفكير المجموع الكثير في عدده الرشيد في تفكيره ، ولذلك
 كان من قواعد الإسلام أن ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن ، وقال الرسول
 صلوات الله عليه : « يد الله مع الجماعة » ، وقال : « لا تجتمع أمتي على
 ضلالة » ، ولا يستقيم وضع من أوضاع الأمة الموقنة إلا إذا كانت مؤمنة به
 راضية عنه ، وكان موافقاً لما دعا الله إليه ، داخلاً فيما أمر الله به : « صبغة الله
 ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

(١) الجمعة ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٦ يونية ١٩٥٨ م

وقد نشرت الصحف^(١) أن القائمين بأمور التربية والتعليم قد أعدوا استفتاء لأولياء أمور التلاميذ ولنظار المدارس ومدرسيها للوقوف على رأيهم في نظام الاختلاط بين الذكور والإناث في التعليم ، لأن هؤلاء المعدين للاستفتاء يبحثون مشروعاً للتوسع في هذا الاختلاط على ضوء هذا الاستفتاء ! ! ولا جدال في أن تعرف رأى الجمهور في الأمور الجلييلة تصرف محمود ، ولكن هذا الاستفتاء المشار إليه لم يبدأوا في إعداده إلا بعد أن أخذت الدولة فعلاً بنظام الاختلاط بين الفتيان والفتيات في عدد من المدارس هنا وهناك ، وترددت الهمسات بأن هذا تمهيد لفتح الباب على مصراعيه ، وأن الغسد كفيل بتعميم الاختلاط في التعليم . وقد كان الوضع الطبيعي أن نستفتي الجمهور قبل البدء في هذا النظام . حتى يكون الاستفتاء في زمانه الملائم وتكون له ثمرة الصحيحة ، وكان الأولى أن نستفتي عقائدنا وتقاليدينا قبل هذا وذاك ، وكان الأولى أن ننفع بتجارب غيرنا في هذا الباب ، بدل إضاعة الجهود والأوقات وتعرضنا لخطير النتائج ووخيم العواقب . ولقد مضى علينا مئات من السنين ، والفتيان يتعلمون في مدارسهم ، والفتيات يتعلمن في مدارسهن ، دون شكوى من هذا الاستقلال والانفصال بين مدارس البنين ومدارس البنات ، فأية ضرورة ملحة أو مصلحة عاجلة لازمة أوجبت علينا أن نخلط الذكور بالإناث في التعليم ؟ . .

هنا يقولون : إن الإختلاط بين الجنسين يخفف طغيان الكبت ، ويهدئ حدة الغريزة ، ويهذب عواطف الجميع . وهذا القول يعجب كثيراً دعاء التحلل الأخلاقي الذين يبيتون ما يبيتون ، ويبتغون ما يبتغون . والذين فرحوا كثيراً بما فعله القائمون على شئون التعليم في هذا الباب منذ أمد بعيد ، فقد بدأوا بخلط الشباب والشابات في الجامعة قائلين إن لطلبة الجامعة من الحصانة والتجربة

(١) يوم الخميس ٥ يونية سنة ١٩٥٨ م .

ما يقيمهم الزلل ، ثم خلطوا الذكور والإناث في مدارس الحضانة والمرحلة الأولى قائلين إن الجميع فيها أطفال لم يبلغوا الحلم ، ولم يعرفوا شيئاً عن الجنس ثم شرعوا يخلطون بين الفتيان المراهقين والفتيات المراهقات في المراحل التالية لذلك ، فيجمعون بين الفريقين وهما في أدق دور من أدوار الاحتدام العاطفي والانفعال الحسى والاستجابة لنداء الجنس والاندفاع مع جواذب البدن

وليتهم يفعلون ذلك عن أصالة وإيمان واعتقاد ، بل هم يفعلونه متابعة وتقليداً للغرب الذى أصابه من جراء الاختلاط والتحلل الجنسى ما أصابه من بلايا ونكبات ، وطالما ترددت الأنباء والأخبار تروى لنا المذهل المؤلم عن هذه البلايا والنكبات ، ومما نشرته الصحف فى الأسبوع الماضى^(١) أن المجتمع الإنجليزى قد اهتز بسبب الاختلاط فى المدارس ، واندفع الآباء إلى المدارس المختلطة يسحبون منها بناتهم ، وعقد رجال الدين والأخلاق والنفس اجتماعات طويلة لبحث هذه البلوى ، فقد حدثت حوادث فاجعة مؤلمة فى هذه المدارس وأخذت فى بحثها محكمة الأحداث بلندن بينما أخذ العرق يتصبب من وجوه الآباء والأمهات خجلاً مما عرفوا ومما سمعوا ، فهذا عدد من فتيات المدارس المختلطة يعترفن أمام القاضى بأنهن قد قن بالاتصالات الجنسية مع زملائهن فى المدارس ، وأعمار الفتيان والفتيات قريبة من ثلاثة عشر عاماً وأربعة عشر عاماً ، وقررت بعض التلميذات أن أغلبية الفتيات فى المدرسة على خبرة عملية بالاتصال الجنسى ، وأن اللواتى ليست لديهن خبرة عملية به إنما هن «أقلية لا تذكر» . . . !

وإحدى فتيات هذه المدارس اعترفت بأنها اتصلت اتصالاً جنسياً بستة تلاميذ ، واعترفت غيرها وغيرها ، حتى صاح القاضى الإنجليزى قائلاً : « هذه ذنابة لا تعقل » ! . . . وبرغم شناعة ما عرضه الفتيات وقرره

(١) جريدة الشعب فى ٣٠ مايو سنة ١٩٥٨ م .

فإن مفتش البوليس صرح بأنه من المنتظر أن تعرض على المحكمة قضايا أخرى في هذا اللون ! . .

يحدث هذا في إنجلترا الدولة العجوز التي أخذت بنظام الاختلاط منذ عهد بعيد ، والتي نالت من الثقافة ما نالت ، وادعت الارتقاء بتقاليدها ما ادعت ، وزعمت لنفسها وللناس أنها هذبت نساءها ورجالها ، وأزالت الكبت عن فتيانها ، وتغلبت على الغريزة الجنسية بالاختلاط والرياضة والعلوم والفنون وغيرها من الوسائل . . وهذه لندن عاصمة إنجلترا تهتز وترتجف بسبب ما حدث في مدارسها المختلطة ، ويخجل منه نساؤها ورجالها وليس من طبيعتهم الخجل ، بل من طبيعتهم البرود الذي يضرب به الأمثال ، وجوهم فوق هذا غير جونا ، وتقاليدهم غير تقاليدنا ، ومستواهم الثقافي غير مستوانا ، ونظرتهم إلى العرض والعفة والشرف غير نظرتنا ، وعقيدتهم غير عقيدتنا ؛ أفلا يكون في هذا عظة وعبرة لنا يا ناس ، يا عالم ، يا خلق ، يا بني آدم ! ؟ .

فلنتذكر جيداً أن الله قد خلق هذه الحياة من عنصرين يتجاذبان هما الذكر والأنثى ، نجد هذا في الإنسان والحيوان والنبات ، بل نجد عنصرين متجاذبين في الكهرباء والكرة الأرضية والذرة ، أحدهما القطب السالب والآخر القطب الموجب ، وليس عيباً أن تشتهي المرأة الرجل ، أو يشتهي الرجل المرأة ، فتلك طبيعة مخلوقة وجبلة موروثة ، وليس عيباً أن يرضى الرجل أو المرأة هذه الشهوة بطريق مشروع غير ممنوع ، ولكن العيب كل العيب هو أن نقدم لهذه الشهوة غذاءها بطريق شاذ أو أسلوب محرم ، أو أن نفتتح باب الثورة والغليان أمام هذه الشهوة حتى يصير أهلها كأنهم من الثيران لا من بني الإنسان ، واو تغافلنا في هذا المقام عن كل الاعتبارات ، لما استطعنا أن ننسى أن اختلاط الفتيان بالفتيات في التعليم يهيئ الجو الخطير للاثارة الجنسية ويحرض

بظروفه الكثيرة على العلاقات المنحرفة، ويفتح الباب للاتصالات الآثمة والخلوات الضارة ، ورسولكم يقول : « إياكم والخلوة بالنساء ، والذي نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما » . والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يوصى ميمون بن مهران فيقول له : « إياك أن تخلو بامرأة غير ذات محرم ، وإن حدثتك نفسك أن تعلمها القرآن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قولوا لدعاة الاختلاط بين المراهقين والمراهقات فى التعليم : إننا نريد أن يتربى أولادنا لا أن يتحللوا ، وأن يتعلموا لا أن يعيشوا ، وأن يتحصنوا لا أن يتهدموا ، وأن يرتقوا ويتقوا لا أن ينزلقوا ، وأن يذشأوا متدينين مؤمنين لا أن ينشأوا ملحدين منحرفين ، وأن يكونوا أبناء إسلام وأخلاق ، لا ضحايا لاتجاهات غريبة ومذاهب طارئة غير مرضية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

بين العدل والفضل^(١)

الحمد لله عز وجل ، يحكم بالعدل ، ويمن بالفضل ، والله ذو الفضل العظيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، طهر الإنسانية وزكاها ، وكرم البشرية وأغلاها ، إن الله بالناس لرعوف رحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من أدب ، وأفضل من هذب : « وإنك لعلی خلق عظیم » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا تطالعنا إلى الناس في سلوكهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم رأيناهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، أو ثلاثة أصناف ، فالصنف الأول يمثل صفة الأنانية والاستئثار ، والصنف الثاني يمثل صفة التضحية والإيثار ، والصنف الثالث يمثل صفة التعادل والتماثل ، والملاحظ أن أكثر الناس يمثلون الصنف الأول وهم أصحاب نزعة الاستئثار ، وأن القليل منهم يمثلون الصنف الثالث أصحاب نزعة التعادل ، والأقل النادر منهم هم الذين يمثلون الصنف الثاني وهم أصحاب نزعة الإيثار ، وصاحب صفة الاستئثار رجل أناني ، يغلب عليه حبه لنفسه وإرضاءه لذاته ، فهو يريد أن يأخذ ولا يعطي ، وأن يطالب ولا يقدم ، وهو يحاول دائماً أن يأخذ أكثر مما يستحق ، وأن يستحوذ على أكبر قدر يستطيعه ، وأما صاحب الإيثار فرجل شهم نبيل أريحي ، يعطي أكثر مما يأخذ ، ويخدم أكثر مما يتنعم ، ويقدم غيره على نفسه ، وأما صاحب التعادل فهو يأخذ بشرعة

(١) الجمعة ١٨ شوال سنة ١٣٨٤ هـ ١٩ فبراير سنة ١٩٦٥ م .

المماثلة ، ويمضى على طريقة المقابلة ، يقول هذا حتى وهذا حقك ، لا تظلمنى ولا أظلمك ، ولا أفرط فى شئ^١ لى ، ولا آخذ شيئاً لغيرى .

ومن الواضح أن الاسلام العظيم يحمل حملة صارمة على أهل الاستئثار لأن الاستئثار أنانية بشعة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : «وطائفة قدأهتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» . كما أنه حين يدفع بصاحبه إلى مواقف الصغار واللوم فهو إن أصاب القوم المجاهدين شر فرح لمصيبتهم وشميت فيهم ، وقال قولة النذل الخسيس : « قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً ، ، وإن أصاب القوم خير وفوز تحسر وندم ندامة الجشع المنهوم ، وقال : « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » . كما أن الاستئثار ظلم للناس وهضم للحقوق « وقد خاب من حمل ظلماً » ، ولذلك قال القرآن المجيد : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » . والاسلام يجعل التعادل أمراً وسطاً ، فهو يعده الرخصة المسموح بها دون نص على ثواب لها ، ولذلك نجد القرآن الكريم حينما يتحدث عن موقف التعادل والمقابلة بالمثل يكتفى بتقرير الإباحة والجواز وعدم الحرج فى ذلك ، دون أن يذم أو يمدح ، فيقول مثلاً : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، ويقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ، ويقول : « وأحل الله البيع » لأن البيع مقابلة وتعادل ، ويقول عند الإقلاع عن الربا : « فإن تبتم فلکم رعوں أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » . ولكن الإسلام بعد هذا ينوه بمكانة الإيثار العظيمة ، ويعد عليه بالثواب الجزيل ، فيقول مثلاً : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ويقول : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً

ويُتَيْمَمُ وَأُسِيرًا ، إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا شُكُورًا ،
إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا ، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا .

والعجيب في صنع القرآن أنه في مواطن لإباحته لطريقة التعادل والمقابلة
بالمثل يذكر بطريقة الفضل القريبة من شرعة النبل والإيثار ويثنى على هذه
الطريقة ويحبب فيها ويثيب عليها ، فبعد أن يجيز المعاقبة بالمثل يقول : « وَلئن
صبرتمْ لَهوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » وبعد أن يقول : « وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » يقول :
« فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » وبعد أن يجيز الانتصار عند الظلم يقول :
« وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » ، وبعد أن يجيز الإبقاء على رأس
المال الأساسي عند التوبة من الربا ورد هذا الربا إلى صاحبه المدين يقول :
« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ » . والإسلام بعد هذا يحجب تحيياً عاماً واسع النطاق في المعاملة بأسلوب
الفضل والعفو والكرم ، فيقول القرآن : « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ،
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاها
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ » . ويقول : « وَسَارِعُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ » فهو يريد منهم أن يتدرجوا من كظم الغيظ إلى ما هو أعلى منه
وهو العفو عن الناس ، ثم إلى ما هو أعلى من العفو عنهم وهو الإحسان إليهم .
والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول في حديث له : « أَوْصَانِي رَبِّي بِتَسْعٍ
أَوْصِيَكُمْ بِهَا » ويذكر من بين هذه الخصال التسع قوله : « وَأَنْ أَعْفُو عَنْ
ظُلْمَنِي ، وَأَصِلَ مِنْ قَطْعَنِي ، وَأَعْطَى مِنْ حَرَمَنِي » .

قد يقال : ولكن الله تبارك وتعالى قد نوه في كتابه بالعدل والعادلين ، والعدل هو طريق التعادل والتقابل والتماثل ، والقرآن يقول : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ويقول : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، فكيف نهون إذن من مكانه العدل ، أو نقول إنه أقل شأنًا من مرتبة التعامل بشريعة الفضل ؟ والجواب ان الله عز وجل قد جعل العدل فريضة لازمة إذا كان المقام مقام فصل بين متخاصمين أو متقاضين ، ففي هذه الحالة لا بد لمن يقضى أو يفصل أن يحكم بالعدل ، وإذا تحرى العدل في حكمه كان أهلاً للثواب من الله ، ولذلك يقول القرآن : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ويقول : « وأمرت لأعدل بينكم » ويقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي* إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل . . ولكن الإسلام في مجالات المعاملة يدعوك أن تكون كريماً نبيلاً ، وهو القائل لعباده : « ولا تنسوا الفضل بينكم » والقائل : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » والقائل : « وليعفوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

بين دقة العدل وسماحة الفضل تنقل خطوات الإسلام العظيم ، ليعلم الإنسان أن أقل الدرجات التي يجب أن يلتزمها هي درجة العدل الذي لا ينبغي فيها ولا يظلم ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وأن هناك درجة أعلى ينبغي له أن يعطى إليها ويتحلى بها كلما قدر واستطاع ، وهي درجة الفضل والإحسان : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . واثقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

القوة الأمانة (١)

الحمد لله عز وجل : هو أقوى الأقوياء ، ومصدر الخير والعطاء :
« وإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » أحده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ،
بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير . وأشهد أن سيدنا محمداً
رسول الله ، قائد فرسان النهار ورهبان الليل ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين
فصلوات الله وسلامه عليه « وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين
بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

القوة أمر مرغوب محبوب ، فمن ذا الذى لا يحب أن يكون قوياً فى مختلف
جهاته ونواحيه ، والضعف أمر مكروه مبغوض ، ومن ذا الذى يريد الضعف
أو يتطلبه ، ولكن القوة طاقة ، وكل طاقة لا بد لها من زمام حكمة أو ضمان
أمان يقودها ويقومها ، ويحول بينها وبين الانحراف والاعتساف ، والقرآن
الكريم يرشدنا إلى أن فضيلة الأمانة هى الضابط للقوة ، وهى صمام الأمان
مع الشدة ، ولذلك يقول عن ابنة شعيب حين تحدثت إلى أبيها عن موسى
عليه السلام بعد أن سقى لها ولأختها ثم تولى إلى الظل : « قالت إحداهما يا أبت
استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . فهذا موسى كما يقرر كتاب
الله المجيد . يجمع بين القوة والأمانة ، أو يتحلى بالقوة الأمانة ، والأمانة
القوية القادرة فهو حينئذ شاب قوى فقى جلد ، تبدو عليه الصحة والعافية .
وهو فى الوقت نفسه أمين عفيف فى نظره وفكره ، وإذا اجتمعت القوة
والأمانة فى إنسان فقد أوسع له ربه فى الفضل والعطاء . وهذا يوسف عليه

(١) الجمعة ٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ ٢٩ مارس سنة ١٩٧٤ م .

السلام يمن عليه ربه بصفتي القوة والأمانة ، فهو شاب جميل وسيم ، فيه الرجولة والفحولة ، وتدعوه داعية الفتنة والإغراء ، فلا يستجيب لقوته وحدها ، بل يقودها بزمام أمانة وحصانة : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » . بل لقد ذكر القرآن الكريم القوة الأمينة ، أو الأمانة القوية حلية للصالحين من الجن : « قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين » . وهكذا يريد الله جل جلاله من عباده أن يكونوا أقوياء أمناء ، والجمع بين القوة والأمانة كالجمع بين قوة المادة وقوة الروح ، لأن الأمانة تمثل القوة المعنوية الروحية الأخلاقية ، والقوة وحدها بلا أمانة تؤدي إلى الطغيان والبهتان ، والأمانة مع الضعف عرضة للضياع والانكسار ، ولذلك وصف الله المؤمنين بأنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . فقوتهم تستخدم في موضعها المناسب لها . ورحمتهم تستخدم في موطنها المناسب لها ، وهذا هو التوازن القويم .

وكما عني القرآن الحكيم بالإشارة إلى القوة المؤمنة أو الأمانة القوية عنيت السنة المطهرة بذلك ، فقال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فلم يفضل الرسول مطلق قوي على مطلق ضعيف ، ولم يقل مثلاً « القوي خير من الضعيف » بل قال « المؤمن القوي » فأشار إلى الفضيلتين اللتين تلتقيان فتتعدلان فيكون من ورأهما الخير الكثير . وكم من ضعيف مسالم يكون خيراً عند الله من قوي باطش لأمانة له ولا استقامة . وكذلك يقول سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية ، وألا يرزقه إلا طيباً » . والكتابة

والسباحة والرماية مظهر من مظاهر القوة ، ولكن قوله : « وألا يرزقه إلا طيباً » فيه إشارة بليغة إلى التحرز من السوء ، والتحصن من الحرام ، وما دام الرزق طيباً في كل وقت فقد طاب المسير وحسنت العاقبة .

من واجبتنا أن نتذكر أن ألوان القوة عند الإنسان محتاجة إلى ضوابط من الأمانة وبقظة الروح . إن القوة الجنسية تحتاج إلى ضابط العفة والفضيلة وإلا كانت تحطيماً ، وهتكاً للأعراض ، وإضاعة للأنسب . وسعيّاً في الأرض بالفساد ، والقوة البدنية تحتاج إلى حكمة ووقار ، وإلا كانت بغياً وعدواناً : ولذلك يقول القرآن : « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » . وقوة العلم المادى تحتاج إلى ضابط الأمانة والخشية من الله ، وإلا كان هذا العلم هلاكاً وتدميراً ، ومن هنا قال كتاب الله عزّ علاه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وقوة البصر تجرح وتفضح إذا لم يكن معها رادع أو وازع من حياء وتعفف وكذلك قال القرآن : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » . وقال على سبيل التذكير والتحذير « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

ولننظر إلى قارون . لقد كان صاحب قوة غير عاقلة وغير أمينة ، فكانت وبالا عليه وخسراناً له ، لقد أوتى قوة المال الهائلة المتمثلة في الكنوز التي تنوء بحمل مفاتيحها العصبية أولو القوة ، ولكنه اغتر بها وتكبر ، وقال قوله السوء : « إنما أوتيته على علم عندي » ، فإذا كانت العاقبة ؟ « فحسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

ورضوان الله تبارك وتعالى على عمر بن الخطاب حين قال يدعوا ربه

« اللهم إني أشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن » وياله من تصوير دقيق عميق للمجتمع حين يتسرب إليه الفساد ، فإذا التقى النقي أمين مجرد من السلطة مبعد عن التمكن من الأمر ، وإذا الفاسد الخثون تتهياً أمامه أسباب الطغيان والإفساد . والدنيا اليوم لا تشكو من أمر كما تشكو إبعاد الأمين وتقريب الخثون ، ولو أنصفت الدنيا نفسها وأهلها لو وضعت الإنسان المناسب في مكانه المناسب ، في ضوء هدى القرآن الكريم القائل : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » . فهداية البشرية اليوم معلق على إيجاد هذه القوة العاقلة ، القوة الفاضلة ، القوة الرشيدة ، القوة الأمانة ، أو الأمانة القوية .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فلنجعل شعارنا من كلمتين هما : قوة وإيمان ، ولنتذكر أن الإيمان لا يؤدي رسالته دون القوة . كما أن القوة لا تفيد دون الإيمان ، وإذا كان القرآن المجيد قد قال : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد قال كذلك : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله : ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » .
أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الوقاية خير من العلاج^(١)

الحمد لله عز وجل ، كتب البقاء للحق والخير والصلاح ، وتهدد بالفناء والزوال أهل الباطل والضلال : فأما الزبد فيذهب جفاء وأماما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال . أشهد أن لا إله إلا الله محق فسق الجاهلية وظلمات الكفران بنور الحق وهداية الإيمان : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد الباطل وأهله ، ونصر الحق وحزبه ، فعليه من ربه أفضل صلاة وأزكى سلام ، وعلى آله ذوى الخير والبر ، وأصحابه السابقين إلى التقى والفضل ، وأتباعه القائمين بدعوة الفضيلة والرشد : « أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقرر الأطباء والعقلاء أن « الوقاية خير من العلاج » ، والوقاية هي حفظ النفس مما يؤذيها وإبعادها عما يضرها ، وإنما كانت الوقاية خيراً من العلاج لأن الحيلولة دون وقوع الداء توفر الكثير من الجهود والمتاعب ، ولأن سد الباب على العلة أسهل بكثير من معالجتها بعد أن تتمكن وتنحكم ، ونحن نستطيع ببسر أن نصمد الكثير من الآفات إذا جاءت تريد الدخول ، ولكننا قد نفشل في القضاء عليها إذا فتحنا أمامها الباب وسمحنا لها بالدخول . والقرآن الكريم يشير إلى مكانة الوقاية وأهميتها حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . وحيث يقول على لسان

(١) الجمعة ٤ رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٥٨ م .

حملة العرش في دعائهم للمؤمنين : « وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم » ، والله سبحانه يجعل وقايته للمؤمنين من الشر والسوء منة كبرى عليهم فيقول : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » .

والوقاية قريبة في معناها من والتقوى « ، لأن التقوى اتقاء واجتناب وسد للذرائع وحذر من الشبهات ، وهي ترك للمعصية واصبر على الطاعة والإخلاص فيها ، وهي جعل النفس في وقاية من كل مخوف ، فهي إذن وقاية وابتعاد عن أسباب الشر والفساد وتمسك بأسباب الهدى والرشاد ، ولو أردنا أن نصف دين الإسلام بوصف وجيز مركز لقلنا إنه « دين التقوى » ، وحسبنا أن مادة « التقوى » قد ذكرت في القرآن الكريم ما يقرب من مئتين وخمسين مرة ، والله قد وعد من وقى نفسه السيئات وحرص على الصالحات بالأمن والسعادة : « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . والقرآن يحدثنا بأن المتقين قوم حذرون متنبهون ، فإذا لحقهم شيء لا يليق بهم من وسوسة الشيطان سارعوا بسد الطريق في وجهه لأنهم أهل بصيرة وإيمان : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . فهل نأخذ نحن بمبدأ الوقاية في حياتنا الفردية أو الجماعية ؟ . . .

لقد قابلني أناس فرحوا بالقرار الحكيم الذي اعتبر بيع الصور النسائية العارية جريمة ، وألغى القرار العجيب القائل إنها فن وتنمية للذوق وليس فيها ما يخل بالآداب ، وقد نشرت جريدة « الأهرام » بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٥٨ خبر هذا القرار الذي قال إن قرار حفظ التحقيق « لا يتفق مع نصوص قانون العقوبات الذي اهتدى بأحكام الشريعة في بلد نص دستورها على أن الإسلام دين الدولة . والدين الإسلامي — بل جميع الأديان السماوية لا تبيح تصوير

النساء العاريات ، ولا تميل إلى جعلها سلعة للبيع والشراء ، كما أن القانون يعاقب على حيازة الصور المنافية للآداب بقصد الاتجار ، ولا يمكن القول إن حيازة هذه الصور إحياء للفن والعلم » وجعل هؤلاء يقولون لى : لقد أفلحت الحملة الدينية على هذا الفجور ، فكنت أبادلهم تهنية ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أسبح بخاطرى فى أفق أوسع ومجال فسيح . . . كنت أتساءل : فم كان هذا العناد واللف والدوران والجهود الضائعة والأصوات الثائرة ؟ ولماذا لا نمنع الشر إلا بضجة وبعد مدة ، ولماذا لا نستجيب للحق إلا بعد زوبعة ؟ . . . لقد طالت مثلاً قصة هذه الصور حتى سخفت وسمجت ، وضج الناس منها ، وكان من السهل الميسور أن نتقيها فنسد عليها الباب من أول الطريق ومنذ البداية : . . . إن المجرمين قد استباحوا لحوم النساء وصوروا منها هذه الصور العارية ، ثم طبعوا منها آلاف النسخ ، ثم باعوها ووزعوها ، ثم ضج الناس بالشكوى ، ثم قبض على بعض البائعين للتحقيق ، ثم أفرج عنهم وحفظ التحقيق ، ثم ثارت ثائرة الذين يغارون ، وأخيراً أعيد التحقيق ، ولا زلنا فى انتظار النتائج . . . لماذا كل هذا يا قوم ؟ . . . لماذا نلعب وندور ونتعب ونتعب ، وفى النهاية نعود إلى البداية ، وهى أن الأخلاق لا بد لها من قوامين ، وأن الدين لا بد له من حراس ، وأن التحلل داء خبيث ، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن الحق لا بد له من قوة تحميه وتدافع عنه ، وأن أكثر الناس عبيد العصا لا يسمعون ولا يطيعون إلا بخوف ورهبة .

ولقد استشهد القرار — زاد الله واضعه توفيقاً وغيره على الدين والأخلاق وهو رئيس النيابة فى شمال القاهرة — بالنص الوارد فى الدستور وهو أن « الإسلام دين الدولة » ، وأصارحكم بأننى تطلعت إلى هذه الجملة مرات بعد مرات لأنأكد من وجودها ، ولأنأكد أن معناها الذى أفهمه هو نفس المعنى الذى يفهمه واضع القرار . . . إذن فالإسلام دين الدولة . . .

إذن فقانوننا يهتدى بأحكام الشريعة كما جاء بالقرار . . . إذن فمخالفة الإسلام مخالفة للقانون ، إذن كل من يعمل على هدم ركن من أركان الإسلام أو مبدأ من مبادئه يكون خارجاً على هذا القانون ويستحق الجزاء والعقاب . . . هذا والله كسب كبير ومغرم عظيم إذا آمنا به وطبقناه وحرصنا عليه ، وهذا يقتضي منا أن نقول إن محاكمة بائع هذه الصور ليست هي كل شيء ، إن على الدولة هنا واجباً أكبر وأوسع ، إن من واجبها أن تعرف صاحبات هذه الصور ومصوريها وطابعيها وبائعيها ورؤساء توزيعها ، ثم تؤدب هؤلاء وتهذبهم . . . إن الدولة إذا أرادت أن تتعقب مجرماً وأخلصت في ذلك فعلت الأعاجيب ، وأذاقت هذا المجرم الوبال والنكال ، والذين يشيعون الفواحش والرذائل في الأمة مجرمون ، مجرمون بشهادة القانون وبشهادة حراس القانون ، لأن هؤلاء المجرمين يحاولون هدم الكيان الاجتماعي والأخلاقي والديني ويحطمون مقومات الأفراد ومعنوياتهم ، ويضعفون روح الأمة وأخلاقيها ، فهلا تعقبتهم الدولة كما تتعقب سواهم من المطلوبين لحسابها وعقابها ؟ ! . .

ولست هذه الصور المباعة في الشوارع هي كل ما يشكو منه الأخيار في هذا الباب . . . فهناك غيرها كثير . . . هناك صور عارية وشبه عارية ، وفاضحة وشبه فاضحة ، وجارحة وشبه جارحة ، ووقحة وشبه وقحة ، ومجرمة وشبه مجرمة ، تنشر هنا وهناك في لوحات الإعلانات ، وفي النشرات ، وفي المجلات الداعرة ، ومن هذه الصور ما هو أشنع وأفظع من صور النساء المباعة ، فهذه هي مجلات التحلل والانحلال تنشر علينا فاجر الصور بالآلاف وعلى أوسع نطاق ، فأين أعين الرقيب التي تحاسب على القتل والقطمير ؟ . . ولم يؤخذ بالعقاب كل محرض على الإخلال بالآداب ، وكل هادم للأخلاق وكل متطاول على الدين والعقائد ؟ . . . أتخشونهم ؟ فالله أحق أن نخشوه إن كنتم مؤمنين » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . من خلال الظلام يبرز الفجر
الوليد ، ومن بين السحب المتوالية تطلع الشمس الضاحية ، ومن وراء الليل
مهما طال يأتي صباح جديد ، وهذه أشعة خير تلوح فينا ، ومن واجب كل
منا أن يشكر الإصلاح وأن يستزيد منه ، وفي كل يوم يرينا ربنا جل جلاله
أن الحق سيظل حقاً مهما قل متبعوه ، وأن الباطل سيظل باطلا مهما كثر
مشايعوه ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز واتقوا الله الذي أنتم
به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوسط الثابت^(١)

الحمد لله عز وجل ، مهد للإنسان وأقام في طريقه المعالم : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، له دعوة الحق وشرعة الصديق : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبي الرحمة ، والدليل إلى النعمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك الذين آمنوا : وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من عيوب المجتمع الإسلامي المعاصر أن جمهرة كبيرة من أبنائه انطلقت على وجوهها ، بعد أن تفلتت من قيود عقيدتها ودينها ، فهي تتصرف وتعمل دون أن تقيم وزناً أو اعتباراً لأمر الحلال والحرام ، فهي تأكل كما تأكل الأنعام ، وتشرب شرب الهيم ، وترتع في كل مرعى وبيل بلا حساب ، وبجوارها قلة محدودة متدينة ، ولكنها قد تنحرف في تفكيرها ، فتحسب أن التدين لا يصدق إلا إذا كان فراراً من الحياة ، وعزلة من الناس ، وانهماكاً في أداء العبادات القولية فقط ، مع أن معنى العبادة العام يتسع وينفسح في الإسلام حتى يشمل كل عمل تقوده النية الطيبة لإصلاح الدنيا أو الآخرة حتى إن معاشرة الرجل لزوجته معاشرة جنسية تعد عملاً يؤجر عليه صاحبه ويثاب من الله إذا نوى به إعفاف نفسه وزوجته والحصول على النرية . وهكذا نرى أننا نضيع بين التفريط وهو التقصير في الأمر ، والإفراط وهو

(١) ألفت بمسجد الزفامي يوم الجمعة ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ١٦ ديسمبر سنة ١٩٦٠ م .

تجاوز الحد فيه ، وهذا ناشئ عن الضلال والجهل ، ولذلك يقول الإمام على رضى الله عنه : لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً « أى مسرفاً أو مقصراً ، وإذا رجعنا إلى كتاب العربية الأقدس ودستور الإسلام الأعلى وهو القرآن ، وجدناه يذكر مادة التفريط والإفراط في مواطن الدم والعيب ، وينفيها عن كل صالح أو مصلح ، فهو مثلاً قد جعل من وصف الملائكة أنهم معتدلون مستقيمون فقال فيهم : « وهم لا يفرطون » أى لا يتوانون ولا يقصرون ، وأنعم به من وصف يتحلى به الملائكة عباد الله المكرمون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويقول على لسان موسى وهارون عن فرعون : « قال ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ، وقال عن المشركين : « لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » أى متروكون في تضييع وإهمال كالشيء المتناثر المهمل ، ويقول القرآن : « أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله » ويقول : « قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » ويقول القرآن الكريم : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » أى كان أمره مختلاً لا اعتدال فيه ولا استقامة ، بل فيه اضطراب واختلال ، ونستطيع أن نستحضر صورة كوز النرة ، وقد انتظمت حياته في سطور واتساق ، ثم نستحضرها وقد صار فرطاً فتنائرت حياته هنا وهناك ، وبهذا الاستحضار ندرك ما في الانفراط من ضياع وانقلاب من قانون النظام والاعتدال ، وهو أمر لا يرتضيه الإسلام في شئون الدنيا أو الدين ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن المنبت (أى المسرف في سيره) لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » وقالت أم سلمة لعائشة : « إن رسول الله نهاك عن الفرطة في الدين » أى مجاوزة العدل .

وهذا صحابي جليل يسمى حنظلة يقول للرسول : « يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنه رأى عين ، فإذا خرجنا من

عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات (أى اشتغلنا بهذه الأمور) فنسينا كثيراً ، فقال الرسول : والذي نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى حين الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وطرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . أى ساعة لربك وساعة لنفسك . والمهم هنا هو أن يتماسك الإنسان ، فيكون له من صلابة عوده وحسه ، وتجمع روحه ونفسه ، ما يحول بينه وبين الضعف فإذا سبق به اللهو أو النسيان أو الخطأ إلى هفوة ، تنبه من غفلة ، واعتدل بعد اعوجاج ، وسارع بالندم الماحى ، والاستغفار المطهر ، لأن ربه تبارك وتعالى يقول : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا والله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» . فالمهم أن يمضى الإنسان فى طريقه وثقاً بربه ، مستمسكاً بمبادئه ، ثابتاً فى خطواته ، قد تعصف الريح فتميله يميناً أو شمالاً ، فى تجربة أو ابتلاء ، ولكنه يسارع فيستعبد توازنه بعد قليل ، يعاود المسير فى ثقة وثبات وإيمان .

وهذا التوسط أو الاعتدال هو الصفة الأساسية للأمة الإسلامية المحمدية العابدة الماجدة ، التى تؤدى واجبها نحو خالقها ، ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، بل هى تعمل لدنياها كأنها تعيش أبداً ، وتعمل لأخرها كأنها تموت غداً ، كما جاء فى الأثر ، والله تعالى يقول : «وكنلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» ويقول : : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : «إن الدين يسر» . ويقول : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين» ويقول «خير الأمور أوسطها» والشاعر يمدح علماً من أعلام هذه الأمة بحسن جمعه بين الدنيا والدين فيقول :
فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

والمهم ألا يتحلل المرء أو ينحل . لأن التحلل انطلاق من القيود ، وانعتاق من الحدود ، واتباع للهوى ، ومن بلغ هذا الدرك فعل كل شيء ولو خالف العقل أو المنطق أو الخلق أو الدين ، لأن المنطق على وجهه بلا رابط ولا ضابط يفقد الصفة القوية التي تهديه ولا ترديه ، وهي صفة الحياء ، وإذا ضاع الحياء من الإنسان انقلب إلى شيطان خبيث خسيس ، والعامية تقول عمن يكون مثلاً من أمثلة الفجور والفسوق : « هذا إنسان لا يستحي » وهم قد استمدوا هذا المعنى من قول سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . . .

ولكى يسلك المرء طريق الرشاد والاعتدال والاستقامة بلا افراط أو تفريط ، ويلزم له أن يكون صاحب قلب مستقر مطمئن قد ربط الله عليه برابط النعمة والحكمة والثبات والتوسط ، والمالك نجد القرآن يقول عن الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » ، وقال عن أم موسى : « إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .

ويقول للصادقين من العباد في الجهاد : « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ويطلب من المؤمنين أن يتحلوا بالمrapطة وهي المشاورة على الإيمان والجهاد في سبيل الله فيقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وربط الله على القلوب معناه إعطاؤها شدة العزم وقوة الصبر ، لأن خور النفس يجعلها كالشيء المتداعى المتناثر : « وكان أمره فرطاً » . ولذلك أراد الله من أمته أن تكون في تماسك وترباط ، في أوقات السلم وأوقات الحرب ، فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »

وجعل الرسول الأفراد كلبينات تكون بذياتاً مترابطاً فقال : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقريب من هذا الربط معنى تثبيت الله لعباده الأخيار ، والتثبيت هو التقوية والتأييد ، حتى يكون الإنسان ثابتاً قادراً غير مضطرب ، والقرآن يقول : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » . ويقول : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » ويقول : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » . وكل هذا تذكير بالتماسك الفردي والجماعي ، وبالثبات على طريقة مثل لا إفراط فيها ولا تفريط .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وإذا كان دين الله يضيع بين قوم معرضين مفرطين ، وقلة تتعنت أو تشتت ، فإن من واجب الأمة المؤمنة المستضيئة بنور ربها وهدى كتابها أن تتلاقى على الطريق الوسط الذى لا عوج فيه ولا تقصير ولا إسراف : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ضعف الشعور بالتبعة^(١)

الحمد لله عز وجل ، وهب العقل وطالب بالتفكير ، وأعطى القوة وأوجب العمل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . أشهد أن لا إله إلا الله هو الذى يراقب ويحاسب ، ويثبت ويعاقب « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حمل الدعوة ، وأدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وأصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

يا أتباع محمد عني الصلاة والسلام . . .

إن نزعة التواكل في المجتمع عيب من عيوبه العميقة ، ومصيبة من مصائب الكبرى ، لأنها ناشئة عن ضعف الشعور بالتبعة وقلة الإحساس بالمسؤولية ، وإذا تغفلت المرء من واجبه ، وتخلص مما يلزمه أداؤه أو النهوض به ، فقد أصبح عضواً فاسداً ، وصار كلاً على قومه وعيئاً على مجتمعه . والواقع أن نزعة التواكل هي التي تضيع الحقوق ، وتفسد الأمور ، وتقوّم دعائم الإصلاح ، فترى الشخص قادراً على عمل الخير ولكنه يتكلم فلا يعمل ، ويطالبه دينه أو وطنه أو خلقه أو إنسانيته بواجب صغير أو كبير ، ولكنه يتجاهل ويهمل ، ولقد تذهب لقضاء حاجة هي من اختصاص شخص معين فيحيلك على آخر ، والآخر يقول إنها ليست من اختصاصه ، ويحيلها إلى ثالث ، وهكذا تدور المسألة وتدور ، يلتوى طريقها ثم يلتوى ، وقد تقضى بعد تعب وإرهاق ،

(١) الجمعة ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٣١ أكتوبر ١٩٥٨ م

وقد لا تقضى أبداً ، ولو أدى كل شخص واجبه وقدر تبعته لقضيت الحاجات وتمت الواجبات فى نطاق واتساق . . .

وبسبب هذه النزعة أيضاً تخاذل الكثيرون عن الإصلاح الفردى والجماعى ، فالشخص يزعم لنفسه أنه غير مسئول عن هذا وذاك ، وأن المسئول سواه من المجتمع ، ولكن ، ممن يتكون هذا المجتمع ؟ إنه يتكون منى ومنك ومن الثالث والرابع وهكذا ، والجسم يتكون من خلايا ، والبناء يتكون من لبنات ، والمجتمع يتكون من أفراد ، وبصلاح الوحدات تصلح المجموعات وكثيراً ما يتعلل الفرد فى إهماله لواجباته وأعماله بإهمال غيره ، ولكن الخطأ لا يبرر ، ولو تعلل كل مهمل بإهمال سواه لما بقى فى الدنيا حوافز للخير ، أو دوافع للتماسك ، لأن الإهمال لابد أن يقع بصورة ما ، هنا أو هناك ، من هذا أو من ذاك ، فإن البشر خطاءون ، وهم ليسوا بمعصومين ، ولكن العقلاء يجعلون وقوع الخطأ لوناً من ألوان العظة والاعتبار ، فهم يحرصون على الحذر منه والابتعاد عنه ، ويحاولون ما استطاعوا تصحيح الخطأ وتغيير المنكر والتعاون على البر والتقوى ، ولا يتعللون بقولهم : هذا من واجب الدولة أو الحاكمين أو العلماء أو غيرهم ، بل يتذكرون قول رسولهم : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » ، وإذا كان من الحق أن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، وأن الرعاة والدعاة يتحملون تبعات ضخمة أمام الله وأمام الناس ، فإن من الحق كذلك أن كل فرد له واجب ، وعليه تبعه ، ومنهج الإسلام فى هذا المجال هو أن يبدأ المرء بنفسه ، وأن يشغلها أولاً وقبل كل شيء بواجبه وإصلاح عيبه ، وأن يتقدم إلى العمل وحمل التبعة قبل أن يسأل عن تأخر سواه أو إهمال غيره ، فالله جل جلاله قد علم نبيه صلوات الله عليه أن يبدأ بنفسه ، فجاء فى القرآن الكريم : « قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على

بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، فالرسول في ميدان العمل يستجيب بذاته أولا ومن ورائه غيره من الأتباع والأنصار : « أنا ومن اتبعني » .

نقول مثلا إن التبرج الفاضح شئ لا يليق بالمسلمين ، فيقول قائل : علاج هذا من واجب الدولة ، وهو يحتاج إلى قانون ! . . وكيف والأمر يعالج أولا وقبل كل شئ في البيت من الداخل ، فلولم يكن الأب متحلا لما ترك ابنته تحل شعرها وتطلق فيها للريح ، فهي كل يوم مع خدن ، وفي كل ليلة تذهب إلى السينما مع رفيق . . . ولو لم يكن الزوج متحلا لما سمح لزوجته بأن ترقص مع صديقه ، أو تسكر مع رفاقه ، أو تستحم في البحر مع معارفه وهي شبه عارية ! ! . .

ولإذا استجاب الإنسان لخالفه وواجهه فلن يضره تخلف المتخلفين أو إهمال المهمين ، لأن ربه يقول : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . أي الزموا إصلاح أنفسكم واشتغلوا بتطهيرها من عيوبها ونقائصها بما شرع الله لكم . ولا يضركم ضلال غيركم إذا اهتديتم لأنه لا تزر وازرة أخرى ، ونحن لا ننسى هنا أن الاهتداء إلى صراط الله يشمل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » :

ومن العجيب أننا نسمع الداعية يردد كلمة الخير أو عبارة التوجيه ، فلا نسارع بالاستجابة ، ولا نستفيد بما يقال من حق وصدق ، بل نبرع في التعلل والتخلص من التبعة ، وقد نطالب الداعية وحده بتنفيذ ما يدعو إليه ، كأنه بترديده لدعوة الخير قد صار هو وحده المأمور بها المسئول عنها وعن تحقيقها وتطبيقها ، مع أنه في الحقيقة فرد يهتف بدعوة إصلاح ليذكر بها ويوجه إليها : والله يقول لرسوله « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم

بمسيطر » ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أتى وجدها ، أو من أى وعاء خرجت » والمسلم الحقيقى هو الذى يعتبر بما يقال ولا يتعلل بإهمال من قال ، فرب حامل توجيه إلى من هو أكثر منه توفيقاً فى الاهتداء به ، وهذا لا يتعارض مع علمنا بأن العظة تؤثر تأثيرها البليغ إذا صدرت ممن يلتزمها ويتقيد بها ، وأن الذين يعظون الناس ولا يتعظون هم أشد جرماً وأعظمهم إثمًا ، والله يقول : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ؟ . ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . والشاعر يقول : يا أيها الرجل المعلم نفسه هلا لنفسك كان ذا التعليم ؟ ! وذلك لأن ذنوب هؤلاء على جنوبيهم ولن يحاسبنا ربنا يوم القيامة عن ذنوب الذين قالوا ولم يفعلوا ، أو الذين وعظوا ولم يتعظوا ، وإنما سيحاسبنا عن أعمالنا نحن ، وسيعاقبنا على عدم الاستجابة لكلمة الحق ولو أنها خرجت من فم مجنون ، أو صدرت عن لا يتقيد بها ، ولقد كان معاوية يقول للناس : « أيها الناس ، لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا يا أحسن ما تسمعون منا » والأول يقول :

اعمل بقولى ، وإن قصرت فى عملى ينفعك قولى ، ولا يضررك تقصيرى

وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز وضوان الله عليه يرشدنا إلى أن الإنسان قد لا يكون كاملاً ولا مستقيماً من كل وجه . ومع ذلك يعظ وينصح ، وأنه لو توقفت العظة على الكمال فلا تصدر إلا من كامل لوقع الحرج وضاع النصيح والتوجيه . يقول : « لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، وإذن لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض » ! .

ولو أن كل إنسان تعلل فى إهماله وتفريطه بإهمال غيره وتفريطه لما بقى

عامل الخير ، ولا مجاهد في سبيل حق ، ولا متمسك بهدى ، لأن الناس لا بد أن يوجد فيهم مهملون ومفرطون ، ولكن شعار المسلم هو أن يعمل ما وجب عليه وما سئل منه ، فهو أولاً يدرس ويعرف ، فيعتقد ويؤمن ، ثم يثق ويوقن ، ثم ينطلق في ميدان العمل ، لا يورثه تخلف المتخلفين ، ولا يصدده تحلل المتحللين ، بل يؤمن بأن الحق سيظل حقاً مهما قل متبعوه ، وأن الباطل سيظل باطلاً مهما كثر مشايعوه ، وأن المسلم يعرف طريقه إلى الله ، فلا يضيره جهل الآخرين به أو تجاهلهم له ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يكن أحدكم لمعة ، يقول : أنامع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » . . .

وحينما قال الرسول لأصحابه : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء . سألوه : ومن هم يا رسول الله ؟ فأجاب : الذين يصلحون إذا فسد الناس . . .

وما أعظم الأنس الروحي الذي يحسه الرجل الغريب بحقه ودينه في دنيا الباطل وعالم الإلحاد . . . إنه غريب حقاً ، لأنه لا يسايرهم ولا يتحلل معهم ، ولكنه في دنيا التقوى والإيمان غير غريب ، بل هو أنيس ومن الله جد قريب لأنه خالف الناس وهو على يقين من رأيه وعمله ، فهو في عالمه الذي يرحب به ويأنس له ، والناس بالنسبة لهذا العالم هم الغرباء ، وفي هذا يقول الشاعر :

قال لي صاحب : أراك غريباً بين هذا الأنام دون خليل
قلت : كلا بل الأنام غريب أنا في عالمي وهذا سبيلي !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر جيداً أنه في فترات الانحلال وأوقات الاختلال يكون التماسك الفردي مفتاحاً لإبقاء الخير واستعادة مكانته القائدة السائدة بعد قليل من الزمن

أو طويل ، ويكون الثبات على العقيدة لوناً كريماً من ألوان الجهاد في الله والثقة به والإقبال عليه ، دون مبالاة بمن غير وبدل أو تولى أو عرض : « فإن توأوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » فلنستمسك بديننا ، ولنثبت على عقيدتنا ، نكون من المفلحين « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وليتذكر كل منا قول ربه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . فعملك وحدك هو الذي ينفعك ويشفع لك ، وهو الذي يجعله ذريعة أمامك ورصيдаً بين يديك ، وذخراً عند الله ، وهذا العمل هو الذي ستره يوم تلقى الله جل جلاله ، وسيحاسبك على أساسه وبمقتضاه إن خيراً فخير . وإن شراً فشر « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . . . » واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

تدرج ومتابعة^(١)

الحمد لله عز وجل ، خلق الحياة وزان بها الأحياء ، ورسم لها طريق السعادة والهناء ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الصلاح والإصلاح ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والمستمسكين بهديه وسنته : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد أخذ الإسلام يتدرج في نقل الناس من حياة الجاهلية إلى حياة الإيمان خطوة خطوة ، ومرحلة بعد مرحلة ، وظل جبريل الأمين يغدو ويروح بين ربه ونبيه ثلاثة وعشرين عاماً . يحمل ما يحمل من القرآن الكريم ، تبييناً لقلب الرسول ، وتوطيداً لدعوته :

والآي تترى ، والخوارق جمّة جبريل رواح بها غداً
وفي ختام التنزيل جاءت آية التمام والكمال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . والتدرج المستمر هو سنة الحياة ، يكون الإنسان في رحم أمه ، فيتطور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تكسى به العظام ، إلى خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم يخرج الجنين إلى الحياة وليداً فطفلاً فيافعاً فشاباً فكهنلاً فشيخاً يرد إلى أرذل العمر ، والنبات

(١) الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ أول ديسمبر سنة

كذلك يمثل قصة التدرج فالبنرة تلتق في الأرض ، وتسقى بالماء ، فتشق التربة وترج وتنمو شيئاً فشيئاً فيكون لها ساق أو جذع ، ثم يمتد إلى فروع ، والفروع إلى أغصان وأوراق ، ثم تأتي الأكمام والبراعم ، ثم يكون الحصاد ، والطباع والعادات في نفس الإنسان بتدرج مستمر وتتابع خطوات ، يتكلف الإنسان العادة من العادات ، أو الخلق من الأخلاق ، ونشعر بتعب أو صعوبة أول الأمر ، ثم يتطبع به شيئاً فشيئاً حتى يعتاده ، ثم تصبح العادة فيه وكأنها طبيعة مكيّنة مستقرة في نفس صاحبها وصدوره .

والله جل جلاله حين خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أراد وهو القادر على كل شيء ، والقاتل للشيء كمن فيكون — أن يقول لنا بالرمز والإشارة إن الله العلي الكبير الذي يقدر على إيجاد السموات والأرض بمجرد تعلق إرادته وقدرته بإيجادها ، والذي لا يحتاج إلى زمان لإبداع ما يريد ، قد جعل خلق السموات والأرض على ستة أيام لكي يتعلم العباد منه أن كل عمل له وقت وله زمن ، ولكي نحسن أداء العمل على وجهه ينبغي ألا نتعجل في أدائه ، وإلا جاء غير ناضج وغير سليم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه » . وإذا كان العمل يستلزم وقتاً ، فيجب أن يكون هذا الوقت مناسباً لهذا العمل ، لا ينقص عن اللازم فيقضى على جودة العمل وإتقانه ، ولا يزيد عن حده فيؤدي إلى الكسل والتراخي ، أو إلى تأخير الأعمال عن مواقيتها التي يجب أن تتم فيها ، وسبحان من قال : « وكل شيء عنده بمقدار » .

فلنأخذ من سيرة الدعوة الإسلامية في بدئها وصدورها عظة وعبرة :
بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بتكليف من ربه ، فيأخذ أولاً في تحرير الحياة والأحياء من ضلال الإشراك وعبادة الأصنام ، ويأخذ في نشر

(م ١٨ - خطب ج ٢)

أضواء التوحيد ، ويظل السنوات الطوال يجاهد الكفر والوثنية ، ويوطد دعائم الإيمان الوجدانية ، ويظهر المجتمع من رواسب الماضي وردائل الجاهلية ، وكانت أغلب جهوده منصرفة إلى تلك المهمة الكبرى خلال ثلاثة عشر عاماً قضاها في مكة قبل الهجرة ، ولذلك تحدثت أغلب السور المكية عن إثبات الوجدانية ومجاهدة الوثنية وتحرير القلوب والعقول من الآثام والأوهام ، ولما تمت الهجرة ، وبدأ المجتمع الإسلامي في التكون أخذت الأحكام والتشريعات تتوالى منظمة لشئون الفرد والجماعة والعلاقات المختلفة من مادية ومعنوية ، داخلية وخارجية ، وإذا كانت الصلاة هي العبادة التي فرضت قبيل الهجرة ، فإن الصوم والزكاة والحج وبقية العبادات قد فرضت ونظمت بعد الهجرة ، فقد بلغت الأمة حينئذ سن الرشد ، واجتازت مرحلتى التحرير والتطهير ، وبدأ عهد التكليف والبناء والتعمير .

وهذه هي الخمر مثلاً كانت ذائعة متمكنة من المجتمع الجاهلي ، وجاء الإسلام وهي تعرف طريقها إلى أكثر البيوت وأكثر من فيها ، فأخذ الإسلام السبيل إلى تحريمها والقضاء عليها مرحلة بعد مرحلة ، ففي أول الأمر يلفت القرآن الأبصار والبصائر إلى ما فيها من أضرار أكثر مما يجلبونه فيها من منافع ظاهرية أو صورية ، فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما لثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . وتدرج التشريع القرآني في طريق التحريم العام للخمر فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » وأوقات الصلاة متقاربة ، والإفاقة من سكر حدث بينهما غير ميسور ، فشرها إذن من الذين يصلون غير ميسور ، ثم جاء الحكم النهائي الأزلى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، إنما يريد الشيطان

أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » .

والإسلام حين يسن قاعدة التدرج والمتابعة في البناء والإصلاح لا يريد أن يقنع أهله بالزاد القليل أو البناء الضئيل ، بل هو يريدكم عمالقة في الخير والبناء والإصلاح ، ولكنه يريد في الوقت نفسه أن يحقق كل منهم في ذاته صفات هذا العملاق الجدير بالتشديد والتعمير ، وأن تحكموا وضع حجر في موضعه من البناء الشامخ الضخم ، وأن يتابعوا خطواتهم على الطريق ، فهم لا يقطعونها بالوقوف ، ولا يزهدونها بالاعتساف ، وصدق الرسول حين قال : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وحين قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وفي الوقت نفسه يقول : « إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها » والإسلام في هذا الباب يضع أمام الناس المثل الأعلى في قبة الحياة ، ويحرضهم على السير نحوه ، ومتابعة الخطوات لبلوغه ، وكل واحد منهم يبذل غاية جهده لينال من قرب هذا المثل الأعلى ما يستطيع ، وكل ميسر لما خلق له ، ولذلك نجد القرآن في موضع يقول : « اتقوا الله حق تقاته » فيجعل هذا مثلاً أعلى تبلغه الصفوة ، وقال في موضع آخر : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيجعل هذا تحريضاً على متابعة الخطوات في باب التقوى بقدر الاستطاعة ، حتى يبلغ المؤمن القمة يوماً أو يدانيها ، وهي تقوى الله حق تقاته ، بأن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، فالمنهج مرسوم ، والعمل مطلوب ، والإتيان لازم ، ومتابعة الخطوات صفة المحسنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنما يثمر التدرج إذا صحبته المتابعة ، وإنما يجدى العمل ولو كان محدوداً
إذا لزمته المداومة ، والأمة المؤمنة تستلهم معالم رشدتها ، وحوافز خيرها
وصلاحها ، من دينها وتاريخ دعوتها وأعلام إسلامها ، فتستضيء بنور ربها
الذى أشرقت له الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة : « صبغة الله ومن
أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

أخيار وأشرار^(١)

الحمد لله عز وجل ، فيه العطاء وفيه الرجاء : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، الباقي الذي لا يزول ، الدائم الذي لا يحول : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ناصر الحق وداعى الخير * بالمؤمنين رءوف رحيم . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وشيعته وأصحابه وأنصار دعوته : « وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك كثير من الناس لا يزالون يظنون ظن السوء بالدين ، فيحسبونهم مجموعة من القيود والحلود . أو الاصفاء والاخلال . أو الكبت والحرمان ، مع أن الدين سماحة وسهولة وتيسير ، والقرآن يقول : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . والدين يدعو إلى تهذيب النفس البشرية وتطهيرها ، مع تمكينها حظوظها المعقولة ورغباتها المقبولة : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق . . . » . وهناك كلمة بليغة رائعة للصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليهما تقول فيها : « ما تتمتع الأشرار بشيء إلا تتمتع به الأخيار وزادوا عليه رضى الله » . وهذا حق من صميم الحق ،

(١) الجمعة ٢٨ صفر سنة ١٣٩٤ هـ ٢٢ مارس سنة ١٩٧٤ م .

فإن الله العلي الكبير الذى يمقت الشر وأهله ، وتؤاخذ به ويعاقب عليه ، يرتضى الخير وأهله ، ويهديهم ويصلح بالهم ، وقد أعلن أن الخير هو طريق الفلاح والنجاح ، وأن الشر هو طريق الخسار والدمار : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . وأرشد إلى أن الإنسان إذا اهتدى بهدى ربه ، فإنه يمشى به إلى جميل العواقب ، ولو حمل نفسه على شيء مما تكرهه أو تضيق به : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وكل من الأشرار والاخيار فى هذه الحياة يتمتعون كما تحدثنا الصديقة بنت الصديق ولكن شتان بين تمتع وتمتع ، إن تمتع الأشرار تمتع وبيل متصدع ، فيه الإثم والانحراف ، فيه الاعتساف والإسراف ، وفيه القلق وسوء المصير : « ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » ، « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . إما تمتع الأخيار فتمتع عاقل فاضل ، وفيه الامتثال والاعتدال ، وفيه الهدى والرضى ، « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ، « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، « كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » . وهذا التمتع السليم القويم هو الذى يناسب كرامة الإنسان الذى رفع الله شأنه وزكى قدره حين قال : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ، وكأن القرآن المجيد يشير إلى عقد مقارنة بين التمتع الرخيص الدانى ، والتمتع الكريم السامى حين يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم قائلاً : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين

أمتنعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

وهناك مجموعة من الملذات يستمتع بها الإنسان على وجه من الشر ففسوء عاقبتها وتخبث ثمرتها ، ولكن لو استمتع بها على وجه من الخير لكانت نعمة وبركة ، فهذه مثلاً لذة العلم ومتعة المعرفة والاطلاع ، يستغلها الشرير للتخريب أو التدمير ، ولكن الإسلام يدعو الأخيار إلى ممارسة هذه المتعة على وجه كريم طيب ، فيقول القرآن : « وقل رب زدني علماً » ويقول الحق جل جلاله « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال الرسول عليه الصلاة والسلام ، « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .

وهناك لذة البصر والمشاهدة ليستغلها الأشرار في التطلع إلى العورات ، والتطاول على الأعراض والحرمات ، وإلى بواغث الشهوات ومحرضات الفتن ، وأما الأخيار فيتمتعون بلذة النظر في ملكوت الله العلى الكبير : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويتمتعون بها في مشاهدة كتاب الله المنظور وهو الكون الطويل العريض : حيث يتمتعون بمشاهدة الأنهار والبحار والأشجار والأطيار والثمار : ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

وهذه صفة السماع تفسدها الأشرار عن طريق التحلل والتفسخ والفجور ، والاستماع إلى الفحش وبنى الغناء ، ولكن الأخيار يتمتعون بهذه اللذة في استقامة واعتدال ، ودينهم يرتضى لهم هذا ، فالرسول يقول : « الله أشد آذاناً (أى استماعاً) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » . ولقد استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى الأشعري وهو يقرأ القرآن دون أن يراه أبو موسى ، فأعجب النبي بقراءته وقال له

فما بعد : « لقد أوتيت مزامراً من مزامير داود » فقال له أبو موسى : لو أعلم يا رسول الله أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً . والإسلام لا يأبى على المسلم أن يستمع إلى الغناء ما دام عفيف اللفظ شريف المقصد .

وهذه لذة الجنس يتمتع بها الأشرار عن طريق الفحشاء والإثم ، فتسور العواقب وتتكاثر المصائب ، ولكن الأخيار يتمتعون بلذة الجنس من طريق شريف طهور ، يرتضيه الدين والعقل والمجتمع ، وهو طريق الزواج ، وفي هذا يقول القرآن : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ويقول القرآن عن عباد الرحمن : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » .

ولذة الأكل يستغلها الأشرار بإسراف واعتساف حتى تسبب التخمة والمرض ، ولا يفرقون بين طيب وخبيث ، ولكن الأخيار يتمتعون بها في نطاق الحلال والطيب : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، « كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » . ولذة التنافس بين الناس يباشرها الأشرار بإجرام وعدوان وانحراف ، ولكن الأخيار يتنافسون في الطاعة والبر وخدمة الناس والجهاد « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ويقول القرآن « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها كلمة بليغة عميقة قالتها الصديقة بنت الصديق : « ما تمتع الأشرار بشئ إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضا الله » فليُنظر كل منا أين يجب أن يكون : أمع الأشرار أم مع الأخيار ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

طريق الخلود^(١)

لله الحمد ، هو أعدل الحاكمين ، وخير الوارثين ، يقلب الليل والنهار .
ويقدر الآجال والأعمار ، وما عند الله خير للأبرار ، « والباقيات الصالحات
خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ، نشهد أن لا إله إلا أنت تضع الموازين القسط
ليوم القيامة ، فتخسف بالجبارين ، وتعطي الصالحين مقاليد الكرامة ، وهكذا
لا تضيع أجر من أحسن عملاً ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك
الذي كره الخلود في دار الهوان ، واختار ما عند الله من نعيم وإحسان ، وإن
الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه
وعلى آله الباقيين بذكراهم على ممر الليالي والأيام ، وأصحابه المائتين بتاريخهم
كالشواهد الأعلام ، وأتباعه المستمسكين بعروة وثقى لا تنال ولا تضام ،
ومن يكن الرحمن ناصره فقد فاز فوزاً عظيماً ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

تعارف الناس على أفكار خاطئة في تخليد الذكر وإبقاء التاريخ ، فهم
يظنون أن العلو في الحياة بالسيطرة والجاه ، والتحكم في عباد الله ، وحيازة
الكثير من الأموال والأولاد والأتباع ، والحديث المستمر الموصول عن
النفس والذات ، والاسراف في المديح والشكران والثناء ، هو كل ما يؤدي
بهم إلى الخلود ، والبقاء بعد الممات على أفواه العباد ، وتراهم لا يكتفون
بما يصطنعون لأنفسهم في حياتهم من وسائل التخليد والأدكار ، بل يبيتون
من يعمل للتذكير بهم بعد وفاتهم ، فينصب هؤلاء الأئخلاف لأسلافهم

(١) الجمعة ١٢ صفر سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٢ ديسمبر
سنة ١٩٤٩ م .

الجنائز العظمى والمآتم الكبرى ، والعزاء الشامل والرثاء المتواصل ، وبينون لهم الأضرحة ينفقون فيها الآلاف ، وينصبون لهم التماثيل واللوحات ، وغير ذلك من وسائل ومصطنعات ، ومع كل هذا لا تتخلف سنة الله ، فما هي إلا عشرات من السنين أو أقل من ذلك ، حتى تنتقل أسماء أولئك العظماء المحبوبين إلى قائمة النسيان ، ما داموا لم يقدموا من العمل الصالح أو السعى الناجح ، أو الجهاد المرير أو الخير الكثير ، ما يحرض الجماهير ويدفعها إلى ذكرهم وتخليدهم عن طوعية واختيار ! . . .

وعلى النقيض من ذلك ترى في التاريخ أشخاصاً لم يكن لهم سطوة أو سلطان ، ولم ينعموا بإمارات أو تيجان ، بل كانوا أفقر الناس وأقلهم مالا ، وأهونهم شأنًا وأضعفهم رجالاً ، ومع ذلك أمدتهم الله بعونه ، ونفخ فيهم من روحه وجعلهم من أجناد كلمته ، فباعوا نفوسهم رخيصة لبارئها ، وعافوا النوم والراحة ، وانطلقوا في سبيل الله سعاة دائبين ، يجاهدون ويتناضلون ، ويهلدون ويرشدون ، ثم أسلموا أرواحهم هادئين بلا طبل أو مزمار ، وبلا تجميع أو تشييع ، وبلا رثاء أو بكاء ، ولكن يد الله التي لا تغلب ، رفعت لهم في العالمين ذكراً ، وأبقت لهم بين الخالدين أثراً ، ودالت دول ، وبادت ذكريات طواغيت ، ثم طلب سير أولئك المجاهدين الصادقين الموقنين شمساً لا يخفيها سحاب ، ولا يطمسها حجاب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ! . .

من أمثلة أولئك الخالدين رغم أنوف الجبارين أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه . . . رجل فقير قليل ضئيل ، يقبل وحده إلى رسول الله عليه صلوات الله من مكان بعيد ، فيسلم بين يديه بلا تردد ، والكفر شامخ البنيان متطاوّل الأركان ، وينصحه الرسول بأن يعود إلى قومه ، ويبشر بينهم بالإسلام

سراً حتى يأتي أوان الإعلان ، فيأبى المسلم المتوقد أن يكتم نورا أشرق في قلبه ، فيصرخ بكلمة التوحيد ودعوة السماء ، بين شياطين الوثنية وعمالة الإشرار ، ويتألب عليه أولئك الكلاب الأوغاد ، فيضربونه ويعذبونه ، فلا يفتنه ذلك عن دينه ، بل يعاود الهتاف بكلمة الإيمان ، فيعاوده التنكيل والعذاب ، فيرضى كأنه يسقى الرحيق من الشراب ، ثم يتقلب أبو ذر إلى قبيلته غفار ، فيظل يدعو ويرشد ، حتى يسلم بسببه نصفها ، ويسعى النصف الآخر ليسلم على يدي الرسول ، ويظل أبو ذر مثال المسلم العامل والمؤمن الكامل ، والمجاهد الناصح لله ولرسوله ، ولعامة المسلمين وخاصتهم ، حتى يشهد عهد عثمان رضوان الله عليه ، فيرى المال وقد أخذ يتدفق في جيوب المسلمين ، والترف وقد بدأ يدب فيهم دبيب الداء في الأعضاء ، والحرص على الشهوات والملذات ، وقد صار يغالب الحرص على الشهادة في المواقف والغزوات ، فهتف بدعوته الاشتراكية الإسلامية التي ليست بشيوعية مجرمة ، ولا فوضوية أثيمة ، بل صوت منذر محذر ، يعلو به لسان الزاهد الغيور ، حين يرى أمة محمد ، وقد أخذ الترف والنعيم والمال والشح ، يمسح فيها معاني الفتوة والقوة والتضحية والإيثار ، فجعل أبو ذر يتلو في المحامع والمحافل : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعلاب أليم ، يوم يحى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فلو قوا ما كنتم تكتزون » . . . وظل يدعو إلى فكرته الجريئة الحازمة بين عنت المعارضين وتعويق المجادلين وإيقاع المغرضين ، حتى سعى السعاة به إلى عثمان ، فأمر بنفيه إلى قرية « الربرة » لتقطع صلته بالناس حتى لا يجد من يدعو به إلى فكرته ، وأصدر عثمان أمراً بأن لا يكلمه أو يشيعه أو يتبعه أحد ، وهو خارج إلى عزلته ومنفاه ، وتخوف الناس فأطاعوا ، وأمر عثمان مروان بن الحكم أن يتولى ترحيل أبي ذر ، حتى لا يتصل به أحد ، ولكن

على بن أبي طالب وأخاه وولديه وعماراً خرجوا يودعونهم ويشيعونه ، وقال له على يثبت فؤاده ، ويقوى عماده :

« يا أبا ذر ، إنك غضبت لله فارح من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الراح غداً ، والأكثر حسداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، واو قرضت منها لأمنوك » ! . . .

وهناك في قرية « الربرة » لاقى أبو ذر آلام العزلة والوحدة ، ومصائب الجوع والفقر ، وتبعات الأسيرة والأولاد ، وأهوال الانقطاع عن التبليغ والدعوة إلى الله ، والتذكير بحقه وحق عبادته ، وما زالت الأيام تلح عليه بكملها وهولها مجاهد وعليها صابر ، حتى مات ميتة رخيصة في نظر الناس ، إذ أسلم روحه الطاهرة على قارعة الطريق العام ، دون أن يجد بجواره من أصفياه أو أحبائه من يتولى أمره أو يهيء جدته ، ودون أن يستطيع أهله القيام بتشييعه ودفنه ، حتى مر عليهم جماعة فيهم عبد الله بن مسعود ، وكانوا على سفر ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه ، وخيل إلى الذين تزلزلت قواعدهم شحهم وكنزهم من دعوة أبي ذر الصريحة الجريئة ، أن هذا المصير من هوانه على الله ، أو من أسباب نسيانه بين الناس ، ولكن طاشت أحلامهم ، فأبو ذر هو الذي قال فيه محمد : ما أظلت الغبراء ولا أقلت الخضراء أصدق لهجة ولا أوفى من أبي ذر ، وقال فيه : إنه يسعى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ، وإذا كان لم يجتمعوا لتجهيز أبي ذر وتكفينه ، فقد تولى ذلك ولدان

التعيم و حور الفناديسى ، وإذا كان لم يحمل على الأعناق أو على العربات
فقد حملته أجنحة الملائكة وشيعته عباد الرحمن المكرمون ، وإذا كان لم يقيم اه
سرادق ولا ضريح ولا تمثال ولا تأبين ، فقد أقيم له أكرم من ذلك وأعظم في
قلب كل مسلم غب للعدالة والقسطاس ، وإذا لم يكن له جدث كبير يزار ،
وتنثر حوله الأزهار ، فإنه حى بذكراه وهداه في صدر كل غيور على
الحقوق والحرمات وسيمر بالدنيا جبارون وعيارون ومتسيطرون وسسيكسبون
ما يكسبون ، ويحتالون لتخليد ذكراهم بما يحتالون ، ثم يرحلون فتسحقهم
أقدام الإهمال والنسيان ، لأن عظمتهم الكاذبة قامت على الجبروت والطغيان ،
والاستبداد الأثيم بحقوق الإنسان ، ثم تبقى بعد ذلك ذكرى الهداة والدعاة
المرشدين الفقراء ، عاطرة باهرة في سائر الأوقات والأرجاء ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أشخاصنا الحسية لا ميزان لها في التاريخ أو سجل الخلود ؛ فلنصل
أسبابنا بواهب المجد والثناء ، ولنقذف بأرواحنا في لجة دعوته وخضم شريعته ،
لنكسب من حمة الطهارة والصفاء ، والرفعة والعلاء ، ولنعرض مترفعين عن
تمجيد من لا يستحق التمجيد ، مهما اصطنعوا من تهويل أو تخليد ، ولنذكر
على الدوام قوماً سقطوا من أجلنا وأجل خالقنا وفي أيديهم اللواء ، فذلك أولى
بالمُنصفين من الرجال ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين
اتقوا ، والذين هم محسنون .

وجهة الخير^(١)

الحمد لله عز وجل ، أباح لعباده الطيبات ، وضاعف لهم النعم والخيرات وأدخلهم بمقاصد العزائم والنيات ، ونظر إلى القلوب والأرواح ، لا إلى المظاهر والأشباح : « إنه علم بذات الصدور » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يبغض الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويحب من الأمور ما استعلن منها وما سكن ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ابتغى حبه ، وآثر بابه ، فكان إمام المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلوة والسلام :

إنما الأعمال بالنيات ، ونية المرء خير من عمله ، وغايته أهم من وسيلته ، وكم من مظاهر تفر بيريقها وتخدع ببهرجها ، ومن خلفها أشياء مفعجة وحقائق مروعة ، وكم في الحياة من أمور تسير بلاضجة أو إعلان ، ولكنها تضم الخير الوفير والنفع الكثير ، ونواحي العيش في الدنيا مزيج عجيب من الخير والشر ، والصلاح والفساد ، وأغلب الأشياء لها وجهان ، أو لها حدان : يؤخذ الأول فيكون آلة تطهير ، ويؤخذ الثاني فيكون معول هدم وتدمير . والمسلم الصحيح الإسلام يستطيع بإخلاصه في نيته ، ونبله في غايته ، واتجاهه دائماً إلى ربه ، أن يستخلص على الدوام عصارة الخير من مواقف الدنيا وأعراض الحياة ، كما يمتصرها من مواقف الدين وظروف العبادة ، فإذا أكل الغافلون كما تأكل الأنعام ، ورعوا في حقول اللذات كما ترعى الأغنام ، وضلوا في شعاب

(١) الجمعة أول ذي القعدة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٦ أبريل سنة ١٩٦٢ م .

الإسراف بلا انتظام ، أقبل المسلم على الحياة لإقبال الربيع ، يحيل الجذب
 خصباً ، والترب ذهاباً ، والملح الأجاج ماء عذباً ، فهو يأخذ من الدنيا
 ويعطيها ، ويتمتع بطبيعتها دون أن يذل لدواعيها ، ويلمح النور حتى بين
 الظلمات ، ويحس الغبطة حتى في الأزمات ، ويستخرج وجهاً للإحسان والحكمة
 حتى فيما تعارف الناس على أنه من السيئات ، ومثل المسلم حينئذ كمثل الصوفي
 المخلص الذي سمع أحد الناس ينشد قوله :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
 ولا تشرب بأقداح صغار فلأن الوقت ضاق عن الصغار

فزلزل زلزلاً شديداً ، وأحس كأنها نفخة الصور ، أو كأنه مأخوذ
 محصور ، فلا فوت ولا فرار ، ولا فرصة للتعويض أو الاستدراك ، بل
 ضيق في الآجال ، وتراكم في الواجبات والأعمال ، فما ذكر حين سمع ذلك
 إلا خمرة الإيمان التي تنسيه الدنيا بما فيها ومن فيها ، وتغمره في رحاب خالقه
 الأعلى وتصره بأنوار بديع السموات والأرض ، ولعل صاحب الشعر حين
 أنشده خمرأً دنيوية مسكرة ، وأكواباً حسية قلدة ، ولكن المؤمن الذي يطوى
 قلبه على نية الخير . ولا يرى في الأمور إلا وجهات النور ، أخذ المعنى على
 أن العمل القليل في حق الله لا يكفي ، وأن الاغتراف من ينابيع الطاعات
 وبحار القربات ، بأكواب صغار وأقداح ذقاق ، لا يليق بالعمر القصير
 والسفر الطويل والحساب العسير ، وإذن فلا بد من الاجتهاد في الطاعات ،
 ومضاعفة الحسنات ، والانتهال من شراب الصلاح والتقوى . وسلاف الرشاد
 والهدى ، وهكذا لله في خلقه شئون ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا
 الخيرات ، كما يقول القرآن الكريم .

وهذا مؤمن آخر ، قد وثق أسبابه بربه ، واحتمل كل ما يلاقيه أو يعانیه
برضا وتسليم ، وسمع قائلاً يقول :

أيدركنى ضيم وأنت ذخيرتى وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرى ؟
عار على راعى الحمى وهو قادر إذا ضاع فى اليبدا عقل بعير !

سمع المؤمن هذا فلم يتصور راعياً حسيباً فى مرعى ، ولا صحراء ذات
طول وعرض ، ولا عقلاً لبعير قد ضل أوضاع ، بل استحضر فى عقله
وقلبه وروحه قدرة الله تعالى التى شملت كل شئ* ، وسلطانة الذى سيطر
على كل أمر ، ورعايته التى عمت كل حى ورحمته التى وسعت كل مخلوق
فأمن بأن الله هو الواهب الخلاق ، وأنه الحافظ الرزاق : وما من دابة فى
الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب
مبين » ، « إن ربى على كل شئ حفيظ » .

وهذا مسلم متبصر آخر ، يدخل على قوم يسمعون لحناً يطربون بنغماته ،
ويهيجون عند وقفاته ، ولا يعبأون بالمعنى أو لإرشاداته ، فأخذ يسمع بإذن
غير آذانهم ، ويهيم فى واد غير واديهم ، فهو مع المعانى الجليلة يدور ،
وباللمحات السامية يضىء قلبه ، وما كاد يسمع الحن يقول عن شرعة الرسول :
والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى ، والحقوق قضاء

حتى فاضت به شجونته ، وأخذ يقرع أسمع من حوله ، بما تنطوى عليه
هذه الألفاظ القلائل ، من تصوير بديع رائع . للأصول الأساسية والدعائم
الأولية التى نهضت عليها شرعة القرآن ودعوة السماء وهدى محمد ، والتى
ارتفعت فوقها جدران المجتمع الإسلامى الفاضل الرشيد ، فدين الإسلام لين
لا شدة ، وتيسير لا تعسير ، وتخفيف لا تعنيف : « لا يكلف الله نفساً

إلا وسعها » ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « فإن مع العسرا يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا وقاربوا » ، « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » إلى غير ذلك من النصوص والآثار .

وولاية المسلمين خلافة رشيدة حميدة ، تقوم على البيعة الطيبة الخالصة وتنهض على الجدارة والاستحقاق من جهة صاحبها ، والرضا والاتفاق من جهة معطيها ، وبذلك يتوافر في الأمة تبادل الثقة وتعاون الجميع ، وأمر المسلمين يقوم على التناصح والتشاور ، لا على التحكم أو الاستبداد : « وأمرهم شورى بينهم » ، وبذلك أمر نبيهم من ربهم حين قال له : « وشاورهم في الأمر » وغير النبي أولى بالخضوع لمفهوم ذلك التنزيل ، فلا إطلاق للهوى أو الرأي أو الاختصاص في الإسلام ، بل الأمر كما قال سيد الأمة ونبي الملة محمد عليه الصلاة والسلام : « المسلمون متكافأ دماؤهم ، ويسعى بلمتهم أديانهم وهم يد على من سواهم » . . . وحقوق الأفراد والجماعات المشروعة محترمة مصونة ، كأنها قضاء مقدس لا يمس ولا يبدل ، فحقوق كل فرد في الإسلام يجب أن تصان له ، بل يجب أن تحمل إليه ، لا أن يتعب هو في سبيل الحصول عليها . . . وهكذا استطاع ذلك الداعية باتجاهه إلى وجهة الخير أن يقلب المكان من حلقة صغير وتصفيق ، وإعجاب بالنغمات والنبرات ، إلى رحبة اذكار واعتبار ، والمقام هو المقام ، والكلام هو نفس الكلام ! .

وهناك كثيرون من العامة يسمعون آيات الله اليبينات فلا يفهمون منها إلا سطحي الفهم أو قليلة ، ولا يجاوزون ذلك إلى قريب أو بعيد ، بينما يفهم العلماء الأتقياء والمؤمنون المتدبرون من كلام الله الموجز المعجز ألواناً من (م ١٩ - خطب ج ٢)

الفهوم والمعاني تهديهم إلى رقائق من العبادة وفضائل من العمل ، حتى قال أبو سليمان الداراني : « ربما جاءت الآية خمس ليال (أى يديم النظر فيها) فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبداً ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل ، فسبحان الذى يردده بعد ذلك » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المهم هو أن يقصد المسلم وجه ربه ، وأن يسمو في مقاصده وأهدافه ، فيلتمس من كل موقف ثمرة ، ومن كل مقام ناحية خير أو إحسان ، ويومئذ سيكون عابداً لله قانتاً ، حتى في طعامه وشرابه ، وزينته وثيابه ، وإن لله عابداً تجملهم النية الطيبة والقصد الشريف فيحيلون كل شئ في أيديهم حثيث إلى ركاب جثث الخطا يدينهم . من رضا الله الرحمن وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الدم والمال^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الواهب للحياة الرازق للأحياء ، أحده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بعثه ربه ليظهر القلوب ويزكي النفوس : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعترته ، السابقين إلى دعوته ونصرته ، والمستجيبين لهدية وسنته « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك شيئان أعظهما الإسلام مزيداً من الحصانة والصيانة والاحترام بين الناس ، وفي الوقت نفسه دعا إلى الجود بهما والمساواة لبلطهما وعدم التردد في التضحية بهما في سبيل الله والحق والواجب ، وهذان الشيئان هما الدم والمال وعجيب أمر هذين الشيئين ، إن كلا منهما محمود ومذموم ، فهو يشبه سلاحاً له حدان ، يستعمل أحدهما فيفيد ويثمر ، ويستعمل الآخر فيخرب ويدمر . فالمال الطيب في اليد الطاهرة المستقيمة نعمة وأى نعمة ، وبركة أى بركة ، ولذلك يقول الرسول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . والمال الخبيث في اليد الخبيثة مصيبة وبلوى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، « أهلكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . وكذلك شأن الدم إن الدم الزكى المعصوم له حرمة وكرامته ، وإن جوانب الأرض تهتز إذا اعتدى معتد على هذا الدم . « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا الدم يصبح حيناً على صاحبه المؤمن إذا طالبه ربه ببذله وتقديمه :

(١) الجمعة ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ هـ ٨ يونية سنة ١٩٧٣ م

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
ولقد أشار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى حرمة الدم والمال
حين قال : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وحذر القرآن
الكريم من الاعتداء على الدماء ، فقال : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون
دماءكم » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى خطورة سفك الدماء :
« أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » . ويقول : « لا يزال الرجل
فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » ويقول : لو أن أهل السماء وأهل
الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار » .

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . وحتى فى موقف القصاص
طالب القرآن بالاعتصار على قتل القاتل فحسب ، ونهى أن تسال قطرة دم
واحدة من غير القاتل فقال جل جلاله : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه
سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » . ولكن هذا الدم المصون
يطالب الله ببذله وتقديمه هيناً رخيصاً فى سبيل الحرية والعزة والكرامة ،
ولذلك كرر القرآن المجيد الأمر بالمجاهدة بالنفس ، وتماهى هذا يكون بالاستعداد
للمجاهدة حتى درجة الاستشهاد ، ومن أمثلة ذلك قول الله سبحانه : « انفروا
خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم
تعلمون » ، وكأن الإسلام قد أراد أن يعود المسلم على رؤية الدماء وهى تسيل
فى قربة من القربات وطاعة من الطاعات ، فشرع الذبائح فى الفدية والهذى
والأضحية ، وقال القرآن : « فصل لربك وانحر » . ومجد النبى صلى الله
عليه وسلم مكانة الدم الذى يراق فى سبيل الله ، فقال : « ليس شئ أحب إلى
الله من قطرتين : قطرة من دموع فى خشية الله ، وقطرة دم تهاق فى سبيل
الله » . ويصور النبى الدم الذى يسيل من جسم المجاهد الشهيد بأن لونه عند الله

لون الدم ، ولكن ريحه ريح المسك ، وهذا كناية عن عظيم الأجر وجليل الثواب .

وكذلك شأن المال ، لقد أمر الإسلام من جهة بتجنب الاعتداء على أموال الناس ، أقوياء كانوا أم ضعفاء ، أقرباء كانوا أم غرباء ، فقال القرآن المجيد « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » ، ويقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » ويقول : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » . ويقول : « ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » . وفي الوقت نفسه حث الإسلام على بذل المال في وجوه الخير والبسر ، فقال القرآن : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . وقال « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . ويقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ويقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

ومن لطيف التوجيه الإسلامي نحو العزة والكرامة أن الله تبارك وتعالى يرشدنا إلى أن هناك ميدانا هو أحق الميادين بأن نبذل فيه الدماء والأموال معاً ذلك هو ميدان الجهاد في سبيل الله ، فتكرر أمر الله جل جلاله بالجهاد بالأموال والأنفس ، والجهاد بالأنفس يتضمن التضحية بالدم حتى درجة الاستشهاد ، ومن ذلك قول الحق عز شأنه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » . وفي عصور الإسلام المزهرة النيرة ، كان المسلمون يعرفون جيداً كيف

يحافظون على أنفسهم ، وكيف يصونون دماءهم ، وكيف يذكرون حق الذكر قول نبيهم : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » ، ومع ذلك كانوا يسارعون عند صيحة الفداء ودعوة الفداء إلى بذل دماهم رخيصة هينة ، وإلى تقديم أرواحهم ضحية طيبة ، مرددين شعارهم القرآنى الجليل : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وكان هؤلاء المؤمنون العاملون يعرفون جيداً كيف يكسبون المال ، وكيف يقتصدون منه ، وكيف يتفقهون في وجوه الخير والبر ، على طريق وسط معتدل ، ضابطه قول ربهم : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

ثم خلف من وراء هؤلاء الأماجد خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فإذا هؤلاء الأخلاف السوء يذلون في أنفسهم حتى ذلوا على الله وعلى الناس ، وسيطر عليهم الجبن والهلج ، فلا يعرفون سكينه أو طمأنينة ، وإذا بذلوا دماءهم فلأنما يسفكونها بطريق غير مباشر في مذابح الشهوات وظلمات الأهواء والملاذات « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » . وإذا هؤلاء الأخلاف يكسبون الكسب الحرام ، ويجمعون المال الحرام ، ويضمنون به على حقوق وواجبات يدعون لإيها ، وإذا بذلوه فلأنما يبذلونه على شهوات الأخاء اللثام ، ثم يشحون به عن ميادين الحق والخير والبر : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنما المسلمون — حسباً أنذر الرسول — حين حرصوا على طوال البقاء في الدنيا وضمنوا بدمائهم على الجهاد ، وحين شغلهم الحياة بما لها ومتاعها عن متابعة المسير في الصراط المستقيم ، والرسول

قد قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .
قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال بل أنتم حينئذ كثر ، ولكنكم
غشاء كغشاء السيل ، ولنزاعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن
في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال حب الدنيا وكراهية
الموت » وباب العودة إلى الماضي الكريم ما زال مفتوحاً ، مصراعاه أموال
تؤخذ من حل وتنفق في خير ودماء تصان عن الذل وتبذل في سبيل العزة :
« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

دين ودنيا^(١)

الحمد لله عز وجل تكفل لعباده بالنعمة ، وأوسع لهم أبواب الرحمة :
 « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد
 أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . أشهد أن لا إله إلا الله ،
 كتب العاقبة للمتقين ، وضمن السعادة للمحسنين : « الذين إن مكناهم في
 الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ،
 والله عاقبة الأمور » . . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من شكر ربه
 وأدى واجبه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ،
 « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أراد أحد العقلاء أن يصور طرفي الخير والشر في هذه الحياة ، فقال :
 ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
 وهو يريد أن يقول إن خير الناس من وفقه ربه ليحسن الجمع بين دينه
 ودنياه ، وبين تقواه وغنائه ، وإن شر الناس من يجمع بين الفقر والكفر ،
 أو بين خراب الدنيا وخراب الآخرة ، لأنه ليس بعد الكفران ذنب ، ولأن
 الفقر المنحرف يدفع الإنسان إلى بلا وسيئات ، ولذلك قال الرسول صلوات
 الله وسلامه عليه : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، إذ ما أجمل أن يصلح

(١) الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

الإنسان في نفسه وخلقه، ثم يكون بين يديه مال طيب صالح ينتفع منه وينفع به . والمجتمعات المنحلة تصاب عادة بطائفتين منحرفتين تعملان على هدم الطاقات الإنسانية وتشويه المواهب البشرية ، وتقويض الدعائم الخلقية والاجتماعية ، والطائفة الأولى منهما هي طائفة الأثرياء المترفين المنحلين الذين لا خلق لهم ولا دين ، ففي أيديهم ثروة ، وفي نفوسهم شهوة ، وفي أرواحهم ظلمة ، وعندهم استخفاف بقواعد الإيمان ومبادئ الدين ، فهم ينطلقون على وجوههم ، بلا حدود وقيود ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويشربون كما تشرب الهيم ، ويفرقون في المآثم والمملدات ، دون أن يؤدوا واجباً لله أو الناس أو الوطن ، وقد يما قال الحكيم :

إن الفراغ والشباب والجددة مفسدة للمرء أى مفسدة

والطائفة الثانية هي طائفة الصعاليك المفاليك ، الذين استمرأوا الكسل والبطالة والتشرد ، دون مال يملكونه أو عمل يؤدونه ، فليس بأيديهم ما يقيمون به كيانهم الاجتماعي على أساس نظيف شريف ، ومع ذلك يطلقون لأنفسهم العنان في مباءات من الفجور والفضلال ، فهم يجمعون بين السوأيتين ، إذ لا يملكون ولا ينتجون ، وهم في الوقت نفسه مخربون لأنفسهم ولغيرهم ، وقد تحتاج أسرة الواحد منهم إلى قروش تأكل بها خبزاً فقاراً ، ولكنه يحرمها ويذهب إلى الماخور فيسكر ، ثم ينصرف إلى مائدة الميسر فيقامر ، ثم يفشل فيه فيستر خبيثته بجريمة يرتكبها أو سرقة يأتيها ، فيكون تلميذاً مطيعاً للشيطان ، الرجيم وتكثر على يديه وأيدي أمثاله الجرائم والأحقاد والعداوات بسبب الخمر والفجور ، والله جل جلاله ينذر ويحذر فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم متبهون ؟ » . . .

والإسلام يريد أهله أغنياء أقوياء ، لا مهازيل ضعفاء ، ولذلك مهد لهم وسائل الامتلاك المشروعة ، وحرصهم على العمل والكسب والربح ، فقال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ووصل الله وقت العبادة بوقت الاكتساب ، فأمر عباده بأن يتوجهوا عقب الصلاة إلى العمل والإنتاج فقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله لعلكم تفلحون » وجاء فى الحديث : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » وفيه أيضاً : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » ، وإنما حرصهم الإسلام هذا التحريض لأنه يريد لهم سادة لا مسودين ، ومعطين لا آخذين ، ومستعيلين لا مستدلين ، ولذلك قال الرسول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقال : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها » .

وما أسعد الرجل المسلم حين يعتدل أمامه طريق الحياة ، فيعمل ويتصعب منه عرقه وهو يعمل فيزكيه هذا العرق ويطهره من فضلات الحس وصمود النفس ، ويكسب الكسب الحلال الطيب ، فيشعر بلذة النجاح والفوز ، وتستقيم يده وهى تنفق من هذا الكسب الكريم ، فيأكل ويشرب ويلبس ، ويتمتع بما شاء من طيبات الحياة ويؤدى الواجب عليه فى ماله نحو الله ونحو الناس ، ويدخر لنفسه ما يحتاج إليه فى غده ، ويقف بين يدى خالقه وموقفه فى محراب الصلاة ومقام المناجاة ، يعبده ويشكره ، ويناجيه ويدكره ، مستزيداً من فضله وتوفيقه ، متذكراً قوله جل جلاله : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . . .

ولإذا كان الإنسان يحصل على المال فى هذه الحياة بطاقاته الذاتية ، وأسبابه المادية . ووسائله المعروفة ، فإنه لا يستطيع أن يصل ويبلغ وينجح

إلا إذا كانت يد الله فوق يده فالله هو الموفق وهو المؤيد وهو الخالق للأسباب والوسائل والطاقات ، ولذلك يذكر الإسلام الناس بأن الأموال التي في أيديهم ليست ملكاً لهم ، بل هي في الحقيقة والواقع ملك لله الواحد الأحد : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » ، وإنما هم خلفاء لله ووكلاء عنه ، ولذلك يقول لهم : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ويسمى المال الموجود عند الناس مال الله ، فيقول : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ، وكان رسول الله يقول : « المال مال الله وأنا أعبدته » . وإذا تذكر المسلم هذا جيداً واعتبر به استمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها ، وسار على الطريق الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه ، وابتعدت نفسه عن دواعي الشح والكرازة ، وانبسبت يده في مجالات الخير والبر ، فاستطاع أن ينفع قومه ووطنه ، بأداء الزكاة لمستحقيها ، وبالإففاق في ساعات العسرة والضيق ، وبنجدة المضطر وإغاثة الملهوف ، وبعمل الإحسان المتعدد الألوان ، كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات ، وإعانة هيئات الخير وجماعات الإصلاح ، وهنا أيضاً الإففاق في سبيل الدعوة الدينية ، ونشر العلوم الإسلامية ، ورفع شأن المسلمين . . .

وبهذه القربات ينال المسلم درجة الغنى الشاكر التي فضلها الكثيرون على درجة الفقير الصابر ، لأن الفقير قد يصبر عزاً أو انتظاراً لجزاء ، ولكن الغنى عنده أسباب اللهو والعبث ، فإذا قاومها وشكر ربه مع غناه كان ذلك دليلاً على صحة دينه وقوة يقينه ، فيستحق عظيم الثواب ممن لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وإذا كان بعض الأديان يقول إن الغنى لا يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط فإن الإسلام الذي أحسن الجمع بين الروحية الواعية والمادية الصافية يجعل الغنى الشاكر أسبق إلى رضوان الله من الفقير الصابر ، وما أكثر أيادي الشاكرين من أغنياء المسلمين في

السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، فلولا أموال أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف لتعطلت غزوات وجهود حققت للإسلام خيراً ونصراً ، وإذا راجعنا تاريخنا الطويل المشرق وجدنا كثيراً من الأعمال الكبيرة والاصلاحات الضخمة قد تمت بتبرعات أفراد مسلمين أغنياء جمعوا بين الدين والدنيا ، ورأوا أن عليهم فروضاً وحقوقاً في أموالهم ، ولم ينتظروا حتى يطالبهم بها مطالب ، أو يرغمهم عليها مرغم ، بل قاموا بأدائها طوعية واختياراً فأرضوا نزع الخير في نفوسهم ، وأدوا حق الله والناس عليهم ، وأشاعوا الرضى عنهم فيمن حولهم ، ومجدوا ذكرهم في حياتهم وبعد مماتهم ، «وسيجزى الله الشاكرين» . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الإسلام دين ودنيا ، وكسب طيب وإنفاق بصير ، فأقبلوا على حياتكم إقبال الأصحاء الأقوياء ، واخلوها أخذ المؤمنين الشرفاء ، واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبداً ، واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

وثيقة صلب المسيح^(١)

الحمد لله عز وجل ، يؤيد الحق وصحبه ، ويخذل الباطل وحزبه : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أشهد أن لا إله إلا الله ، نصير الموقنين وخاذل المقترين : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فضلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يبدو أن خبث اليهود اللثام لا يريد أن يقف عند حد ، فإنهم قد شاهدوا في الفترة الأخيرة من حياة العرب اهتماماً بادياً بفلسطين التي اغتصبها الصهيونية في ليل الدنائة والغدر ، وأن مؤتمر القمة العربي قد اجتمع مرتين ، وكانت أبرز قضية فيه هي قضية فلسطين التي أجمع على العناية بأمرها والعمل لاستردادها جميع الرؤساء العرب ما بين مسلمين ومسيحيين ، فإذا هؤلاء الصهاينة الأبالسة يسلكون طريقاً شيطانياً من طرق لؤمهم وإجرامهم ، ويستخدمون وسائلهم الثعلبية وحيلهم الأشعبية لكي يدفعوا فريقاً من مسيحي أوروبا فيقولوا إن هناك وثيقة مسيحية تنص على تبرئة اليهود من دم المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ويورطون هذا الفريق لكي يستغل مجمعا مسيحياً في أوروبا ، ويدفعه إلى إقرار هذه الوثيقة والتصديق على ما فيها ونشرها بين الناس . وكان هذا السعي اللثيم الخبيث منذ شهور ، ومنذ بدأ أو ظهر أثره أخذت الصحف في الشرق والغرب تتحدث عن هذه الوثيقة ، وتذهب

(١) الجمعة ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٤ م .

مذاهب شتى في أمرها ومصيرها . وأحس أبناء الإسلام بخرج عند إعلان الرأي في هذه الوثيقة ، لأنهم أدركوا أن للموضوع زاويتين إحداهما دينية والأخرى سياسية ، فمن الناحية الدينية نحن نؤمن بأن اليهود لم يقتلوا المسيح عليه السلام ، والقرآن الكريم صريح في ذلك ، حيث يقول عنهم في شأن عيسى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » حيث إن الله تبارك وتعالى قد عمى أممهم أمرهم ، وأفسد عليهم سعيهم ، فألقى شبه عيسى على يهوذا الأثيمريوطى الذى كان في أول أمره من تلاميذ المسيح ، ثم تلون وكاد له ووشى به ودل عليه اليهود ليقتلوه ، فلما ذهب اليهود إلى مكان عيسى ليفعلوا فعلتهم ويضربوا ضربتهم ، وجدوا أمامهم يهوذا الذى جعله الله تعالى بقدرته شبيهاً كل الشبه بعيسى ، فأخذوه وهو يصرخ دون جدوى قائلاً لهم : لست أنا المسيح وإنما أنا يهوذا ، وهم يعتقدون أنه يكذب عليهم أو يسخر منهم ، وأذاقوه الهلاك ، بينما نجى الله تعالى نبيه عيسى ، وتوفاه إليه ، ورفعاه مكاناً علياً .

فاليهود فعلاً لم يقتلوا عيسى ، ولكن ليس معنى هذا أنهم أبرياء ، أو أنهم يستحقون الثبوت ، وكيف وقد أعطاهم الله في أول أمرهم ما لم يعط أحداً من العالمين ، فلم يشكروا ولم يقدرُوا ، فما من نعمة جاءتهم إلا قابلوها بمعصية ، وحسبنا ما ذكره القرآن الكريم من بلاياهم من إنهم قتلوا الأنبياء بغير حق ، وأنهم عبدوا العجل ، وأنهم قدسوا المال ، وأنهم بطروا نعمة الله واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وزادوا في إجرامهم فاتهموا أم عيسى مريم البتول المطهرة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتا نباتاً حسناً ورزقها بغير حساب ، واصطفاهما على نساء العالمين ، اتهموها بأنها زانية وبأنها ارتكبت الفاحشة مع بعض الناس مع أن الله تعالى يمجدها بقوله : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » ، ومن وراء اتهامهم هذا اتهموا عيسى بأنه ابن سفاح ، ولما جاءهم

بألهدى من عند ربهم أعرضوا عنه وكفروا ، به ، ولم يكتفوا بالكفران والإعراض ، بل دسوا عليه الدسائس ، وكادوا له المكائد ، وأثاروا ضده السلطة الحاكمة ، وأوهموها أن عيسى يريد انتزاع الملك منهم لنفسه ، وظلوا في كيدهم حتى أجمعوا أمرهم على قتله ، واتخذوا لذلك ما استطاعوا من الوسائل وشرعوا في التنفيذ ، ولكن الله تعالى شاء أن يرد طغيانهم إلى نحر من يستحقها ، ولولا أن الله حال بينهم وبين الفتك بعيسى لما ترددوا لحظة واحدة في مواصلة المسير على طريق الإثم والإجرام ، فكيف يقال بعد كل هذا إن هؤلاء أبرياء وكيف يتصور عاقل أن تأتي هذه التبرئة من جهة أحد ينتسب إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ١٩ .

وإذا كان كل المراد من هذه الضجة المصطنعة للآرب خسيصة لثيمة هو تقرير أن اليهود لم يقتلوا عيسى ، فالقرآن الكريم الذى تنزل من لدن رب العالمين قد قرر هذا منذ قرابة ألف وأربعمائة عام ، وهناك أيضاً لإنجيل « برنابا » وهو أقرب الإنجيل إلينا نحن المسلمين ، وهو الذى نص صراحة على تبشير عيسى بخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام وهذا الإنجيل يورد بتفصيل قصة محاولة اليهود لقتل عيسى ، كيف ألقى الله شبهه على يهوذا فقتلوه وهم يظنون أنه المسيح ، وهذا الإنجيل قد طبع باللغة العربية فى بلادنا منذ قرابة سنتين بعد أن ترجمه إلى العربية أحد المسيحيين ، فلماذا يقومون الآن بإثارة تلك الزوبعة المسمومة النكراء ؟ .

هنا تأتي الناحية السياسية للموضوع لتتكفل بالإجابة على هذا السؤال ، فقد غاظ اليهود أن يروا العرب المسلمين والمسيحيين يجمعون على أن اغتصاب اليهود لفلسطين جريمة نكراء يجب أن تزول آثارها السود ، وغاظهم أن يدرك المسيحيون أن الإجرام الصهيونى فى فلسطين لم يكن مقصوراً على المسلمين ،

وغازظهم أن يمتلئ أتباع المسيحية كراهية وبغضاً لليهود الذين افتروا على المسيح وعلى أمه مريم ، فأخذوا يستغلون كل عوامل التأثير البادية والخافية ، لكي يجعلوا لهذه الوثيقة مكانة وشأناً ، لعلها تخفف حدة العدواة بين اليهود والنصارى ، وبذلك يتقاربون ويتفاهمون ، ويقفون صفاً واحداً أمام المسلمين وبذلك تهون قضية فلسطين على مر السنين ، وما نظن المسيحيين من البلاهة والغفلة بحيث يقبلون أن يضعوا أيديهم في أيدي الذين وصفوا العذراء بالفاحشة ووصفوا ابنها بأنه من سفاح وإلا فياضية العقل والرشاد .

وإن علينا لواجبا أمام هذه المكيدة ، هو أن نواصل عرض التصوير القرآني لمخازي اليهود وآثامهم وكيف جازاهم الله على إجرامهم بمسخهم قردة وخنازير وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وحسبنا قول الله : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وأن نقابل هذا بعرض التصوير القرآني لتمجيد مريم وتكريم المسيح ، وحسبنا أن الله جعله بفضل يحمي الموتى ويبرى الأكمة والأبرص ، وأن القرآن يقول : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » . ومن واجبتنا أن نخدر أتباع المسيح من الانخداع بهذه المكيدة الصهيونية فلأنها تضرهم وتضر غيرهم في مجال السياسة وهي أيضاً تهدم الأساس الذي يقوم عليه اعتقادهم وإن كنا لا نؤمن به ولا نعتقد فيه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لن نراع كثيراً من أمر هذه الوثيقة من ناحية الدين ، فإن أعلنها أصحابها كان ذلك تكديباً لأنفسهم وتصديقاً للقرآن ، وإن لم يعلنوها فالعدواة باقية على أشدها بين اليهود والمسيحيين ، وهذا مما يفيدنا في معالجة قضية فلسطين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حاجتنا الى أبطال^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . نشهد أن لا إله إلا الله ، وهب الإنسان الملك والطاقة ، وحرّضه على السعى والعمل ، « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صنع الرجال وخرج الأبطال ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الفروع الطاهرة من آله ودوحته ، والسابقين من أنصاره وأهل صحبته ، والقائمين بأمر دينه ودعوته : « فأولئك لهم الدرجات العلى » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . من طبيعة نهضة الأمة أن تتحقق فيها البطولات ويوجد الأبطال .

تحتاج كل أمة إلى بطولات وأبطال ، لأن البطولات أعمال عظيمة جسيمة تبهر النظر وتثير الفكر ، وتوجه الهمم إلى معالى الأمور ومكارم الفعال ، ولأن الأبطال يقدمون دلائل حسية حية على إمكان وجود هذه البطولات في دنيا الحقيقة والواقع ، وبوجودهم يؤمن الناس بأن المبدأ النبيل مستطاع التحقيق ممكن الوقوع ، وحينئذ يقدم الكثيرون على تطلب البطولات والتحلّى بها : وليس من السهل أن يكون أفراد الأمة كلها في مرتقى بطولى سام رفيع ، بل إن العامة كثيراً ما تقنع بالقليل ، فكأن لا بد من وجود ثلة من الأبطال يحرضون غيرهم على التعالى والتسامى ، فيأخذ كل فرد حظه ونصيبه ، ويبلغ كل منهم ما يستطيع من درجة وارتقاء : « ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون » .

(١) الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ١٣٧٩ هـ ١٣ مايو سنة ١٩٦٠ م
(م ٢٠ - خطب ج ٢)

هذه الأمة العربية المؤمنة المسلمة في عهودها المزهرة كثيرة الأبطال كثيرة العالقة من الرجال ، وكانت ذات بطولات في الجاهلية والإسلام ، ففي الجاهلية كان للعرب ألوان من بطولات البيان والشجاعة والكرم ، وإن كان الغالب على هذه البطولات هو العنف والإسراف ، وجاء الإسلام فهذب هذه البطولات وزاد فيها ، وأقامها على سواء السبيل ، ونفخ فيها من روح الله ، بعد أن أزال عن جبهتها غشاوة الجاهلية ، كان هناك قلة من الناس حرصوا على مبادئهم وأخلاقهم في الجاهلية ، ثم اهتموا بنور الإسلام فازدادوا رشداً وتوفيقاً ، والحديث يقول : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » . ولقد صنع الإسلام من أهله في عصورهم الحية المزهرة الناضرة نماذج عديدة مجيدة من الأبطال في مختلف الميادين ، ونستطيع أن نعد عشرات بل مئات من الأبطال الإسلاميين الذين ازدان بهم تاريخ دينهم ووطنهم ، ولم يكن تألق فرد في مجموعة كافياً لكي يسيطر عليها أو يطمس ضوء أفرادها ، بل كان يتألق معه أو إلى جواره هذا وذاك وذلك منهم ، لتعاون الأيدي المتكافئة والمتماثلة أو المتقاربة على صنع المحامد وإتمام المكارم ، فإن الأمم تذلل إذا غلبت على أبطالها صفة الفردية أو صبغة القلة ، وتعز وتقوى إذا تكاثرت فيها الأقران والنظراء منهم وهذه هي المرأة العربية قد فخرت غاية الفخر حين رأت أبناءها الماجدين ماثلين ، لا تستطيع تفضيل واحد منهم على أخيه ، فقالت عنهم وهي مغمورة بنشوة الفخر والإعجاب : « هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » ! .

نعم كان ماضى هذه الأمة عظيماً ولكنها قد مرت بها عصور ظلمات ، وأصابها عوامل هدم وتفتيت ، فقلت هذه الكثرة من الأبطال ، وطافت بالأمة غفوة امتدت وطالت ، ثم استيقظت وهبت تستأنف خطواتها على طريق المجد ، وهي تتجه اليوم أكثر من ذى قبل إلى أبطال ، يمهّدون سبيلها ،

ويحملون تبعاتها ، ويجعلونها أهلاً لفضائل العروبة وموارث الإسلام الضخمة ،
وجديرة بالوساطة الفاضلة بين الناس : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . ولتصير هذه الأمة صاحبة
مصلحة مختارة لحمل أمانة السماء : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من
عبادنا » ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

والإسلام دين يحرض على البطولة ويكرم الأبطال ، ولكنه لا يكرم
لأشخاصهم ولا لذواتهم ، بل يكرم البطولة المتجلية فيهم ، وإذا كان التاريخ
العام قد شهد أمماً تخلد أبطالها بعبادتهم كاليونان ، أو بتحنيط جثثهم كالفرعنة ،
أو بإقامة تماثيل لهم كالأوربيين ، فإن الإسلام يكرم الأبطال تكريماً معنوياً
باقياً ، إنه يكرمهم بتمجيد ما امتازوا به من بطولة ، فهو يكرم هذه البطولة
وينوه بها ويدعو إليها ، وكلما اقتدى شخص لاحق ببطولة بطل سابق ، كان
لهذا السابق أجر وثواب في الإسلام ، بقدر ما هدى سواه إلى البطولة ،
وحرّض غيره على نبل الطريقة ، والرسول يقول : « من سن سنة حسنة فله
أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » .
ولسنا في الإسلام عباد أشخاص وذوات ، ولكننا نعبد الله وحده ، ونمجّد
ما ارتضاه لخير عباده من قيم وفضائل وأخلاق ، فنحن نمجّد محمداً برسائله
ودعوته ، وأباً بكر بإيمانه وتضحّيته ، وعمر بحزمه وصرامته ، وعثمان بحياته
وأريحيته ، وعلياً بإقدامه وشجاعته ، وعمر بن عبد العزيز بزهد وعدالته ،
وأشخاص هؤلاء وذواتهم لا تأثير لها في هذا التمجيد ، فقد يكون لسواهم من
ضخامة الجسم ومتانة التركيب ما ليس لهم ، ولكن عظمة هؤلاء الأبطال تأتي
من جهة أعمالهم وصفاتهم وجهودهم التي ينفعون بها الناس ، ومن هنا خلد
الأدب الإسلامي أبطالاً كثيرين ، لا بصورهم أو تماثيلهم أو ذواتهم ، بل
بسيرهم العاطرة وصفاتهم الحميدة وأعمالهم الباهرة .

ومن فضل الله على عباده أنه جعل البطولات ذات ألوان وأنواع ، فمنها الحسية والنفسية والعقلية والروحية ، ليسلك كل امرئ فاضل طريق بطولة تلائمه وتناسبه و « كل ميسر لما خلق له » كما يقول الرسول ، والإسلام يحرض أمته على مختلف البطولات ، وعلى التنافس فيها بشتى الوسائل ، حتى تضرب المثل العليا لغيرها من الأمم ، فالإسلام يحرض على بطولة العلم والتوسع فيه ما استطاع الإنسان : « وقل رب زدنى علماً » ، وحينما قال القرآن : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » لم يرد لنا الاقتصار على القليل ، بل أثار هممنا لتزويد في هذا القليل حتى يصير بفضل الله كثيراً : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » والحديث الذى يقول : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » يرمز إلى أن بطولة العلم يفسح مجالها إلى مدى بعيد . والإسلام يحرض على بطولة الرحلة والاكتشاف حين يقول القرآن : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وحين يقول : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » حين يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » . والإسلام يحرض على بطولة التقوى والتعبد : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً قِياماً ، « كانوا قليلاً من الليل يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون » ، « نعم العبد ضهيى لو لم يخف الله لم يعصه » . والإسلام يحرض على بطولة الدعوة وهداية الناس إلى الخير : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والإسلام يحرض على بطولة فعل الخير : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ، « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا في دور من أدوار البعث والتجديد ، ومن واجبتنا فيه أن نصلح الفاسد ، ونحرك الهامد ، ونزيد في البناء ، ونعمل للحاضر ، ونعد للمستقبل ، وتلك جلائل من الأمور ، تحتاج إلى رجال وأبطال ، ومن الواجب أن تنهياً في المجتمع الناهض الوسائل المؤدية إلى تكوين هؤلاء الأبطال وتخرجهم ، عن طريق التربية القويمة ، والقدوة الصالحة ، والعقيدة المكيئة ، والإيمان الحافز ، وإتاحة الفرص للملكات والمواهب حتى تتبدى وتظهر ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

التطلع الى المستقبل^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الذكرى عبرة وعظة للمؤمنين البصراء ، وجعل الأمل عدة المستقبل لدى المجاهدين الأوفياء « إن الله مع الصابرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعلم بالمنحة ويقوم بالحننة « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل الحياة أملاً وعملاً ، ورجاء ومضاء : « إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن عمر الإنسان في هذه الحياة الممتدة يتكون من ثلاثة أقسام : أمس واليوم والغد ، وأمس هو الماضي الذي رحل وانتقل بما له وما عليه ، واليوم هو الحاضر الذي يواجهه الإنسان بزمانه وكيانه ، والغد هو المستقبل المنتظر على المدى القريب أو البعيد . والدين الحنيف يرسم للمؤمن الطريقة المثلى التي يتبعها مع هذه الأقسام ، فأما أمس فإنه يتطلب من العاقل الفاضل باسم الدين مراجعة وتقوية ، واستدكاراً واعتباراً ، « والذكرى تنفع المؤمنين » ، والاستفادة من تجارب الماضي سواء أكانت طيبة أم سيئة شعار كل من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، ذلك الرسول الكريم الذي قال له ربه : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » وأما اليوم فإنه الفرصة المواتية التي يجب أن تعمّر باليقظة والجهد والعمل ، ولذلك جاء في الأثر

(١) أذيعت بالتلفزيون يوم ٧ من المحرم سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٥ إبريل سنة ١٩٦٨ م .

الإسلامي : « المؤمن ابن وقته » . وجاء قول الإمام الحسن البصري : « ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنمني وتزود مني ، فإنني لا أعود إلى يوم القيامة » . وأما المستقبل فهو الصفحة المطوية المحجوبة عن الأنظار ، وإن بدت ملامح عن علاماتها لأولى الأبصار والأفكار ، وللمؤمن فراسة تجعله عند تمام إخلاصه كأنه يرى بنور الله عز وجل ، ولذلك نجده يتطلع إلى هذا المستقبل بالرجاء الممد والعزم المجدد ، والتخطيط السديد والتطبيق الرشيد ، مهما كانت مرارة التجربة في الماضي ، ومهما كانت وطأة التبعات في الحاضر ، ومهما احتاج إلى استمرار المقاومة والمداومة على العمل في المستقبل ، لأن ربه جل جلاله يقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وما أروع الأثر الإسلامي الذي يقول إن لله عبادة إذا أرادوا أراد وإنما تزكو إرادة هؤلاء وتعلو بإيمانهم الراسخ ومبادئهم الرفيعة وقيمهم الدينية والروحية والخلقية التي تدفعهم إلى مواقف الأبطال وتمكنهم من جلائل الأعمال .

ولقد تعرض للانسان في حياته متاعب أو شدائد ، فإن استنام لها أو ضعف أمامها داسته بنعالها ، وجعلته إحدى ضحاياها ، وإن أحسن استقبالها ، وأحسن احتمالها ، وأحسن معالجتها ، وأحسن التغلب عليها ، وأحسن التخلص منها ، وقذفها بعيداً عن طريقة وخطاه ، وأحسن المعاودة إلى العمل والنضال ، كان من أصحاب التوفيق الإلهي المجيد في الدنيا والآخرة ، لأن رب الأرباب يقول : « ولنبلونكم بشئ » من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . وهناك من يعكف على الماضي وحده ، يستعيده ويسترجعه ، ويظل يقتات

به ، ويدور حوله في حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها ، فيكون أشبه بدودة
الحرير التي تحسب جهلا منها أن زاداها من الحرير قد نفذ ، لأنه قد تخرج
من جوفها ، وإن أحاط بها ، ثم لا تزال الدودة على ظنها الخاطي الجاهل ،
حتى تموت والحرير من حولها معقود وقريب :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
وشر الناس وأسوأهم حالا ومآلا من لم يعتبر بماضيه ، ولم ينتهز فرصة
حاضره ، ولم يعد العدة لمستقبله ، وأفضلهم من اتخذ من ماضيه رصيذاً
يجدد علمه ، ويشحذ فهمه ، ويقوى عزمه ، ويحذره معاطب الطريق ،
واتخذ من حاضره فرصة ذهبية ينتفع فيها بما جرب في الماضي وتعلم منه ،
ويربط بين هذا الماضي وهذا الحاضر برباط يحث خطاه دائماً إلى الأمام ،
ثم يربط هذا الحاضر بالمستقبل ، بأن يجعل يومه الموجود الآن نقطة ارتكاز
لدرجة يرتقيها في هذا المستقبل المأمول الميمون .

وإذا كنا ما زلنا نعيش في النفع الطيب العاطر لذكريات الهجرة النبوية
الخالدة ، فإن من دروس هذه الهجرة التي لا يخبو لها ، ولا يزول نورها
أن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ذاقوا ما ذاقوا قبل الهجرة خلال ثلاث
عشرة سنة من ألوان المتاعب وأنواع الشدائد التي صبت عليهم صباً من أهل
الكفران والظغيان ، ثم تحملوا ما تحملوا من مخاطر وأهوال ، حتى أتموا
هجرتهم ، التي اضطروا إليها اضطراراً ، وأرغموا عليها إرغاماً ، وتركوا
معهما قطعة عزيزة غالية عليهم ، شهدوا فيها مولدهم ونشأتهم ومعيشتهم ،
ولا يمكن أبداً أن ترخص عندهم أو تهون ، أو تنسى أو تضيع كما لا يمكن
بحال من الأحوال أن توجد عندهم هذه الهجرة الموقوتة شيئاً من اليأس
أو القنوط ، ولذلك ما كادت أقدامهم تستقر على أرض الهجرة في المدينة
حتى تلفتوا إلى المرحلة الماضية من نضالهم ، يتعرفونها ويقومونها ويستفيدون

منها ، ثم أخذوا يخططون ويرسمون ، ثم شرعوا يطبقون وينفذون ، ثم جمعوا ثمرات ما بذلوا : نصراً وأجرأ ، وعزة وفتحاً ، لأنهم « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » . ومن خلال الهجرة المناضلة ، والوقوف الحازمة ، والخطوة المحكمة ، والوحدة الشاملة ، والمقاومة الموصولة ، مهد المهاجرون المغتربون طريق العودة إلى الوطن العزيز ، وطريق النصر للمبادئ التي آمنوا بها ، والقيم التي عاشوا لها ، وتنزل قول الحق جل جلاله : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فلنتطلع إلى المستقبل بإيمان وعزم وثقة ، ما أحلاها كلمة حين تقع في الآذان الواعية ، ثم تباركها المشاعر المستجيبة الحية في القلوب ، ويؤديها الاقتناع الراسخ في العقول ، وتشد أزرها العزمات القوية في الأيدي ، والخطوات الرشيدة من الأقدام ، وتحيط بها الروح الجماعية المتحدة القائمة على الثقة المتبادلة بين الجميع ، ويقود زمامها أولاً وأخيراً الإيمان الوطيد الذي يقبل النصر من خاه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » : واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

نقل القلب (١)

الحمد لله عز وجل ، برأ الكون من العدم ، وأنعم بالحياة على الأمم « وربك يخلق ما يشاء ويختار » أشهد أن لا إله إلا الله ، هل من خالة غير الله ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عزت بدعوته الحياة ، وشرفت بهديه الجباه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أقبل على أحد المتدينين غاضباً ، وقال : أرأيت كيف فجر الإنسان وكفر ؟ أرأيت كيف أسرف في الاغترار والاستكبار ، فزعم أنه قادر على أن يتحكم في حياة الإنسان ، لأنه ينقل قلباً من شخص حديث الوفاة إلى شخص مريض القلب ؟ . فقلت له : هون عليك ، فما زال الإنسان - وسيظل - يتقلب في نعم الله وينتفع بما خلق الله ، والإنسان حين ينقل القلب لا يخلق عضواً ، ولا يبدع حياة ، وإنما يأخذ قلباً خلقه ربه وأبدعه ، ثم ينقله من مكان إلى مكان ، ويبقى سر الحياة والخلق والإبداع بيد الله عز علاه ، وسيظل كتاب الله يردد على مسامعنا قول ربنا « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنفلوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » . فعاد السائل الغاضب يقول وهو ما زال في قلقه واضطرابه : وهل في الدين دليل على أن عملية نقل القلب تجوز في

(١) الجمعة ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٨٨ هـ ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٦٨ م .

الشريعة الغراء ؟ ، فأجبت به بأن الفقهاء القدماء لم يتعرضوا للحديث عن الحكم الشرعى فى مثل هذه الحالة ، لأنها لم تكن موجودة ولا معروفة ، فقد كانت الحياة سهلة غير معقدة ، ولذلك كانت الأمراض قليلة أو مستورة ، ولكن الحياة أخذت تتعقد وتتعمد ، وأخذ الإنسان يسرف فيها ويسرف ، فظهرت علل لم تكن موجودة ، وانتشرت أمراض لم تكن معروفة ، وبقدر ما اخترع الإنسان وابتدع من وسائل الحضارة أو المدنية والرفاهية ، أثار على نفسه ألواناً وألواناً من الأمراض والعلل . فسارع محاورى يقول : إذن هذه العملية لا تجوز . وهى حرام بلا جدال .

فقلت له : لا تهجل ، فإنه ينبغي لنا أن نتذكر أن للدين قواعد عامة ، منها أن كل ما حقق خيراً ومنفعة مشروعة للإنسان يكون حلالاً ، وأن كل ما جلب شراً أو ضرراً بلا موجب يكون حراماً وممنوعاً ، ودفع الضرر عن الإنسان مقصد عظيم تقره الشريعة الإسلامية ، بل ونحث عليه ، لأن المحافظة على النفس البشرية من الأهداف الأساسية للشريعة الغراء ، وقد أباح الفقهاء المتأخرون نقل الدم إلى المريض أو الجريح الذى يتوقف إنقاذ حياته على هذا الدم ، حتى لو كان الدم من غير مسلم ، وأباحوا أيضاً أن تنزع عيون بعض الموقى بقدر الضرورة لتنقل إلى أناس ينتفعون بها ، واستندوا فى هذا إلى القاعدة الشرعية المعروفة : « الضرورات تبيح المحظورات » ، وإذا كان الدم جزءاً من الإنسان ، والعين عضواً فيه ، فإن القلب أيضاً عضو من أعضاء الإنسان ، فلماذا لا يقاس حكمه على حكم غيره من الأعضاء ؟ . فعاد محاورى يقول : ولكن القلب هو مصدر الشعور والوجدان وهو أساس المحاسبة للإنسان فقلت له : إن مبعث الشبهة فى هذا المقام هو أننا نخلط بين معنى القلب الذى يراد غالباً فى لغة القرن الكريم ، والمعنى المادى له ، فالقلب فى لغة علماء الأعضاء ، هو عضو عضلى أجوف بداخل القفص الصدرى ، مخروطى الشكل ،

أو صنبورى الشكل ، ينتظم به تحركات الدم فى الجسم ما بين لإرسال واستقبال
وأما القلب فى لغة القرآن المحيد فإنه يعبر به غالباً عن المعانى التى تخص بوجوده
من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك ، فالقرآن مثلاً يقول : « إن فى ذلك
لذكرى لمن كان له قلب » أى علم وفهم ، ويقول : « وبلغت القلوب الحناجر
وهو يقصد الأرواح ، ويقول : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه »
أى على عقولهم ، وهكذا .

هدأ محاورى بعض الهدوء ولكنه قال : أو معنى ذلك أن نترك عملية نقل
القلب يجريها من يشاء لمن يشاء ؟ أجبت : كلا ، فإزالت عملية زرع القلب
عملية دقيقة خطيرة غير مأمونة ، ولم تحدث هذه العملية إلا مرات قليلة
معدودة فى العالم ، والكثير من هذه العمليات لم تنجح ، وهناك أجسام ينقل
إليها قلب غيرها فلا تقبله ولا تتلاءم معه ، بل ترفضه وتصدده ، وما زلنا
فى حاجة إلى مراحل ومراحل من البحث والعلم والفن ووسائل الاحتياط
المختلفة لنستطيع أن نقول فى ثقة إن عملية زرع القلب قد صارت عملية عادية ،
ولا يجوز التهمج عليها دون حيلة وحذر ، فهناك فيما يرى الإنسان العاقل
شروطاً وقيوداً لا بد من توافرها قبل الإقدام عليها ، فلا بد أن يتأكد الطبيب
أن الظروف ملائمة تماماً لإجراء العملية ، وأن وسائل نجاحها متوافرة ، وأن
يقتصر فيها على حالات الضرورة القصوى التى نحتاج فيها إلى مثل هذه العملية
دون غيرها من طرق العلاج ووسائل التطبيب ، وأن يوافق صاحب القلب
السليم على نقله بعد وفاته إلى غيره ، وأن تكون هذه الموافقة اختيارية صريحة
واضحة ، ثابتة بتأكيد وبرهان ، وأن يقصد من هذه الموافقة نفع غيره بنية
خالصة عمادها احتساب ذلك التبرع لوجه الله عز وجل ، وأن نتأكد من
وفاة الشخص الذى سينقل منه القلب إلى غيره ، لأن بعض الأشخاص قد
يبلغ حالة النزاع ، بل قد يظن أنه مات ، ويصنع به بعض ما يصنع بالموتى

ثم يتنفس وتظهر فيه الحياة من جديد ، ويعيش بعد ذلك طويلا ، وقد تكرر وقوع ذلك خلال التاريخ ، ويشترط أيضاً أن يقبل صاحب القلب المريض أن ينقل إليه قلب سليم ، أن تكون الموافقة صريحة وواضحة واختيارية ، بعد أن يكون هناك عجز تام عن علاج قلبه بأي صورة من الصور ، أو بأي وسيلة من الوسائل ، وينبغي أن نلاحظ هنا أن الطب يتقدم كل يوم ، وقد تكون هناك أمراض للقلب نعجز عن علاجها الآن ، ويوفقنا الله جل جلاله إلى علاجها غداً أو بعد غد ، ويخلق ما لا تعلمون . وهنا هدأ محاورى وسكن وقال : ألا ما أوسع رحمة الله رب العالمين . فقلت له : ينبغي أن نتذكر قول أحد الفقهاء الأعلام : إن الشريعة لا تضيق ذرعاً بحادث جديد ، بل تفسح له صدرها ، ما دام فيه الخير ، وما دام داخلها في نطاق قواعدها الكلية ، ومبادئها العامة ، وصدق العلي الكبير حين يقول : ما جعل عليكم في الدين من حرج .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا تخافوا من تقدم العلم ، فربنا هو العليم ، وقرآننا هو كتاب العلم ، ورسولنا هو نبي العلم ، وربنا الخلاق الوهاب هو الذي يقول : « علم الإنسان ما لم يعلم » ويقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » أفسحوا الطريق لخطوات العلم السليم القويم ، فإن العلم من أوسع أبواب الإيمان ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز ولو شاء لهداكم أجمعين واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حرمة الموت (١)

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى فضائل الأعمال ، وحث على مكارم الفعال ،
« والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ، أشهد
ألا إله إلا الله ، أعز شأن الإنسان ، فجعله خليفته في أرضه ، ومكنه من
خيره وفضله « وكان فضل الله عليك عظيماً » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول
الله ، كان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ،
وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله ، « أولئك الذين صدقوا ،
وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

قرأت في بعض الصحف أن طائفة من أهل أوربة أساءوا التصرف مع
جثة البحار العربي الذي مات في حادثة الباخرة « صلاح الدين » ، حيث
جروها على الأرض في استخفاف وإهانة ، وتركوها حيناً كما ترك موق
الحيوانات في العراء . قرأت هذا فسرى الألم في كياني مسرى الكهرباء في
بنياني ، وقلت : يا نخسة الإنسان حين يتنكر لإنسانيته ، وينسى مكانة
بشريته ، ويتصرف في الحياة وكأنه حيوان أعجم لم تصنعه يد الخالق الباري
المصور في أحسن تقويم ، ولم يقل له حين ينحرف : « يا أيها الإنسان ما غرك
بربك الكريم الذي خلقت فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » ؟ .
ومن هؤلاء الذين يهينون كرامة الميت ، ويسخرون من جثة إنسان لا يستطيع
الاحتجاج أو الدفاع ، فقد مات ؟ إنهم الذين يزعمون أنهم أهل الحضارة

(١) يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر
سنة ١٩٦٣ م .

والمدينة والتقدم ، وأنهم رواد عصر النور والرقى ، ألا ساء ما يزعمون ، وليتهم عرفوا الإسلام العظيم ، وفقهوا تعاليمه واستلهموا مبادئه . إذن لأدركوا أن القرآن الكريم يعلم الناس جميعاً أنهم أسرة واحدة ، تنهى إلى أب واحد وآم واحدة ، فهو الذى يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به الأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » وهو الذى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وليت هؤلاء عرفوا هدى سيد الأنعام محمد عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أبائكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ » والذى يعطى جسم الإنسان كرامة وأى كرامة حين يقول : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه » .

إن هؤلاء لم يحترموا جلال الموت ولا هيئته ، فأين هذا من هدى الإسلام الذى علم الإنسان كيف يكون مؤدباً مهذباً مع الناس جميعاً ، وكيف يتعظ عند الموت ويخشع لذكره ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : مرت جنازة ، فقام لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفنا معه ، فقلنا : يا رسول الله ، إنها يهودية . فقال : إن الموت فزع ، إذا رأيتم الجنازة فقوموا (أى إن الموت له رهبة التى تخشع عندها القلوب ، وتعتبر لديها الأبواب) . وفى رواية أخرى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية ، فمرت بهما جنازة فقاما لها ، فقيل لها : إنما هو من أهل الذمة (أى ليس مسلماً)

فقالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا عليه بجنازة فقام لها ، فقبل له : إنه يهودى . فقال : أليست نفساً ؟ ! . . يا لروعة التعبير ، نعم يارسول الله ، وباسيد الخلق ، إنها نفس لها حرمتها الإنسانية وكرامتها البشرية ، وأنت خير من دافع عن الإنسان ، وحرص على خيره في كل زمان ومكان .

ولقد جاء في فقه الإسلام أن للمسلم أن يغسل الميت الكافر القريب له أو غير القريب ، إذا لم يوجد من أقاربه من يغسله ، وجعل الإسلام للمسلم أن يتبع جنازة قريبه الكافر ، وأن يدفن غير المسلم ، ولقد كان من سنة النبي عليه الصلاة والسلام أنه إذا رأى ميتاً أمر بدفنه ، بلا إهانة أو تحقير ، لا يسأل عنه : مؤمناً كان أو كافراً ، وعقب غزوة بدر أمر الرسول بجمع القتلى من المشركين الذين حاربوه ودفنهم في القليب (أى البئر) لعدم وجود مقبرة تسعهم ، ثم وقف عندهم وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً . فأبى وجدتم ما وعدنى ربى حقاً . فقبل له : كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ . فقال : « ما أتم باسمع لما أقوله منهم ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً » . وحتى عظام الميت الذى غير المسلم الذى يعيش بيننا ثم يموت لها احترامها وصيانتها ، والذى هو من له ذمة وعهد عند المسلمين بحكم المواطنة والمعاشرة ، ولذلك يقول الإمام ابن عابدين : « عظم الذى محترم ، فلا يكسر إذا وجد في قبره ، لأنه لما حرم إيذاؤه في حياته لدمته ، وجبت صيانة عظمه عن الكسر بعد موته » .

ولقد نهى الإسلام نهياً شديداً عن التمثيل بجثة ميت أو حى ، سواء أكان الحى أو الميت إنساناً أم حيواناً ، وكان كل خليفة يوصى المجاهدين أن يحذروا

الحذر كله من التمثيل بأحد ، لأن الخلق صنعه الله المبدع جل جلاله ، فتشويهها يعد تطاولا على صنع الله العظيم ، ولقد كان أحد المشركين يسب الرسول سباً شديداً في كلامه وخطبه . وأسر المسلمون هذا المشرك في غزوة بدر ، وأشير على الرسول أن يتزع بعض أسنانه ، حتى لا يستطيع الخطابة الآثمة ضده ، فرفض الرسول ذلك وقال : « لا أمثل به فيمثل الله تعالى بي وإن كنت نبياً » .

والإسلام قد ضمن حسن المعاملة في القول والعمل والتصرف من المسلم من أهل الأديان السماوية الأخرى ، وحسبنا أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الذمي : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته (أى غلبته) يوم القيامة » والذي هو غير المسلم الذي يعيش مواطناً للمسلمين ، فله في أعناقهم ذمة وعهد ، ويقول الإمام القرافي : « إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا ، لأنهم في جوارنا وخفارتنا ، وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ذمة ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم ، أن أى نوع من أنواع الأذية : أو أعان على ذلك . فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة دين الإسلام » وضرب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم أروع مثال في معاملة الناس ، حتى المشركين منهم ، فقد كثر اعتداؤهم عليه ، فعرضه بعض من حوله على سبهم والدعاء عليهم . فأجاب : « إني لم أبعث لعانا ، ولكني بعثت داعياً ورحمة : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن صفات الأطفال لا تصرف عن المكارم خيار الرجال ، والإسلام

العظيم يعلمنا أن نحسن المعاملة لكل الناس ، فيقول الرسول : « ارحموا من
في الأرض يرحمكم من في السماء » ويقول : « أفضل الأعمال بدل السلام
للعالم » فلنمض على الطريق محاولين إحسان القول والعمل مع الجميع ، لنفوز
برضى من لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس
جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا
والذين هم محسنون .

فمتى نتعظ؟ (١)

الحمد لله عز وجل ، أنزل الآيات وفصل العظمت وساق المثالات :
« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو
وحده مصدر العزة والقوة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد
ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بشر وأنذر ،
ووعد وأوعد ، فكان خير المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله
وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم
يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول أحد أسلافنا ، وما أدق ما يقول :

متى يبلغ البنیان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

ويبدو أن هناك أناساً لا يريدون للبنیان أن يتم ، ولذلك ينقضون فيه حجراً
من هنا وحجراً من هناك بضلالة وجهالة ، أو بتعمد وسوء نية ، والواجب
أن تتضافر الأيدي كلها على توطيد الأركان وتحصين البنیان ، حتى يتحقق
الأمان والاطمئنان ، ولقد كتب بالأمس كاتب فينا عن الأسباب التي تدعونا
إلى رفض الصلح مع إسرائيل ، فكانت فائحة كلامه أن قال : نحن كمسيحيين
ومسلمين بيننا وبين اليهود كل محبة » . فهل هذا كلام يقال ، وفي هذا
الوقت بالذات ، ومهما تبعه من ذكر أسباب أخرى لعدم الصلح مع الأعداء؟

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق

١٤ يوليو سنة ١٩٦٧ م .

وهل من الحق في شئ "أننا كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود « كل محبة »؟ أعطوني عقولكم أيها الأخوة الأحبة لأدرك بها فقد ضاع مني رشادي ، ودون ذلك يذهب حلم الحليم ، وإذا كانت « المحبة كلها » متوافرة بيننا وبين اليهود . فلماذا نتلو إذن في كتاب ديننا وقرآن ربنا : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » ؟ . ولعل هذا الزاعم أراد أن يفهمنا أن اليهود في العالم غير اليهود المحتلين لفلسطين ، أو أن اليهود هم غير الصهاينة الإسرائيليين ، وطالما خدعنا الخادعون بهذه الأكذوبة ، فالكفر كله أمة واحدة ، واليهود في العالم كله متضامنون على ارتكاب أبشع جريمة في التاريخ ، وهى احتلال أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وتشريد أهل فلسطين والعرب كل مشرد ، وإعادة مملكة اليهود المزعومة التى تمتد من النيل إلى الفرات ، وتشمل الحجاز وفيه المدينة وما حولها ، وهل استطاعت الصهيونية في فلسطين أن تفعل أفاعيلها إلا بمساندة اليهودية العالمية وتبرعاتها ، ومعاونة الدول الاستعمارية الباغية التى يسيطر على سياستها ومراكز أنشطتها عبدة الطاغوت من اليهود ، وهل استطاع الصهاينة أن يحولوا فلسطين المحتلة إلى « ترسانة أسلحة » إلا بالتأييدات والمعونات والإمدادات تأتيهم عن يمين وشمال من اليهود في أوروبا وأمريكا ، فيجعلونها ناراً محمومة يوقدون عليها المسلمين والمسيحيين من العرب المساكين ؟ .

وكيف يقال إننا كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود كل محبة ، وهم الذين كفروا بالله وتمردوا على أوامره ، وعصوا رسوله موسى ، وقتلوا أنبياءه ثم كذبوا رسوله عيسى ، وحرصوا على اغتياله ، وكذبوا رسوله محمداً ، وخانوا عهده ، وتآمروا ضده ، واشتركوا مع أعدائه في محاربتة ، وسمو له الطعام ، ودبروا له الاغتيال ، وحرصوا عليه المشركين وقالوا إن

دينهم خبير من دين محمد : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجلبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . وهل نسينا القضايع والجرائم التي ارتكبتها ضد الإسلام وأهله يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ؟ . وهل نسينا قول الله جل جلاله : « ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور » .

والعداوة بين اليهود وأتباع المسيح عليه السلام عداوة لا مثيل لها في غابر التاريخ أو حاضره ، فاليهود قد اتهموا مريم البتول العذراء الطاهرة المطهرة بالخطيئة ، ونسبوا لها إلى الزنى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » ، مع أن القرآن يتحدث عن مريم الحديث الجميل الرائع . فنجد فيه مثل هذه الآية الكريمة : « وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » . واليهود يصفون المسيح عيسى بأنه ثمرة الفاحشة ، وبأنه وثني مرتد ، وأن مصيره إلى الجحيم بين القار والنار ، وما زال اليهود إلى اليوم يشوهون شخصية عيسى ويفترون عليه ، ومنذ حين قصير أصدرت إحدى دور النشر اليهودية في أمريكا واسمها « دار سيمون وشوستر » كتاباً بعنوان « التجربة الأخيرة للمسيح » يقول إن المسيح كان يرتكب الفاحشة مع المجدلية ، ويقول إن يهوذا قال للمسيح : « الويل لك ، هكذا تقهر الموت بمضاجعة النساء » . وفيمن يقال هذا الكلام الدني السافل ؟ . إنه يقال في عيسى بن مريم روح الله وكلمته التي قال القرآن المجيد على لسانه : « قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرأ بوالدني ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت

ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون .

ولو رجعنا إلى الإنجيل - حتى على حالته الحاضرة - لوجدناه مليئاً بما يشير إلى العداوة العميقة المتأصلة الباقية بين اليهود والمسيحيين ، فالإنجيل يذكر الحكم الصارم الذى أصدره يسوع - وهو المسيح - على اليهود ، ونصه : « قال لهم يسوع : الحق أقول لكم إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » أى إن الناهيين لأموال الناس ومرتكبي فاحشة الزنى قد يدخلون الجنة وأنتم لا تدخلونها . وكذلك يخاطب الإنجيل اليهود قائلاً لهم : « أيها الحيات أولاد الأفاعى ، كيف تهربون من دينونة جهنم » . أى لن تستطيعوا أن تفروا من الحكم اللاصق بكم المحتوم عليكم وهو أليم العذاب فى السعير ، فكيف يقال بعد كل هذا : « نحن كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود كل محبة » ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أجهزة إعلامنا يجب أن تكون على مستوى المعركة ، وأن تتذكر جيداً أن قضيتنا مع الصهيونية واليهودية الغاشمة قضية دينية قومية وطنية ، ولن نستطيع أن نلتصق من هذا الإجرام الغاشم المتوقع إلا إذا امتلأت عقولنا وقلوبنا بأن أعداءنا هم أعداء ديننا وقرآنا ورسولنا ومقدساتنا وحرماننا ومن واجبنا جميعاً أن نعبر عن هذا بمختلف وسائل التعبير المشروع ، حتى يتأكد المسئولون والمختصون أن هناك رأياً عاماً يطالب بأن يكون الوعي الدينى العميق أساساً لتعبئة النفوس وحشد العزائم ، على الهدف الجليل والواجب الثقيل ، وهو تطهير الأرض المؤمنة من دنس الاحتلال والإجرام . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

عيون جريئة^(١)

الحمد لله عز وجل ، كتب ثوابه للصالحين المصلحين ، وتهدد بنقمته الآثمين الفاسقين : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد المنقين ويخذل المتحللين : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الخشية والحياء ، وإمام البررة الأتقياء ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، والناصرين لكلمة الإسلام : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول الاجتماعيون إن حياة الأمم يجب أن تتكيف بحسب ما يعرض لها من ظروف عامة أو أحداث هامة ، فظروف الهول والخطر غير ظروف السلام والهدوء ، وأوقات الشدة والبأساء غير أوقات النعيم والرخاء ، وفترات النضال والكفاح غير فترات الدعة والراحة ، فلا يليق أن يعيث الناس والدنيا تجداً ، ولا أن يفقهوها والأهوال تصرخ ، ولا أن يضععوا وقتاً أو جهداً ومعركة الحياة والموت تغمرهم ليتكشفوا عن بطولة فيعيشوا ويخلدوا ، أو عن تفاهة فينخلدوا ويبيدوا . . . ونحن الآن في حومة الوغى وميدان المناضلة والمصاولة : تشغلنا مشكلات التحرير والتطهير والتعمير ، ونصني حسابنا مع الاستعمار . وننادى بالقومية العربية المؤمنة ، ونتلمس الأسباب لحفظ

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٢٨ صفر سنة ١٣٧٨ ١٢ سبتمبر سنة

ما بقي من التدين والتخلق ، ونجاهد لنخفف من تيار التحلل والانحلال ، وهناك معركة في الجزائر ، ونضال في عمان وجنوب الجزيرة ، وهناك جنود احتلال في أجزاء من الوطن الأكبر ، ومؤامرات ضد العرب والمسلمين ، ونذر حرب تهدد بالويل والثبور ، أفيلق مع هذا أن نقرأ ونسمع أنه قد أجريت مسابقة على شاطئ الإسكندرية لاختيار الشاب الذي له عينان أجراً من عيون سواه ، وأن حكام هذه المسابقة من النساء ، وأن الشاب كان يدخل على لجنة القاضيات الفاتنات فيحملق فيهن بنظره ، ويتوقع ويتبجح ، ويسرح في النحور والصدور والخصور وغيرها ، واللجنة تشاهد وتراقب لتقدر له الدرجة ١ . . في أى بلد نعيش ؟ فى مصر الإسلامية ، ومركز القومية العربية أم فى ملهى من ملاهى باريس ؟ . فى بلد يناضل ويكافح أم فى بلد يضرب بعض أبنائه أمثلة فى العيب والجون ؟ . .

العالم يغلى من الاهتزاز والاضطراب ، والدنيا تعيش على حافة بركان ، والقنابل تدوى فى جوانب من الأرض بعشرات الآلاف ، وشبح الحرب الخيف يطل على الناس هنا وهناك ، وعامة الكادحين مشغولون بلقمة العيش ومطالب الحياة ؛ ولكن طائفة مترفة متحللة تلهو هذا اللهو ، وتعبث هذا العيب ، فتقيم فى بلادنا وتحت أسماعنا وأبصارنا رعاة ورعية - مسابقة لاختيار الشاب صاحب العيون الجريئة ، ويتم هذا الاختيار بوساطة نساء ثم تنشر أنباء هذه المسابقة وتفصيلها على الناس ، فأى شنوذ وأى نشاز ؟ . وما الأثر الذى توحى مثل هذه المسابقة العابثة فى نفوس الفتيان والفتيات ؟ . ألا توحى إلى الفتيان بأن يتعدوا الجراءة الوقحة السمجة فى النظرات ، والتطلع المتبجح إلى العورات ، حتى يتدربوا ويستعدوا لمسابقات مماثلة قادمة ؟ . ألا توحى إلى الفتيات بأن يتبعن نظرات الوقحاء حتى يبرعن فى المقارنة بين أصحاب العيون الجريئة لعلهن يصبحن قاضيات فى مسابقات مقبلات ؟ . ألا يشعرن

ذلك بتفاهم خطب التحلل أصبحنا نتوقع أن تكون المسابقة القادمة لاختيار صاحبة العيون الجريئة على أن يكون حكامها من الشبان الرقاء . ومصر كما قالوا بلد العجائب .

ليتهم أقاموها مسابقة لاختيار من يحافظ على الآداب العامة ، أو يتجمل بالأخلاق الفاضلة ، أو يحسن صيانة جسمه بالنظافة والرياضة ، أو يقدم لوطنه خدمة من الخدمات ! . إن عشرات من شبابنا المتقدمين إلى الجامعات يرسبون في الكشف الطبي لتداعيمهم البدني وعدم تصونهم الرياضي ولأمراض فيهم وعلى تتمكن منهم ، فهلا أنهضوا هذه الشيبة بالرياضة والاستقامة بدل أن يهدموها حسياً ونفسياً بالتجربة على الوقاحة والمجون ؟ . أو ليت هذه العيون المتسابقة في تبجح النظرات إلى العورات كانت جريئة على المطالعة في العلوم والفنون والآداب ، أو ليتها كانت جريئة على البحث في المعامل ومخابر البحوث والكشوف . أو ليتها كانت عميقة النظر في ملكوت السموات والأرض لتتدبر وتعتبر ، أو لتستنبط وتستخرج الدفائن والكنوز . ليتهم أقاموها مسابقة في وجه من وجوه الخير أو البر ، فقد كان الصالحون من أسلافنا يألفون التسابق في الفضل ، والتنافس في الخير ولقد أقبل عامر بن قيس مثلاً من جهة مكان التسابق على الخيل ، فظن رجل أنه قد شهد السباق ، فقال له : من سبق ؟ . قال عامر : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الرجل : فمن الذي كان بعده ؟ . قال عامر : أبو بكر الصديق . فقال له الرجل : إنما أسألك عن الخيل . قال عامر : وأنا أجيبك عن الخير ! . فقد كان ذهن عامر يدور حول التسابق في الطيبات والباقيات . .

ولكنهم مع الأسى والأسف أقاموها مسابقة في اختيار صاحب العيون الجريئة الوقحة ، وكأنهم يتجدون بهذا أمر العزيز القهار الذي يخاطب نبيه

بقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » وبقوله :
 وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » . والقرآن الكريم
 يعلمنا أن نحسن استخدام هبات الله لنا فيما خلفت له ، لأن الله تعالى سبحانه
 عنها أدق الحساب : « ولا تقف (تتبع) ما ليس لك به علم إن السمع
 والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » . وعن جرير الصحابي قال :
 سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة ، فقال : اصرف بصرك ،
 وقال النبي لعلى : لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة .
 والمشاهد أن المسلم الذي يريد الآن أن يحافظ على دينه وعفة بصره يتعب كثيراً
 في عدم إلتباس النظرة نظرة ، لأن العورات المعروضة كثيرة متلاحقة ، ففي
 الشوارع والسيارات والترامات والقطارات والمكاتب والدواوين وكل مكان
 يصطدم نظره بعورات وأشياء يجب أن تحفظ وتصان ! . والعجيب في أمر
 هؤلاء المتحللين الذين يسمون أنفسهم بالمتعلمين المهذبين أن الواحد منهم إذا
 كان معه امرأة في الترام أو السيارة أو الطريق ، ونظر إليها شاب نظرة فيها
 شيء من الجرأة التي قد يكون مبعثها أن اللحم الشهي معروض أمام القط الجائع ،
 أتهموه بالوقاحة وقلة التمدن والتربية والذوق ، وبأنه لا يحافظ على الآداب
 الاجتماعية ولا قواعد الاختلاط ، فكيف يتفق هذا يا بني آدم مع تنظيمهم
 مسابقة لاختيار الشاب صاحب العيون الجريئة ؟ ! . .

والأعجب من هذا أن الرقابة على الصحف التي منعت منذ قليل نشر
 ردود لعلماء على فتنة تلحين القرآن الكريم بالآلات الموسيقية ، سمحت بنشر
 الإعلان عن هذه المسابقة ، وسمحت بنشر أوصافها وصورها وتفصيلها في
 الصحف والمجلات ، تطلعها النساء والرجال ، والكبار والصغار ، والمراهقون
 والمراهقات ، فما هذا التطفيف في المكاييل والتفاوت في الموازين يا هؤلاء ؟

أفما كان الواجب أن نمنع نشر هذا لأن فيه ضرراً على الأخلاق والآداب العامة وله أسوأ الأثر في نفوس القراء

إن من الكلام المأثور : « إذا بليت فاستروا » . وفي الحديث : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين » . فلنفرض أن هؤلاء متحللون أو منحلون أو مصابون بما أصيبوا به ، وأنهم يريدون أن يعبثوا ما شاء لهم العبث ، فهل من المصلحة العامة أن ينشر هذا على الناس ، وأن يعلن عنه مرات ومرات ، وأن يكون تحت الأسماع والأبصار ؟ هل لهذا النشر فائدة في ميدان الأخلاق أو الوطنية أو القومية ؟ . أفتوفى يا ناس يا عالم يا خلق ! . . . أفما سمع هؤلاء بقول الرسول : « الحياء من الإيمان » وقوله : « الحياء لا يأتي إلا بخير » . وقوله : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ؟ ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد تقولون : ولماذا توجه إلينا الحديث ونحن لم نشهد ولم نشترك ؟ . وقد ترون من حقكم أن تقولوا هذا ، لأنكم بقية الخير ، وأنتم الذين تبللون للاحتفاظ بدينكم وأخلاقكم ، ولكن الحديث يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . وفيكم بحمد الله قادرون على التوجيه والتأثير الطيب بالمكانة واللسان والبيان ، فلا أقل من تذكيركم بواجب الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر حتى لا يجر فئار التحلل والانحلال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قسم الجنود^(١)

الحمد لله عز وجل ، ينصر الحق ويؤيده ، ولعلّ الإيمان وبمجده ، والله بكل شيء عليم . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنقذ من الجهالة ، وهدى من الضلالة والله ذو الفضل العظيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربّ فقوم ، وأرشد فأحكم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

بالأمس وقف جميع إخواننا وأشقائنا من الضباط والجنود ، ورددوا قسم الثار الذي عاهدوا فيه على مداومة الجهاد والتضال حتى تتحرر الديار ويمحي العار ، وقد قالوا في هذا العهد : « نقسم بالله العظيم ، نقسم بالله العظيم ، نقسم بالله العظيم ، أننا قد عقدنا العزم على تقديم أرواحنا فداء لتحرير أرضنا المقتضية مؤمنين بالله وبالوطن ، وبعدالة قضيتنا ، مؤمنين بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، واثقين أشد الثقة بأنفسنا وبقادتنا وبسلاحنا . سيبلنا هو الجهاد المقدس . شعارنا هو النصر أو الشهادة » . أؤكد لكم أنني فرحت بهذا القسم فرحاً كبيراً ، لأن فيه تصحيحاً لخطواتنا ، وتقويماً لمفاهيمنا ، ونصاً على ما يجب أن نقوم به جميعاً من فريضة الجهاد في سبيل الحق حتى يعاد إلى أهله ، ويؤمنند يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، ولقد بدأ هذا العهد بقول الجنود : « نقسم بالله العظيم » وهذا قسم عظيم كريم ، من مقتضيات الصدق فيه والوفاء له أن ترتبط أسباب المرددين له بأسباب

(١) القيت في يوم الجمعة ١١ ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٧ يونية سنة ١٩٦٨ م .

قيوم السموات والأرض ، إيماناً و يقيناً ، وطاعة وعبادة ، وثقة ورجاء :
« وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . وتكرار القسم بالله العظيم ثلاث
مرات فيه معنى التأكيد والتوطيد ، وكل قسم مؤكد موطن يحتاج إلى مزيد
من الارتباط به والوفاء له ، لأنه يصير أمانة ثقيلة التبعة لا ينبغي أن تضيع
أو تهون عند المؤمنين الذي قال في صفتهم ربهم : « والذين هم لاماناتهم
وعهدهم راعون » .

ولقد قال المقسمون بربهم جل جلاله : « إننا قد عقدنا العزم على تقديم
أرواحنا فداءاً لتحرير أرضنا المغتصبة ، مؤمنين بالله وبالوطن » والإيمان بالله
تبارك وتعالى هو الأساس وهو القاعدة ، بل لا يتحقق الإيمان الديني الحقيقي
إلا في الإيمان بقيوم السموات والأرض ، ومن وراء هذا الإيمان بالله عز شأنه
تأتي محبة الوطن ، وحب الوطن من الإيمان كما يقول الأثر الإسلامي الحكيم ،
أي أن حب الوطن أثر من آثار الإيمان بالله ، وثمرة من ثمراته ، لأن الله
تعالى يعلم عباده أن يعيشوا في حرية وكرامة وعزة : « والله العزة وارسوله
وللمؤمنين » ، « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ولقد أشار القسم الجليل إلى الثقة بالنفس ، وهذه الثقة بالنفس لا يجوز
بحال من الأحوال أن تكون اغتراراً أو اعتزازاً بشئٍ مادي معزول عن
عناية الله ورعايته ، فهما أوتينا من قوة حسية في الأجناد والعتاد ، فلن
نستغنى بحال من الأحوال عن الاستمداد الروحي والمعنوي من رحاب العون
الإلهي : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن
يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئٍ قدراً »
ولذلك ينبغي أن نفسير الثقة بالنفس على أنها عرفان بصير واع لما يمد به عباده
المجاهدين من ألوان القوة التي يعدونها ويستزيدون منها ، وإلى هذا المعنى

أشار بيان رئيس الجمهورية في ذكرى اليوم الحزين الأسود اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ ، حيث قال : « إن الثقة بالنفس على الحق هي الثقة بالله صاحب حق وناصره » .

ثم جاء في القسم قولهم : « سبيلنا هو الجهاد المقدس » . وما أحلى كلمة « الجهاد » هنا ، وما أجمل وقعها في نفوس المؤمنين العارفين ، وما أروع وصف هذا الجهاد بأنه مقدس ، ولقد آن الأوان وأن لكى نعبّر عن نضالنا بكلمة « الجهاد » القرآنية الدينية الإسلامية ، وأن نصرخ بأن جهادنا في سبيل حريتنا وكرامتنا وعزتنا وحرماننا جهاد مقدس ، يفرضه علينا قرآننا ، ويوجبه ديننا ، ويباركه خالقنا الذى يستنفرنا ويعبى قوانا ويحرضنا على الحشد الكامل في سبيل المعركة المقدسة فيقول : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وصاوات الله وسلامه على رسوله يوم هتف بين أصحابه وهم في ميدان الجهاد : « اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » فكان الرد الإجماعى الواثق المؤمن من كل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هو :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

ثم كان الختام في القسم الجليل هو : « شعارنا هو النصر أو الشهادة » وأنعم بالشعار وأكرم به حين يتحول إلى تطبيق مائل وحق واقع ، فإن تحقيقه يكون خير استجابة لهدى الله القائل : « ولا تهوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » . والقائل : « قل هل ترهبون بنا إلا لإحدى الحسنين ونحن نترهب بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » . وفي ضوء هذا الشعار نستطيع أن نتذكر رجلاً مثل عمرو بن الجموح الذى كان

أعرج شاذيد العرج ، وكان له أبناء أربعة كالأسود ، يشهدون الغزوات مع الرسول صلى الله عليه وسلم فأراد الخروج للجهاد في غزوة أحد ، فرفضوا إشفاقاً عليه وقالوا له : إن الله قد عذرك « ولا على المريض حرج » . فذهب عمرو إلى النبي غاضباً وقال له : يا رسول الله ، إن أبنائي يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك ، ، والله إنى لأرجو أن أطأ به رجلى هذه في الجنة فقال له النبي : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . ولكن الرسول رأى قوة رغبته في الجهاد على قدر ما يستطيع ، فقال لأبنائه : « ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة » . وتحقق ما توقع الرسول ، فبدل عمرو جهده ، وصدق وعده ، ولقى ربه شهيداً مجيداً ، والله عنده حسن المآب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد عرفنا الطريق ، ورسمنا المنهج ، ورددنا القسم : وبقي العمل لتحقيق الأمل ، والله جل جلاله من وراء المقصد الكريم ، نسأله أن يبارك الخطوات وأن يضاعف الثمرات ، وأن يدقنا في طريق الإيمان الوطيد والجهاد المقدس حتى يتحقق وعد الله لعباده . ولن يخلف الله وعده . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ..

مقاومة البغى^(١)

الحمد لله عز وجل ، حكم بالعدل ، وتكرم بالفضل ، « وكان فضل الله عليك عظيماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق ويبطل الباطل ولو سكره المجرمون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يرض الدنيا في دينه ، ولا المدلة في دنياه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « أولئك هم الراشدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من المبادئ الثابتة المؤكدة في هدى الله عز وجل أن العدل واجب ، وأن الانصاف لازم ، وأن البغى مرتعه وخيم ، وأن الظلم ظلام يؤدي إلى حسرة وندامة ، وأن المظلوم منصور وإن طال المدى ، ما دام لا يرضى الظلم ، ولا يقبل الهوان ولا يفتر عن المقاومة ، فهو حين يدافع أو ينتصف لنفسه المهضومة يريد أن يوطد في الأرض ما أراده الله من حق وعدل ، ولذلك يكون موصول الأسباب بحمى ربه ، يستمد من عون ما يهديه إلى أسباب نصره واسترداد حقه ، والقرآن المجيد يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » ، ومن هنا قال الإمام على لابنه الحسن رضوان الله عليهما : « لا تدعون إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع » ، فالإمام لا يريد لابنه أن يجعل الصراع هواية عنده ، يمارسها كلما دعاه إليها داع من هوى النفس أو وسوسة الشيطان ، ولا يريد لابنه أن يكون كهؤلاء المرتزقة الذين يتكسبون من

(١) ألفت في يوم الجمعة ٢٦ شوال سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٦٨ م .

الحروب ويستغلون المعارك لتحقيق مظالمهم ومغانمهم ، فإن وراء المؤمنين في حياته واجبات وتبعات تجعله مشغولاً بتحقيق الصلاح لنفسه والإصلاح لغيره ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وإذا كان الإمام على يعلم ابنه أن لا يتحرش بغيره ، أو يتعرض للعدوان على سواه ، أو يستثير غضباً عند مسالم ، فليس معنى هذا أنه يريد منه أن يكون جباناً أو رعديداً ، بل كل ما يريده منه أن يكون عادلاً مستقيماً ، يملأ أيامه بالصالحات والقربات ، ويزينها بالتعمير والتشجير ، فإذا أثاره مثير ، أو تطاول عليه متطاول ، صار لنا كاسراً وبطلاً مقدماً ، ولذلك قال له : « فإن دعيت إليها فأجب » أى سارع إلى مواجهة من يعتدى عليك أو يستخف بك ، وإلا ضاعت كرامتك وثبتت ذلتك ، ثم يفتح أمامه أبواب الفوز والفلاح ، فيقول له : « فإن الداعي إليها باغ ، والباغى مصروع » والباغى هو مجاوزة الحق إلى الباطل وترك الإنصاف إلى الأجحاف ، والباغى مرتعه وخيم ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، وفى الحديث - موقوفاً - : لو بغى حبل على حبل لاندك الباغى » وما دام الباغى مهدداً بالدمار والخسار ، فإن المباغى عليه موعود بالقلبة والانتصار ، وكأن هذا إيحاء للمهضوم الحق المعتدى عليه بأن يملأ حسه ونفسه بحوافز الأمل والثقة ، ثم يقدم إلى غسل عاره وأخذ ثأره ، بلا ضعف أو خور فهو صاحب الحق ، والله معه يؤيده ما دام أهلاً للتأييد بصدقه فى الجهاد والنضال ، وهذا بعض ما يلحظ من قول القرآن المحيد : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

والتوضيحية العلوية الجليلية يزكيها هدى الله جل جلاله حين يقول : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله : « وقتلوا فى سبيل » (م ٢٢ - خطب ج ٢)

الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » وقوله : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور » . كما يزيكها رسول الله عليه الصلاة والسلام حين يقول : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وقوله : « إذا استنفرتهم فانفروا » . فليس المؤمنون إذن هواة حرب ولا غواة عدوان ، فوراءهم من شئون الخير ووجوه البر ما يجعل واجباتهم أكثر من أوقاتهم ، ولكنهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يسكتوا على ضيم أو يرضوا بهوان ، بل يتحولوا إلى عمالقة باذلين يحبون الموت أكثر مما يحب غيرهم الحياة ، ولم لا وربهم جل جلاله يقول لهم آمراً ومعلماً : « ولا تهنوا ولا تمزنوا وأتمم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول عن الرجال الأبطال من عباده : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » وتاريخ الجهاد على عهد النبوة يذكرهم بأن أبناء الإسلام لم يسمحوا لأنفسهم يوماً من الأيام أن يكونوا بادئين بعدوان أو سابقين بطغيان ، فقد احتملوا من الأذى في أول الأمر ما احتملوا ، ثم سعى المشركون الباغون يوم غزوة بدر ليتطاولوا على المؤمنين ويهزأوا بهم ، فصبر الإيمان في وجه الطغيان ، فكان للمؤمنين نصر مبين وفوز عظيم ، وتلاقت أحزاب الشرك والكفر وتآمرت وسعت مجتمعة إلى غزوة الخندق تريد القضاء على الإسلام ، فثبت المجاهدون وقاموا ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وحتى فتح مكة قدام المشركون بخيانتهم وعدلهم وعدوانهم ونقضهم عهدهم المسوغ الواضح للفتح الكبير الذي كان خيراً وبركة على العالمين .

والإمام على صاحب النصيحة الغالية لم يعرف عنه في نضاله وكفاحه أنه تعجل أو دعا إلى مبارزة أو مقاتلة قبل أن يكشف عدوه القناع عن لؤمه وبغبه

بل كان على ينتظر حتى يكون غيره هو البادى بالدعوة إلى القتال ، ولقد دعى على إلى المبارزة في غزوة بدر وغزوة أحد فاستجاب وبارز وانتصر ، وهذا هو الكافر المشرك اللعين عمرو بن عبد ود نراه يوم غزوة الأحزاب يدل بقوته ويعتز بنفسه ، ويتجارأ على حمى المسلمين ، ويستثيرهم قائلاً ومكرراً : هل من مبارز ؟ ويسأل على رسول الله أن يأذن له بالخروج إليه ، فلا يأذن له الرسول في أول الأمر ، وكأنه كان يريد أن يفخر في على كوا من الغضب على هذا المتطاول الأثيم الذى عاد يقول في شراسة وفجور : أيها الناس ، إنكم تزعمون أن قتلاًكم في الجنة ، وقتلانا في النار ، أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة ، أو يقدم عدواً له إلى النار ؟ . وهنا بلغ الكتاب أجله وقد طفح الكيل وتنمر الباطل ، فأذن النبي للفتى على ، فخرج والنبي يدعو له قائلاً : « اللهم أعنه عليه » وما هي إلا جولة حتى اتخذ الطغيان المتطاول وانتصر الحق المناضل « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » . ولعل الإمام عليا كان يذكر في ذلك الوقت قول رائد عليه الصلاة والسلام : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا رسول الله قول الله : « يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم^(١) » وقوله : ولا يحق المكر السى إلا بأهله » وقوله : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . بل لعله كان يذكر أن رجلاً قال للرسول : أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : فلا تعطه مالك . قال : أرأيت إن قاتلتى ؟ . قال : قاتله : قال : أرأيت إن قتلنى ؟ . قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلته ؟ . قال : هو في النار . بل لعله كان يذكر قول رائده : « من قتل دون ماله فهو شهيد : ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون قومه فهو شهيد . ومن قتل دون دينه فهو شهيد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد سقينا علمم الطغيان : وحوربنا

(١) في الحديث : « لا تبغ ولا تكن باغيا ، فان الله يقول انما بغيتكم على أنفسكم » .

فى أكثر من ميدان ، وتعرضت حرماتنا ومقدساتنا للذل والهوان ، ودون ذلك يتحرك الجماد وتنفطر قاوب الأحياء ، فمن أوجب الواجبات علينا ألا يهنا لنا مطعم ولا مشرب ولا منام إلا إذا خرج العدو وزال العدوان ، وهذا واجب لا يتم أداؤه إلا بالقوة توفر أسبابها ، والوحدة ندعم أركانها ، والعزيمة نوطد بنيانها والعقيدة نعزز اليقين والإيمان بها ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الحكيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون.

الشجرة الملعونة في القرآن^(١)

الحمد لله عز وجل ، يمن بالرحمة ، ويؤدب بالحكمة : « ويضرب الله
الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده المقادير ،
وإليه تصير الأمور ، وفوق تدبيرنا الله تدبير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول
الله ، خضع لمولاه ، ففاض برضاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الأطهار
من آله ، والأخير من أصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « فأولئك
يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سألني أخ من المصلين معنا عن اسم الشجرة الملعونة في القرآن ، وكان
من الممكن أن أوجز له الرد فأقول إن الشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة
الزقوم وكفى ، ولكني آثرت أن استعرض جانباً من حديث القرآن الذي يرينا
عظمة الله وقدرته وحكمته ، فالقرآن يذكر لنا أن الشجرة نعمة من نعم الله
تعالى وآية من آياته : « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة
ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » ، كما أنه يجعل الشجر رمزاً من رموز تسبيح
الله وتمجيده فيقول : « والنجم والشجر يسجدان » والنجم هو النبات الذي
لا ساق له ، والشجر هو النبات الذي له ساق ، والمراد بسجودهما انقيادهما
لله تعالى كأنقياد الساجد لربه جل جلاله ، والقرآن يجعل الشجرة جزءاً من
التشبيه الذي يقرب الله به نوره لعباده : « الله نور السموات والأرض ، مثل
نوره كشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب
درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء »

(١) القيت في يوم الجمعة ٢ رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٦ نوفمبر

سنة ١٩٦٤ م .

ولو لم تمسه نار ، نور على نور » ، وقد عني القرآن بشجرة الزيتون هذه فذكرها في آية أخرى قائلا : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكليين » وذلك لأن شجرة الزيتون كثيرة الفوائد في ثمرها وزيتها وورقها وخشبها . والقرآن الكريم جعل حمى الشجرة موطناً لمبايعة كريمة عظيمة خالدة في تاريخ الإسلام : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . والقرآن يذكر لنا أن الشجرة كانت محلاً لتكليم الله تعالى نبيه موسى حين ذهب ليلقاه : « فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » . والقرآن الكريم يذكر لنا أن الله تعالى جعل بقدرته النار كامنة في الأشجار : « أفرأيتم النار التي تورون؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » ، « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون » . والله القوى القادر الذي جعل النار وهي حمراء تكن في الشجرة الرطبة الخضراء هو الذي جعل من الشجر ما يشمر وينفع فيكون مثلاً للكلمة الطيبة الهادية ، ومنه ما يخبث ولا يشمر فيكون مثلاً للكلمة الخبيثة الضالة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . وكأن الله خلق هذه وتلك ليرينا أنه قادر على خلق المتناقضات وإيجاد الأضداد .

ونعود بعد هذا إلى « الشجرة الملعونة » في القرآن وقانا الله شرها وجنبتها دارها ، فنجد القرآن الكريم يقول عنها لرسوله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن » أى أن الله تعالى جعل رؤيا العين التي رأيتها ليلة الإسراء اختباراً وابتلاء للناس ، ليعرف المؤمن من

الكافر ، والمصدق من المكذوب ، وكذلك جعل شجرة الزقوم اختباراً وابتلاء ، وكأن الله العليّ القدير الذى جعل من الشجر مظاهر رحمة وأسباب نعمة كما عرفنا ، أراد أن يرينا أنه قادر كل القدرة على أن يجعل النعمة نقمة ، وأن يجعل سبب الرحمة سبب عذاب ، وأن يحيل بعض الشجر الأخضر الناضر الطيب المثمر إلى شجرة خبيثة فظيعة ملعونة أعدها الله للمجرمين فى النار ، وظاهر تعبير القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم ، منتنة الرائحة ، شديدة الخشونة ، وقد روى أنها تنبت فى قعر الجحيم ، وترتفع أغصانها إلى دركات جهنم ، وثمراتها مخفية مرعبة كأنها رعوس الشياطين : «إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعتها كأنه رعوس الشياطين » ، ومن هذه الشجرة الخبيثة يكون طعام الكافرين : «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم » والمهل هو عكارة القطران النحاس المذاب ، وقد أشار القرآن المجيد إلى أن هؤلاء الضالين المكذبين يملأون بطونهم من هذه الشجرة ، لأنهم لا يجدون غيرها ، ولأن الجوع يشتد بهم ، أو لأن زبانية جهنم ترغمهم إرغاماً على الأكل منها ، فإذا امتلأت بطونهم اشتد ظمأهم وعطشهم ، وتلهفوا على أى شراب ، فلا يجدون أمامهم إلا الحميم ، وهو الماء الذى يفور ويغلى ، فيشربون شرب الهيم ، أى الإبل التى أصابها داء الهيام ، وهو ما يسمى بمرض الاستسقاء . فالجمل المصاب به يظل يشرب ويشرب حتى يموت أو يمرض مرضاً شديداً ، يقول القرآن : «ثم إنكم أيها المكذبون الضالون» وقد وصفت هذه الشجرة بأنها ملعونة لأنها أعدت لقوم ملعونين مطرودين من رحمة الله تعالى .

ووجه الفتنة فى هذه الشجرة أن القرآن الكريم حينما أخبرنا بأن فى النار شجرة تسمى شجرة الزقوم سخر المشركون وقالوا : كيف يعقل أن تنبت شجرة فى جهنم مع أن النار تحرق الشجرة ، ونسى أولئك الضالون أن خالق

النار وواهبها قوة الإحراق يستطيع أن يسلبها تلك القوة عندما يشاء ، وأن الذى جعل من الشجر الأخضر ناراً يقدر أن يجعل فى النار الموقدة شجراً ، وهو على كل شىء قدير ، فكيف يقول كبير الكافرين أبو جهل بعد هذا : زعم صاحبكم أن فى النار شجرة والنار تأكل الشجر ، ولانا واللوات والعزى ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فترقوا منهما ؛ أى كلوا منهما أكلا كثيراً حتى تمتلئ منكم البطون ؟ . . ألا إن بعض الجواب على تلك السخرية نجده فى قول الله تعالى : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعتها كأنه رءوس الشياطين » .

هذا وبعض المفسرين كالرازى يروى قولاً فى معنى « الشجرة الملعونة » إذ يفسرها بأنها اليهود ، لأن الله تعالى يقول فى موطن آخر : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » وكان اليهود حينما أنعم الله تعالى عليهم فى أول الأمر بما أنعم ، ثم كفروا بالنعم كفراناً مبيهاً قلب الله لهم النعمة نقمة ، والرحمة عذاباً ، جزاء بما كانوا يكفرون . وهذا قول لا يتعذر قبوله ، وإن كان أكثر المفسرين يرون رأياً سواه وهو أنها شجرة الزقوم ، ولا يستطيع أى عاقل بصير بأسلوب القرآن أن يقبل القول المفترى الذى يقول إن الشجرة الملعونة فى القرآن هم بنو أمية ، وأغلب الظن أن يبدأ معادية لبنى أمية دست هذا القول على كتب التفسير وفوق كل ذى علم عليم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

العظة الأساسية التى نخرج بها من هذا الحديث أن الله القوى القادر يهيء

أسباب النعم ، ويسر وسائل المتع ، فإذا أحسن الناس استخدامهما ، وشكروا الله عليها ضاعفها لهم وأبقاهم بأيديهم ، وإن أساءوا عاقبهم بقدر إساءتهم ، فجعل لهم الخير شراً ، واليسير عسيراً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : وصدق العلي الكبير إذ يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل : واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

دفاع عن العرض^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ،
والله بكل شىء عليم . أشهد أن لا إله إلا الله ، يتولى المتقين بلطفه ورحمته ،
ويأخذ الفاسقين ببأسه ونقمته : « أفنجعل المسلمين كالحجرمين ؟ ما لكم كيف
تحكمون ؟ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رعى أمانته ، وصان عفته ،
فكان إمام الخائفين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ،
وأتباعه وأحبابه : « الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت الصحف منذ قليل أن امرأة شابة قتلت صديقاً لزوجها ، لأنه
حاول اغتصابها ، متهمزاً فرصة غياب زوجها عن البيت ، حيث طرق الباب
عليها ، ولما أطمأن إلى غياب الزوج أخذ يغازلها فنهزته ، فلم ينته ولم ينزجر ،
بل تحرك فيه الثور الهائج ، فحاول اغتصابها بالقوة ، فما كان منها إلا أن دافعت
عن نفسها ، ولم تجد وسيلة أمامها إلا شاكوشاً تناولته وأخذت تضرب به
رأسه ، وهو مصر على جريمته البشعة ، وهى انتهاك عرضها بالإكراه والقوة ،
حتى أزهقت روحه .

وهذه الحادثة تدلنا على أنه ما زال فى الأمة المؤمنة من يحافظون على
الشرف ، ويغضبون للعرض ، ويدافعون عنه بكل ما يستطيعون وكأن هذا
من المعنى الكبير الذى أشار إليه سيد الخلق محمد صاوات الله وسلامه عليه
حين قال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وحين قال : « لا تزال طائفة من

(١) الجمعة ١٩ مايو سنة ١٩٦٧ م .

أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ». وهذه الزوجة التي غضبت لكرامتها ليست غنية ، وليست صاحبة شهادة جامعية ، وليست على جانب كبير من الحضارة أو المدنية ، لأنها من صميم الشعب ، ومن سواد الأمة الكادحة ، ومع ذلك ثارت لشرفها ، ودافعت عن عرضها ، وهكذا يتوافر الشرف حتى في أقل الطبقات مستوى ، بل لعل هذه الطبقات ترى للشرف والعرض من الحرمة ما لا تراه طبقات عرفت حفلات الكأس والطاس ، ومجون الرقص المزدوج والاختلاط الفاجر ، وحياة التحلل والانطلاق مع شياطين الأهواء والشهوات . واللافت للنظر أن الزوجة بعد أن ثارت لكرامتها ، وقفت في هدوء تعترف بما فعلت ، وتذكر الدافع الذى دفعها إليه ، وكأنها كانت تستحضر في ذهنها قول القائل من أمتها :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولإذا كانت المرأة قد حوصرت وتعرضت للاعتداء الأثيم عليها ، ولم تجد أمامها للخلاص من وسيلة سوى الدفاع ولو أدى إلى القتل ، فإنها تكون في حالة دفاع مشروع عن أعلى ما تعتز به ، ولو أنها لقيت حتفها وهى في ميدان الدفاع لتصون شرفها . فإنها تكون شهيدة بمقتضى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من قتل دون ما له فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد . ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » . وعلى الباغي تدور الدوائر ، والبغي مرتعه وخيم . ولقد جاء رجل إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وقال له : أرأيت يا رسول الله . إن جاء شخص يريد أخذ مالى ماذا أفعل ؟ فأجابه النبي : قاتله . قال الرجل : أرأيت إن قتلنى ؟ . فأجابه الرسول : فأنت شهيد . قال الرجل : أرأيت يا رسول الله ، إن قتلته ؟ . فأجابه الرسول : فهو فى النار . ونحن نعلم أن المال غادورائح ، وما أسهل تعويضه بعد فقدانه .

ولكن الشرف المسلوب لا يعوض ، والعرض المنهوك لا يسترد ، فإذا أجاز الإسلام الدفاع عن المال حتى الموت ، فمن باب أولى أن يميز الدفاع عن الشرف عن الموت .

وينبغي أن نتدبر الأسباب التي تؤدي إلى مثل هذا الاعتداء الشنيع على الأعراض ، ولاشك أن من أهم أسبابه سياسة الباب المفتوح الذي يسمح باتساع الاختلاط بين الرجال والنساء بلا حشمة أو صيانة ، فيتساهل الزوج مثلاً في إدخال أصدقائه ومعارفه على زوجته في حضوره أو غيبته ، ويكون من وراء ذلك ما يكون بعد أن يتسع الخرق على الراقع ، فتصبح البيوت من الأخلاق بلاقع . ومن أسبابه كذلك أن الصداقات تقوم في الغالب على غرض أو عرض أو دخل ، فهي لا تنهض كما يريد الإسلام على ذلك الأساس الوطيد من الطهارة القلبية والتزاهة النفسية والأخوة في الله والإخلاص لوجه الله الذي يؤدي إلى التقوى والصلاح والإصلاح ، وكأن أغلب الأصدقاء اليوم قد نسوا قول الله تبارك وتعالى : « الأنخلأ يؤمئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وهناك سعار الشهوة الجسدية المجنونة التي تعاون على هياجها واضطراب أمواجها قلة الدين ، وانعدام اليقين وتبجح التبرج والتهلك وميوعة التربية والأخلاق ، وهذا السعار يحتاج في إصلاحه أول ما يحتاج إلى مقاومة الاختلاط الفاضح الذي يسرى ويستشرى بلا حدود ولا قيود ولا رصيد من التربية والأخلاق ، ويحتاج إلى غرس التعاليم الدينية الواقية بصدق وإخلاص ، وإلى تعزيز الضمير الديني بالتهذيب الأخلاقي العمل المشمر ، وإلى وسائل التلطيف والتوجيه للفريزة عن طريق الزواج متى كان مستطاعاً ، أو الاشتغال بأى شاغل كريم يستفد الطاقة الحسية ، أو الأخذ بريضة جسدية أو نفسية تهذب

وتؤدب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله يوم قال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (القدرة على الزواج) فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى مهذب ومؤدب .

أين هذا الثور الهائج المنتهك للأعراض مما أخبر به رسول الله أن سبعة يظلمهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم رجلا دعت له امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال : إني أخاف الله رب العالمين ؟ وأين هو من تنويه الرسول الكريم برجل كانت له ابنة عم من أحب الناس إليه ، فراودها عن نفسها فامتنعت حتى افتقرت فجاءته مستعينة فأعطاهها على أن تحلى بينه وبين نفسها ، فاضطربت في موقفها ثم قالت له : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه . فخجل من نفسه وانصرف عنها . وهذا عبد الله ابن عباس يقول : « من أحب فعف فكم فمات وهو شهيد » وما أكثر الذين يسيئون فهم هذا الكلام ، فابن عباس يريد أن يقول : لو فرضنا ووقع الهوى في قلب إنسان ، فلم يستجب له بسوء ، بل اعتصم بالعفاف والتقى ، وفوق هذا كتم هواه في قلبه ولم يتحدث عنه ، ولم يلتفت إلى دواعيه حتى مات فإنه يكون شهيداً ، لأنه كان يجاهد أهواءه وشهواته ، والحديث الشريف قد أخبر عن جهاد الميدان بأنه الجهاد الأصغر ، وأخبر عن الجهاد لهوى النفس بأنه الجهاد الأكبر .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لا حياة بلا دين ، ولا أمان بلا أخلاق ، ولا كرامة بلا شرف ، وطريق الأبرار يحتاج إلى عزائم الأبطال وطريق الفجار لا يتطلب سوى التحلل والانهيار ، وقد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فلتنظر في أى طريق نسير ، وإلى الله المصير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دعائهم النجاة^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل العاقبة للمتقين الصابرين ، وكتب النجاة على المبتطلين المفسدين : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبشر برحمته المحسنين ، ويمن برضوانه على المؤمنين الصالحين : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف به الغمة ، وأسعد بهديه الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المجاهدين : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نعيش فى عصر المدنية والحضارة والتقدم ، وقد اخترع فيه الإنسان ما اخترع ، وابتدع فيه ما ابتدع ، واستخدم قوى البر والبحر والجو ، وتوسع فى طموحه فأراد بلوغ السماء ، ومع هذا كله لم يسعد الإنسان ، ولم يشعر بالطمأنينة وراحة النفس ، وها هو ذا العالم يعيش على حيرة وقلق ، وما يتخلص من أزمة أو مشكلة إلا ليتقبل أزمة أو مشكلة ، وما ذلك إلا لأن التقدم المادى الحسى لم يصاحبه ما يماثله من التقدم الروحى النفسى ، بل هناك فى العالم كثيرون لا يدينون بالمثل العليا ، ولا يخضعون للقيم الروحية ، وقد انفصلت عرى الإيمان فى نفوسهم ، وضاع لديهم صوت الحق فى زحمة الباطل ولم يستطيعوا برغم ما بلدوا أن يسعدوا أنفسهم فضلاً عن أن يسعدوا غيرهم من الناس . . .

(١) أذيعت من مسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٩ م

وهذا الشقاء الإنساني بحاجة ملحة إلى العلاج ، وقد يتفلسف البعض ويتعمق في وصف هذا العلاج فيطيل ويرهق ، ثم لا يأتي بما يغني أو يفيد ، ولكن الحق تبارك وتعالى أنزل في كتابه سورة تتكون من ثلاث آيات فقط ، ومع ذلك يوجد فيها تشخيص العلة وتحديد الدواء ، وتلك السورة هي سورة « العصر » التي يقول فيها الإمام الشافعي : لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس والتي كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اجتمع منهم اثنان لم ينفردا حتى يقرأها أحدهما على صاحبه ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ، وذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما في هذه السورة من منهج السعادة وطريق الفلاح . . .

يقول الحق جل جلاله في هذه السورة : : « والعصر ، إن الإنسان لئى خسر . إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » . فأقسم الله سبحانه بالعصر ، وهو الزمان الواسع المجهم ، والله لا يقسم إلا بما له منزلة ومكانة ، وكأن الله أقسم بالعصر لينبهنا على قيمة الوقت وكرامته ، وأنه يجب علينا أن نملأه بالسعى الحميد والفعل الحميد ، وأن نستغله أطيب استغلال ، وأن نعمره بالصالحات والطيبات حتى لا نخسره أو نغب فيهِ ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . وكَم من مستخفين بقيمة الزمان مستطيلين له حرموا فائدته ، وأصابتهم الخيبة والخسران :

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع ، وتحسب من عمرى؟
وينبهنا كذلك إلى أن الزمن له طهارته وصلاحيته ، إذ لا عيب فيه ، لأنه صالح لكي نملأه بما نريد ، وإنما يصلح أو يفسد أهل الزمان :
نعيب زماننا . والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
« والعصر ، إن الإنسان لئى خسر » أى في ضلال ونقصان وحرمان ،

لأنه بسوء تصرفه وقبح عمله يخسر الكثير . ويفقد السعادة والطمأنينة ورضا الله . . . وقد خلق الله الإنسان وميزه بكثير من المواهب والملكات والعطايا ، وسخر له ما في هذا الكون ، وهداه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا ، وأعد له امتحانًا هو هذه الحياة بتجاربها ودروسها وألوان الخير والشر فيها ، فرسب كثيرون في ذلك الامتحان ، وحكم عليهم ربهم بجزاء الرسوب وهو الخسران والحرمان ، ونجح فيه أهل الخير الذين أحسنوا الاستعداد له ، واتصفوا بالصفات الكريمة التي تؤهل للفوز المبين في هذا الميدان ، ولذلك استثناهم ربهم فقال :

«إلا الذين آمنوا» أى أيقنوا بوجود مبدع للكون مسيطر عليه ، يرضى الخير ولا يرضى الشر ، وأيقنوا بجمال الفضيلة فتحلوا بها ، وأيقنوا بقبح الرذيلة فتخلوا عنها .. «وعملوا الصالحات» أى ترجعوا عن عقيدة الإيمان بأعمال تركيبها وتنميتها ، والصالحات هى كل عمل جميل حميد جاء به الدين ، وقبلته الفطرة الطاهرة، واستحسنه العقل السليم ، وانتفع به الفرد أو الجماعة فى الدنيا أو الأخرى ، كالعبادات المشروعة ، وخدمة الناس ، وبذل الأموال فى وجوه البر، والعدل فى الحكم ، والاستقامة فى التصرف ، والجد فى الحياة ، والتحلى بمكارم الأخلاق : وكلما اتسعت فائدة العمل الصالح فى الأفراد والجماعات ارتفعت مكانته عند الله عز وجل ... وإنما تظهر ثمرة الإيمان بقيمته بالعمل الصالح الملائم له . ولذلك اقترن ذكر الإيمان فى القرآن بذكر العمل الصالح فى أغلب المواطن ، ولا تكاد تذكر كلمة «الذين آمنوا» فى القرآن إلا وتذكر معها كلمة «وعملوا الصالحات» حتى تكررت عبارة «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» أكثر من خمسين مرة فى القرآن الكريم . . .

«وتواصوا بالحق» . . . أى أوصى كل واحد فى الأمة غيره بلزوم الحق ، وثبت هذا الحق فى نفسه ، وحضه على اتباعه والدعوة إليه والدفاع عنه ، والحق هو الشئ الثابت فى ذاته لا اعتداله واستقامته ، وهو ضد الباطل فالؤمنون الفائزون يتبادلون الوصية والتضيحة والتوجيه ، كل منهم يكون ناصحاً ومنصوحاً ، وموجهاً ، ولا يستكبر موص منهم أن يوصيه غيره ، فالمسلمون كما قال الرسول تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بدمهم أديانهم ، وهم يد على من سواهم ، وعمر الفاروق - وهو من هو - كان يدعو لمن يأتيه بالنصيحة والتوجيه ، فيقول : «رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا» .

«وتواصوا بالصبر» . . . أى أوصى كل منهم أخاه بأن يصبر على الطاعات ويحذر فيها ، وبأن يصبر عن الرذائل بدوام هجرها والبعد عنها ، ولن يكون للتواصى بالحق والتواصى بالصبر قيمة إلا إذا كان من يوصى بهما خاضعاً لها داخلاً فيهما ، فلا جدوى لوصية من ينصح بالحق وهو على الباطل مقيم ، ولا ثمرة لمن يوصى بالصبر وهو يتحلى به . . . وهى إذن أربعة عوامل للنجاح والسعادة الحسية والنفسية فى هذه الحياة والفوز برضا الله : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالصبر ، فالإيمان فى صدر الإنسان كشجرة ناضرة مورقة ، تحتاج إلى رى وغذاء موصول ، وهذا الغذاء هو العمل الصالح ، كما يحتاج الإيمان إلى تثبيت وتأكيد ، وهذا هو التواصى بالحق ، كما يحتاج الإيمان إلى حصانة وحفظ ، وهذا هو الصبر ، والله مع الصابرين . . . «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد رسم القرآن منهاج الحياة القلضية ، وبين دعائم النجاح فيها ، وبقي علينا التطبيق ، فلنؤمن ، ولنعمل (م ٢٣ - خطب ج ٢)

عملاً صالحاً طيباً مشمراً ، ولنتمسك بالحق ونتواص به ، ولنلتزم الصبر ونندع إليه ، نكون من الفائزين ، والله يهدي العاملين : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الإنسان والإنسان^(١)

الحمد لله عز شأنه ، بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير ،
أحمد سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « وما خلقت الجن والإنس
إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق
ذو القوة المتين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى الإنسانية إلى طريق
الإيمان والأمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته وأهل صحبته
وأتباع دعوته ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يستطيع المسلم أن يقرر ويؤكد - وهو مطمئن إلى تقريره وتأكيده - أنه
لا يوجد دين مثل الإسلام كرم الإنسانية ورفع من قدرها ، وأعز من شأنها ،
وثبت بين أبنائها روابط الألفة والمودة ، حسبنا قول خالقنا : « ولقد كرمنا
بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على
كثير ممن خلقنا تفضيلاً ولقد جعل الإسلام هذه الروابط متنوعة شاملة ، فهي
إما قرابة نسب ومصاهرة ، أو قرابة نسبة ودم ، أو قرابة دين وعقيدة أو قرابة
آدمية وإنسانية ، وجعل لكل رابطة من هذه الروابط حقوقاً وتبعات إذا قام
بها صاحبها زادت الإنسانية كرامة وعزة ، وقرابة النسب والمصاهرة هي
القرابة التي تنشأ عن الزواج ، فهذا ذكر وأنثى ، يلتقيان فيتعارفان فيتآلفان
فيرتبطان باسم الله واسم دينه ارتباطاً زوجياً له حرمة ومكانته فإذا حقوق
وواجبات يتبادلها الطرفان في محبة وإخلاص ، ويصور القرآن ذلك بمثل قوله :

(١) ألقى في يوم الجمعة ١٣ من المحرم سنة ١٣٩٣ هـ الموافق

١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ م .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » بل أشار القرآن إلى أن هذه المشاركة العاطفية والمادية بين الزوج وزوجته كانت منذ بدء الخليقة ، وينبغي أن تستمر إلى نهايتها ، « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما » وكرر القرآن ذكر هذا المعنى عدة مرات ، كما كرر أن الزوجة خلقت من الزوج عدة مرات ، وأبان أن عماد الحياة هو الزوجية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

فإذا انتقلنا إلى قرابة النسب والدم التي تقوم على الأمومة والأبوة والنسب وجدنا الإسلام يحكم الروابط بين الأصول وهم الآباء والأجداد ، والفروع وهم الأولاد والأحفاد ، وما حول هؤلاء من قربات ، فيقرر القاعدة الأصلية الجلية : الأقربون أولى بالمعروف ، ويقول القرآن المجيد « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . ويأمر المؤمنين بأن يحرصوا على صيانة أسرهم وعائلاتهم ، ورعاية أقاربهم وأهلهم ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأقارب وذوى الأرحام فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي : « أنا الرحمن وهذه الرحم ، شققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » . وصب الإسلام اللعنة على من يقطع رحمه ويهمل أقاربه ، فقال التنزيل : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

ثم تأتي قرابة الدين والعقيدة ، فنجد الإسلام يعطى هذه القرابة أشرف الأماكن وأسمى المنازل ، بل ويعطيها أروع صورة من صور التطبيق التضامني في تاريخ الإسلام ، حيث كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مثلاً خالداً

على الدهر للوفاء بحقوق القرابة في الإيمان واليقين ، ويزكى القرآن الكريم هذه القرابة في أكثر من موطن ، فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، « فأصبحتم بنعمته إخواناً » ، « وإن هذه أمتكم أمة واحدة » ، « ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » « فأصاحوا بين أخوانكم » « فلن تابوا وأقاروا الصلاة فأخوانكم في الدين » ويأتى الرسول عليه الصلاة والسلام فيزيد هذه القرابة تكريماً وتأييداً ، فيقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم . . » ، ويقبل البصراء من أبناء الإسلام ليظهروا تفاخرهم واعتزازهم المتين بهذه القرابة فيقول قائلهم :

أبى الإسلام لا أئب لى سواه إذا افتخروا بقرىس أو تميم
ويقول الآخر مفضلاً نعمة الإسلام على كل شئ :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وكان سلمان الفارسى يعتز بنعمة الإسلام كل الاعتزاز حتى يجعله والده وأباه فيقول : « أنا سلمان ابن الإسلام » .

وقرابة الإيمان هى التى جعلت أخت عمر بن الخطاب تفضل زوجها المؤمن على أخيها المشرك يؤمنه ، وتقول لأخيها إنه بإشرافه نجس ، وكان من فضل الله عليه أن أسلم وتطهر ، فصار لديها عزيزاً كريماً ، وقرابة الإيمان هى التى جعلت أم حبيبة زوجة الرسول تمنع والدها أبا سفيان أن يجلس على فراش الرسول لأن والدها فيه نجاسة المشرك حينئذ ، وقرابة الإيمان هى التى جعلت عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول يعرض على الرسول أن يقطع بيده رأس والده المنافق ويقدمه إلى الرسول ، وقد فضل الإسلام علاقة الدين والإيمان على علاقة الأبوة والنبوة والمعاهرة قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . .

وقد ذكر القرآن أن الصداقة القائمة على الاتفاق في الإيمان والتقوى هي أبقى الصداقات وأزكاها : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

ثم تأتي أخيراً قرابة الآدمية والإنسانية ، فإذا الإسلام يعلم البشرية أن كل إنسان بينه وبين أخيه الإنسان رابطة قرابة من ناحية الأصل الواحد ، والأب الأول الواحد ، والأم الأولى الواحدة ، فيقول القرآن في مفتح سورة من أطول سور القرآن وهي سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » . ويقبل معلم الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام فيعلم المسلم أن يرعى حقوق هذه الأخوة الإنسانية العامة ، فيقول : « خير الناس أنفعهم للناس » ، ويقول : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . بل ويعلمه أيضاً أن هذه النفس الإنسانية لها حقها وحرمتها حية أو مية ، فقد أدب الإسلام المسلم بأن يقف للميت إذا مرت عليه جنازته حتى ولو كان الإنسان غير مسلم ، ولقد حدث أن وقف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لجنازة شخص غير مسلم مرت عليه ، فقالوا إنها لغير مسلم ، فاستنكر الاعتراض وقال : أليست نفساً ؟ ! وما دام الإنسان لا يظنى ولا يبغى فإن الإسلام يدعو إلى انصافه وبره مهما كان لونه أو جنسه ، ولو كان غير مسلم (لا ينهاكم الله . . .) .

وهكذا يقيم الإسلام علاقة طيبة كريمة بين الإنسان وغيره من بنى آدم في أنحاء الأرض ، سواء أكانوا أقارب بالنسب والمصاهرة كالأزواج ، أو بالنسب كالأبناء والأبناء ، أو الأصول والفروع ، أو بالعقيدة والدين ، أو برابطة الآدمية والإنسانية . والإسلام يطالبك أيها المسلم بأن تكون مصدر

عدل وخير لكل الناس ، لنفسك وأهلك « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » . .
 لجيرانك : « مازال جبريل يوصيني بالجار » ، لأهل دينك « من لم يهتم
 بأمر المسلمين فليس منهم » ، بالإنسانية المستحقة للمعاونة « تصدقوا على أهل
 الأديان كلها » . وليس وراء ذلك سماحة أو إكرام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ترى لماذا فسدت بين الناس كل هذه الروابط ؟ الزوج يترصد بزوجه
 الدوائر ، والزوجة تكن لزوجها المكائد ، والناس يرددون « الأقارب
 كالعقارب » والمسلمون غرباء لا يتآلفون ولا يتعارفون ، والإنسان يفزع
 من أخيه الإنسان « عوى الذنب فاستأنست بالذنب إذ عوى . . . » السرف
 ذلك أن الأرض قد قطعت أسبابها بالسماء ، ولو عاد الإنسان إلى الله لعاد الله
 عليه بالأمان والاطمئنان (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . . . ليس المهم
 أن نقول إن الله معنا ، فالله مع كل كائن ، ولكن المهم هو أن نكون نحن
 مع الله ، وأن نعود إلى حماه ففي ذلك سعادة الحياة وجمال الحياة ، أقول قولي
 هذا واستغفر الله لي ولكم

بين الانسان والثعبان^(١)

لله الحمد ، نحمده وحده في السراء والضراء ، ونشكره وحده على النعماء
والبأساء ، فلا يحمد على المكروه سواه ، ولا يقصد في الشدائد من عداه ،
ونشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، أنت المطلع على سرائر القلوب ، العليم
بخفيات النوايا والغيوب ، « وأسرؤا قلوبكم أو أجهروا به إنه عليم بذات
الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ٢ . ونشهد أن سيدنا ومولانا
محمداً عبدك ورسولك ، ما داهن يوماً في دينه ، ولا تززع لحظة عن يقينه ،
بل كان سيد الثابتين وإمام المخلصين ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى
آله البررة الكرام ، وأصحابه الأئمة الأعلام ، وأتباعه الداعين إلى دار السلام ،
أولئك لهم البشرى ولهم جنات الخلود . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما أكثر وجوه الشبه بين الإنسان في هذا الزمان وبين الثعبان ، وما أكثر
العبر التي يجنيها العاقل حين يتدبر في هذه الوجوه ، لا على وجه التفنن في
البحث أو التشقيق للحديث ، بل على وجه الاعتبار والادكار ، « إن في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

إن أول ما يطالعك ويخدعك في الثعبان زركشة تشمل ظاهرة ، فيها
نقوش وتقسيات ، وقد يكون منظرها جميلاً ونقسيمها بديعاً تتمنى العروس
لو صنعت مثله من نسيجها في ثوب الزفاف ، ولكن هذه الزركشة تخفى
وراءها حيواناً خبيثاً ومخلوقاً خطيراً ، يخشاه الكبار والصغار ، ويخافونه في

(١) ألفت في يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٠ أبريل
سنة ١٩٥١ م .

الليل والنهار ، وقد يقال لهم ' إن ما تحشونه ناعم الجلد لين الملمس رقيق البشرة ، لا شوك فيه ولا لبد ، فلا يزيل ذلك خشيتهم ، ولا يقضى على خوفهم ، فلا يعلمون أن من وراء الملمس اللين أسناناً تقرض وتقطع ، وأنياباً تؤذى وتضير ، وكذلك الكثير من الناس يا بنى آدم ، ما هم إلا ثعابين بشرية ، إن رق ملمسها فقد خبث مطعمها ، وإن لان مظهرها فقد التوى وتعقد مجبرها بكل ما أوتوا من قوة وحيلة واصطناع يزخر فوق ملابسهم ومظاهرم ، ثم ينطوون على السوء والسواد ، وقد تكون لهم زلاقة اللسان أو براعة التلق ، ولكنهم من الداخل ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد يتظاهرون بأنهم جنود إنقاذ أو رواد إصلاح أو زعماء مجد ، وقد يجلدى زورهم وبيئاتهم في خداع الناس وغشهم حيناً أو أحياناً ، ولكنه لا ينفع عند من لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه قاصية ولا دانية ، فإنه لهم بالمرصاد ، يرتقبهم بسوء العذاب في الدنيا ويوم المعاد ، ولذلك يقول الحديث الشريف : « يكون في آخر الزمان أناس يخلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، لهم ألسنة أحلى من العسل ، وقلوبهم كقلوب الدئاب ، يقول الجليل تبارك وتعالى : أبيتفترون ؟ أم على تجرثون ؟ في حلفت لأبعثن عليهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » .

والثعبان تتطلع إليه فتجد له رأساً صغيراً دقيقاً ، لا يكاد يمتاز عن سائر جسمه بثقل أو ضخامة ، ولكن حذار أيها الساذج ، إن الداء كله هنا ، إن البلاء أجمعه قد استقر هنا . . . هنا العينان اللتان تكشفان ، وهنا الفم الذى يضم الأسنان والأنياب ، وهنا منبع السم الزعاف الناقع ، فلا تحتقر أمر ذلك الرأس وإن دق وصغر ، فالداء هنا يا صاحبي ، وكذلك الكثير من الناس ، ترى الواحد منهم وقد اختفى خطره فيما خف وزنه وقدره ، فقد يحمل رأساً نحيلاً قليلاً ، فيه عينان دقيقان غائرتان ، وفم ضيق بداخله لسان صغير ،

ولكن الشيطان اللعين أو الإنسان الخبيث يستخدم هذا الرأس في تدبير المآثم ، أو تهينة المناكر والمقايح ، فليس في ذهنه إلا كيف يحتال على هذا ، وكيف يوقع بذلك ، وهكذا ، وتلمح عينيه فإذا هما يقدران عما هناك من حسد للناجحين ، وحقد على النابغين ، وضيق لئيم خسيس بفوز الفائزين ، ووقاك الله شر اللسان في ذلك الإنسان ، نعم إنه صغير دقيق ، ولكنك لن تستطيع أن تخصي جراحاته أو عثراته ، وكأنما جهل ذلك الأثيم أن دقائق الأعضاء فيه هي التي تعلويه إذا ظهرت ، وتخسف به إذا تعذرت ، ولذلك جاء : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وقال الرسول : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . ولقد سأل أبو موسى رسول الله فقال : أي المسلمين أفضل ؟ . فأجاب الرسول : من سلم المسلمون من لسانه ويده ... فذكر اللسان واليد وهما من أصغر الأعضاء والأطراف في جسم الإنسان ... وانظر كيف قدم الرسول ذكر اللسان على اليد ، كأنه يريد أن يقول إن اللسان أخطر من اليد وإن كان أصغر منها ، ولا عجب فالأول يقول :

جراحات النستان لها التثام ولا يلتام ما جرح اللسان

وهناك نوع من الثعابين كبير هائل ، يزحف على الأرض بطيئاً متهادياً ، كأنه في نزهة أو في حيرة من أمره ، ولكنه في الواقع يفتش عن صيده المأمول هنا أو هناك ، وقد يصادف في الطريق شاة فيلف جسمه الطويل حولها في رقة وهدوء ، حتى يحيط بها تماماً ، والشاة تحسب أنه صديق أو رفيق ، يعبر بذلك الالتفاف عن حبه أو شوقه ، ولكن الثعبان الماكر « يعط » جسمه ، ويضغط بعضلاته قليلاً قليلاً على الشاة ، ثم يضاعف الضغط يلاً راحة أو هواة ، حتى يقسم جسم الشاة نصفين ، ثم يبدأ في التهام القريسة ..

وكذلك الكثير من الخائنين في الناس ، يسعى إليك الواحد منهم خافض الصوت مطأطأ الرأس ، مظهرأ التعفف عن مالك ، والزهد في جاهك ، مبدياً تمام استعداده ليكون أخاك الذى لم تلده أملك ، ولا يزال ينصب شباكه ويلقى حباله ، وهو الخاضع المتواضع المتحجب ، حتى يصيب منك مقتلاً ، أو يصادف مغنماً ، فيضرب الضربة ، أو ينهب النبهة ، ثم يولى الأدبار ، تاركاً لك تصطلى بنيران غدره وخيانتته ، وكأنه لم يسمع قول الحق تبارك وتعالى : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » أو لم يسمع قول الرسول : « من غشنا فليس منا » وقوله : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ؟ » فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان » . . .

ومن عجب أن تجارب المحريرين أثبتت أن الثعابين لا تؤذى الأشخاص الذين تمر بهم إلا إذا أحست منهم بخطر ، ويقاوان إن السبب في عضه الثعبان أنه حين مروره على جسم الإنسان يخاف المراء منه ويتقلص جاده في حركة اهتزازية وهيئة قشعريرة ، فيحسب الثعبان أن هذا بدء العدوان عليه فيعض ، والدليل على ذلك أن الثعبان يمر على النائم المستغرق في نومه فلا يعضه ، وأن الهنود كثيراً ما يتركون الثعابين تجرى على أقدامهم دون أذى ، لأنهم عودوا أنفسهم عليها ، فلا تقشعر أبدانهم حين مرورها فوقها ، ومعنى هذا أن الثعبان غير مغرم بالعدوان ، ولكن الكثير من بنى آدم على العكس من ذلك ، ففهم من لا تطمئن نفوسهم ، ولا ترتاح قلوبهم ، إلا إذا هدموا بناء ، أو أطفئوا سراجاً ، أو شوهوا جمالاً ، أو ساعدوا الشيطان في أى مكان .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن دينكم الذى حملة إليكم رسولكم عن خالقكم لا يريدكم ثعابين خبيثة تزحف على الأرض ، بل يريد كلا منكم شجرة طيبة عاقلة أصلها ثابت

وفرعها في السماء ، تؤثى أكلها كل حين بإذن ربها ، ولا يريدكم أذى كالحشرات
 تزحفون على الأرض ، وتقنعون بظلام الأحجار أو الأوكار ، بل يريدكم
 شمساً ساطعة وبدوراً مشرقة ، تعز في نفسها ، وتسمو في سعيها ، وتهدي
 بنورها وضياؤها ، فاستجيبوا لربكم وأنيبوا إليه ، فإن رحاب السماء بهديها
 أعلى وأصفى من حضيض الغبراء ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله
 مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ،
 سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

بين الناس والأغنام^(١)

لله الحمد ، لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملأت الكون عظام وعبرا ، وجعلت في كل آية حديثاً وخبراً ، ومن أصدق من الله قيلاً ، ونشهد أن سيدنا محمداً ومولانا عبدك ورسولك ، رق مع المرجوين حتى كان غيثاً مدراراً ، وشق على المعاندين المارقين فكان سيفاً بثاراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، والمهتدين بسنته وأعماله والمستظلين في طريقهم بظلاله ، أولئك الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا لاحظت عناية العلى القدير فريقاً من الناس ، سمت بهم ورفعت من أقدارهم ، ودفعتهم إلى المكارم والعظام ، وباعدت بينهم وبين المناكر والمآثم ، فتراهم أشعة في الظلام ، وجلاء لسحب القتام ، بهم تشرف الإنسانية وتعلو قيمة الحياة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو النضل العظيم . . . وإذا تولت الشقوة طائفة أخرى أضلت سعيهم وأفقدتهم وعيهم ، وجعلتهم كالأنعام ، بل هم أضل ، وصيرتهم كالحشرات بل هم أقل ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ! .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يعيش بين العبيد ، ومن محن الأيام أن يقيم

الإنسان بين مراتع الحيوان ، وإذا كان الأول قد قال قبل عصور وعصور :
 إن الناس كانوا ورقاً بلا شوك ، فأصبحوا شوكاً بلا ورق ، فإن اللبيب اليوم
 يتمنى لو ظل الناس أشواكاً رغم ما فى الأشواك من دواعى الأذى والهلاك ،
 إذ أنهم قد انقلبوا على وجوههم ، فخسروا كل شيء حتى قوتهم الممثلة فى
 شوكتهم ، وغدوا قطعاناً يرتعون وما يشعرون أيا ن يبعثون ، ولو أراد متدبر
 أن يحصى وجوه الشبه بين كثير من الناس وبين الأغنام لوجد من هذه الوجوه
 الكثير . . . إن الأغنام ترتع للتشبع ، دون فكرة تهديها ، أو عقيدة تبنيها ،
 أو مكرمة ترتجىها ، وكذلك أغلب الناس اليوم ، شغلهم نداء البطن وموسيقى
 الأمعاء وشهوة البدن عن رفيع المبادئ وكريم الرسالات ، واستبد بهم تنافسهم
 الأثيم حول خسيس المآرب وكاذب المراتب ، فجعلهم كالكبش تتهارش
 وتتطانح بلا تعقل أو ارعواء ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا
 لا ترجعون » ؟ . .

والأغنام تنفث فى مرعاها ، ثم لا تكتفى بما سبق إليها ، بل تحوم حول
 الحمى وتقع فيه ، فتنال من شيء سواها ، وتجترىء على حق من عداها ،
 وكذلك الناس يتيح لهم ربهم باحات الحريق والمتاع ، ويحل لهم الطيبات ،
 ولا يحرم عليهم إلا الخبائث ، ويؤتيهم من رزقه كل جميل وكل مقبول ،
 فلا يقنعون به ولا يقتصرون عليه ، بل يمدون أعينهم إلى الحرام ، وتتطلع
 قلوبهم إلى البعيد الخسيس ، فيتركون المال النظيف والعمل الشريف إلى سمع
 المكاسب وذلة الإجماع ، فإذا ما عبهم عائب على كثرة التردى فى الهاوية
 وتكرار الوقوع فى المنحدر ، تعللوا بوسوسة الشيطان واشتباه الأمور ،
 مع أن رسولهم يقول : الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات
 لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ،

ومن واقع الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ! .. ومن عجيب الشبه هنا بين الناس والأغنام يصددها راعيها مراراً وتكراراً عما ليس لها ، ولكنها تتأبى عليه وتنفر منه وتسى به الظنون ، وكذلك الناس كلما جاءهم واعظ أو مرشد ليصدهم عن خنا أو يدعوهم إلى علا ، ينخروا منه واستهزأوا به ، أو تظاهروا له بالاستجابة والخضوع ، ثم ولواعنه بعد ذلك معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة « ومن أعرض عن ذكرى فلان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى .

والأغنام يأتيتها صاحبها المتاجر فيرقدها على الأرض ، ويجز منها شعرها لبيعه أو يستغله في مصلحته ، وقد يوهما أن ذلك تخفيف عنها ورحمة بها ، وقتل الإنسان ما أمكره ، فإنه في الحقيقة يمتص دماءها ويستلب خيراتها ، وكذلك الدواب من الناس ، تهون عليهم نفوسهم ، وتذل في صدورهم قلوبهم وتخشع في الحياة همهم ، فيعيشون أشباهاً للرجال ، يقضى الأمر فلا يشتشارون ، ويسامون الخسف فلا يغضبون ، وتستغلهم في الكون جابرة يسلبونهم الغذاء ، ويمتصون منهم الدماء ، والضحايا الذليلة المهينة تبش لساليها ، وتقبل راحات قاتليها ، مع أن الحق يقول : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ويقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول الرسول عليه صلوات ربه العزيز : « من مات دون ماله فهو شهيد » .

والكباش في دولة الأغنام يسطو بالنعجة ، فيعاشرها ويواقعها على مرأى من الأغنام والناس لأنه حيوان ، وكذلك من الناس من يأخذ المرأة الغريبة عنه

المحرمة عليه فيخاللها ، ويلسع بها الطرقات متبججاً في دعاره وفجور ،
بلا نخجل أو حياء ، وقد ينادى عليه صبيان الحى أو أطفال الحارة بلغتهم
العامية : « سيب النعجة يا خروف » فلا تستحى ولا يبالى التيس الصفيق ! . .

والأغنام تلد خرافاً كثيرة العدد ، وقد تظن أن هؤلاء الأولاد سيكونون
قرق عين لها ، ولكنها بعد قليل تفرط فيهم وتبعد عنهم وتستخف بهم وتصبح
الخراف الجلدية مكسباً بارداً للجزار الذى لا يلين ، وقد تشهد النعجة مصرع
وليدها على شفرة الجزار ، فلا تحرك ساكناً ولا تثير غضباً ، وإذا ما تحركت
فإنما تتحرك لتنجو بنفسها بعيدة سالمة من ذلك المصير ، وليذهب الوليد العزيز
إلى ألف جحيم ، وكذلك الكثير من الناس أصبحوا كعامل التفريخ فحسب ،
يلدون أولادهم وهم يحسبونهم قرة أعين لهم ، ولكنهم بعد قليل يتركون
لهؤلاء الأولاد حبالهم على غاربهم ، فلا تربيته ولا تقويم ، ولا خلق ولا تأديب
بل يتركونهم طعاماً لنحيث الترعات وخسيس المبادئ وجامع التيارات وطائش
الاتجاهات ، وتطول شقة البعاد والخلاف بين الآباء والأبناء ، فتقطع بينهم
الأسباب والروابط ، فيستهين الوالد بولده ، ويستخف الولد بأبيه ، فلا رحمة
عند الوالد لولده ، وقد يساق الوالد مساق الأخطار فلا يغار الولد ولا يثور ،
وقد يساق الولد إلى الشقاء فلا ينجده والده ، وقد بما كان الآباء يراقبون
الله والأبوة في أبنائهم ، فيحفظونهم في صغرهم ، وينشئونهم أكرم تنشئة ،
ويرعونهم أفضل رعاية ، فإذا شب الأبناء عن الطوق رأوا أثمار التربية فيهم
فشكروا أصحاب الفضل عليهم ، وذكروا أن للوالدين حقوقاً تؤدي ، فهتف
كل منهم : رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام : . .

إن ربكم الرحمن ، وكتابكم القرآن ، وشرعتكم الإيمان ، وطريقتكم

الإحسان ، ووالله ما جئتم إلى الكون لتكونوا أغناماً بل لتكونوا أعلاماً ، وما دخلتم أمة محمد لتذلوا أو تفلوا ، بل لتكثروا وتعالوا ، فإن يكن أصابكم هوان بعد تكريم فننكم وبأيديكم ، وحسبكم تأديباً قول الله ارسوا : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً » . ولن يعز لإنسان في الوجود إلا إذا عرف ربه ، وعرف نفسه ، وعرف حقه ، وعرف واجبه ، ثم هتف : إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيئاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، ولا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون — أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . . .

مهزلة في الأزهر^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو ولي المؤمنين ، ونخاذل الفاسقين : « فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . أشهد أن لا إله إلا الله : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد في سبيل الله أفضل الجهاد ، فهدي إلى الملق وإلى صراط مستقيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في وسط الأسبوع الماضي^(٢) حدث ما يشبه المهزلة في الأزهر الشريف الذي نحبه ونغار عليه ونتمنى الخير له ، فقد أرادوا أن يجددوا فيه فاستدعوا سيدة لتحاضر في قاعة المحاضرات أمام العلماء والطلاب ، وهي أديبة باحثة ، وأكثر حشمة من مثيلاتها ، ولكنها حينما وقفت لتتكلم في عقر الأزهر كانت كما قالوا مكشوفة الرأس ، فقام أحد العلماء وقدم إليها « الشال » الذي كان معه لتضعه فوق رأسها ، لأن شعر المرأة عورة كما يقول الفقه الإسلامي ، فأبت السيدة وألقت « الشال » أمامها ، وهنا نهض عالم آخر وأيد زميله في اقتراحه ، فحدثت ضجة أخرجوا خلالها العالمين اللذين اعترضاه من القاعة في صورة غير كريمة ، وبدأت السيدة تتكلم ، فحملت حملة شديدة على العلماء ، لأنهم غضبوا لكشف شعرها ، قائلة إن العلماء توجد أمامهم المخازي والمنكرات

(١) أقيمت في يوم الجمعة ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٥٩ م .
(٢) يوم الاثنين ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٩ م والسيدة هي الدكتورة بنت الشاطئ .

تملاً الأرجاء ومع ذلك لا ينكرونها ولا يغيضون منها ، وتوسعت السيدة في ذلك حتى ضج الحاضرون وطالبها بعضهم بالسكوت ، وقام أزهرى آخر بعد هذا كله فحمل على زميليه وتعرض لها بشيء من التجريح ، وانتهت الندوة بهمهات الأسف وتمتات الألم مما حدث في رحاب الأزهر المسكين ..

ويلاحظ المسلم الغيور هنا أن الحادثة مؤسفة من بدايتها إلى نهايتها ، ولقد علق الناس تعليقات ثائرة أو ساخرة على ما وقع ، فن مؤيد للعالمين اللذين اعترضوا لأنهما أمرا بمعروف ونهيا عن منكر ، ومن منتقد لهما لأنهما كانا يستطيعان أن يتصرفا بحكمة أكثر ، ومن مؤيد لحملة السيدة على رجال الأزهر لأنهم يفرطون في واجباتهم ، ومن معارض لها لأن الأسباب المادية والمعنوية الموجودة في أيدي العلماء لا تكفي لتمكينهم من مقاومة المنكرات ومحاربة المآثم ، وقد يستطيع رجل بوليس الآداب بسلطته مثلا أن يكون أقدر من كوكبة من العلماء بلا سلطان والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن... ولاشك أن إخراج سيدة سمحوا لها بالدخول ، ودعوا رسمياً لتحاضر أمر فيه نظر وتصرف يحتاج إلى مراجعة ولا شك أن إخراج عالمين بالقوة من قاعة أزهرية لأنهما أبديا رأيهما شيء مهين للكرامة ، ولاشك أن تجريح العلماء على «طول الخط» لا ينبغي ولا يفيد ولذلك كانت الحادثة مؤسفة من بدايتها إلى نهايتها ...

كذلك نلاحظ أن الأزهر الرسمي يقف موقف التناقض بين ما يلقيه لأبنائه من تعاليم الدين وأحكام الفقه ، وبين التصرفات العملية التي يقوم بها رجاله في مجال هذه الأحكام ، فالأزهر مثلاً يعلم أبنائه في مختلف المذاهب الفقهية المعتمدة أن شعر المرأة عورة يحرم كشفه ، ولكن الأزهر نفسه يسمح لمئات من النساء الشرقيات والغربيات المكشوفات الرأس وغيرها من أعضاء الجسم بزيارة الجامع الأزهر والاختلاط بمن في داخله ، ويسمح لمثلهن

بالدخول إلى إدارة الأزهر ، وأخيراً دعا سيدة مكشوفة الرأس لتحاضر في قاعته الكبرى ، ولقد نشرت الصحف منذ حين صورة لطائفة من السيدات في شكل لا يناسب الحشمة والوقار ، وهن في مكتب رئيسي بإدارة الأزهر ، فلما أن يقولوا لنا إن هذه الأحكام الفقهية غير صحيحة ، ولما أن يقولوا لنا إنهم غير مؤمنين بها ، ولما أن يحترموها إن كانوا بها مؤمنين . . . نعم لقد اتسع نطاق التناقض بين ما نقرره في الدروس الدينية بالمعاهد الإسلامية من أوامر الدين وأحكام الفقه ، وبين ما نراه مطبقاً في الحياة ، حتى على أيدي الذين يقررون هذه الأحكام ، فأصبحت الحياة بلا دين ، فانطلقت وتحللت إلا من رحم الله ، وأصبح الدين بلا حياة ، لأن صلاته وروابطه بالحياة قد انقطعت أو ضعفت ، فصار الدين عندنا مجموعة من النصوص تضمها كتب مطورة في المكاتب والأدراج ، أو تضمها رءوس ترددها وتعيدها ، دون أن تستطيع نفخ الحياة العملية فيها ، وأصبح المستمسك بدينه الملتزم له كالباقض على الجمر كما جاء في بعض الآثار . . . وإذا أصبحت الحياة بغير دين فهي والفوضى سواء ، لأنها تخلو حينئذ من وازع الضمير ومراقبة الله وخوف الحساب الدقيق ، فيفعل كل امرئ ما يهوى وما يشاء ، بلا صاد أو رادع وإذا أصبح الدين بلا حياة أو تطبيق أدركه الجمود والركود ، فيخيل إلى الناس أنه غير صالح للتطبيق والتنفيذ ، مع أن العيب ليس منه ، بل من هؤلاء الذين حالوا بينه وبين التطبيق ، والحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، والباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ومن مظاهر التناقض بين ما نقرره من أحكام الدين وما يفعله الناس في الحياة أن الدولة جرت على تقليد عجيب غريب ، لا ندرى كيف ظل

المسؤولون ساكتين عليه راضين به إلى اليوم ، وهو أنه كلما صدر حكم بالإعدام على متهم بالقتل حولوا أوراقه إلى مفتى الدولة ليقول رأى الدين في الحكم ، فإن وافق على هذا الحكم نفذوا الإعدام ، وإن عارض رأيه الحكم نفذوا الإعدام أيضاً . . . وما دام الحكم منفذاً في كلتا الحالتين ، فلسنا ندرى لماذا يحولون الأوراق إلى المفتى ، ولماذا يؤخذ رأيه إذن ؟ . . .
لأنهم يقولون : إن رأى هنا استشاري ، ونجيب بأن المستشار يجب أن يطاع ما دنا قد وثقنا به ، وإلا كان معنى هذا أننا نوهم الناس أننا نحترم رأى الشريعة والواقع أننا هنا لا نقيم له وزناً ، وكان مقتضى أخذ الرأى من المفتى ألا ينفذ الإعدام إلا إذا كان حكم الدين الذى نؤمن به صريحاً في استحقات المتهم للقتل . . .

ونلاحظ بمناسبة الحديث عن الأزهر أن مناهج الدراسات الإسلامية فيه وفى فروعها قد أخذت تتقلص يوماً بعد يوم ، وأخذت مواد مختلفة تزاخم الثقافة الدينية الصحيحة هناك ، فأصبح الطلاب حائرين ، يأخذون أمشاجاً من تراث الإسلام العربية ، ويأخذون معها أخلاطاً من مواد أخرى ، فيظنون حائرين بين هذه الأمشاج وتلك الأخلاط ، مع أنه يجب أن تبقى للأزهر شخصية علمية إسلامية عربية متميزة ، تقوم على التبحر فى دراسات الدين ، والتمكن من ثقافة الإسلام ، وعدم طغيان المواد الأخرى على الدراسات الإسلامية والعربية السليمة ، وإلا صار الأزهر مدرسة كسائر المدارس . وهذا ما يتمناه الحاقدون على الإسلام والعروبة ، إذ يريدون ألا يبقى لهاتين الدعامتين صرح شامخ يمثل الحرص على دراسات الإسلام وبحوث العربية . . .
والمؤسف أن أبناء الأزهر يعيشون حول جامعتهم فى مقبرة كبرى تسمى تلأل الدراسة ، حيث يستنشقون الهواء ممزوجاً بغبار الأقدار والخرائب ،

وحيث يقضون أيامهم في مال وكلال وشبه عزلة ، وحيث لا يحسبون بأنهم قد نالوا حظوظهم من العناية والتقدير ، فهم لأجل هذا لا يتمكنون من ميادينهم على الوجه المطلوب ، وهم أيضاً يرددون نصوصاً وأحكاماً لا يجدون صداها فيما حولهم من المجتمع ، ولا يجدون من يتلقاها عنهم تلقى الرغبة في التمسك بها والالتزام لها ، وكما علونا في سلم التبعة والمسئولية وجدنا المسؤولين هناك مشغولين بشواغل أخرى غير هذه الميادين ، وكلما حدثهم بما يجب أن يكون منهم ، أو ما يجب أن يكون لهم ، نخيل إليهم أن الناصح يتربص بهم الدوائر . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن تعاليم الإسلام وثقاليده وثقافته تتعرض اليوم لابتلاء شديد وامتحان عصيب ، فالجماهير منصرفة عنها ، ودعاة الخير قد ضعفت منهم العزائم أو كادت ، والأزهر بتاريخه وموارثه الإسلامية والعربية هو الحصن الذي يجب أن يصون تراث الإسلام والعروبة ، ويجب ألا يتخلى عن وظيفته ، أو يتنكر لرسالته ، وواجب المسلمين جميعاً أن يعمل كل منهم بما استطاع ليظل لواء اليقين مرفوعاً ، وعماد العربية شامخاً والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

من أجل الفضيلة^(١)

الحمد لله عز وجل ، يرضى لعباده الخير والاستقامة والصلاح ، ويكره لهم السوء والبغى والفساد : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . أشهد ألا إله إلا الله ، وعد بالثواب أهل الفضيلة والرشاد ، وتوعد بالعقاب أهل الغي والضلال : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، باعد نفسه وقومه عن الرذائل والآثام ، وزان حياته وحياتهم بالتقوى وصالح الأعمال ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، ومن استضاء بأعماله وأقواله : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يا لغربة الإسلام في بلاده ، ويا صنيعه الحق في دنيا الباطل ، ويا هوان الأخلاق في عصور الفوضى والانطلاق ، ويا شدة ظلمنا لهذا الدين الكريم الذي ننتسب إليه وقد نتاجر به وقد نستغله أسوأ استغلال في بعض الأحيان ، ثم لا نعمل به ولا نغار على حرمانه . . هذا أحد المصلين يكتب إلى والعهدة في الرواية عليه أن قريباً له غير متزوج شكاً مرضاً في خصيته ، فذهب إلى طبيب مسلم يئشده لديه العلاج ، فلم يجر الطبيب له عملية جراحية ، ولم يعطه حقنة ، ولم يصف له دواء ، ولم يختار له علاجاً ، بل قال له إنك مصاب بكبت جنسى وعليك أن تعالجه عن طريق مخادنة النساء مخادنة غير شرعية حتى يزول

(١) أقيت في يوم الجمعة ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق

١٣ من ديسمبر سنة ١٩٥٧ م .

هذا الكبت وتستقيم الحال . . . هكذا والله ربى وربكم كتب إلى أحد المصلين وهو يسمنى الآن فيما أعتقد ، وقد ذكر لى أن قريبه المريض استنكر هذا الرأى من الطبيب ورفض أن ينفذه ، وأراد أن يسمع كلمة الإسلام فى الموضوع .

أكنت إذن مسرفاً حين قلت : يا لغربة الإسلام فى بلاده ؟ . . هذا طبيب مسلم فى بلد يصف نفسه بالإسلام يحرض مريضاً مسلماً على ارتكاب جريمة الزنى وهى الجريمة البشعة والفعل الشائن الذى يقول فيه ربى وربكم : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . . . يحرضه على هذه الفاحشة وهو يعلم أنها بشعة محرمة بنص القرآن والسنة ، وأنها لو لم تحرمها الشريعة لحرمها العقل وحرمتها الغيرة ، ومحمد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم قد أنبأنا بأن الله جل جلاله لم يجعل دواء أمته أو علاجها فيما حرمه عليها ، حتى لقد مثل صلوات الله عليه عن التداوى بالخمر فأجاب : إنها داء وليست بدواء . . ولقد قال طارق بن سويد للنبي عن الخمر : يا نبي الله إنها داء ، فقال له : لا ، ولكنها داء . وعن أبى هريرة قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الدواء الخبيث وخبث الدواء أن يكون نجساً ، أو مسكراً ، ضاراً ، أو محرماً ، وفى الحديث : « تداوا ولا تداووا بحرام » .

وقد كان فى استطاعة هذا الطبيب لو اهتمنى إلى سواء السبيل أن يعالج هذا المريض بطريق من طرق الطب ، أو يزيل عنه هذا الكبت بوسيلة من وسائل التخفيف الصناعية ، أو ينصحه بالرياضة البدنية ، أو ينصحه بالزواج ، حتى يهتدى فى هذا بعلاج محمد عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (أى تبعات الزواج وتكاليفه) فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » أى علاج وتنفيس . . . وليت شعري

من أين يأتي الطبيب لهذا المريض بالنساء اللواتي نصحه بمضاجعتن ، وليس في المجتمع اليوم بغايا محترفات ظاهرات ؟ . . أيقبل هذا الطبيب مثلاً أن يعتدى هذا المريض على عرض امرأة من أهله أو قريباته ؟ . أغلب الظن أن جوابه على ذلك هو الغضب والاستنكار والنفي . وإذا كان يكره هذا فكيف يحب لغيره ما لا يحبه لنفسه ، والرسول يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وماذا يحدث لو سمحنا لكل شاب عنده كبت أو قوة في غريزته أن يسطو على ما يصل إليه من أعراض ؟ . . ماذا تكون النتيجة ؟ . . ألا ينقلب المجتمع إلى حظيرة تضم شياها تنزرو عليها الذئاب ويقف التيوس من خلفهم يهزون قرونها ذات اليمين وذات الشمال ؟ . . ألا يجعلنا هذا ننشد البيتين المشهورين :

مررت على الفضيلة وهي تبكي فقلت علام تنتجب الفساة ؟

فقلت : كيف لا أبكي ، وأهلى جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

وهذا مصل آخر يقدم إلى مجموعة من صور نسائية فاضحة ، إذ ظهرت فيها بعض النساء عاريات تماماً في أوضاع جنسية مثيرة للرشد والغوى على السواء ، وذكرى أن هذه الصور تباع هنا وهناك في الطرقات والميادين ، ويشتريها الرجال والنساء ، والطلاب والطالبات ، فكيف يصح هذا يا عالم ؟ . أو لم يكف هؤلاء ما هناك من تبرج المتبرجات وفجور الفاجرات وتبذل المتبدلات ، فجاءوا بسافل المحرضات وقذر المثيرات لتزداد الدنيا فوضى ، ويصبح الأمر خليطاً ، ويضيع ما بقي من الدين والأخلاق ؟ . . ولكن لماذا لا يفعلون وهذه هي الصحف نخبرنا بأن بعض الكليات الجامعية تقيم مسابقات من نوع جديد طريف ، ولكنه نوع أثيم مخيف . . . إنها ليست مسابقات في العلم . . . لا في العلم ولا في الأدب ولا في البحث ولا في الاجتماع - بل في

الرقص بين الطالبات . . . إلى والله ربى وربكم فى الرقص بين الطالبات ، كما نخبرنا هذه الصحف بأن هذه الكليات تقيم مسابقات بين الطالبات فى السباحة ، وأنتم قد تعرفون أو تسمعون عن ثياب الرقص و« مايو » السباحة ، وتعرفون من هذا أن أجساد الطالبات وهن فى عز الشباب — وأفخاذهن وظهورهن وبطنهن ومفاتيهن ستكون معرضاً ظاهراً مكشوفاً لأنظار المشاهدين من أساتذة وطلاب وضيوف كرام أو غير كرام ! . . . سيقول هؤلاء — بل لقد قالوا — إن هذا لون من تهذيب الغرائز بالقضاء على الحساب وبخاط البنات مع البنين ، لأن فصل الذكور عن الإناث — فيما يزعمون — يؤدي إلى الكبت الحسى والتعقيد النفسى والانحراف الجنسى ، ولو حاربنا هؤلاء وأخذنا بنظام الاختلاط وتخفف النساء من الحجاب والثياب ، اكانت النتيجة كما يقول الباحثون أحد أمرين : إما أن تزداد الغرائز ثوره عند الكثيرين فتنتطلق ، وتكثر المصائب والفضائح ، وهذا هو المنتظر بحكم الطبيعة وشاهد التجربة ، وإما أن يتحقق زعمهم وهو خلود الشهوة وبخود الغريزة بسبب الألفة فيؤدى ذلك إلى مصيبة البرود الجنسى ، وهو علة اجتماعية مستعصية ، يحار المصابون فى علاجها ، لأنها تفقدتهم رجوليتهم وفحولتهم ، وتشعرهم بهوانهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، ولأنها ستخرج لهم — إن أخرجت — نسلاً ضعيفاً هزيلة ، ثم تكون النتيجة مع هذا أن يتأث الرجال وتسترجل النساء ، فيستنوق الحمل وتستأسد الناقة فيشقيان معاً .

وهذه بلالاي الاختلاط تأتينا من بلاد الاختلاط . . . من بلاد المدنية والحضارة والنور والثقافة والرياضة والتهذيب الاجتماعى — هكذا يزعمون لأنفسهم وربك أعلم بما يصنعون . . . فقد نشرت صحفنا منذ أيام أن ثلاثة آلاف شاب مراهم هجموا فى حفل عام على الفتيات الجميلات المتسابقات على لقب ملكة الجمال للرياضة فى كولومبيا بأمريكا ، وحدث

معركة بسبب ذلك ، تحطمت فيها سيارات ، واستعملت مسدسات ، وجرحت فتيات ، وكانت النتيجة طبيعية ، فلم تنفع الحضارة ولا الرياضة ولا حفلة التسابق في منع الهر الجائع من التهام اللحم الشهى المعروض بين يديه ! ! . . .
فهلا كان لنا من عبرة وعظة يا أمة تريد أن تنسى دينها وأخلاقها وعفتها ليقال لها : لقد أصبحت مثل أوربا ؟ . . .

هذه صرخة رجل عاش في فرنسا ، وتربى في باريس ، واشتغل بالأدب واختلط بالأوساط المختلفة واحترف الصحافة قرابة أربعين ، فلن يتممه متهم بالرجعية والجمود . . .

هذا هو الأستاذ أحمد الصاوى محمد يصرخ في جريدة « الأهرام » صباح ١٥ ديسمبر ١٩٥٧ فيقول :

على الآباء والأمهات أن يفتحوا عيونهم ، ولا يكونوا كالنعماء الذى يدفن رأسه في الرمال زاعماً أن الصياد لا يراه ! . .

لقد رأينا في إحدى الزميلات- طلبة وطالبات إحدى الكليات الجامعية يرقصون الروك - أند - رول ! ! والفتاة الحسناء الهيفاء في حضن الفتى الرشيق الجميل ، وقد انثنى ظهرها ، وتركت له ظهرها ، وقد أسند بركبته غصنها ، والتوت الأصابع ، والساق على الساق . وكانت الرقصة تقول هل من عناق ؟ ..

إننا لا نلوم الفتى فهو لن يمسه السوء . . . لكن أين أهل البنت ؟ . . متى تعلمت هذه الرقصة الفاجرة ؟ . . هل هي طالبة جامعية نرجو منها خيراً لوطنها ولأهلها ، ثم نرجو منها أن تكون يوماً عماد بيتها ، وأما مثالية لأولادها ؟ .

إننا لا نكره النزاهات الخلوية والمرح البريء يرفه به أولادنا وبناتنا عن أنفسهم ، ويستمعون بالهواء الطلق ، والحديث الشجى ، والنقاش الذى يزيد المعرفة ويصقل الفطنة ، ولكن . . . هل الرقصة التى تبرات منها كثير من

الدول الأوروبية ، ومنعتها ، وأدخلت في السجن من كانوا يرقصونها في الشوارع . . . هل هذا هو المرح البريء واللهو المذشود ؟ ! . .

ولقد قرأنا منذ شهرين أو ثلاثة أن أستاذاً جامعياً يقيم حفلاً في بيته يحضره شبان من طلاب كليته ليرقصوا رقصة روك أند رول . . . مع . . . مع . . . من ؟ مع الأنسة كريمته التي بلغت العشرين ربيعاً ! ! . . فهل هذه هي التربية المرجوة من الأستاذ ومن الوالد ؟ . . أم ترى أننا نعيش في زمن غير زمننا ولم نعد ندرك ما يدور حولنا ؟ ! » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد يقول لي بعضكم : إنك تؤذن في مالطة ، ولكني في الواقع أؤذن في مصر بلد الإسلام وبلد الأزهر وزعيمه المسلمين كما يقول . . . وقد يقول لي بعضكم : إنك تصرخ في واد ، ولكني أصرخ في وادي النيل الخصب ، الوادي الذي عرف الله منذ أقدم العصور . . الوادي الذي نبتت فيه شريعة موسى ، ولجأت إليه شريعة عيسى ، واعتزت بجهوده وجهاده شريعة محمد ، فحذار يا قوم ، حذار أن يضيع على أيديكم تراث محمد . . . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . .

أين الأمة الشاهدة^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الثواب والعقاب نتيجة لعدالة الحساب ، وهو أحكم الحاكمين . أشهد أن لا إله إلا الله ، يكره مخالفة الأعمال للأقوال : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما أبعد هذه الأمة الإسلامية اليوم عما أراده لها ربها ، ودعاها إليه رسولها ، وطالبها دينها ، وأوجبته عليها كرامتها ، ثم ما أوسع دعواها ، وما أوجع بلواها ، فالله جل جلاله يقول لأمته مثلاً : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، والأمة كما يقول المفسرون هي الجماعة التي تؤم أى تقصد جهة واحدة ، فتكون موحدة الصف موحدة الهدف ، والوسط هو العدل والخير ، لأن وسط الشيء هو خياره ، ووسط الوادى هو خير موضع فيه وأكثره ماء ونباتاً ، وواسطة العقد هي خير جوهرة فيه ، والرسول أوسط قريش نسباً أى خيرهم ، والقرآن يقول : « قال أوسطهم » أى أعدلهم وأفضلهم ، والرسول يقول : « خير الأمور أوسطها » . والوسط في الحقيقة هو البعد عن الطرفين بعداً متساوياً ، والطرفان

(١) القيت في يوم الجمعة ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٨ م .

هما الإفراط والتفريط ، فالإنسان الوسط يبعد عن الإسراف بعداً مساوياً تماماً لبعده عن التقصير ، فكأن الوسط يوجد فيه معنى الانضباط والاستقامة والاستواء على الصراط المستقيم ، والمؤمن الحقيقي هو الذى يمضى فى طريقه على خط معتدل ، لا يميل عنه ولا يضل فيه ، فلا هو يغلو ويسرف ، ولا هو يقصر أو يححف ، ولذلك علم الله عباده أن يدعوهم كل يوم عدة مرات قائلين فى الصلوات : « أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . وحين قال الله لأمرته : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » كأنه يقول لأبنائها وهو أعلم بمراده : لقد أردتكم خياراً عدولاً ، يذكىكم العلم والعمل ، وتجمعكم كلمة التوحيد ، ويعزكم توحيد الكلمة ، وتزينكم خصالكم الحميدة التى تضبط خطوات أصحابها ، فتجعلهم فى الوسط الصحيح السليم القويم ، فهم ينهضون بكل الواجبات ، وهم يحذرون كل المنهيات ، والله من وراء الجمع مرشد ومعين .

ثم قال الله تعالى لأبناء الإسلام : « لتكونوا شهداء على الناس » . والشهادة درجة خطيرة ومنزلة جليلة ، فيها يقبل حكم الإنسان على غيره فى دينه وعمله ، والرسول يقول : « من أثبتتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثبتتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض » ثم تلا قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . وهذه الشهادة تقتضى أن يكون الشاهد صالحاً لها جديراً بها قادراً عليها ، فيكون فاضلاً عادلاً له شمائل ينفرد فيها وفضائل يتحلى بها ، حتى تكون له مزية على غيره ، فيصلح لإبداء الشهادة على سواه ، شهادة الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم فيها معنى الإشراف والتوجيه والقيادة ، فلا بد لها من منهج وخطة ، ولا بد أن يكون لديها قيم وموازين ، فهى الأمة الحاكمة الفاصلة ، التى تقضى بين الأمم ،

وتقوم اعوجاجها ، ولن يستقيم الظل والعود أعوج ، وفاقد الشيء لا يعطيه ،
 فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية مسئولة عن تقويم غيرها ، فلا بد أن تكون
 قوِّمة في نفسها ، وأن تكون كما أراد لها خالقها أمة وسطاً ، أى معتدلة في
 أمورها مستقيمة في اعتقادها وتفكيرها وتصرفها ، فقد هيا الله لها أسباب
 الوسطية في كل شئ حتى في مكانها ، فجعلها وسطاً بين الشرق والغرب
 لتكون بعقلها وفضلها وعملها الصيام والزمام والإمام لمن في الشرق ومن في
 الغرب ، وتلك مكانة عليا لها تبعاتها وواجباتها ومشقاتها : « إن العظام كفوها
 العظاء » .

ولإذا كانت هذه الأمة الإسلامية مطالبة بأن تكون شاهدة على الناس ،
 فلنأخذ في الوقت نفسه مشهود عليها ، وهى مشهود عليها من أكرم شاهد ،
 وأكمل نموذج للانسانية الطاهرة الفاضلة ، إن الشاهد عليها هو الصادق
 المصدوق رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ويكون الرسول عليكم شهيداً »
 فالرسول يشهد لكم وعليكم ، وهو يشهد بأنه قد بلغكم فادى الرسالة وصان
 الأمانة ، ولعل هذا هو بعض السر في تكريره قوله : « ألا هل بلغت ، اللهم
 فاشهد » . وهو يشهد بالإيمان لمن استجاب واهتدى واستقام ، ليكون ذلك
 تزكية للمتقين عند ربهم ، والأمر من بعد هذا ومن قبله بيد الله وحده ،
 يفعل ما يشاء ويختار ، ورسول الله الشاهد على أمته هو الذى يقول لها :
 « أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ،
 ويمرن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم ، فأقول يارب إنهم
 منى (أى يقولون إنهم من أمتى) فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ،
 فأقول : سحقاً سحقاً لمن غير بعلى » . وهو الذى يقول لأمته : « خيركم

قرفى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون (لا يدعون للشهادة لعدم أهليتهم لها) ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن . وما أشد الموقف وأعظم الهول حينما تقف الأمة أمام رسولها ليشهد عليها عند ربها : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » .

ومن المعروف في فقه الإسلام أن الإنسان لا يصلح للشهادة في الأمور القضائية الدنيوية بمجرد كونه مسلماً أو قوله أنا مسلم ، بل لابد أن يكون مرضياً في أخلاقه وسلوكه ، وأن يكون عادلاً منصفاً ، لأن الله يقول في وصف الشهداء « ممن ترضون من الشهداء » ويقول : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » والعدالة هنا كما قال المفسرون هي صفاء السيرة واستقامة السيرة وتجنب الكبائر والتزام الفضائل ، فكيف إذن بشهادة أمة على غيرها من الأمم ؟ وهل تجرؤ هذه الأمة حقاً على أن تقف موقف الشهادة على سواها قبل أن تسأل نفسها . أتستحق أن تكون شاهدة أم لا ؟ . وهلا يكون من العدل إن كان لابد لها من شهادة — أن تشهد على نفسها قبل أن تحاول التعرض للحكم على من عداها ؟ . ها هي ذى اليوم تبدو وكلها ثغرات صالحة لتوجيه الطعنات والضربات ، فهل لها صف موحد ، أو هدف موحد ، أو جيش موحد ، أو قيادة موحدة ، أو خطة موحدة ، إن فيها من يقدر على أن يضرب عدوها ثم يتقاعس ، وفيها من يعجز عن الضرب ثم تتوالى عليه الضربات بلا نصير ، وفيها من يقول كثيراً ولا يعمل قليلاً ولا كثيراً ، وفيها من يصمت صمت الأموات حتى عن الكلمة الطيبة ، وفيها من تبلى حسه وتجمد شعوره فصارت أنباء العدو المتكررة عنده كأنها حديث « عن التغير الذى لا يذكر في درجات الحرارة » وفيها من يرون الإباحية مدنية ، ومن يرون التعرى حضارة

ومن يرون التعبد رجعية ، ومن يرون التدين ضيق أفق ، فكيف تجرؤ أمة
هذا شأنها على أن تقول إنها هي التي يصدق عليها قول ربها « وكذلك جعلناكم
أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : أنتم بقايا الخير في حنابا المجتمع ،
فكونوا بفضل ربكم ومعونته همزة الوصل بين ماضٍ كريم لأمة الإسلام
ومستقبل مأمول لها ، ومن سار على الدرب وصل واتفوا الله الذي أنتم به
مؤمنون .

شعبان والحسين^(١)

الحمد لله عز وجل ، يرفع درجات من يشاء من عباده إلى أعلى عليين ، ويخفض شأن الوضعاء إلى أسفل سافلين ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، بث شواهد العبر وحث النظر : « فذكر إن نفعت الذكرى » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طاب أصله ، وزكا فرعه ، فكان المثل الأعلى للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « إن للمتقين لحسن مآب » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن الآن في شهر شعبان ، وذكريات هذا الشهر كثيرة ، فهو يذكرنا مثلاً بقرب شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وهو يذكرنا برفع الأعمال فيه إلى الله عز وجل ، وتقبله للطيب الخالص عنها حتى قال سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه حين سئل عن كثرة صيامه في شعبان تطوعاً : « هو شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم » . وهو يذكرنا بليلة النصف منه التي يستحب فيها الدعاء ، والتي تم فيها تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام ، وذكريات شعبان بعد هذا كثيرة غزيرة كالزهرات المنتشرة خلال تاريخ الإسلام والمسلمين ، ولكن الله تعالى ألهمني اليوم ذكرى من ذكريات هذا الشهر تناسب أن تكون محوراً لحديث ، فنحن اليوم في الخامس من شهر شعبان ، وفي هذا اليوم نفسه ولد الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء الحسين بن علي رضوان الله تعالى

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٥ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٦ م .

عليهم ورحمته وبركاته ، فقد ولد الحسين في اليوم الخامس من شعبان سنة أربع من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أطيّب الحديث حين يدار عن الحسين بن علي الإمام البطل باب مدينة العلم ، ربيب بيت النبوة ، وابن فاطمة الزهراء البتول سيدة نساء العالمين ، وسبط الرسول وريحانته الذي أخبر عنه الرسول وعن أخيه الحسن بأنهما سيّدا شباب أهل الجنة ، وأنهما ريحانته من الدنيا ، وقال عنهما : « اللهم إني أحبهما فأحبهما » ، وقال عن الحسين : « حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط » والسبط معناه الجماعة فكأن الحسين أمة في مكانته وأخلاقه .

ولقد كان الحسين مثلاً رائعاً من الأمثلة التي يقتدى بها ويحتذى ، وقد توافرت له الأسباب التي تجعله كذلك ، فهو حفيد خير الأنام وهو ابن علي الإمام ، وابن فاطمة عاطرة الذكر على مدى الأيام ، وهو الذي نشأ في الجو الطهور العاطر بأطيب الأنام ، ولذلك كان تقياً نقياً ، يكثر من الصلاة والصوم والصدقة ، ويتذرع بالطف الأساليب لإيصال بره وكرمه إلى من يراهم محتاجين إلى البر والإحسان ، دون أن يعرضهم لشيء من الحرج أو الهوان ، وهو كذلك يتذرع بأرق الوسائل في تقديم نصيحته وإرشاده ، فقد رأى مع أخيه الحسن رجلاً كبيراً في السن يتوضأ ، ولكنه لا يحسن الوضوء فأراد أن يرشده دون أن يجرّاه ، فأقبل عليه وقال له : « نحن شبابان وأنت شيخ ، وسنحتكم إليك ، فانظر إلى وضوء كل منا ، ثم اذكر حكمك » وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، فتنبه الرجل إلى عيبه وتقصيره ، دون أن يحس في قليل أو كثير بأن الشابين قد أرادا تظاهرا بهما أو تفاخرا بفهمهما ، وصدق العلي الكبير : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وأعطانا الحسين رضى الله عنه دروساً بليغة فى الإيمان بالله ، والرجوع إليه والاعتماد عليه ، والثقة فيه ، ولقد كان يستطيع أن يحيا حياة المترفين الأغنياء ، وأن يعيش عيشة الطاعمين الكاسين ، ويترك حياة الجهاد والتعب والمشقة لسواه ، وكان هناك من الحاكمين والظالمين والغانمين من يحرص على أن يشغل الحسين بمتاع الحياة ، وأن يغمره بملذاتها وشهواتها ، ولكنه أبى واستعصم ، وأثر أن يحيا حياة المؤمنين الأتقياء الأوفياء ، ولذلك كان يردد كثيراً قوله :

اغن عن الخلق بالخالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالسوايق

ولعل أسطع موقف خالد يدل على إيمان الحسين وبقينه وإيثاره ما عند الله على ما عند الناس ، هو موقف خروجه المشهور المشهود لمقاومة دولة الباطل ، وإقامة دولة الحق ، فقد رأى أن الخلافة الراشدة قد صارت عند بعض الناس حكماً عضوياً وأن البهتان قد استطال حتى حجب أضواء الإيمان ، فخرج والمسلمون هنا وهناك يؤمنون بوجوب خروجه ، ويتمنون نجاحه فى مسعاه ، وإن كانوا فى الظاهر يخافون ظلم الطغاة وعسف البغاة ، حتى قال الفرزدق : «قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء . ومضى فى طريقه لا يريد بمسعاه المخفوف بكل الأخطار أن يكون مغامرة من مغامرات الطامحين إلى المكاسب الدنيوية أو السياسية ، أهـ مغتما يتاجر به ليكسب من متاع الحياة وزخرف العيش ، بل خرج ليضرب المثل الأعلى فى التضحية والثبات على الحق ومقاومة ما يعتقد أنه منكر والاستشهاد فى سبيل ذلك ، تاركاً من ورائه سيرة فيها عبرة باهرة لكل

أصحاب المبادئ والعقائد والدعوات ، وإن الروح الطاهرة التي جاد بها الحسين شهيداً يوم عاشوراء سنة إحدى وستين في بلاء قد كتبت له الخلود المجيد عند الله ، وكتبت لدعوة الحق نصراً تقبل به الأيام حيناً بعد حين ، وأقر بذلك كثيرون ومنهم غير مسلمين ، كذلك المستشرق الألماني الذي قال : « إن حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزيمة قلب كبير عز عليه الإذعان ، وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخدولة ، ليس لها بغير ذلك حياة ».

ومن طرائف حياة الحسين أنه كان حاذقاً للغة العربية ، عليمًا بأسرارها ، مقتلراً على فهم غرائبها ، وكان الناس يقرءونه ليسألوه عما يصعب عليهم فهمه من كلمات اللغة وتراكيبها ، وهذا يذكرنا بما يجب علينا نحو هذه اللغة الكريمة العظيمة ، إذ يجب علينا أن نتعبد لله بخدمتها وصيانتها وتفهمها ، لأنها لغة القرآن ، ولغة الإسلام ، ولغة محمد عليه الصلاة والسلام ، وليت كلا منا يفرض على نفسه أن يطالع كل يوم أى قدر من شئ مكتوب بهذه اللغة المقدسة ، وليت هذا القدر يكون في مرجع يذكره بدينه وإيمانه وأخلاقه ، وليت الحظ الأوفر يتحقق لهذا المطالع فيجعل مطالعته في خير بيان وأفضل إمام للغة العرب وهو القرآن .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : اليوم هو الخامس من شعبان ، وفي هذا اليوم ولد الحسين ، وميلاده في شعبان ينبغى أن يكون ذكرى من ذكريات هذا الشهر العظيم ، والذكريات إنما تجدى بالتأثر والاهتداء ، « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى » فلنذكر في يوم ميلاد الحسين ما كان فيه في دينه وعبادته ، وكرمه وشجاعته ، وثباته وتضحيته ، ولنعتبر بما نتذكر والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

ملاحق القوة في الاسراء والمعراج^(١)

الحمد لله عز وجل ، يجب معالي الأمور ويكره سفاسفها ، « إن الله لقوى عزيز » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يوسع فضله للمؤمنين الأتقياء ، ويؤيد بعزته المناضلين الأوفياء : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، هو بالمؤمنين رءوف رحيم ، وللكافرين مقاوم خصيم ، فصلوات الله عليه وسلامه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نتطلع الآن إلى نفحات ذكرى الإسراء والمعراج ، وهي ذكرى تضم الكثير من العبر والعظات ، واللائق بالمعتبرين أن يأخذوا من هذا الكثير الغزير ما يناسب ظروف حاضرمهم ، وما يحتاجون إليه في إصلاح أمرهم ، ونحن الآن في مرحلة من الزمن تتطلب منا أن نكون أقوياء في كل جانب من جوانب حياتنا ، أقوياء في إيماننا ، أقوياء في بدياننا ، أقوياء في أوطاننا ، أقوياء في عتادنا وجهادنا ، أقوياء في أخلاقنا وأرواحنا ، حتى نحقق في أنفسنا قول خالقنا جل جلاله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . وللقوة في حادث الإسراء والمعراج ملاحم ماجدة متعددة ، تتوجها قوة الله العلي الكبير ، رب العزة والجبروت ، وصاحب الملك والملكوت ، الذي مجد نفسه ، وعظم شأنه ، وقدس ذاته ، وأظهر قدرته على ما لا يستطيعه غيره ، فقال مصوراً جلال سطرانه ، وعظيم فضله على إمام رسله في معجزة الإسراء : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام

(١) ألقيت في يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٩٦٨ م .

إلى المسجد الأقصى الذى باركنا من حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، ثم عاد فزكى رسوله صاحب المعراج عليه الصلاة والسلام بالقوة الربانية والعصمة الإلهية التى تجعله يعاود إذا هوت النجوم ، ويهدى حين تفضل العقول والقلوب فقال : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى » .

وهذا صفوة الخلق محمد تحيط به وهو يسرى إلى ربه مظاهر القوة المادية والمعنوية ، الحسية والنفسية ، القلبية والروحية ، ليكون المثل الأعلى لأمتيه التى يطالبها ربها بأن تتحلى بكل ما يزينها من قوة ، وأن تعد كل ما تستطيع من قوة ، وأن تأخذ كل ما أتاها ربها بقوة ، وأن تصون عزتها وكرامتها بالقوة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . هذا رسول الله فى ليلة الإسراء والمعراج يتدرع بقوة القلب ونقاء الصدر ، فيأتيه جبريل ليظهر أحناء قلبه بأمر ربه ، ويملاؤه إيماناً وحكمة ، ونوراً ورحمة كما حدثنا نبال الشق للصدر الكريم من النبى العظيم عليه الصلاة والسلام ، ثم انتظم موكب الرحلة ، فى جلاله وجماله ، فجبريل يقوم مقام الرفيق ، وميكائيل يمسك بالزمام ليقود ، وجبريل وميكائيل علمان من أعلام الملائكة ، والملائكة فيهم غلاظ شداد ، وهم أيضاً عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ووسيلة الركوب والانتقال هنا ترمز إلى الخفة والسرعة والاقتدار على قطع المسافات فى أقل الأوقات ، وهذه الوسيلة هى « البراق » والبراق يذكر بالبرق الخاطف السريع المضى* ولذلك قالت السيرة إن البراق لونه أبيض ، فى فخذه جناحان يحفز بهما رجله ، ويخطو الخطوة فإذا حافره فيها يقع عند نهاية بصره ، فكأن سرعته أكثر من سرعة انتشار الضوء ، وما هى إلا لحظات حتى حل سيد الخلق ضيفاً كريماً على بيت المقدس والمسجد

الأقصى ، ليتسلم موارث النبوات وألوية الرسالات ، بحكم أنه الرسول الخاتم ، وأنه لا نبي بعده ، وهناك تجلى عليه ربه بغرة القيادة وقوة الزعامة ، فجمع له كيفما شاء جموع الأنبياء والمرسلين ، ليبايعوه ويقدموه فيكون لهم إماماً في صلاة ردد ذكرها لسان الزمان كأنها ترنيمة الوحدة في هذه الحياة ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار » .

ثم بدأت الرحلة لارتياح الفضاء وزيارة السماء ، والصعود إلى أوج العلا والسما ، بدأت رحلة المعراج فكانت أول إشارة في تاريخ البشرية تعلم أمة نبي العلم والرفعة « محمد » أن تستجيب لهدى ربها حين يحثها ويدفعها إلى دراسة السماء مع الأرض ، فيقول : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ، وتدفرت روح محمد عليه الصلاة والسلام بما تدفرت به من سمو ، وتدفرت ذاته بما تدفرت به من حصانة ، وركب المعراج بقوة من هيا له ربه الانعتاق من كثافة الحس البشري الأرضي ، والانطلاق إلى آفاق الملكوت الأعلى الرباني وأخذ يعلو ويعلو ، وظل يسمو ثم يسمو ، حتى جاوز مراتب الأنبياء كلهم في السماء ، وبلغ ما لم يبلغه سواه ، وهو في حلل من الثبات العظيم والأدب الكريم ، فالعقل مكين مجيد ، والحس وقور وطيد ، والبصر مستقيم رشيد : « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يتنقل في رحلة الإسراء والمعراج يرى جموعاً من الملائكة وراء جموع ، وتحدث عن كثرتهم الهائلة ، ثم استشهد على ذلك بقول ربه : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وكلمة « الجنود » هنا تذكر بالجيش ، والجيش مظهر للقوة ، فكأن معاني القوة كانت تحيط برسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين وشمال .

وعاد صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة مغموراً بفضل الله ، مؤزراً بعناية مولاه ، محفوفاً بحراسته وقوته وهداه ، عاد إلى مكة ، وأصبح كما تروى

السيرة ، وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار ، بعد أن شاهد في تلك الليلة من المشاهد والآيات ما لو رآه غيره لطاش منه العقل وتزلزل الفؤاد ، ولكنه النبي الفتى القوي العلي ، الذي كان من أمر ربه على يقين ، فلا تخيفه معارضة المعارضين ، ولا يزلزله شك المرتابين ، ولقد تعلقت بثوبه بنت عمه أم هانئ مشفقة من مواجهته المشركين بحادث الإسراء والمعراج ، وقالت له راجية : يا نبي الله ، لا بد تحدث الناس بهذا الحديث لئلا يكذبوك ويؤذك ، فيقسم لها بالله مؤكداً أنه لا بد أن يحدثهم به ، لأنه الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ومضى فأعلن النبأ وقص الخبر ، لا يبالي لومة لائم ، ولا سخرية كافر ، وصارت معجزة الإسراء تكريماً لرسول الله أي تكريم ، وتمحيصاً للمؤمنين أي تمحيص ، وتمييزاً بين من يصلح للجهاد والهجرة في سبيل الدعوة ومن لا يصلح ، وكثر المكذبون ، وقل الموقنون ، ولكن القلة المؤمنة تزايدت مع الأيام ، وتضاءلت الكثرة الكافرة حتى أصبحت كالهباء ، وأبى ربك العلي الكبير إلا أن ينصر عبده ، ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، وهكذا كانت ملامح القوة تحيط برحلة الإسراء والمعراج من كل جانب ، لتكون تصديقاً لقول الحق : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا ينبغي الاقتصار في ذكرى الإسراء والمعراج على الانبهار بجلال المعجزة وروعة الخوارق ، بل ينبغي مع ذلك أن نستلهم في هذه الذكرى كل معاني القوة لنحققها في حياتنا فنلقى بها علونا غداً ، فنكون من المفلحين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

دورس من الحديبية^(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا الألباب » أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، زان الأخيار من عباده بفطنة العقول وحياة القلوب ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد بهمة وساس بحكمة فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وأهل صحبته ، وأتباعه وأنصار دعوته ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن كأنه مسامة يذغى لنا دائماً أن نأخذ من تاريخنا الإسلامى العظيم ، وسيرة رسولنا الكريم ، القدوة أو العبرة التى تهدينا الطريق أمام الأحداث التى تمر علينا ، والوقائع التى تنزل بنا ، ونحن الآن نمر بمرحلة شديدة الحساسية عميقة التأثير ، لا نرفض فيها السلام الحقيقى العادل ، بل نحصر عليه إذا توافرت الكرامة بين يديه ، ولكننا فى الوقت نفسه يجب علينا أن نأتى الاستسلام ونرفض الهوان ، ولعلنا نجد العظة والعبرة والرائد لنا خلال غزوة الحديبية التى وقعت فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، فقد خرج الرسول إلى عمرة الحديبية لا يريد قتالا ، بل يريد ممارسة حق يجب أن يكون مكفولاً للمسلمين ، وهو زيارة بيت الله الحرام : الكعبة المشرفة ، والطواف حوله لله وباسم الله ، ولكن الشرك الباغى أبى ذلك الحق على المسلمين ، فماذا كان ؟ ارتفع النبي بالمسلمين إلى أعلى مستوى للتضحية والإقدام ،

(١) ألقى فى يوم الجمعة ٢٢ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٣ م .

فعاهدهم على الثبات في الميدان حتى الموت أو النصر ، وبايعهم بيعة الرضوان والإيمان ، بيعة الوفاء والفداء ، وقال فيما قال : « والله لا أزال أجاهد على هذا الذى بهثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة » أى تنفصل رقبتي عن جسمي ، كناية عن الموت ، وهنا أحس الأعداء بالخطر الجسيم من هذا التصميم .

وتأتى عمرة الحديبية بعد أن مر المسلمون بأقسى تجربة ، وهى غزوة الأحزاب حيث تمالأت قبائل الشرك واليهود على سحق المسلمين بتطويق المدينة من كل جانب ، وثبت المسلمون ثبات الجبال ، واحتملوا احتمال الأبطال ، وجاء عون الله ففك الحصار ودفع الأخطار ، وقال الرسول عندها لأصحابه ، « لن يغزونا القوم بعد ذلك ، نحن نغزوهم باذن الله » . وخرج المسلمون إلى الحديبية وقد أحسنوا الجمع بين الرغبة فى السلام والحرص على استرداد الحق ، فقد خرجوا يريدون استرداد حق مسلوب هو دخول مكة وطوافهم بالكوفة وقد خرجوا فى الوقت نفسه يريدون السلام ، فخرجوا محرمين ناوين عبادة العمرة ، مرددين كلمات التلبية وفيها معنى الاتجاه إلى الله : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . ولم يحملوا معهم إلا أقل السلاح الشخصى الذى يراد به الدفاع عن النفس عند الحاجة وهو السيوف فى الأغمار .

وبتوجيه من الله السلام قبل النبى فى عهد الحديبية شروطاً لم يرتفع إلى تعمق فهمها بعض الناس ، ولكن الرسول وافق عليها ببعد نظره ودقة فكره وتطلعه إلى غده مع تقدير حاضره ، وكان هناك أمر الله وتوجيهه وتصريفه لرسوله : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » . وكانت شروط العهد تنص على أربعة أمور ، أولها وقف القتال لمدة عشر سنوات ، وثانيها حرية القبائل الأخرى فى الانضمام إلى حلف المسلمين أو حلف المشركين ،

وثالثها أن من خرج من مكة إلى المسلمين أعادوه ، ومن ارتد وفر إلى المشركين لم يعيدوه ، وأن يعود النبي هذا العام ويأتى للعمرة في العام المقبل .

هكذا كانت الشروط ، وكانت قاسية في ظاهرها ، ولكنها بفضل الله وتوجيهه أدت إلى الخير الكثير والفتح المبين فوقف القتال حينئذ كان فرصة ذهبية لنشر الإسلام وتبليغ الدعوة هنا وهناك وعقد روابط مودة وتعاون بين المسلمين وغيرهم ، وحرية التنقل أمام المسلمين في أرجاء الجزيرة ، ولقد دخل في الإسلام خلال عامين عقب عهد الحديبية عدد يبلغ عدد جميع من دخلوا في الإسلام خلال خمس عشرة سنة ، أى منذ بدء الدعوة حتى عهد الحديبية وتفتحت الأبواب المغلقة أمام الناس ليدرسوا الإسلام ويفهموه فيدخلوا فيه على هدى وبصيرة ، وحسبنا أن نتذكر أن الرسول خرج إلى الحديبية ومعه ألف وأربعمائة فقط ، وبعد عامين اثنين فقط خرج إلى فتح مكة ومعه عشرة آلاف .

وأما الشرط الذى أباح لكل من أراد الانضمام إلى محالفة أحد الفريقين ، فقد أعقب خيراً وبركة ، لأن كثيرين انضموا إلى المحالفة مع المسلمين ، وكان هذا الشرط سبباً كما نعرف في فتح مكة ، لأن قبيلة خزاعة انضمت إلى حلف المسلمين ، فاعتدى عليها المشركون ، فكان هذا الاعتداء مسوغاً للتأديب والانتقام ، فجاء فتح مكة ، وتحقق به النصر العظيم : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » . وأما الشرط الذى ينص على أن من خرج من مكة إلى المسلمين يجب رده ، ومن يرتد من المسلمين ويخرج إلى المشركين فلازمه لا يجب رده ، فقد كان سبباً في بدء حركات الفداء والوفاء في صدر الإسلام ، وكان أول من أقبل مسلماً هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، ولما رده الرسول اشتد الأمر عليه وقال صارخاً : يا معشر المسلمين ، أريد إلى المشركين يفتوننى

فى دىنى ؟ . فقال له الرسول موجهآ : « يا أبا جندل ، اصبر واحسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجآ ومخرجآ » . وكانت هذه العبارة إشارة بليغة فى التوجيه إلى المقاومة الفدائية التى ضاق بها المشركون أنفسهم ، وطلبوا بأنفسهم التنازل عن إعادة هؤلاء الذى نظموا فرقاً للمقاومة التى قطعت على المشركين الطريق ، وأما من ارتد عن الإسلام وهرب إلى المشركين ، فلم يبق فيه خير للإسلام ولا للمسلمين ، فإذا يعينهم حتى يطلبوا برده إليهم . والله يقول : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . ولذلك قال الرسول : من ذهب إليهم كافراً مرتدآ ، فلا رده الله ، وقد رضى الله المسلمين خبيثه ! .

وأما الشرط الرابع وهو تأجيل العمرة إلى السنة القادمة ، فقد أعقب خيراً كذلك ، لأن العمرة تمت بعد ذلك على سماع الدنيا وبصرها ، وأخلى المشركون مكة للمسلمين ، فدخلوها وقضوا فيه ثلاثة أيام ، وملاؤا من شاهدها عيونهم . وأعلنوا أنفسهم لزيارة آتية يعلم الله ميقاتها وثمرتها ، وهى ذلك الفتح العظيم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . . » . والملك نرى كثيراً من الأئمة يعدون الحديبية نصراً كبيراً ، لأنها كانت مفتاحاً لهذا الفتح العظيم . ولذلك يقول البراء بن عازب : « تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح يوم الحديبية » .

وهكذا استطاعت كتيبة الإيمان بقيادة نبي الرحمن أن تحسن معالجة الأمور وتصريف الأوضاع ، لتنتزع الفتح من خلال الظلمات ، وأن تكسب النصر وسط الأهوال والأزمات والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ماذا نستفيد من هذا الدرس ؟ . نستفيد أنه يجب علينا أن نصمم على النصر أولاً وأن نكون يقظين حذرين ثانياً : « خلوا حذرکم » والذين كفروا . . . وأن نواصل الإعداد بلا انقطاع « وأعدوا . . . »

يوم الانتخاب^(١)

الحمد لله ، هو رب المشارق والمغارب ، والعليم بكل حاضر وغائب ، والمحيط بكل مقبل وذاهب ، « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تحب معالي الأمور ، وتلعن كل خائن وغدور ، ومن يكن الشيطان له ولياً فبئس القرين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، آخر القراية وقدم الدين ، وأخلص وجهه لله رب العالمين ، وحكم ميزان الإسلام في سائر الموازين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الصفوة المختارة من آله وذريته ، والخلاصة الطاهرة من صحبه وشيعته ، والعصبة المؤمنة من جنده وكتيبته ، أولئك الذين ثبتوا وصبروا ، فعزوا وظفروا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن هذا اللسان الإسلامى الذى ينبعث صوته من منبر الجمعة في المسجد الكريم كل أسبوع ، لا يتبع حزباً ولا هيئة ولا طائفة ، ولا يستهدى في إرسال نبراته برغبة عظيم أو رهبة غليظ ، فإنه بفضل الله وعزته أعلى من ذلك وأكبر ، ولكنه يعرف رباً ورسولاً ، وقرآناً وإسلاماً ، فيحذر من الفانية ويلدرك بالباقية ، ويدعو بدعوة السماء ، ويبصر بقواعدها السماء : « ربنا آمننا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . وهو لذلك يرى من ألزم واجباته أن يصدع بكلمة الحق في مواطن الفصل ، لينذر ويعذر ؛ « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وما كانت رسالة الواعظ في الحياة ندباً للاموات أو تكريراً للآيات أو اجتراراً للذكريات ، وإنما رسالته غوص

(١) أقيمت في يوم الجمعة ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

إلى الأعماق ، وتقويم للأخلاق ، ومهاجمة للمحدثات ، وحكم في المشكلات ، ونصر لدعوة الله دون خوف من سواه : « حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

ويوم الانتخاب يا أبناء الإسلام هو يوم القرار ، ولحظة القرار من إसार البشرية إلى زحاب الربانية ، وموقف الفصل لتصحيح الأوضاع وشفاء الأوجاع ، وتقويم الأخلاق ومقاومة الضلال ، ونفي الخبيث الدون ونصرة الطيب الكريم ، وكأنما تساق لحظة الانتخاب إلى الأمة من حين لحين ، ولتهجر غفوتها ، وتسترد أمانتها ، ثم تقول كلمتها ، فتختار بها رعاها وقادتها ، فإن ألهمها ربها في ذلك صوابها ، وجنبها زللها وعابها ، داست بأقدامها المستغلين المفسدين ، ورفعت فوق هامها المصلحين المخلصين ! . . . ولكن معركة الانتخاب في بلادنا الحزينة المسكينة ، لا تقودها أعنة المبادئ أو أنوار العقائد ، أو قانون البقاء للصالح والخسران للطالح ، بل تتحكم فيها مع الأسف المؤلم الخوض الحزبية الطاغية أو العصبية الباغية ، أو الوعود الكاذبة أو الأغراض العاجلة ، أو الرشوة المدمرة أو الرهبة الفاجرة ، أو غير ذلك مما يعف عن تفصيل مخازيه ومآسيه لسان الغيور ، وتضيق بكتماه الصدور . . . وما على المسلم أمام هذه الزلازل والظلمات إلا أن يستمسك بدينه ، ولو تعرض لبعض الصعاب ، وأن ينصر ربه ، ولو ذاق في سبيله طعم العذاب ، وإن من أفضل الجهاد في سبيل الله أن ينتهز كل مسلم هذه الفرصة التي تمهد لاختيار الولاية والرعاة ، فلا يناصر أو يؤيد إلا من يعمل لإعلاء كلمة الإسلام ، ويعتز بشرعة القرآن ، ويهتدى بهدى الرسول ، ويتمسك بمكارم الأخلاق ، ولا يؤيد إلا من يعزم عزماً يؤيده حاضره وماضيه على أن يجاهد وثنية أبي لهب وعسف زياد ، وطغيان الحجاج وتأله فرعون ، وأن يسترجع شفقة أبي بكر وعدالة عمر ، وإحسان عثمان وجرأة علي ، وإقدام خالد وجهاد صلاح الدين ، أو لئلك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

ستقولون - وما أكثر المعاذير - : لقد عمت البلوى فصار كل بلا دين ، وما أماننا أحد يتمثل فيه ما تذكر من صور الكمال والجلال ، التي كانت لأسلافنا الأبطال ، وما نرى متقدماً إلينا إلا وفيه مغمز من هنا أو هناك ، ثقيل أو خفيف ! . . فنقول : افرضوا هذا حقاً ، مع أن الخير لا ينعدم وإن قل ، فلنتبع الوسيلة التالية لذلك ، وهو أن نفاضل بين هؤلاء ، وفي الشر خيار كما يقولون فنقدم الأقرب منهم إلى روح الإسلام ، والأدنى منهم إلى هدى الرسول عليه الصلاة والسلام : وبذلك يدرك القاصي والداني أن الميزان هو ميزان القرآن ، وأن المقياس هو دعوة الرحمن ، وبذلك يعلم السفهاء من الجبارين والمتغطرسون من الباغين أن الأمة قد استردت وعيها ، وعرفت سبيلها وهديها ، وأن الذين كانوا يسوقونها سوق العبيد ، ويشترون ضمائرهم وأصواتها شراء الرخيص من المتاع ، ويرغمونها على أهوائهم لإرغام الدواب ، يجب أن تقصف بكبرياتهم سواعد التطهير وقواعد المساواة والقسطاس ! . .

حذار يا أتباع محمد عليه السلام ، ويا أكرم أمة في الوجود ، ويا سلالة أفضل الجلود ، ويا جنود أحق رب معبود ، حذار أن تكونوا غنماً أو تبعاً أو سلماً أو لعباً في يد الهوى والتعصب ، وما أخرجكم الله من بطون امهاتكم أحراراً إلا لتأنفوا من كل جبروت ، وتكفروا بكل طاغوت ، وتجعلوا حريتكم أمانة في أيديكم تردونها حينما يطلبها واهبها منكم : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . . . سيسعى إليكم ثعالب المكر وشياطين الغدر ملوحين لكم بالمال رشوة وإغراء فأجيبوهم : نخسيتهم ، إن الراشئ والمرتشئ في النار ، وما عندكم ينفلد وما عند الله باق ، والله خزانة السموات والأرض ، والله خير الرازقين . . وإن حرضوكم باسم الحزبية الغالية أو الطائفية المتكاثرة دون أن يكون لهم خلق ولا دين ، وخوفوكم من القلة أو الذلة فأجيبوهم : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ! . . وإن دعوكم

إلى تأييدهم باسم العصبية أو القرابة أو الجوار دون أن يكون لهم شفيع من خلق
أو دين أو سعى مشكور ، فاكفروا بعصبيتهم وجوارهم وصدقاتهم ،
وذكروهم بقول الأول :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم
وقول الآخر :

باسم الكنانة واسم شعب ناهض لا باسم أحزاب ، ولا زعماء
كل يزول وينقضى ، أما الحمى فوديعة الآباء للأبناء !
فلن خوفكم بالإهانة أو التنكيل ليردوكم عن دينكم وعقيدتكم ، فرددوا
في مسامعهم قولة الحق : واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . .
ما أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت ! . .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
ثم اذكروا جيداً صفحات الماضى القريب والبعيد التى فاضت بالآلام
والأحزان . . . اذكروا تاريخ الجبارين القهارين المتسيطرين على أعناق العباد ،
الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ،
إن ربك لبالمرصاد . . . اذكروا جيداً أولئك الذين استبدوا بأقواتكم ،
واستخفوا بكراماتكم ، وعبثوا بحرياتكم ، وروعوا نساءكم وبناتكم ،
وشردوا صفوة شبيبتكم ، وهتكوا حرمت بيوتكم ، وأتوا فى نواديكم المنكر
ونشروا بينكم الفرع الأكبر ، وتطاولوا على قداسة القرآن وهزئوا بشعائر
الرحمن . . . اذكروا الذين مكنوا الأجانب من بلادكم ، وقطعوا عليكم
طريق جهادكم ، وأضاعوا مصر والسودان وفلسطين والإسلام ، وما نخص
لونا دون لون ، ولا نعى شخصاً دون شخص ، ولكنها القاعدة يوحياها

دستور الإسلام ، أن أيدوا من كان للدين نصيراً ، واخذلوا من كان للطغيان
ظهيراً ، فمن وافق القاعدة عز وارتفع ، ولو كان عبداً حبشياً ، ومن خرج
عليها ذل وانضع ، ولو كان شريفاً قرشياً ، ولله در الإسلام الذي يحق
الأحساب والأنساب وجعل التقى مقياس السبق إلى رحاب العزيز الوهاب . .
يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أقسم بالله الذي لا إله إلا هو إنها الأمانة ، وإن الله سائلكم عنها فشدد في
السؤال ومدقق في الحساب ، وقد بلغنا ونصحنا ، وما بنا إليكم من رغبة
أو رهبة ، وما لنا عندكم ناقة ولا جمل ، وما تعلقنا في سوقكم هذه برجاء
أو أمل ولكنها النصيحة الخالصة لله وللرسول ولخاصة المسلمين وعامتهم ، فليبلغ
الشاهد منكم الغائب ، اللهم فاشهد أنه لا عذر لمعتذر ، فإما وقفة الحق والصدق
يصفع بها كل جبار ، وتنصر بها كلمة الأبرار ، وإما الخلد وذل الأبد ،
فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، واتقوا
الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

بين القمة والحضيض (١)

لله الحمد ، هو أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وهو قاصم الظالمين ونصير المظلومين ، وهو عدو المسرفين وولي المهضومين ، « واولترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تقسم ولا تفاضل ولا تهضم ، وانك لغنى عن العالمين ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من شكرك ، وأفضل من ذكرك ، فى السراء والضراء ، والنعماء والبأساء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله أئمة الهدى واليقين ، وأصحابه خيرة الرشدين ، وأتباعه المعتزين بعزة دينهم بين العالمين ، « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لو أنصف الناس استراح القاضى . . . هذه حكمة مسلمة لو عمل بها الناس ونخضعوا لها لنجحوا وأفلحوا ، وعزوا وسعدوا ، ولما احتاجوا إلى قانون يؤدب ، أو عقاب يرهب ، ولكن كيف ينصف الناس والظلم من شيم النفوس ، وكيف نتوقع منهم عدلاً ، وقد سولت لهم أهواؤهم وأولياؤهم من شياطين الإنس والجن ، بأن لا يفترقوا افتراقاً مقبولاً ، أو يتفاوتوا فى حظوظ الحياة تفاوتاً معقولاً ، بل لابد من البون الشاسع والبعد الواسع بين هؤلاء وهؤلاء ، فكل منهم يتحنى ويعمل جاهداً ليحقق ما يرجوه ويتمناه ، وهو أن يكون وحده العزيز الغنى الممتلىء المحظوظ ، وليكن نصيب من خلفه

(١) أقيمت فى يوم الجمعة ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٠ م .

الحرمان أو الطرفان ؛ وكيف يتحقق بين الناس إنصاف أو شبه إنصاف وهم قد بدلوا خلق الله وحرفوا كلمه وحاربوا نظمه وأهملوا شرعه ، فصار منهم قلة قليلة ترتفع وترتفع ، وتجمع وتمتع ، وتمتلى وتضخم ، حتى بلغت عنان السماء ، فهي تتبختر في مطارف النعيم ، وهي تمشى على أفواه السعادة وهي تتقلب في بحار الهناء فلا شقاء ولا تصور للشقاء ولا تخوف من الشقاء ، ثم هناك بعد هذا أغلبية مفزعة ، أبى لها الوضع المختل ، والنظام الشاذ إلا أن تهوى وتهوى ، حتى تصل أعمق أعماق الحضيض ، فهي تمشى ولكن في أوحال أو رمال ، وهي تتقلب ولكن على جمرات الحرمان ونيران الشقاء . وهي لهذا لا تعرف نعيم من ارتفع ، ولا تطمع فيه ، وبين أهل الحضيض المعدمين وأهل الرفعة المترفين ، يوجد صنف ثالث استبدت به الحيرة ، واستولى عليه الاضطراب والزلال ، فهو بين الفريقين يحاول جاهداً أن يبلغ ما بلغ أهل الثرف والنعيم ، ولكن جاذبية الحضيض تشده إلى أسفل ، وبذلك يعاني من زلزلة وبلبله ، فلا هو ارتفع فاستراح وتمتع ، ولا هو نزل إلى حضيض غيره فقط ويش ، لأن اليأس عند كمال الحرمان إحدى راحتين كما يقولون ! . . .

سيعجب بهذا الأسلوب من الكلام قوم استبد بهم الفقر فطمعوا أن يكونوا أغنياء ، وسيعجب به أيضاً قوم لا يزالون في طريق الصعود ، وهم يبغون الوصول إلى عنان السماء ، ولكنه سيؤولم بلا شك أولئك الهائمين في رياض نعيمهم وآفاق لذائذهم ، وسيقولون : أليست تلك مشيئة الله وإرادته وهو الذى فضل بعض الناس على بعض ، وجعلهم درجات ومنازل ، ورفع قوماً بالغنى كما وضع آخرين بالفقر ؟ . . . والواقع أن تلك عبارات حق يراد بها باطل ، فאלله قد قسم حقيقة للناس معاشهم ، ولكن بطرق سليمة قويدة ، لا بطرق السلب والنهب والسرقة والاعتصاب ؛ وفضل بعضهم على بعض

فى الرزق ، ولكن بأسلوب البغى والعدوان ، وجعلهم درجات ومنازل ، ولكن لىبلوهم فى آتاهم ولىستبقوا الخىرات لأن مردهم جمىعاً إله ، فن أحسن التصرف فى سىق إله فقد فاز فوزاً عظىماً ، ومن أساء فقد خسر خسراً مبیناً : « لئن شكرتم لأزىدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشدید » . . والله قد أغنى وأفقر ، ولكن لىستقر بذلك التفاوت المعقول المقصود نظام الكون ، ولىصبر الفقیر عاملاً مجتهداً ، ولىشكر الغنى متواضعاً متبرعاً ، ومن هنا یتآلف الغنى والفقیر فلا عدااء ولا شحناء ، بل تعاون وصفاء ، « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ولذلك جعلت الحىاة میدان اختبار وابتلاء ، یقول القائل : هذا رزقى ومالى ، فىقال له : وأین زكاته ، وحق السائل والمحروم فىه ؟ . ویقول ثان : وهذا ینخصنى فلا دخل لغيرى فىه ، فىقال له : ومن أین لك هذا ، وبأى طریق مشروع حصلت علیه ؟ . ویقول ثالث : وهذا أوتيته على علم عندى ؛ فىقال له : وأین حق المجتمع علیه ، وأین شكران الذى تفضل بسوق النعم إلیك ؟ وهكذا . وهكذا وبدون هذه الحواجز الملطفة للتفاوت المقربة للطبقات لا یمكن أن یسلم المجتمع من بدور الفتن وقرون الحن وخبیث النزعات ! ! . .

هذا نبأ صغیر تنشره الصحف فى عجلة وإهمال ، ولكنه نذیر أى نذیر ، یرینا کیف یتجسم الإجرام والفساد حیثما تترك أمور الناس فى لذاتهم وأغراضهم للهوى المستبد والحرىة المطلقة . . . فقد اشتعلت النار فى مزرعة أحد الفلاحین ، وسارع الفلاح إلی « تلیفون » عام لیطالب من رجال المطافئ الإسراع لإخماد النار ، وكان « التلیفون » حیثئذ مشغولاً بحدیث سیده مترفة لعلها كانت تسلى نفسها أو ترضى نزواتها بمحادثة عاطفیة أو ثرثرة فارغة ، فتوسل إلیها الفلاح المسکین أن تقطع محادثتها حتى یتسنى له مخاطبة المطافئ على عجل ، فرفضت السیده لأن هذا من حقها ، وظلت تتكلم حتى أنهت

مخادتها حسب رغبتها وهواها ، وكانت النتيجة أن تأخر لإخطار المطافى* ، فلما جاء رجال الإنقاذ وجدوا كل ما كان فى المزرعة قد سوى بالأرض ، بعد أن صار إلى رماد ! . .

هكذا يتبعج الأحمق الأرعن فى استعمال حقه ، وإطلاق حريته إطلاقاً يجعله لا يحسب حساباً لسواه ، ولا يقيم اعتباراً لأهل دنياه ، مع أن الأثر الحكيم يقول : « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » . وكم فينا أيها الناس من أصنام متحجرة تشبه تلك السيدة الرعناء ، فيفضلون أن يشبعوا وهم أفراد ، ولو كان شعبهم سبباً فى جوع الملايين أو موتهم ، ويعملون لتعمير بيت من بيوتهم ولو خرب فى سبيل ذلك آلاف البيوت ، ويجمعون ما استطاعوا جمعه من حل ومن حرمة ، وبطرق غير مشروعة فى أغلب الأحيان ، إن لم تكن فى جميع الأحيان . ثم تتصلب أيديهم الآثمة على ما جمعوا - وما أكثره - ولا ينفقون إلا حيث يأمر الشيطان ، فهو لهم ولي وسلطان ! . . .

وهذا مثل آخر . . . استدان أحد العابثين بحقوق البشر - وما أكثرهم - ديناً من شخص متوسط الحال ، ومرت مدة الدين ، ولاحت على المدين مظاهر النعمة والثراء ، فأخذ الدائن يطالبه بحقه ، فراوغ الغنى المترف فى رد ما عليه من دين ، فأراد الدائن الفقير المحتاج أن يؤثر فى قلب هذا الحيوان المنسوب إلى بنى الإنسان ، فأرسل إليه صورة ابنته المريضة ، وكتب للمدين تحتها هذه العبارة : « تلك يا سيدى هى ابنتى ، وهى سبب حاجتى إلى النقود ! » فرد عليه المدين الغنى القادر المراوغ رداً عبث وإجرام ، إذ بعث إليه بصورة خليلته التى يحبها وكتب تحتها هذه العبارة : « وتلك خليلتى الجميلة وهى سبب تأخرى عن دفع المال » ! ! ! .

وهكذا أيها الناس ، يوجد من يمتص دماء الشاحيين المهزولين من فقراء البشر ، لا لينفق هذه الحقوق على ضرورة مفاجئة أو أمر لازم أو مصلحة

عامة ، بل لينفقها على موائد الخمر ، أو ليأبى النساء ، أو ميادين السباق ، أو وسائل الترف المهلك المبيد ! . . . وكم فينا من أثرياء فحشوا في الثراء وتطاولوا في البناء وأسرفوا في الكبرياء ، ولو حللنا أموالهم وثرأهم إلى الأصول الحقيقية والمنابع الأساسية لوجدنا هذه الأموال تتحول إلى دماء تصرخ وتصبح ، وكل قطرة من قطرات هذه الدماء تنادى مطالبة بالرجوع إلى جسم صاحبها المظلوم ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وقد حرم الله الظلم على نفسه فلا أقل من أن نجعله بيننا محرماً ، وإن قليلاً يأتي من طريق شريف ومصدر كريم لأنفع وأبقى من كثير جاءت به يد الشيطان ثم استبدت به أهواء الشيطان وثقوا أن مجتمعاً يرضى بأن يموت فيه بعضه بداء التخمّة ، بينما يموت فيه بعضه من الجوع لا يمكن أن ينهض على أساس ، حتى ولو خيل إلى الجاهلين أنه قائم إلى حين ، فهل يستطيع كل منا أن يخلو بنفسه ليتعرف في صدق وحق من أين يأتيه ما في يده ؟ وهل يرضى الله عن طريقة اكتسابه وإنفاقه ؟ وماذا يكون جوابي لو جئني يوم الدين إلى قيوم السموات والأرض ، ودبان العالمين أجمعين ، فسألني عن مالي : من أين اكتسبته وفيما أنفقته ؟ ! . . . تلك والله محاسبة لازمة واجبة ، فاللييب اللييب من حاسب نفسه قبل أن يصير الحاسب إلى غيره ، والعاقل كل العاقل من تجنب العاصفة الهوجاء قبل هبوبها وما بعد شرعة الإسلام العادلة المنصفة ، المقربة بين هؤلاء وهؤلاء ، من هدى أو رشاد ، فعودوا إن شئتم صلاحاً وإصلاحاً إلى الإسلام ، ففيه الشفاء وفيه الدواء وفيه الغذاء ، وفيه المنقذ من مخوف الزلزال ومرهوب البلاء .

واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

تدبير الأمور (١)

الحمد لله ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ويوصى بالفطنة والتصرف الحكيم « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون » . « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الأبواب » نشهد أن لا إله إلا أنت ، العزة رداؤك ، والحكمة دواؤك ، « وكل شيء عنده بمقدار » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك فكر ثم صمم ، ودبر ثم أقدم ، وشاور ثم عزم ، « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى ذريته الطاهرة المطهرة ، وشيعته القوية الظاهرة ، والواثقين بربهم في الأولى والآخرة « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .
يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من صفاتنا الغالبة علينا ، وعيوبنا الشائعة فينا ، أننا نرتحل في تصرفاتنا الفردية والعامية ، نبدأ في الأمر قبل تدبره ، ونقوم بالعمل قبل تحكيم العقل فيه ، وقد نتحمس لفكرة طارئة عاجلة ، فنقبل على تنفيذها قبل تمحيصها ، أو تقلب وجهات النظر فيها ، أو إحكام الخطة لتطبيقها . . . وبعد حين نصاب بمخلب أو نقع في معطب ، فنأسف بعد أن يسبق السيف العدل ، ونعص بنان الندم ولات ساعة مندم ، ونقول : لو كان كذا أو لو كان كذا ، « ولو » هذه تفتح باب الشيطان كما يقول الرسول ، والذكي اللبيب من درس واحترس ، ثم عرف هدفه وغايته ، ثم رسم طريقه وخطته ، ثم سار يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، حتى يأمن العثار وينأى عن البوار (٢) ،

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ الموافق أول فبراير سنة ١٩٥٢ م .

(٢) لابن هاني :

وما الرأي إلا بعد طول تثبت ولا الحزم إلا بعد طول تلوم
ويقول :
ذو الحزم لا يتدبر الرأي في أعقابه ، ما الرأي إلا الأول

والمجنون المخبول من يستجيب لشعقة الناقع ، فيسلك طريقاً لا يدري منتهاه ، أو يتصرف تصرفاً لا يحدد نتيجه ومغزاه ، ومن ثم تراه مطواعاً لا يثبت على رأى ولا يستقر على فكرة ، بل هو كالريشة فى الهواء ، تحركها الريح كيف تشاء ، وهو عرضة للتقلبات ووساوس النفس وتبدل المؤثرات ، ولذلك كان أساس الدين أن تعرفه أولاً ثم تؤمن به ، وتعتقد أن الخير فيه بدءاً ونهاية ، ثم تلتزم هذه العقيدة المسلمة فى أعمالك وتصرفاتك ، تحيا عليها وتموت فى سبيلها : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » .

والإسلام الحنيف دين يقوم على التعقل والتبصر ، فالله المتصف بكل جمال وجلال وكمال يصف نفسه بالتدبير فيقول : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » ، ويذكر بأن العقل هو أساس التلقى عنه والفهم لآياته : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » . وهو يجعل عدم الاستماع إلى صوت العقل سبباً إلى الشتات والضعف فيقول : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » . ويضم الذين لا يعقلون ولا يتدبرون بالرجس والعذاب : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » . والرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم يقول بعد ذلك : « لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » .

وإنك لرى الأخق الأهوج من ضلالة وخباله يتقحم فى مهالك قد تخذه ببريقها ، ولكنه بريق اللظى الكاذب ، قد يبعث الضوء أولاً ، ولكنه يجلب الموت أخيراً ، وقد يكون فيه بعض النفع لو كان الرائد فى استخدامه هو

الحكمة وحسن التدبير ، ولكن المتهور المندفع يخلط النور بالنار . ويعيث بينهما فساداً ، فيتولد عن ذلك دخان كثيف تضيق معه معالم الطريق ، وتنتج عنه الحسرة والضلال ، حتى يصدق على ذلك الأحق ما قاله الأوائل : إن الأهوج تمنى أمه لو ثكلته ، وتتمنى زوجته لو أنها عدته ، ويتمنى جاره أن يبعد عنه ، ويتمنى جليسه أن يفر منه . . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . .

وأما الخاذق الأملئ ، والفطن اللوذعي ، فإنه يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع ، يطيل في أمره الفكرة حتى تلوح له العبرة ، ويزن الأمور بميزانها الدقيق الصادق ، ثم يقدم بعد ذلك واثقاً بنفسه وربه ، صادقة في يقينه وإخلاصه ، فإن بلغ - وكثيراً ما يبلغ إرادته - فيها ونعمت ، وإن حالت الأقدار بينه وبين ما يريد ، بعد هذا التدبير - وقليل ما يحدث ذلك - فقد أدى واجبه فأحسن الأداء ، ومبلغ نفس عندها مثل منجع ، وهناك الحكمة الإلهية العليا التي قد تبدو وقد تخفى حين تعلو ، يجب أن يكون لها حساب واعتبار ، وقد رسم ابن العميد صورة ذلك الخاذق فقال : العاقل من استنتج من كل أمر خاتمته ، وعلم من كل بدء عاقبته ، وطالع بقلبه من كل غرض ما يخفى منه ، ومن كل زرع ما يحصد عنه وصدق رسول الإسلام : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

وهذا علم من أعلام الإسلام يترجم عما وهبه الله من دهاء وذكاء ، وفطنة وألمعية ، حتى تستطيع أن يصرف الأمور حسبما تقتضيه المواقف ، وهو معاوية بن أبي سفيان ، فيقول : « إني لا أضع سني حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل له : وكيف ذلك ؟ . قال : إن جذبوها أرختها ، وإن أرخواها شددتها » . . فليعتبر بذلك أقوام يسرقون في حقهم حتى يجعلوا أنفسهم

وقوداً لفتنة ماحقة ، وليعتبر به أناس يسرفون في هوانهم حتى يصبحوا عبيداً في الدنيا وقد خلقهم ربهم أحراراً .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أمتكم لا تجتمع على ضلالة أبداً ، ما دامت معتزة بعزة ربها ، مهتدية بهدى رسولها ، وليس بين الإجحام المخزي والاندفاع الأهوج ، إلا الثبات الحازم العازم ، إذا وقف فهو الجبال رسوخاً واطمئناناً ، وإذا أقدم فهو قبس من قدر الله قوة وإيماناً ، فثقوا بما وهبكم خالقكم في نفوسكم ، ثم ارجعوا إلى عقولكم ، ثم تبيينوا الثغرات من حواكم ، ثم آمنوا بفكرتكم وأعمالكم ، ثم خذوا مسلك القصد من سبيلكم ، والله يؤمئذ مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ، واتقوا الله الذي أنتم به موقنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

اثر الشمس في الكون^(١)

أحمدك يا باري النسم ، ومبدع الكون من العدم ، وواهب الأمم جزيل النعم : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملأْتَ الكون على الإنسان نعمة وخيراً ، وأوسعته بفضلك تكريمة وبراً ، وأنت الرؤوف الرحيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وهبته النفس الكبيرة والعين البصيرة فكان لك ذكوراً شكوراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله النجوم النيرة ، وأصحابه العصبة الطاهرة ، وأتباعه الكتيبة الطاهرة ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الغالبون ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

يقولون : إن كل ممنوع مطلوب ، وكل مألوف غير مرغوب ، وإن النعمة الجميلة العظيمة باتت في يد الكل فقدت روعتها ، وأصبحت من شيوعتها وذبوعها معروفة مألوفة ، لا يلتفت الناس إليها ولا يحتفلون بها ، وهذا جد صحيح ، فما أكثر نسيان الإنسان ، وإنك لتجد مصداق ذلك في موقف الناس من مظاهر الطبيعة الرائعة الشائعة ، كلون السماء الأزرق مثلاً الذي هيأه الخلاق وأبدعه بصورة لا تمل العين من إدامة النظر إليها ، وهناك أيضاً الأسرار والعجائب المستورة والمبتدئة في الماء والهواء والخضرة والضوء ، قل من يعكف عليها دارساً مستنبطاً ، أو معتبراً متدبراً ، ومن هنا ضعفت روح اليقين

(١) لم يذكر استاذنا الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله تاريخاً لالقاء هذه الخطبة ، والسيد محمد ديب .

والإيمان ، واستأسدت نوازع الغفلة والكفران ، وما تغنى الآيات والنذر
عن قوم لا يؤمنون ؟ ! .

ومن أمثلة ما ضاع تأثيره في عامة الناس لأنه شاع ، مع أنه من جليل
الآيات ونفيس المتاع ، تلك الشمس الكبرى التي نراها في الصباح والمساء ،
وفي ساعات النهار المتباعدة والمتتابعة ، فقد جنت رؤيتنا المتكررة لها على
جلالها وسلطانها ، فأصبحت كالكنز الثمين ألقى في طريق الناس ، ولكنهم
يمرون عليه وهم عنه غافلون . . .

هذه الشمس السامقة العالية هي مصباح الله في كونه العريض المديد ،
جعلها الله سراجاً لعباده ، تبدو فوقهم من مستقرها الرفيع بضخامتها التي
لا يتصورها عقل الإنسان ، فتتير المسالك وتبدد الغياهب ، وتجلو ضحوة
النهار ، وتفيض على القمر المعتم بالأشعة والأنوار ، فيهدى بفضلها الحائرين
ويسدد بمددها خطوات السارين ، وتبدي بذلك في السماء والأرض صورة
لا تماثل لجلال البديع الخلاق ، مما يفضى بتأمله إلى الاستقامة والسداد :
« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا
يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ،
فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . . .
ولو ذهبنا نفصل الحديث عن حجم الشمس وعلوها ، وبعد المسافة الهائل
بيننا وبينها ، وكيف تنبعث الأشعة عنها ، وكيف تشمل هذه الأشعة الواسع
من البقاع والأصقاع ، لانهرت العقول وتضاءلت الفحول ! .

والشمس هي مصدر الحرارة الإلهية ، تبرز من خدرها على العالم الراكد
الآسن الرطب البارد ، فتحركه وتثيره وتحففه وتأنى به عن الوصب والعطب ،
ولست أدري ماذا يكون حال الناس عند الشتاء والصقيع وبرودة الجو ،

لو انعدمت الشمس فلم تطلع عليهم من حين لحين ، لتمدهم بجانب من الدفء والحرارة ، تهباً به الأحياء لمواصلة السير في مختلف الأنحاء ؟ . . . وليس هذا فحسب ، بل إن الجو الرطب العفن الملوث تنفث في الجراثيم والديدان والحشرات والميكروبات ، وإن استتر ذلك عن العيون والأبصار ، فإذا ما مدت الشمس خيوطها البيضاء كانت كأنها أنامل الطيب الحازمة ، تطهر لتعمر ، وتبتر لتثمر ، وتقضي على الداء وحملته بلا إبطاء ! . . .

والكثيرون منا يتأفنون ويتضجرون ويشكون من حرارة الشمس إذا قست ، مع أنهم يستطيعون التحفظ منها في أغلب الأحيان بغطاء أو وقاء ، ثم يحسبون هذه القسوة في الحرارة شراً ، وما ذلك إلا لأنهم يحكمون نفهم الذاتي ومصلحتهم الشخصية في أمر عام ، فهذه الحرارة القاسية نفسها هي التي تطهر الأجواء من الفساد ، وهي التي تنضج النبات الخارج من الجماد ، وهي التي تجذب إلى الجو ما يستخلصه عذباً من مياه البحار والمحيطات ليكون مطراً بعد ذلك ، ثم يبقى ما ينفع الناس في الأرض مما فصلته عن تلك المياه ، وهي التي تؤثر في نسيم البر والبحر المترتب عليه كثير من المصالح والأمور... والشمس في الوقت نفسه تؤدب بحرارتها من يصطلي بها ، فتعلمه ضعفه وتقفه على عجزه ، وترمز له إلى هول ما سيلقاه من حر السعير إن كان من الضالين ، وفي كل هذا آيات وعبر ونعم بعضها منشور وأغلبها مستور ، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا ومثله حين يقول : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .

والشمس بجريانها ودورانها هي التي تكون بأمر الله تتابع الليل والنهار ، وتوالى الظلمة والإبصار ، فهي تطلع هنا فيكون صباح وإشراق وضاح ، بينما ترحل عن هناك فإذا فيه ظلام وإعتام ، وفي كلتا الحالتين إنعام وإكرام ،

فالنهار معاش ومجال للكدر والاكساب ، والدليل لباس وسكن ورقاد ، ومن هنا كان إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل آية عظمى يمتن الله بها على عباده فيقول : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

ودورة الشمس هي العماد في الحساب وضبط الأوقات ، تلف الأرض حول الشمس أو تلف الشمس حول الأرض لفة ظاهرة كاملة ، فيتم بذلك عام عن حياة الناس ، وتنتقل من فلك إلى فلك ، فتبدأ الفصول أو تنتهى ، وتشرق فيبدأ النهار ، وتغرب فينتهى النهار ويبدأ الليل ، فإذا عادت إلى الإشراق مرة ثانية فقد تم بذلك يوم كامل . . . بل ونحن نحدد بها أعمالا جليلة تتخلل اليوم نفسه كالصلاة مثلا ، فبشرورها ينتهى وقت الصبح ، وبزوالها يدخل وقت الظهر ، وبتصييرها ظل الأشياء مثلها يدخل وقت العصر ، وبغروب قرصها يدخل وقت المغرب ، وبزوال ما يتخلف عنها من شفق يدخل وقت العشاء ، وهكذا . . . وحينئذ فما أبلغ القرآن حين قال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

ولو شئنا لأطلنا الحديث أيضاً عن أشعة الشمس وخصائصها في تنمية الأجسام وتقويتها ، وشفائها لكثير من العلل والأمراض ، وبنائها للأبدان الفتية المتسقة ، ثم إيجائها من جهة أخرى بالحرص على العلو فهي في منتهى السمو والارتفاع وبتحريضها على الصفاء فإننا لا نرى فيها كلفاً ولا دخناً ، بل هي المثل في الوضاء والنقاء ، وكيف لا تكون منيرة العالم كله مثلاً في النور والبهاء ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . :

تلك بعض آيات الله في الشمس التي لا تحتجب عن دنيانا يوماً من الأيام ،
والتي نحس بها على الدوام ، ومنها تعرفون ما لها من جلال وجمال وخطورة
شأن ، ولسنا ندعوكم بهذا إلى عبادتها أو تقديسها ، فقد قال القرآن : « ومن
آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا
لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . . وإنما ندعوكم إلى أن تخصصوا من
أعماركم لحظات أو فترات تولون فيها وجوهكم شطر الطبيعة محراب الله الواسع
لتدرسوا آثارها الباقية ومظاهرها الخالدة ، فمن وراء ذلك علم واكتشاف ،
واكتساب وارتشاف ، ومن وراء ذلك إيمان ويقين ، ونور مبين ، فسيروا
وانظروا ، وفكروا واعتبروا ، إنما يتذكر أولو الألباب ، واتقوا الله الذي
أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا
واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

العجلة^(١)

الحمد لله عز وجل ، يهمل ولا يهمل ، يحلم ولا يغفل : « وعنت الوجوه
للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، القائم على كل
نفس بما كسبت ، المثيب لها بما أحسنت : « ومن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ،
أخلص لعقيدته ، وثبت على طريقته ، فكان إمام الصابرين وشيخ المجاهدين ،
فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الناطقين بالحكمة ، وأصحابه أعلام الأمة ،
وأتباعه الشاكرين للنعمة : « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار
الآخرة خير ، ولنعم دار المثقفين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من عيوب بعضنا الواضحة عيب الاندفاع والعجلة والتسرع ، فبعضنا
في كثير من الأحيان يندفع ذات اليمين أو ذات الشمال بلا تبصر أو تدبر ،
وبلا تمهل أو اعتدال ، وقد يمضى وقت قليل ثم يبدو له خاطر أو يعرض
أمامه عارض ، فإذا به يندفع إلى اتجاه مناقض أو موقف مقابل ، بلا تبصر
أو تدبر ، وبلا تمهل أو اعتدال أيضاً ، ومع أن أسلافنا قد قالوا لنا : « الأناة
حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة » وقال قائلهم وهو المهلب بن أبي صفرة :
أناة في عواقبها درك خير من عجلة في عواقبها فوت . وقال الآخر : إياك
والعجلة ، فإنها تكنى أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب
قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويقطع قبل أن يقدر ، ويحمد قبل
أن يجرب ، ويلزم قبل يخبر ، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة

(١) ألقى بمسجد الرفاعي في يوم الجمعة ٢٣ شوال سنة ١٣٧٨ هـ
الموافق أول مايو سنة ١٩٥٩ م .

وجانب السلامة . نجد أن هذه العجلة بادية في كثير أعمالنا وتصرفاتنا ، نجدها في الحكم على الأشياء قبل البحث والتأكد ، وفي سوء الظن دون تثبت ويقين ، وفي الاغترار بالناس قبل الاختبار والتجربة ، وفي طلب الشهوات دون حكمة أو اعتدال ، وفي الغضب والاستجابة لثورة النفس ونزواتها ، وفي أداء الواجب دون إحكام أو إتقان

وقد نرى كثيرين وهم يؤدون أعمالهم وواجباتهم الفردية أو الجماعية يقومون بها في صور آلية ، لا يتلثثون ليحيوا ، ولا يتأنون ليتقنوا ، وكأنهم بداخل اغلال أو أطواق يحاولون في سرعة وعجلة أن ينطلقوا منها ويبتعدوا عنها ، مع أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول لنا : « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه » ، وإذا كان الحق جل جلاله يقول في قرآنه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فإن المرء العاقل يستحي ويخجل أن يقدم بين يديه عملاً يراه الله والرسول والمؤمنون وهو غير محكم أو متقن ، وبخاصة أن المرء سيراجع في عمله وسينبأ به وسيحاسب عليه : « وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ونحن نراجع حديث القرآن الكريم عن العجلة فنجد تنفيراً منها ونهياً عنها ، فالقرآن يقول : « خلق الإنسان من عجل ، سآريكم آياتي فلا تستعجلون » أي إن الإنسان من تسرعه وقلة تمهله كأنه قد خلق من هذه العجلة ، وقريب من هذا قول القرآن المجيد : « وكان الإنسان عجولاً » أي يسارع إلى كل ما يخطر بباله ، لا يبحث في فائدته ، ولا ينظر إلى عاقبته ، ولقد علم الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يثبت على خطته ، وأن يدوم على طريقته ، وأن يصبر الصبر الجميل في أداء واجبه ، وأن يكون صاحب عزم رشيد وطيد حديد في تبليغ رسالته ، فقال له : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » وإنما أراد الله من هذا

التعليم والتوجيه أن يصنع نبيه على عينه ، ليكون المثل الأعلى لعباده ، والقذوة الكريمة أمامهم ، فيتعظ بهديه أولئك الذين لا يقر لهم على مبدأ قرار ، ولا يدوم لهم ثبات في اتجاه ، بل يتأرجحون ويتذبذبون ، وقد يوهمون الناس أنهم يؤدون ألواناً من الأعمال وهم في الواقع لا يحسبون منها عملاً ، وكل همهم من وراء عجلتهم وسرعتهم أن ينالوا شيئاً من المتاع ، أو يجمعوا جانباً من الحطام ، مع أن سنن الله في كونه تريحهم أن البقاء للأصلح ، وأن الدوام للأخف : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . وكأن الحق تبارك وتعالى يشير إلى أمثال هؤلاء الذين يفضلون الوصول إلى مآربهم ومطالبهم من أقرب طريق وبأقل مجهود وبأعجل عمل ، ولا يفكرون في النتائج والعواقب ، فيقول عنهم : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » .

وليس معنى تنفير الإسلام من العجلة أنه يريد أن يعلم أتباعه البطء في الحركة ، أو الضعف في الإنتاج ، أو التماوت في العمل ، أو الكسل في أداء الواجبات ، وكيف وهو الذي يدعوكم دائماً إلى التكبير في الخير ، والمسارة إلى البر ، والمبادرة إلى الطيبات والحسنات ، والإقبال على صراط ربهم الهادي إلى الفضل والنبيل ، وإلى ما يبقى ويدوم : « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » ، وكيف والرسول صلوات الله عليه يقول : « باكروا في طلب الرزق والحوائج ، فإن الغد بركة ونجاح » . . . وقال النبي : « اللهم بارك لأمتي في بكورها » .

وإذا كانت العجلة مكروهة في مواطن كثيرة ، لما فيها من افتعال أو ارتحال ، فلإنها قد تكون محمودة في مواطن تناسبها وتلائمها ، وهناك أمور ومواقف تتطلب من التصرف الحازم والعمل السريع ما لا يناسبه التأجيل

والتسويق ، أو التآني والتمهل ، فصد الشر الزاحف ، وإغاثة من يحتاج إلى نجدة وإنقاذ ، وأداء الواجب الموقوت بوقت محدود ، كل هذا وأشباهه تكون المسارعة إليه خيراً وفضلاً ، ويكون التأخر فيه نقصاً وخدمة ، ومن هذا القبيل ما ينسب إلى حاتم الأصم الصوفي حيث يقول : « العجلة من الشيطان إلا في خمس : إطعام الطعام إذا حضر ضيف ، وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاء الدين إذا وجب ، والتوبة من الذنب إذا أذنب » . وإنما عد حاتم هذه الأشياء مما تستجيب فيه المبادرة والعجلة لأن تعجيل الطعام الموجود للضيف الجائع دليل على عدم التكليف والتصنيف ، وفيه مسارعة بإكرام النازل وإزالة الجوع عنه ، ولأن أول الحقوق المتعلقة بالميت هو حق تجهيزه ، حتى قيل إن تجهيز الميت عقب وفاته كستر عورته بالثياب في حياته ، ولذلك تقول العامة في أمثالها « إكرام الميت دفنه » . وتزويج الفتاة البكر إذا بلغت واستحقت الزواج ووجدت الكف والشخص المناسب لها هو من الخير الذي تحسن المبادرة به متى تهيأت أسبابه وإبعادها عن مواطن الزلل والانحراف ، والمبادرة إلى أداء الدين إذا جاءه وعد أدائه مكرمة « تحفظ للانسان ماء وجهه وتصون سمعته عند غيره ، لأن الدين هم بالليل وذل بالنهار ، والوفاء به في ميقاته من شيم الكرام الأحرار . والمسارعة إلى التوبة والتعجيل بها من هدى الإسلام فإن الأجل مجهول وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . ويقول مصوراً سرعة المتقين إلى الرجوع والإنابة : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

وليست الأشياء التي ذكرها حاتم الأصم هي كل الأشياء التي تحسن فيها المسارعة والمبادرة ، فهناك غيرها كثير ، حتى قال الفاروق عمر بن الخطاب :

« التؤدة في كل شئ خير ، إلا في أعمال الخير للآخرة » . ولا شك أن أحسن الأحوال للإنسان هو أن يجمع في عمله بين الإتقان والجد ، وبين التذكير والتبصر ، وبين الإحسان والمثابرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ... إن من البليات التي نزلت بالأمّة الإسلامية أن كثيرين من أبنائها يتعجلون في مواطن تحتاج إلى الأناة والروية ، ويتباطئون عن مجالات تتطلب المبادرة والإسراع ، ومن المؤسف أنهم يسارعون عادة فيما فيه مغنم لأنفسهم أو مطمع لشهواتهم ، ويتقاعسون عما فيه نصرة لدينهم أو نفع لغيرهم ، مع أن الرسول قد أعظم المدح والتقدير للأُنصار حين قال لهم : انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . فليت أمة الإسلام تهب عليها نفحات من صفات الأُنصار الذين كانوا يسارعون في الجهاد والخيرات ، ويتباطئون عن المغنم والشهوات والذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

اطالة العمر (١)

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعم والبركات ، ومفيض الآلاء والخيرات : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد عباده بنصره وخيره : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عمر حياته بالصالحات ، وزان أيامه بالقربات ، فكان مثلاً أعلى للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحبابه ، ومن تمسك بدعوته وملته : « أولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الملاحظة أن أكثر الذين تتقدم بهم السن يبحثون في لفظة عما يعيد الشباب ويجدد الصحة ويمد أجل الحياة ، (وعلى الرغم من الدعاية البادية المقصودة في هذا المجال ، ومن تكرار التصريح من المسؤولين بأن نتيجة هذا الدواء ^(٢) غير مضمونة أو غير متيقنة ، فقد اهتم الناس كثيراً بأمره ، وتهافتوا عليه ، وتمنى الكثيرون لو تهيأت لهم الفرصة كى يعالجوا أنفسهم بهذا الدواء) وهذا التهافت يدل على الرغبة القوية في إطالة العمر ومد فترة الشباب ، كما يدل على حب الخلود الكامن في نفس الإنسان ، فالإنسان يتمنى بكل حيلة أو وسيلة لو خلد فلم يصبه الموت ، أو لم ياحقه الفناء ، ولذلك يخاف الموت خوفاً شديداً مع علمه بتحتمه وتأكده وقوعه ، ومع رؤيته له في كل يوم . . . والإسلام لا يستنكر أن يتطلع المرء إلى طول العمر أو امتداد الحياة ، ولكن المهم في نظر الإسلام هو أن تكون هذه الحياة ذات قيمة ومنفعة ، وإلا كانت عبثاً

(١) الجمعة ٨ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٥ فبراير سنة ١٩٦٠ م

(٢) كثر حديث الناس والصحف في الأيام الأخيرة عن دواء جديد قادم من الغرب قالوا عنه : انه يعيد الشباب ويجدد الصحة ، ويمد أجل الحياة .

ثقيلاً وتبعة مرهقة ، وازدياداً مما يشقى الآن ويشقى فيما بعد ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل بقوله : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ فقال النبي : من طال عمره وحسن عمله ، قال فأى الناس شر ؟ قال : من طال عمره وساء عمله . . .

والقرآن الكريم يحدثنا عن موقف لإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وهذا الموقف يشعركم بأن الله قد يهب الاختيار الأبرار من عباده بعض متاع الحياة وزينتها ، وهم طاعنون في السن ، فهؤلاء هم الملائكة الذين جاءوا إبراهيم يبشرونه وزوجته بلذرية جديدة مباركة وقد طعنا في السن ، فقد روى أن عمر إبراهيم في ذلك الوقت كان مئة سنة ، وأن زوجته سارة كان عمرها حينئذ تسعين سنة : « وامراته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحق ومن وراءه إسحق يعقوب ، قالت : يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب ، قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ . كما أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يستعين بربه من زوال النعمة والصحة والرضى ، فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك وفجأة نعمتك وجميع سخطك » . ولكن الإسلام في الوقت نفسه يعلم المسلم أن يجيد الانتفاع بحياته ، فيجعلها مزرعة مثمرة له في دنياه وأخراه ، وأن يبذل جهده لإصلاح شأنه ، ثم يتوكل على الله في سعى ودأب وإيمان ، راجياً منه أن يهديه سواء السبيل ، ولذلك علم النبي أتباعه أن يدعو كل منهم ربه فيقول : « اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وأمتني إذا كان الموت خيراً لي » . وليس عليه بأس في أن يتطلب حسن المعيشة وطيب المتعة وزيادة الخير ، فمن الدعوات الواردة في الحديث النبوي الشريف : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » .

كما أن الإسلام يذكر الإنسان بما هو مغروس في أعماقه من حب الحياة ، والإسراف في الطمع والتوسع في الأمل ، فيقول الرسول : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر » ويقول : « لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين : في حب الدنيا وطول الأمل » وكان الإسلام بهذا يريد من الإنسان ألا يسيء استغلاله هذه الرغبة العميقة ، حتى لا يفاجأ الموت وهو في إسرافه واعتسافه ، قبل أن يتوب وينيب ، فيكون من ورائه الحساب والعقاب ، ولذلك يقول الرسول : « لو كان لابن آدم واد من ذهب لنتى معه الثاني ، ولو كان معه الثاني لنتى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » . ولو أن الإنسان تذكر وهو في شبابه وصباه أن من وراء الشباب شيخوخة وضعفا ، فاعتدل في شبابه واقتصد في ملذاته ، وكان في أموره وسطاً ، بلغ العمر الطويل دون أن يحس لواذع الحرمان أو التداعى ، وكَم من أناس اعتدلوا في حياتهم ، واستقاموا على طريقتهم ، وامتدت أعمارهم ، دون أن يتألموا أو يتحسروا أو يتعجبوا ، وأما أولئك الذين ينفقون شبابهم لإنفاق السفهاء في أثيم الشهوات والأهواء ، فإنهم يشيبون قبل الأوان ، ويكتون بنيران الحسرة والجزع حينما تحيط بهم ثلوج الشيخوخة الخالية الوفاض . وما أحكم قول الذي قال : « من جار على صباه جارت عليه شيخوخته » . والقرآن الكريم يشير إلى المرحلة الثقيلة في حياة الإنسان ، وهي مرحلة الشيخوخة المتداعية فيقول : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير » . وأرذل العمر أردأه الذي ينقض فيه عقل الإنسان وقوته ، ويصير فيه إلى الخرف ، فيصبح كالصبي الذي لا عقل له ، ومن هنا كان الرسول يدعو فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهرم » وفي حديث

سعد بن أبي وقاص أنه كان يدعو ربه بقوله : « وأعوذ بك أن أزد إلى أزدل العمر » ولا عجب في هذه الاستعاذة فإن الشيخوخة تأتي بمرضاها وضعفها ، فهناك سعال الصوت وارتعاش اليد ، واهتزاز القدم وتلعثم اللسان ، وتهيج الصوت وبطء الحركة ، ولعل هذا هو سر التعبير القرآني البليغ : « ومن عمره ننكسه في الخلق ، أفلا يعقلون » وهناك ضيق الناس بالشيخوخة ولهذا أوصى القرآن الإنسان بوالديه حسناً عند كبرهما وشيخوختهما : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » .

وأما مسألة الخلود التي تشغل بال الإنسان منذ فجر التاريخ البشري ، والتي أراد أن يعبر عنها بالبناء والنقوش والآثار والذرية وغير ذلك من الوسائل ، فقد حلها الإسلام أقوم حل ، وذلك بأن جعل الحياة الدنيا مزرعة وقنطرة نعبر عليها إلى حياة أخرى ، هي أبقى وأعلى : « بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » ، « وللآخرة خير لك من الأولى » ، « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع إن الآخرة هي دار القرار » ، « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » . وبهذا يؤمن الإنسان أن الموت ليس زوالاً أبدياً وليس فناء دائماً ، وإنما هو ضجعة ينامها الإنسان ، ثم ينهض بعدها من قبره ليلقي ربه ، فينال ثوابه بقدر ما أسلف من عمل صالح : « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

ويقول أبو العلاء المعري :

خلق الناس للفناء فضلت أمة يحسبونهم للبقاء
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر أن الشباب في الحس والجسم لا يجدى إذا لم يكن معه شباب في الروح والعزيمة ، ولقد كان أجدادكم يبلغون من العمر ما يبلغون وصدورهم عامرة بالرضى والإيمان والعزم ، ويرددون في صدق قولهم : « تشيب نواصينا ولا تشيب قلوبنا » ، فلنبغ الخير في هذه الحياة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وإذا أرضينا حواسنا فلا يليق بنا أن نغفل نفوسنا ، ورب يوم في حياة عامل مؤمن خير من عام في حياة عابث غافل ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . . .

أمة تصهرها التجارب^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل أمته وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وأمر بالوحدة والتوحيد فقال : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وأشهد أن لا إله إلا الله يثيب ويعاقب ، ويؤدب ويهذب : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه فكان قدوة للعالمين . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين وصحابه السابقين وأتباعه العاملين : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

للأمة المؤمنة أعداؤها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، وهؤلاء الأعداء لا يغيظهم شيء كأن يروا هذه الأمة متآلفة متماسكة ، ولا يسرهم شيء كسرورهم حين يرونها متفرقة متمزقة ، لأنهم حين ائتلافها واتحادها لا يستطيعون أن ينالوا منها منالاً أو يكيلوا لها كيلاً ، ولكنهم حين تفرقها وتمزقها يجدون الثغرات التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة التي يريدون . . . ولذلك أرسل الله رسوله ليكون نبي الوحدة والتوحيد ، فيثبت كلمة التوحيد ، ويحقق توحيد الكلمة وقال في محكم تنزيله : « إنما المؤمنون إخوة » وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » وعلم الرسول أتباعه أن يكونوا يبدأوا وحدة وقلباً واحداً في مادياتهم ومعنوياتهم ، وحركاتهم وسكناتهم . حتى روى أن الصحابة كانوا في أول أمرهم إذا نزلوا

(١) الجمعة غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٤ سبتمبر سنة

منزلاً أثناء سفرهم توزعوا في الشعاب والأودية ، فقال الرسول لهم : « إن تفرقكم هذا من الشيطان » . فصاروا لا ينزلون بعد هذا منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال : لو بسط عليهم ثوب لعمهم .

ولقد طافت بآمتنا منذ حين طوائف من أعاصير الإحن والحن ، ووجد الشيطان فيها منفذاً ينفذ منه هنا أو هناك ، محاولاً التفريق أو التمزيق ، وكانت لكيدته عواقب وخيمة ونتائج أليمة ، ولكن التجارب التي مرت بالأمة بعد ذلك صهرتها فذكرتها ، وأدبتها فعلمتها ، وخرجت الأمة من هذه التجارب وهي مؤمنة بأن الفرقة ضعف ، وأن الوحدة قوة ، وأن العوارض الطارئة التي تعرض للأمة من حين لآخر لتتألم من قوتها أو هيبتها يجب أن تمحى عن طريق الاضطلاع بجذوة الكفاح المخلص ، والتطهر بعرق العمل الموصول ، فإن الجهود المخلص المضمي كفيلاً بأن يمحس النفوس ويصفي القلوب ويعيد المجموع إلى طريق الهدى والرشاد . وهؤلاء مثلاً هم المسلمون الأولون يعودون من إحدى الغزوات (وهي غزوة بني المصطلق) وقد انتصروا انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، ولم يستشهد إلا رجل واحد قتل خطأ ، وعادوا عودة الظافرين الظاهرين على أعداء الله وأعداء الدين ، ولكن حكمة العليم الخبير وضعت في طريقهم درساً ليؤدبهم به ويهديهم ، فقد ازدحم على سقى الماء خادمان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار فاقتتلا ، فصاح الأول : يا للمهاجرين ، وصاح الثاني : يا للأنصار ، وهمت الدعوة الجاهلية المنتنة أن تتحرك وتثور بين قوم أسلموا لله وجوههم ، وأخلصوا للإسلام جهودهم ، فهذه عوامل الشر تتجمع ، وهذه حوافر الفتنة تتأهب ، وبخاصة أن بعض المنافقين استغلوا الحادث الذي سببه الصغار فكاد يقع فيه الكبار كما يعبر العامة ، فأخذوا هؤلاء المنافقون يحاولون بعث الفتنة النائمة من مرقدتها ، وفي طليعتهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، فما كان من الرسول إلا أن عجل

بالدواء والعلاج ، فأمر بارتحال الجيش في وقت لم يكن محمداً للرحيل ، وظل يسير بالجيش طيلة نهاره وليله ، وصعدوا من طليعة اليوم التالى ، ثم أذن بالراحة ، فما كاد القوم يمسون الأرض بمجنوبهم حتى ذهبوا في سبات عميق ، وقاموا بعد نوم طويل ، وقد كان الشديد الذى تعبوه ، والعرق الذى تصبب من جباههم خلال مسيرهم ، فاصلاً قوياً بين الحادث العارض وبين الحاضر المشرق ، فندسى القوم ما كانوا فيه ، وأصبحوا بنعمة الله متحايين . .

وهكذا شأن المسلمين ، أو هكذا يجب أن يكون ، يعرض لهم العارض من زلل أو خلل أو تقصير ، فيتخلصون من ذلك ويتطهرون بالمجهود يبذلونه ، فيصلح ما كان من فساد ، ويعوض ما فات ، وبالعرق يتصبب جباههم ، فيكون طهوراً يتطهرون به من عيب التقصير أو الانحراف ، ويخرجون منه ظاهرين متطهرين ، مخلصين لله حنفاء . . .

ولقد تصاب الأمة في بعض الأوقات بشدة أو أزمة ، فيصبر أبنائها عليها حتى ترحل عنهم ويخرجوا منها أقوياء أشداء ، مهما ظنت الظنون أن صبرهم على هذه الشدة سيؤدى بهم إلى مضاعفة الأذى لهم ، ونحن نتذكر موقفاً يشير إلى هذا المعنى ويرمز له ، وهو حال المسلمين حين ذهبوا إلى مكة في عمرة القضاء ، وأخذوا يطوفون حول الكعبة ، وكانت الحمى قد فعلت بهم الأفاعيل ، فانتزها المشركون السفهاء فرصة ليسخروا من المسلمين ويشمتوا بهم ، فجعلوا يتهامسون قائلين : إن محمداً وصحبه قد أنهكتهم حمى يثرب ، فأراد الرسول أن يقضى على أثر ذلك الهمس الخبيث ، فشمّر ثيابه واستعد للهولة وهو يسعى ويطوف ، وقال لأصحابه : رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه اليوم . . واستجاب الأصحاب مسرعين ، ففعلوا وهولوا برغم ما بهم ، وتصبب العرق الطهور من الجباه الشريفة السامية ، فكان خير رد على هؤلاء السفهاء ، وكان علاجاً أى علاج لنفوس البررة الأوفياء . . .

وإذا كانت الأمة كما رأينا تطهر نفسها من زللها بسببها في بحر الجهاد والنضال والعمل ، فكذلك الفرد ، قد يزل زلة ، ثم يفى ويندم ، ويلقى بنفسه في غمار العمل الكريم والتكفير الصادق ، حتى يرتفع في مراقى الصلاح والطاعة درجات فوقها درجات ، وربما صار بعد هذه الهفوة وما أعقبها من ندم ومجهود وعرق أحسن شأنًا مما كان عليه من قبل ، ولعل هذا ما يشير إليه ابن عطاء الله السكندري حين يقول : « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

وإذا كانت السيئات تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فإن المباهاة الكاذبة أو الكبرياء الحمقاء تحقق عمل الإنسان كله ، فلا هو لآخرته ادخر ، ولا هو بحاضره انتفع ، وذلك هو الخسران المبين ، وأفضل المسلمين شأنًا من علم علم اليقين أن حياته أجل مضروب له ، وهو مدعو فيه إلى أن يبذل أقصى جهده ليكون صالحاً سعيداً في حاضره ، ومقبولاً مرضياً في غده يوم يلتقى ربه جل جلاله ، فهو لا يقصر ما دام قادراً على التمام ، إذ ليس هناك عيب كتنقص القادرين على التمام ، وهو لا يغتر بمجهود يقدمه لئلا يحق عمله بغروره وفجوره ، وهو يتذكر دائماً قول الحسن البصري : « ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديده ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » . ومن شأن المسلم أن ينتهز الفرصة قبل فواتها وإلا انقلبت عفته ، وأن يحسن استغلال الوقت ، لأن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وأن يحسن استغلال قواه البدنية والمعنوية قبل أن تتحطم فيه تلك القوى فيقول : يا ليتنى قدمت لحياى ، وصلوات الله على رسوله يوم قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : : ما قيمة الأمة إذا لم تكن بنياناً
مرصوباً شامخاً ، لها مكائنها وحرمتها ، ولها في الحياة هدفها ورسالتها :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ،
وتؤمنون بالله » . وما قيمة الفرد إذا لم يكن كائناً حياً صالحاً مصلحاً يعمل
لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لأخراه كأنه يموت غداً ، فلتعمل الأمة على
جمع كلمتها وصيانة وحدتها وتحقيق رسالتها ، وليعمل كل فرد لله ولوطنه
ونفسه حتى يكون المجموع في خدمة الفرد ، ويكون الفرد في خدمة المجموع ،
فيسعد الجميع ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

من هدى الصوفية^(١)

الحمد لله عز وجل ، مد الآفاق وبسط الأرزاق ، وهياً للإنسان الزمان والمكان : « يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .
أشهد أن لا إله إلا الله ، الحق الذى لا يقبل غير الحق ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الداعى إلى الهدى واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، وأتباعه وأجناد دعوته : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من سلفنا الصالح إمام تكلم كثيراً في تربية النفوس وتهذيب الأخلاق ، وهو الإمام سهل بن عبد الله التستري الذى كان يقول : « لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » ، ويقول : « العيش على أربعة أوجه : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء فى العلم وانتظار الوحي ، وعيش الصديقين فى القدوة ، وعيش سائر الناس فى الأكل والشرب » . ومن كلامه عبارة دقيقة عميقة ، تشير الفكر وتشغل العقل ، يقول فيها : « الفتن ثلاث : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخروه إلى وقت ثان » . والمراد الفتنة هنا هو الابتلاء المؤدى إلى التقصير فى تحمل التبعة ، وإذا كان الحديث الشريف يقول : « المؤمن خلق مفتناً » أى ممتحناً يمتحنه الله من حين إلى حين ، فإن الحديث الآخر يقول : « المسلم أخو المسلم يتعاونان على الفتان » أى يعاون أحدهما الآخر على التخلص

(١) أقيمت فى يوم الجمعة ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٤ م .

من وساوس الشيطان الذى يفتن الناس عن الهدى ، ويريد أن يضلهم الضلال فتعالوا بنا نتعاون فى ضوء هذه العبارة على معرفة الفتنة ، ونتمسك الطريق إلى الابتعاد عنها : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

يقول الإمام المربى : « فتنة العامة من إضاعة العلم » ، وهو يقصد بالعلم هنا العلم النافع الموصول إلى الله تعالى ، وكأن هذا الإمام كان ينظر بقلبه إلى زمان كثر ما ننا ، فإن كثيراً من الناس اليوم يضيعون على أنفسهم ما يجب أن يعرفوه من أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم وهدى نبيهم وطرق تعبدتهم ، ولقد دخلت على المجتمع الإسلامى ألوان كثيرة من الثقافات الطارئة التى تدور حول الشهوات والملذات ، أو الأهواء والرغبات ، أو مطامع النفس ومطالب الحسد ، وأصبحت الثقافة الدينية بين هذه الألوان كالفريسة المضيفة ، وهناك آلاف الأطنان من الورق تتحول كل شهر إلى كتب ومجلات ومنشورات ، وأغلب هذا المنشور إما أن يميل إلى بحث الأمور المادية البحتة ، وإما أن ينجح إلى موضوعات الجنس والأدب المكشوف ، المنحرف ، وصارت المجلة المشهورة بالتبذل أو التحلل تطبع عشرات الألوف من كل عدد ، وتمتد إليها الأيدي تتخاطفها فى الشوارع والمكاتب والأندية والمخادع ، على حين أن مجلات الدين والأخلاق تصاب بكساد وإعراض ، وهكذا تضاعفت قيم الروح فى دنيا البطون والفروج ، وتسببت إضاعة العلم الدينى فى فتنة الكثيرين وإضلالهم عن سوء السبيل .

ثم يقول الإمام المربى : « وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات » . وهذا القول له شواهد عديدة فى دنيا المسلمين ، فمنهم كثيرون إذا أوتى الواحد منهم حظاً من الذكاء أو العلم أو المكانة ، أساء استغلال ذلك ، فهو يبحث (م ٢٨ - خطب ج ٢)

أوسع عن الرخص الدينية هنا وهناك ، حتى يتحلى من أغلب العزائم والواجبات ، ويتخلص أكثر من القيود والتبعات ، وهو يشتط في التأويل والتفسير ، فيتعلل حيناً بأن هذا الحكم كان لزمان معين لا لكل زمان ، وأن ذاك الحكم قد نسخ بحكم آخر ، وأن هذا الحكم يتطور بتطور الإنسان والزمان والمكان ، حتى سمعنا من يدعو إلى تفسير النصوص القرآنية والنبوية تفسيراً يخضعها لأهواء العصر ، حتى تتفق هذه النصوص مع ما يحبه الناس أو يشتهونه وبذلك يصبح الدين تابعاً لا متبوعاً ، لا يقود الحياة ومن فيها وإنما يقوده أهلها كما يريدون ، مع أن هدى الله تعالى يجب أن يظل مهيمناً وموجهاً : « قل أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء ؟ » ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ثم يقول الإمام المربي : « وفتنة أهل المعرفة أن يلزمهم حق في وقت فيؤخره إلى وقت ثان » ، والمراد بأهل المعرفة هنا هم الذين عرفوا ربهم ، وأدركوا حقوقه ، وأقبلوا عليه ، واستعانوا به فلم ينصرفوا عنه ، ولذلك قال أبو يزيد البسطامي « علامة العارف ألا يفتر عن ذكر الله تعالى ، ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره » . وقال الجنيد : « العارف من لم يأسره لحظة ولا لفظه » وكأنما يعنى أنه تلقنه عن الله تعالى شهوة النظر ولا شهوة الكلام ، وهؤلاء العارفون السائرون على صراط الاستقامة يرون أن الواجبات أكثر من الأوقات ، وأن كل جزء من أجزاء الزمن له حق وعمل وواجب ، وشأن العارف بالله المراقب له أن يؤدي كل عمل في وقته ، ولا يؤخره إلى غيره ، وإلا اجتمع حقان أو أكثر على وقت واحد ، وإذا فعل العارف ذلك تعرض للفتنة والابتلاء ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذه الفقرة من كلام الإمام المربي تذكرنا بقيمة الوقت في نظر الإسلام والمسلمين ، فهم يشبهون الوقت بالسيف ، إن لم يقطعه صاحبه بالعمل المبرور والسعي المشكور قطعه

الوقت بالهوان والضياع ، وإن الوقت يطول ويستعرض أمام الالاهين أو الغافلين ، فيرتعون ويمرحون ، ويلهون ويلعبون كأنهم مخلدون ، وكأنهم إلى ربهم لا يرجعون ، ولكن حينما تذهب السكره وتأتى الحسرة ، يتضاءل هذا الزمان الطويل العريض فى أنظار من استطالوه بالأمس ، فكأنه طيف مر ، أو خيال عبر ، وما أدق الرمز إلى هذا وأعظمه فى قول الله عز من قائل : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون » وقوله عن القيامة : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . والرسول يقول معبراً عن قيمة الوقت وتبعته : « لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فىم أفناه ، وعن شبابه فىم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفىم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك إذن فى الأمة المسلمة كثرة جاهلة يرجى منها أن تتعلم وتتفقه وتدرک واجبها نحو ربها ودينها ، وهناك خاصة أتاها الله جاهاً وذكاء وعلماً ، ويرجى منها ألا تحرف الكلم عن مواضعه ، وألا تشوه المبادئ بالتحويل والتغيير ، وهناك فى أمة محمد قلة تمثل الاستقامة والخير ، وواجبها أن تظل سائرة على طريق الهدى ، لتكون مناراً للورى ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

في ركاب الصوفية^(١)

الحمد لله عز وجل ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أواو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدي النفوس من ضلالها ، ويكسوها بأثواب جمالها ، والله ذو الفضل العظيم ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير قدوة وأفضل أسوة ، فصاوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تعالوا نشطح قليلا مع الصوفية الصادقين المخلصين ، لننسى إلى مراتب أولئك الأعلام الذين أرادوا أن يضربوا للناس المثل العليا ، بإعراضهم عن شهواتهم ، وإقبالهم على الله وحده ، يدعونه ويعبدونه ، ويرجون منه العون والسادد ، والصوفية الصادقون طائفة من البشر ، وهبهم الله قلوباً طاهرة ، ونفوساً بالخير عامرة ، وأرواحاً لربها ذاكورة ، فهي تهم في ملكوت السموات والأرض ، وتتدبر في اختلاف الليل والنهار ، وتعتبر بسواطع الدلائل والآثار فتفتف من الأعماق : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . وتراهم مثلاً يعلمون المرء ألا يزهو بقربة من القويات ، لأن الاغترار بما يقدمه الإنسان نحو ربه من أعمال قد يكون سبباً لحقها ورفضها وعدم الإثابة عليها ، وكم من أناس تاهو على غيرهم افتخروا بأنهم أكثر منهم طاعة ، فكان افتخارهم محبطاً لما قدموا من عمل ، حتى صار هباء منثوراً ، ولذلك نجد الصوفية يذكرون بالتواضع ويدعون إليه ، لأن من تواضع لله رفعه ، ومن

(١) القيت في يوم الجمعة ٣١ مارس سنة ١٩٥٠ م .

تكبر عليه قصمه ووضع ، ويرون أن من أخطأ فنديم وتاب واستقام ، أخف شأناً ممن أطاع ثم تطاول على العباد بطاعته ، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » . ومن هنا كان الصوفي الصادق يعمل ، ما يعمل من الخيرات ، ويقدم ما يقدم من الصالحات والقربات ، فإذا قيل له : أنت من أهل الجنة ، خاف وارتعش وقال : إني لا آمن مكر الله ، اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تفضحني على رءوس الأشهاد يارب العالمين .

والصوفي الصادق رجل رزين هادئ ، لا يكثر من الادعاء والتظاهر ، ولا يحاول أن يكشف للناس ما استتر من تقواه ، وإلا كان مرئياً ، والرياء هو الشرك الخفي الذي يدب دبيبه المستتر إلى الإيمان فيفسده ، بل يظل الصوفي يعبد ربه مخلصاً له الدين ، محتجب عن عيون الناس ما استطاع ، ويرى أن الناس كانوا ورقاً بلا شوك فأصبحوا شوكاً بلا ورق ، فهو يجلس مع العامة بجسمه ، ولكن قلبه يهيم في أودية أخرى ، وقد يبدو هادئاً ساكناً في ظاهره ، ولكنه في داخله يمد خوفاً ورهباً ، وهذا شيخ الصوفية الجنيد الذي صافي المعاملة مع ربه ، وعمر ليله ونهاره بالتقوى ، كان يجلس مع الناس يسمع آيات الذكرى والاعتبار ، فتضطرب لها نفسه ويقشعر فؤاده ، ولكنه يظل وقوراً ثابتاً كأنه لم يصبه شيء ، لأن هذا أمر بينه وبين خالقه ، يريد أن يتحقق فيه الإخلاص الذي جعله الله سرّاً من أسرارهِ ، يودعه قلب من يشاء من عبادهِ ، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، حتى يلتقي ربه بإخلاصه يوم القيامة ، فيثبت عليه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولقد سأل بعضهم الجنيد عن سر هذا السكوت فقالوا له : لماذا لا نراك تتحرك بشيء عند السماع ؟ فقال الجنيد : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » ! . . . ولو فرضنا واشتهد التقى

بين قومه بالصالح لا تنتشار الخير عنه ، أو سطوع النور منه ، فإنه لا يغتر بذلك ، بل يسأل ربه السلامة من آثاره ، وهذا هو بشر الحافى — الصوفى الإمام — كان يرتعد خشية من مثل هذا ، فيردد هذا الدعاء : « إلهى ، رفعتنى فوق قدرى ، ونوهت باسمى ، وشهرتني بين الناس ، فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضخنى غداً يوم القيامة » ! .

والصوفى الأصيل رجل ينتزع من كل مقام عظة ، ومن كل موقف عبرة ، بل قد ينتزع اللؤلؤ من بين التراب ، ويستخلص الرحيق المصفى من درن الشراب ، فهذا مثلاً شاعر عابث يريد أن يزداد من الخمر أضعافاً فوق أضعاف قبل حلول رمضان فيقول :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلى بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق عن الصغار

ويسمع صوفى هذين البيتين فيهتز لها ويميد منهما ، لأنه يفهم أن البقية الباقية من الأجل قصيرة ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ، وإذن فالواجب عليه أن يشمر عن ساعد الجدى فى العبادة والتقوى .

« وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقونى يا أولى الألباب » .

ومن أخلاق الصوفية الصادقين أيضاً أنهم لا يتطلعون إلى ما فى أيدي الناس ، ولا يتكالبون على متاع الحياة الدنيا ، بل يتجهون بهمهم وعزائمهم إلى خالقهم ، ويسألونه من فضله العميم فى الدار الآخرة ، لأنها دار البقاء والهناء والنعيم المقيم ، ولذلك نرى سفيان بن سعيد الثورى — وهو الصوفى الإمام — يعزف عن الدنيا ويזהد فيها ، وتشغله العبادة والعمل الصالح عن الطعام والشراب والثبات ، وكان يحذر أن يناله شيء من سحت الدنيا أو باطل

الناس ، ويفعل ذلك انتظاراً لما هو أجدى وأبقى وهو متاع الفردوس العظيم
 فى ظلال العظيم الكريم ، ولما مات رآه بعضهم فى النوم فسأله عن حاله و عما
 فعل به ربه ، فقال :

نظرت إلى ربى عياناً فقال لى : هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد
 لقد كنت قواماً إذا اظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عيسد
 فدونك فاختر أى قصد أردته وزرنى فلانى منك غير بعيد !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

قد لا تتسع هممنا أو لا تقوى عزائمنا على أن نبلغ ما بلغه هؤلاء الرواد
 الأعلام ، فلا أقل من أن نتنسم شذاهم العطر ، محاولين التشبه بهم إن لم نكن
 مثلهم ، وأن نولى وجوهنا شطر التذكر والاعتبار ولو من حين إلى حين ،
 فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وإن الروح لتصدأ كما يصدأ الوعاء إذا لم يكن
 له تطهير ، فلنطهر أرواحنا بخير ما تتطهر به الأرواح ، وهو نور خالقنا
 وبارئنا الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم بإذنه إلى صراط
 العزيز الحميد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مكانة الصحبة (١)

الحمد لله عز وجل ، حث على التعارف والتآلف ، ودعا إلى الهدى ، وأعز بالتقوى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبارك الصادق على الخير والبر ، ويمحق السيئ من القول والفعل ، « إنه بما تعملون بصير » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان مثلاً لكرم الصحبة والإخاء ، وكان خير داعية للمحبة والصفاء فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله والمهتدين بأعماله وأقواله ، « أولئك هم على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وهو لا يستطيع أن يحيا في هذا الكون وحده مهما أوتي من بسطة الجسم والعلم والمال ، بل لا بد له ممن يصاحبه ويعاونه ، ويتبادل معه المؤازرة والمساعدة وكثير من الناس يعتبرون الصحبة مجرد التقاء لغرض أو مناسبة ، ثم تنتهى بانتهاء هذا الالتقاء ، مع أن الصحبة عند الإنسان الأصل الكريم رابطة روحية لها مكانتها وقيمتها ، ولها آثارها المعنوية فوق مظاهرها الحسية ، والقرآن الكريم يزكى الصحبة ويسمو بحديثها حين يعبر عن الرسول العظيم بأنه صاحب : « ما ضل صاحبكم وما غوى » ، وحين يعبر عن الرابطة بين الابن وأبويه وأكرم بها من رابطة بأنها مصاحبة : « وصاحبهما في الدنيا معروفاً » ، وحين يعبر عن شريكته في حياته بأنها صاحبة : « وصاحبته وبينه » ، « والصاحب بالجنب » . يقصد الزوجة .

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٢٢ ذو القعدة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٢ م .

ولقد نهضت دعائم الدعوة الإسلامية في عصرها الأول على الصحبة والصحابة ، فما كاد ابن عبد الله وسيد خلق الله يبشر بدعوة السماء حتى استجاب له نفر كرام فازوا بشرف السبق إلى صحبته ومعاونته ومؤازرته ، حتى استحقوا بهذه الصحبة التي حفظوا بجانب حرمتها ورعوها حق رعايتها صادق التكريم والتجديد ، فقال فيهم الرسول : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقال فيهم : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعد (أى لا ترموهم بالسنتكم) فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

ولقد تمثلت الصحبة عظيمة كريمة رائعة في تلك العلاقة النبيلة الجليلة الطاهرة التي وثقت يد الله تعالى أسبابها بين نبيه وخليفته أبي بكر ، الصديق الذي وفي للرسول بقلبه ولسانه وماله وأعماله ، وبجازه النبي وفاء بوفاء ، وإخلاصاً بإخلاص ، واعتز الرسول بهذه الصحبة اعتزازاً عميقاً واضحاً فقال : « إن من آمن الناس في صحبته أبا بكر » ، وكان النبي يصفه بقوله : « أخى وصاحبي » ، وكان يدافع عنه إذا أودى ويقول : « فهل أنتم تاركون لي صاحبي » ؟ وكان يقول له : « أنت صاحبي على الخوض ، وصاحبي في الغار » . ولم يفث القرآن الكريم أن يسجل لقب « صاحب » لأبي بكر ، ويبين كيف يكون إخلاص صاحب وإشفاق الصديق ، فيقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

ولو رجعنا إلى السنة النبوية المطهرة لوجدناها ترشدنا إلى مبادئ في الصحبة لها قيمتها وجلالتها ، فنحن نفهم منها أولاً أن طبيعة الصحبة أن تكون بين متماثلين يتلاقيان في تفاهمان ويتعاونان في مجالات الحياة المختلفة بروح التوافق والتماثل ، حتى كأنهما قد صارا من اتفاق طباعهما شخصاً واحداً

أو روحاً واحدة ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تذاكر منها اختلف » . ولذلك يعتبر الصديق في نظر الإسلام ، بل وفي نظر الناس صورة من صاحبه وترجائاً عنه ، فيلزم الإنسان أن يختار لصحبته من يزينه لا من يشينه ، ومن يؤيده في الحق ويعينه ، لا من يضلّه أو يفسده ، ولذلك قال الرسول : « الصاحب رقة في الثوب ، فليُنظر الإنسان بم يرقع ثوبه » وقال : « المرء على دين خليله ، فليُنظر أحدكم إلى من يخالّل » .

ولعل أول أساس للصحبة المرضية من الله ورسوله ، ومن الإسلام ومنهجه ، هو أن تكون خالصة لوجه الله ، حتى تكون شريفة القصد نبيلة الهدف كريمة المستوى ، وحتى تخلد وتبقى ، لأن ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال وانفصل ، وهذا الخلو في الصحبة لوجه الله هو المعبر عنه في أدب الإسلام بالحب لوجه الله تبارك وتعالى ، وحسبنا في تمجيده قول من تم الله به مكارم الأخلاق : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » . وليس هناك أعلى ولا أسمى ولا أتقى من جعل الصحبة خالصة لوجه الخالق جل جلاله ، لأن عمادها حينئذ سيكون قائماً على الطهر والتقوى والإخلاص ، وإذا كان هناك متصافحون مفسدون يتصاحبون على طريق الإثم والرذيلة ، أو يتزاملون في مجالات الشر والباطل ، فإن صداقات هؤلاء لا تبقى ولا تدوم ، وما أسرع أن تنقلب هذه الصداقات إلى عداوات ، لأنها معلقة بأغراض خسيسة أو أهداف دنيئة أو مقاصد تافهة ، فإذا تحقق لصاحبها ما أراد زهد فيها أو تنكر لها أو انقلب عليها ، وقد يتعسر عليه أن يبلغ ما يريد ، وهنا يتحول إلى أفغوان يلدغ أول ما يلدغ ذلك الذي صاحبه بالأمس على قاعدة

الانتفاع أو الإيقاع ، ولذلك أشار القرآن المجيد إلى أن ألوان الصبغة التي تنشأ في ظلمات الإثم والغش والخداع وإيثار الباطل ، تصير - إن عاجلاً وإن آجلاً - إلى عداوات ومضرات ، ويبقى الأتقياء الأنقياء الذين نهضت صاحبهم على أساس الإخلاص والصدق كما هم ، يتحلون بنعمة الأمن والاطمئنان في الدنيا والآخرة ، فيقول القرآن : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أأنتم تحزنون » .

وهذه هي نتيجة الصبغة الفضالة المصولة بصورها كتاب الله عز وجل : « ويوم بعض الظالم على يديه ، يقول : « يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

وحق إذا تصاحب المؤمن مع المؤمن ، فالله راعيهما ، والرسول قدوتهما ، والإسلام قانونهما ، والإخلاص رائدهما ، ومن ثم لا يدعو أحدهما الآخر إلا إلى خير ، ولا يدلّه إلا على بر وفضل ، ولذلك كان على كل منهما أن يطيع صاحبه ويستجيب له ، ويتجنب معه الجدال والخلاف والعصيان ، ولعل هذا هو ما أراده بعض الصوفية حين صور تطاوع الصاحبين ، واستجابة كل منهما للآخر في مبادرة ومسارعة ، بقوله : « إذا قال لك صاحبك : هيا ، فقلت له : إلى أين ؟ فقلت بصديق . وذلك لأنه حين يقول لك : هيا ، لا يقوها إلا داعياً إلى سبب من أسباب الحق أو الخير أو العدل . لأنه الصاحب المؤمن المخلص الطهور ، وإذا كان الحديث يقول : « المؤمن مرآة أخيه » فعنى هذا أنه لا يخادعه ولا يرائيه في قليل أو كثير ، كما أن المرأة تخفى شيئاً عن من ينظر فيها ويتطلع إليها ، ولقد قال يوسف بن الحسين لدى التون المصري : من أصحاب ؟ فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله تعالى منك . ورضوان الله تعالى على خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز حين حدد إطار

الصحبة النافعة المخلصة فقال : « من مصيبي منكم فليصحبني بخمس خصال :
 بدلني من العدل إلى ما لا أهتمنى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، وبلغنى
 حاجة ، من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة
 التى حملها بينى وبين الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا (١) ، وإلا فقد خرج
 من مصيبي والدخول على » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ما أخرج الحياة الصاخبة اللاعبة إلى
 النسمات الطيبة الطاهرة التى تنبعث من روضة الصحبة النقية الخالصة ، وما أخرج
 المرء فى هذه الحياة إلى صاحب له أمين ، يذكره إذا غفل ، ويعينه إذا ذكر ،
 ويشاركه إذا فرح ، ويشاطره إذا حزن ، ويخلص معه الصحبة لوجه الله
 عز وجل ، حتى يطيب مذاق هذه الحياة ، واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون ،
 إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

جهلة بالسنة^(١)

الحمد لله عز وجل ، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، القائل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه المخلصين ، وأتباعه المؤمنين : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نعق ناعق منذ حين فى بلد عربى فتهجم على سنة سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، وحاول التشكيك فى أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل وهو صحيح الإمام البخارى الذى أجمعت الأمة المؤمنة على أنه أصدق كتاب بعد القرآن الكريم ، ومن أعجب العجب أن هذا الناعق افترى على الإمام البخارى فى أكثر من جهة ، فألقى ظلاً على صدقة فى الرواية مع أن البخارى هو رجل الثقة الأمين الحافظ ، الذى قضى حياته فى خدمة السنة ، وسهر الليالى فى تمحيصها ، وطوى الفياق والقفار فى سبيل التثبت من نصوصها ، ونسب هذا الناعق إلى الإمام البخارى ما لم يقله ، فكان مقترياً فوق تطاوله ونخب مقصده ، ثم تقاصر عقله عن فهم نصوص نبويه ، فشطح فى تفسيرها ونطح ، فجمع على نفسه أكثر من سبة ، وكسب لها أكثر من مذمة ، ولعله حسب أنه سيهدم شيئاً من جلال مكانة البخارى فى أنظار المؤمنين ، ولكن كيده ارتد إلى نحره ، وكانت نعقته سبباً فى مسارعة الكثيرين من المؤمنين

(١) ألفت فى يوم الجمعة ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٨ أبريل سنة ١٩٦٦ .

إلى تمجيد البخارى والدفاع عنه والترديد لسيرته العاطرة ، ولو كان البخارى اليوم حياً لما ساءه مثل هذا التطاول ، فهو القائل رضى الله عنه : « المادح الدام عندى سواء » ، والبخارى وهو فوق هذا قد أعطى أمثال ذلك المتطاول درساً فى أدب الحديث وصيانة الحرمات ، وبخاصة حرمة من مات ، فقال : « أرجو أن ألقى الله عز وجل لا يطالبني أنى اغتبت أحداً » ، وليت هؤلاء يعتبرون ويتعظون ويدكرون قول من قال :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقصوا

ومن خلط هذا الناعق الذى يهرف بما لا يعرف أنه قال إن البخارى روى حديثاً لا يمكن قبوله ولا تصور معناه ولا نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : « اختلاف أمتى رحمة » ، وهذا الحديث أولاً غير موجود فى صحيح البخارى ، لأن الذين رووه أئمة آخرون غير البخارى ، وهو حديث حسن ، ومعناه لا غبار عليه ، وإذا كان ذلك المتهجم على السنة لم يستطع فهمه فما أجدره بأن يتذكر قول القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

إن الحديث يقول : « اختلاف أمتى رحمة » ، وهذا النص لا يصعب تتلاف الموصوف فى الحديث

ل أو العقائد والفرائض ، وإنما هو اختلاف

فى الفروع ووسائل التطبيق التى تختلف باختلاف البيئات والعصور والأزمان ولا جدال فى أن الناس قد اختلفوا فى الفهم والإدراك ، وأنهم يختلفون ، وأنهم سيختلفون ، ولو أردنا أن نحمل الناس على أن يكونوا جميعاً فى كل شئ* « صوراً طبق الأصل » من نموذج واحد ، لما سار دولا ب الحياة ، ولا تجلت الهمم والعزائم ، ولا ظهرت الحقائق أو الدقائق ، ولا تبدت سماحة

الإسلام الذى جاء بالنصوص العامة الكلمة الصالحة لكل زمان ومكان ، وترك أمام الأفهام والعقول مجالات فى فهمها واستنباط مدلولاتها ، ومراعاة ظروف الحياة عند تطبيقها ، وبذلك تتوافر عناصر البقاء والخلود أمام شريعة أرادها الله أن تظل قائمة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك قال خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز : « ما سرفى لو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » أى لم تظهر سماحة الدين وسهولته ، لأن هذا راعى ظروف القوى ، وذلك راعى ظروف الضعف ، وهذا لاحظ حالة الصحيح ، وذلك لاحظ حالة العليل ، وهكذا ، ومن وراء هذه الجهود المتعددة المستقصية لألوان الاستنباط بقدر الطاقة تكون هذا التراث الإسلامى الضخم الذى تفخر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى تقوم الساعة ، وهذا هو الإمام مالك يضع كتابه العظيم « الموطأ » الذى ضمنه ما جمع من السنة وما اهتدى إليه من رأى ، فيطلب منه الخليفة هارون الرشيد أن يعلقه له على الكعبة ، وأن يحمل جميع الناس على ما فيه من آراء ، فيرفض الإمام ذلك ويقول للخليفة : « لا تفعل فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وعند كل منهم علم ، وكل منهم على صواب » .

ومن الميسور أيضاً أن نفهم هذا النص : « اختلاف أمتى رحمة » على أساس أن اختلاف مذاهب الناس فى البحث والإدراك والاستنباط يؤدى إلى خير ، لأن هذا يتيح فرصاً أمام حرية التفكير ، فيكون هناك استعراض واسع لوجهات النظر المختلفة ، والحقيقة بنت البحث ، وكل باذل جهداً فى التفكير مشكور مأجور ، ما دام مخلصاً طاهر النية ، ومن هنا ظهرت القاعدة الإسلامية المشهورة : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، وهى قاعدة تعد أروع الأمثال فى تكريم التفكير ، وتقدير

المجتهدين للوصول إلى حقائق الأمور ، وفوق هذا نجد حجة الإسلام الغزالي سنة ٥٠٥ هـ يفسر هذا الحديث تفسير آخر (١) بقوله : « الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك أكثر الخلق ، فانتظام أمر الكل ، وتكفل كل فريق بعمل ، ولو أقبل على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم : (اختلاف أمتي رحمة) أى اختلاف همهم في الصناعات والحرف . وهذا تفسير يذكرنا بما ينادى به المجتمع المعاصر من التزام « التخطيط » الذى يقتضى أن تتوزع المهام والطاقات على مختلف الحرف والصناعات ، حتى تتحقق للناس الأسباب اللازمة لتوفير مطالب الحياة وضرورات العيش ، ومن هنا ندرك ما فى حديث الرسول من رمز بليغ وإشارة دقيقة ، وما تفسير الغزالي السابق له من براعة وذكاء ، فلولا اختلاف الناس في مذاهب العمل ومسالك الحياة لتعطلت شئون ، وفسدت للمعاش وجوه وأسباب ، وهذا سخر الله العباد فيما أراد ، وكل ميسر لما خلق له ، وفوق تدبيرنا لله تدبير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن من الأغرار من يحسب أنه يستطيع إفناء الجبل الشامخ إذا عجز عن صعوده ، ولو أن من جهل شيئاً تلمس الأسباب إلى تعلمه ، بدلا من المسارعة إلى إنكاره لكان هذا أليق بالعقل وأجدى على الإنسانية ، ولن يضير سنة رسول الله عليه صلوات الله عز وجل ، فستظل بإذن الله عالية : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(١) انظر كتاب الاسلام والاقتصاد ص ٧٧ .

بطانة السوء^(١)

الحمد لله ، يقول الحق وهو يهتدى السبيل ، ويحذر من التويع والتضاييل ، ويتوعد المبطلين بالعذاب الوبيل : « يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، فتحت للنفوس الكريمة معارج الفضيلة والكمال ، وأركست فى الظلمات أهل المنكر والضلال ، وما عند الله خير للأبرار ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، نصبح الأمة ، وجمع الكلمة ، ولم يخش فيك لوم اللأثمين ولا عنت المتكبرين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وصحبه ، وجنده وحزبه « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما أكثر درجات الناس فى هذه الحياة ، منهم الضعيف القليل ، ومنهم المتوسط المكانة والرتبة ، ومنهم الذى يسبق ويتقدم ، ومنهم الذى يسود ويتزعم ، وكلما علت درجة المرء بين الناس زادت مسئوليته وثقلت تبعته ، وقد تعودت الجماهير حين الشكوى أو الحساب أن تتجه إلى هؤلاء الكبراء ، فتجعل صغيرتهم كبيرة ، وتشتد فى مؤاخذتهم ، ولو بينها وبين نفسها ، ونحن نلمس حين البحث فى المجتمعات المختلفة سخطاً زائداً على الكبراء والعظماء ، وحملة عنيفة على ما لهم من هفوات وأخطاء ، ولا شك أن للساخطين معذرة وبرهاناً ، ولكن لماذا لا نستقصى النظر حتى لا نقصر

(١) ألقى فى يوم الجمعة ١١ رمضان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٥١ م .

سنخطئنا على أناس دون أناس ؟ . . إن هؤلاء الكبراء والعظماء مفرطون ومخطئون بلا ريب ، ولكن لهم شراء في الإثم ، بل لهم عيون وسواعد ، رأَتْ لهم وحرضتهم بالسعى اللئيم والاحتتيال ، وهؤلاء الشركاء هم بطانة السوء التي يعدها الحكماء والمصلحون أصل الداء ومصدر البلاء في تضليل الكبار وتضييع الصغار ، لأن بطانة العظيم هي عينه التي ترى ، ويده التي تبطش ، وناصحه الذي يشير ، والرئيس أو الكبير لا يستطيع أن يدرس كل شيء بنفسه ولا أن يطلع على كل أمر بعينه ، ولا أن يتصل بكل موطن يحتاج إلى إصلاح فهو يستعين بهذه البطانة ، فإن اتقت الله وأخلصت النصيحة وصدقت في التوجيه ، وغارت على الحرمات وراقبت ديان الأرض والسموات ، استطاعت أن توجه كبيرها خير وجهة ، أما وإن كانت من مدرسة الشيطان وبئثة المنكر والبهتان ، ألفت كبيرها في هاوية مصائبه وأحزانه ، وحفرت له قبره قبل أوانه ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى » . ويقول الأحنف بن قيس : « من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء فلا مساغ له ، ومن خانته ثقاته فقد آتى من مأمنه » .

وإذا كان الواجب يقضى على الكبير أو العظيم بأن يحسن اختيار بطانته ، وأن يصطفهم من أهل الدين والحكمة ، فإننا من جهة أخرى نستمطر اللعنات متتابعة على ذلك اللعين المجرم ، الذي يندس في بطانة الكبير فلا يتقى الله في قول ، ولا يحشاه في عمل ، ولا يخلص لسيده في النصيحة والتوجيه ، بل يخدعه ويزور أمامه الأشياء ، ويشوه في نظره الحقائق ، فيرفع من مناصب الفجار ، ويكيد الكيد الرخيص للأبرار ، ويظل بمكره ونكره ، وكيده وصيده ، حتى يؤثر في نفس الكبير الغافل أو الساذج أو المخدوع ، فيرتكب

الجرائم وهو يحسبها إصلاحاً ، ويسرف في البغى وهو يظنه تأديباً ، ويكرم من لا يستحق التكريم وهو يتوهم ذلك تقديرأ ، وهكذا . . . ومن هنا تنجى البطانة على نفسها أولاً إذ تورد لها موارد الهلاك والسخط من الله ، وتنجى على الكبير إذ تخدعه وتغرر به وتشوه سيرته بين الناس ، وتنجى على الضحايا الذين ينكل بهم أو يعتدى عليهم ، بل وتنجى على الذين يحاييهم ذلك الكبير بالإشعار أو الإغطاء لأنهم إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً . . .

وقديماً كان المسلمون يؤمنون بأن مصاحبة الولاة والكبراء تستوجب الإخلاص في النصيح ، والصدق في العظة ، والحكمة في التوجيه ، فقد اختار عمر بن الخطاب عبد الله بن عباس ليشير عليه ، فقال له أبوه العباس : يا بني ، إن أرى هذا الرجل - يعنى عمر - يستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنى موصيك بخلال أربع : لا تفشين له سرأ ، ولا يجربن عليك كذبأ ، ولا تطوين عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحدأ . وهذا رجل فى مجلس هشام بن عبد الملك ينصحه فيقول له : يا أمير المؤمنين احفظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك ، لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، وأعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأعلم أن للأمر بغتات فكن منها على حذر . . . والتاريخ الإسلامى يفيض بمئات العظات والنصائح التى قالها المرء المرءوسون للرؤساء ، والمحكومين للحاكمين ، والبطانات للطبقة للكبراء ، لأنهم كانوا يطبقون قول رسولهم عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة . . . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . وقوله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » وقوله : « الساكت عن كلمة الحق شيطان أخرس » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يمكن لأمة أن تسعد إلا إذا أحاط بكبرائها وقادتها بطانة نقية طاهرة ،
 تريد الإصلاح لا تكثير الجراح ، وتبغى في عملها وجه الله لا الرياسة أو الجاه ،
 وتكفكف غلواء الكبرياء أو البغى عند القادرين من العظماء ، لا لأن تزيد
 النار اشتعلالا ، أو الأمر فساداً وإضللاً ، ويومها يتبصر الكبار مواقفهم ،
 ويتدبرون نتائج أعمالهم ، فلا يشتطون ولا يسرفون ، بل كثيراً ما يهتدون
 ويفلحون بسبب الحكمة والموعظة الحسنة والهدى القويم ، وأما أن يكون في
 الكبار استعداد للتحال والفساد ، ثم تأتي بطانة السوء فتساعد التيار ، وتضالِف
 الخسار ، فتلك هي اللعنة ، وذلك هو سوء القرار ، فليثق الله كل فرد في
 الأمة ، إن كان كبيراً أو رئيساً أو قائداً فليستعن بالله وليحسن اختيار الناصحين
 والمشيرين ، وإن كان مرعوساً فليكن ذا خلق وضمير ، لا يرأى ولا ينافق ،
 ولا يضل ولا يخذع ، بل ينصح لله ، ويرشد بأسلوب الهداة ، ذلك فضل
 الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم ، واتقوا الله الذي أنتم
 به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا
 واستغفر الله لي ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

في بلاد المسلمين^(١)

الحمد لله ، بسط في الكون آياته ، ونشر في العالمين بركاته ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً » . نشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، رب المشارق والمغارب ، ومقعد الآمال والمطالب ، ومرجع الغايات والرغائب ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك عمر الأرض بخطوات الإيمان واليقين ، ورفع في الآفاق لواء المتقين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابه الساعين المحتسين ، وأتباعه الواصلين بيوم الدين « ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أنا عائد إليكم من رحلة إسلامية جامعة ، زرنا فيها اليونان وتركيا وسوريا ولبنان ، وقد رأينا خلالها ما يستحق طويل الحديث والتعبير ، ليوظ مشاعر الاعتبار والتفكير ، ولنكتف الآن بالقليل عن الكثير ، والله يهدي من يشاء صراط مستقيم . . .

إن من واجبات المسلم في حياته أن يرحل من مكان إلى مكان ، وأن يسير في الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لا ليلهو ويلعب بل ليرى ويدرس ، فيزداد بالله وجلاله إيماناً ، وبالحياة والأحياء علماً وإدراكاً ، وبسنن الكون تبصراً واقتناعاً ، والناس يتهمون المسلمين عامة ، والمصريين خاصة ، بأنهم يقعون في ديارهم طيلة أعمارهم ، ولا يحبون الارتحال عنها

(١) القيت في يوم الجمعة ٨ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٢ م .

ولو إلى حين ثم يرجعون إليها ، وهذا نقص يجب تلافيه ، حتى ندفع المسبة عنا ، ونستجيب لدعوة الله إيانا أن نسير في أرجاء كونه باحثين ومعتبرين : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

بدأنا أولا بزيارة اليونان، ولم تشغلنا مظاهر البساطة والمساواة فيها طويلا إذ فى الإسلام — لو طبقة أهلوه — ما هو أسمى وأعلى ، وقد تساءلنا عن المسلمين فى اليونان ، فعلمنا أن هناك منهم أقلية تبلغ خمسين ألفا ، ولكنهم متفرقون موزعون هنا وهناك ، بلا رابطة أو ثقافة إسلامية جامعة ، وأكبر الظن أن المسلمين فى العالم لا يعرفون عنهم شيئا ذا بال ، وقد كان الواجب أن يدرسوا أحوالهم ويعاونوهم على فقه دينهم ويوثقوا الروابط معهم ، لأن الأقليات الإسلامية تضيق أو تنفتت إذا لم يسندها بزيان الأمة الإسلامية الأكبر : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وفى تركيا وجدنا أيها السادة شعبا مؤمنا قويا ، لم تغير يقينه الحوادث أو الأحداث ، بل ظل واثقا بربه ، محبا لرسوله ، معتزا بقرآنه ، محافظا على صلواته ، ولقد اختلفت بيننا اللغات ولكن القلوب لم تختلف ، وكانت الإشارات كافية فى تناجى الأرواح وقد تقاربت الأشباح ، وكانت رؤية العمامة وحدها كافية لجمع الجموع وحشد الحشود ، وإذا سئل أحدهم : أمسلم أنت ؟ أجاب مسرعا : مسلم والحمد لله . . . ثم اسمعك شيئا من القرآن بترتيل وتجويد . . . ولقد وقفنا أمام شيخ الإسلام فى تركيا نتحدث عن الملة المحمدية ووحدة أهلها ، فبكى الشيخ الأكبر وبكى من حوله ، وفاضت عواطف الأخوة الإسلامية بين الجميع بصورة أخاذة مؤثرة ، وكذلك كان الحال فى كل موطن ذهبنا إليه أو تحدثنا فيه عن الإسلام أو خطبنا عن تعاليمه ، ويحق لكم أن تستبشروا بعودة تركيا إلى الإسلام ، فالآذان بالعربية فى كل

أوان ، والقرآن يتردد في كل مكان ، وكاية الشريعة الإسلامية بأنقرة تنهض شاهقة البنيان ، ومظاهر الاعتزاز بالعقيدة تبدو واضحة للعيان ، وكل هذا يريكم أن تركيا المسلمة الشقيقة لم تنفصل عنا ، وهى اليوم تعود إلينا ، والله خير جامع لأمة محمد على كلمة الحق والتقوى .

وفى سوريا وجدنا الإسلام كذلك قوياً ، وإن كانت تسايه روح الاعتزاز بالعروبة ، وقد وجدنا من يحذر المعالنة بالفكرة الإسلامية السافرة ، فيقول مثلاً: الدين لله والوطن للجميع ، وهذا كلام حلوا المنطق عذب الرنين ، ولكنه دقيق الأثر خطير الثمر ، فالدين كله لله ، والوطن أيضاً كله لله ، والأرض بيد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وإذا كان المراد بهذا التعبير أن نجامل غير المسلمين ، فخير من هذا أن نفسخ الطريق للإسلام ، وفيه الضمان كل الضمان لحقوق غير المسلمين ، ولن تستطيع الأقليات غير المسلمة أن تجمد أرحم أو أعدل من الإسلام يوم يسود ويقود ، « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . والإسلام لا يمنعنا أن نعزز بالعروبة ، ولا أن نقوى الشرق ، فالعربية لغته ، والعرب ناشروه ، والشرق مهبطه ومدرجه ، ولكن الإسلام بعد هذا هو الأساس وهو خير نبراس : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

وفى لبنان مع الأسف مسلمون كثيرون ، ولكنهم ضائعون مضيعون ، وليس كل السبب فى ذلك صبغة الدولة غير الإسلامية ، تفرق المسلمين إلى ما يسمونه سنية وشيعية ودروز وعلويين وغير ذلك ، وتلعب الأهواء والمآرب والمكايد أدوارها الكبرى فى إيقاد نيران العداوة والبغضاء بين هؤلاء حتى يبدوا وكأنهم أهل لأديان مختلفة ، مع أن الجميع يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولو أدوا لهذه الشهادة حقها لما وجد بينهم

شقاق ولا فراق ، لأن الله هو الذى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ولأن محمداً هو الذى يقول : « وكونوا عباد الله إخواناً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا حديث العاجل المسرع عن بعض بلاد الإسلام ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ولعل هذه اللمحة تثير فى صدر كل مسلم عزماً على أن يزداد للأمة الإسلامية درساً وتفهماً ، فلا سبيل إلى عزة المسلمين حقاً إلا بالتدريس والتعارف والتآلف والتعاون « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أيام في الإقليم السوري^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعم وواسع الكرم : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى السعي والعمل ، وحسن الإعداد للدنيا والآخرة : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من علم قومه الانتفاع بالصحة والفراغ ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إني عائد إليكم من الإقليم السوري بعد المشاركة في رحلة نظمها الدولة عن طريق المجلس الأعلى لرعاية الشباب لتوثيق الروابط الأخوية بين الشباب في إقليمي الجمهورية ، وهذا هدف عظيم من غير شك ، لأن الأشقاء في جزئي الوطن الموحد يجب أن يكمل تعارفهم وتآلفهم ، ولا ريب أن تحقق الوحدة بين هذين الشطرين كان تصحيحاً لجانب من أوضاع الوطن الكبير الذي يجب أن ترفرف عليه راية الوحدة والأخوة ، لأن الله تبارك وتعالى يريد أمتة المؤمنة متكاملة متحدة متعبدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وكمن مرة ركب فيها الإنسان الطائرة قاصداً سورية قبل تحقق الوحدة ، فكان يشعر بما يشعر به الخارج من دولة إلى دولة ، أو من قطر إلى قطر ، بسبب الحواجز والقيود المفروضة ، ولكننا نركب الطائرة اليوم والوحدة قائمة ، وتنتجه بنا إلى دمشق ، فلا نحس بالغرابة ولا بالرحلة

(١) نشرت هذه الخطبة بمجلة لواء الاسلام . (التاريخ غير مذكور) .

خارج ديارنا ، بل نشعر في وضوح وقوة بأننا نسبح في جو بلادنا ، ونرحل فيها من جزء إلى جزء آخر ، وإذا كانت الفرقة والخيانة ومكائد الاستعمار والصهيونية قد أوجدت في جسم وطننا الكبير شوكة خبيثة مسمومة ، وأطلقت عليها اسم « إسرائيل » فإننا نوقن بأن يوماً سيأتي ننزع فيه هذه الشوكة بإيماننا وأيماننا ، ونظهر وطننا من سمومها وجراثيمها ، ويتنقل المسلم في أرجاء وطنه الواسع الفسيح ، لا تصده حواجز ولا تمنعه حدود ، بل جواز مروره أنه عربي في أرض العرب ، أو مسلم في وطن الإسلام ، يفتتح مغاليق الطرق أمامه بالكلمة السامية الشاملة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولابد في أثناء الرحلة من خواطر تثور وسوانح تعرض ، ومن هذه الخواطر أن الأمطار في هذا العام كانت شحيحة نوعاً ما في الإقليم السوري ، ولذلك يستعمون الماء بحساب وتدقيق ، والأشقاء هناك يحرصون على الانتفاع بكل قطرة من قطرات الماء ، ويعلمون أبناءهم كيف يقتصدون في استعماله ، وهناك مساحات واسعة صالحة للزراعة ، وهي مساحات بكر عذراء خصبة التربة قوية الإنتاج ، ولكنها تتطلب الماء وتنتظر المطر ، فلذا أقبل أخرجت الأرض من خيراتها بمقدار ما ينزل من هذا المطر ، ولو تضاعف لضاعفت إنتاجها فلديها من الخيرات مزيد . . . وهذا الخاطر يجعلنا نتذكر نعمة الله الكبرى على إقليم مصر بهذا النيل الوفي المبارك ، الذي يفيض بهذه المقادير الكبيرة الضخمة من الماء ، ويزداد إيماننا بوجوب الحرص على استغلال هذه المقادير وصيانتها من التبذد والضياع ، لنحسن استعمالها ، ولنزيد بها المساحة المزروعة في هذا الوادي الخصيب الذي لا يدرك قيمة خيراته وبركاته وآيات الله فيه إلا من رأى غيره من بلاد الدنيا ليقارن فيعرف أن الله قد خص بلاده بالمزيد من الفضل والبر ، فيستوجب ذلك منه الشكر لربه حتى

يحفظ له النعمة ويزيد فيها : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » .

ومن الخواطر أيضاً أنهم ذهبوا إلى ضاحية من ضواحي دمشق ، حيث زرنا ضريحاً قالوا إنه ضريح السيدة زينب رضى الله عنها ، وعجب الزائرون من ذلك ، فهنا كما يقال ضريح للسيدة زينب ، وهناك في القاهرة ضريح لها ، وقد يكون في مدينة إسلامية أخرى ضريح ثالث لها ، وهكذا . . . يوجد أيضاً بجوار الجامع الأموي في دمشق ضريح يقولون إن رأس الحسين رضى الله عنه مدفون فيه ، وفي القاهرة ضريح لسيدنا الحسين ، وفي بلاد إسلامية أخرى أضرحة يقولون إنها للحسين . . . وهذا موضوع يثير الجدل والمناقشة والاستغلال ، وطريق الخلاص منه هو أن نؤمن إيماناً بصيراً بأننا عباد لله وحده ، ولسنا عباد أضرحة ولا قبور ، وأننا نحج النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبب الرحمة ومنقذ الأمة ، وكاشف النعمة وموحد الكلمة ، ونحج آل بيته الطاهرين الطيبين رضوان الله عليهم أجمعين ، والحب يستتبع التشبه والاقتداء ، ومن أحب شخصاً لنبل أخلاقه وسمو أفعاله وعاطر سيرته سار على طريقته واقتدى بمنهجه ، وليست معرفة الضريح أو زيارته هي كل شيء ، بل الأهم من ذلك من ذلك أن نحج النبي باتباع سنته والعمل بملته ، ونحج آل الكرام العظام بالتشبه بهم في يقينهم وإيمانهم :

وما لى إلا آل أحمد شيعة وما لى إلا مذهب الحق مذهب

وقد لاحظنا مع شديد الأسى والأسف أن الناحية الدينية مهمة عند كثير من الشباب الراحين إلى هناك ، أو هي مفقودة غير موجودة ، وكأن هؤلاء قد أضيفوا إلى مجموعة المسلمين بحكم الموقع الجغرافى أو بحكم شهادة الميلاد ، فهم مثلاً لا يؤدون الصلاة ، وقد لا يعرفون كيفيتها ، وهم يزهدون

في الثقافة الدينية ويعرضون عنها ، وهم إذا فتحوا باب مزاجهم ترددت على ألسنتهم ألفاظ خارجة وعبارات متبججة ، والقائمون على شئونهم لم يعطوا هذه الناحية الدينية حقها من الرعاية والعناية ، فلم يضعوا لهم ما يربطهم بهذه الناحية ، أو على الأقل يقربهم منها ، وهذا أمر يجب التنبيه عليه ولفت الأنظار إليه ، لأن شبيبتنا هم عدة الغد ورجاء المستقبل ، وهم ودائع غالية بين أيدينا ، نعدمهم لحياة يجب أن تكون أشرف وأفضل من حياة التحلل والانطلاق ، ولن يستقيم أمر هؤلاء الشباب إلا إذا عمرت صدورهم بالإيمان ، وألفت أرواحهم السبح في آفاق اليقين ، وتعددت ألسنتهم كلمات الدعاء والمناجاة والثقة بالله ، ومرنت أعضاؤهم على التعبد وأداء الصلوات ، وامتلأت نفوسهم بأضواء التدين السليم القيم ، وحينئذ يعصمون قلوبهم من الخور ، وأخلاقهم من التدهور ، وأبدانهم من العلل والمهلكات ، وإنها لأمانة كبرى في عنق كل والدهي أن يصون ولده ويحسن تنشئته وتأديبه بالأدب الإسلامي الرفيع ، حتى يكون في مثل هذه الرحلات عنواناً كريماً لأسرته وبيئته ومجتمعه ، والولد وديعة من الله عند والده ، وهو عجيبة نقية صافية بين يديه ، قابلة في بدء أمرها للتشكيل والتعديل ، فمن الواجب على الوالد أن يعلمه ويؤدبه ويهديه سواء السبيل ، ليصونه عن الأذى والعلباب في الدنيا والآخرة والله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » والولد من الأهل ، أو هو أغلى من في الأهل ، ووقايته من النار التي تذكرها الآية الكريمة تكون بتدينه وإيمانه واستقامته ، ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله عليه فقال له : يا رسول الله ، قل في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك فقال له الرسول : « قل آمنت بالله ثم استقم » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن رعاية الشباب لا تقتصر على رحلات تنظم أو مباريات تقام أو اجتماعيات تعقد ، بل يجب أن تكون رعاية الشباب تقوية لأبدانهم ، وتنمية لعقولهم ، وتهذيباً لأخلاقهم ، وتعميراً لصدورهم بالدين والإيمان ، وبدون هذه الأصول لا تتحقق رعاية سليمة للشباب ، وإذا كانت الدولة تبسط يدها بالنفقة الكريمة على شئون هذه الرعاية فيجب أن نحسن الإحسان كله في استخدام هذه النفقة لتكوين جيل صالح من الشباب يؤمنون بربهم ووطنهم ومثلهم العليا ومبادئهم الإنسانية الرفيعة ، ويومئذ يصدق في هؤلاء الشباب الأثر الإسلامى الكريم الذى يقول : « ربح الجنة فى الشباب » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

صوت من الجزائر^(١)

الحمد لله عز وجل ، له الحكم وإليه ترجعون ، تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، العدل صفته ، والحق شريعته : « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سعد من تبع طريقته ، وشقى من هجر ملته : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً » ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فلنملا يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يزور وادينا الآن وزير الدولة الجزائري ، وقد ألقى أول أمس محاضرة قال فيها : « إن انتصارنا في الجهاد المسلح كان من أهم أسبابه تمسكنا بالدين ، لأننا رفضنا الجنسية الفرنسية ، وتمسكنا بتقاليدنا الدينية ، وبذلك حافظنا على شخصيتنا ، وحافظنا على روح الإسلام » . وهذا القول له قيمته وجلالته ، ويجب أن نطيل فيه التفكير والتدبر لنتعظ به وننتفع منه ، فلقد ظلت فرنسا تحتل الجزائر أكثر من مئة وثلاثين عاماً ، بقوة الحديد والنار ، وجبروت الطغيان والظلم ، ومع ذلك لم تخضع الجزائر ولم تخنع ، وأرادت فرنسا بكل ما استطاعت أن تجعل الجزائر قطعة منها ، فباعت بالفشل والخيبة ، وظلت الجزائر عربية مسلمة ، تجاهد وتناضل حتى استقلت واستقبلت عهداً لا يليق به إلا أن تزدهر فيه الصبغة العربية الإسلامية ، ولقد استمرت الثورة الجزائرية

(١) ألقى في يوم الجمعة ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ م .

سبع سنوات ذهب فيها مليون ونصف مليون من الشهداء ، بحيث نستطيع أن نقول إن تربة الجزائر قد ارتوت ارتواء رهيباً من دماء هؤلاء الشهداء ، وصار من واجب كل جزائري أن يغار على هذه التربة ، وأن يدافع عنها بكل ما يستطيع ، فقد امتزج تراها بالدماء الزكية التي سالت من إخوة له سبقوا إلى رحاب الخلد باستشهادهم في سبيل العقيدة والحمى ، وبقي من خلفهم رجال يجب أن يسيروا على الدرب ، وأن يكونوا خير عنوان للتضحية والوفاء ، ليصدق فيهم كما صدق في أسلافهم الأماجد قول الحق جل جلاله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

ولقد كانت المعركة بين الجزائر وفرنسة معركة دينية ، أرادت بها أمة الخنا والفجور فرنسة أن تقضى على الإسلام في الجزائر ، ولكن الله أراد لها الخزي والعار : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ، وكانت البلاغات الحربية الفرنسية تقول في كل مرة : قتلنا كذا من المسلمين في الجزائر . وهي تريد بذلك أن تؤاب الغرب المسيحي على الإسلام والمسلمين في الجزائر ، ولكن هذا الإسلام كان الحافظ الإلهي القوى الذي يدعو إلى الجهاد والنضال لتحقيق الحرية والعزة والكرامة ، وهو الذي أخذ يقرع أسماع المسلمين في الجزائر بقول القرآن : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » . وقوله : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ؛ وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . وهذا وزير مسئول ويزن ما يقول يؤكد أن الإسلام كان عاملاً قوياً في دفع أشقائنا الأعزاء من أبناء الجزائر إلى مواطن التضحية والفداء ، وهذا الإسلام الذي

قادر في المعركة ، وحرض على الشهادة ، هو نفسه الذي يهتدى في مراحل البناء والتعمير ، وأوقات السلام والأمان : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

ولقد ذكر الوزير الجزائري أنه تقرر في دستور الجزائر أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي ، وأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، وهذان قراران جليلان من ناحية الفكرة والمبدأ ، وخير القول ما صاحبه العمل ، وأقوى المبادئ تأثيراً ما اقترن التعبير فيها بالتطبيق ، ولذلك نرتجى من الأمة المؤمنة حين تجمع على أن دين دولتها هو الإسلام أن تستضيء بهتدى هذا الإسلام في مجالات الحياة المختلفة ، حتى يقودهم إلى الصراط المستقيم ، لأن الإسلام ليس نصوصاً تنلى أو كلاماً يردد فحسب ، إذ لو كان الأمر كذلك لما احتاج النبي عليه الصلاة والسلام إلى ثلاثة وعشرين عاماً مليئة بالكفاح الموصول ، والنضال الثقيل ، والنوم المفزع ، والهجرة العازمة ، لما احتاج إلى إنشاء مجتمع إسلامي جديد يقوم على دعائم الفضيلة والعدالة والتقوى ، وحينما قال القرآن : « إن الدين عند الله الإسلام » وقال : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » وقال : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » لم يرد أن يكون الدين ترتيباً وعبادة فقط ، ولكنه أراد إيماناً وعملاً ، وعبادة ومعاملة ، ونظاماً للدنيا والآخرة ، ومنهاجاً للفرد وللأسرة وللدولة وللإنسانية الراشدة كلها : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إنني من المسلمين » .

ولقد ذكر الوزير أن زاعمين قد زعموا أن الجزائر لن تستطيع تطبيق العدالة الاجتماعية ، ولا إشاعة الروح الاشتراكية ، لأنها تدين بالإسلام ،

والإسلام في عمهم يعرقل التقدم الاجتماعي والإصلاح الاقتصادي ، وكذبوا على الإسلام وعلى التاريخ ، الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية ، واشتراكية الإسلام الفاضلة العادلة أسمى من أى نظام بشرى في الوجود ، والإسلام هو أول من أقام مجتمعاً دعائمه التكامل والتعاون والعدالة والشورى ، وهو أول من خاض معركة لانتزاع حقوق الفقراء من الأغنياء في حروب الردة على عهد أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ورسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام هو أكرم من وقف بجانب المستضعفين يرد عنهم كيده المتجبرين ، حتى قال فيه القائل :

انصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء !

وإذا كانت أصابع الشيوعية قد حاولت — كما ذكر الوزير الجزائري — أن تبذر بذورها المسمومة في الأرض الطيبة بالجزائر وفشلت في محاولتها ، فإن من الواجب أن نتنبه لها كل التنبيه ، فقد تعاود محاولتها ، وقد تغير طريقها فإن أصحابها على مستوى خطير من المكر والخادعة ، وقد يستخدمون القسـلم والكتاب والصحيفة والمجلة والمسرحية وغيرها لبث نزعاتهم الخبيثة من وراء جدر وأستار ، وبطرق غير مباشرة ، وقد يتظاهرون حيناً بالتأييد لوجهة شعبية سليمة ، ثم يظلون يدسون السم في العسل ، ويخلطون الخبيث بالطيب ، ويعتبرون ذلك مرحلة انتقال أو انتظار ، حتى تلوح لهم الفرصة المواتية فيفصحوا عن مرادهم الخبيث واتجاههم اللئيم : « والله من ورائهم محيط » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : من بين إسراف المسرفين ، وجمود الجامدين ، ينبثق نور الإسلام على الدوام بالخطة المثلى والهدى الرشيد ، (م ٣٠ - خطب ج ٢)

فلا إسراف ولا اعتساف ، بل توسط واعتدال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ، « وابتنع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . فليس أمامنا كي نرشد ونسعد إلا أن نفي إلى الله ، ونهتدي بهديه : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

عائد من الباكستان^(١)

الحمد لله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الخير كله منك ، والأمر أجمع إليك ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام إمام الأنبياء ، سيد الأتقياء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، الذين أخلصوا لله دينهم ودينهم « فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إني عائد إليكم من الباكستان ، فهل تأذنون لي أن أحدثكم قليلاً عن هذه الدولة المسلمة الناشئة ، التي تتطلع إليها أبصاركم ، وتتعلق بها قلوبكم ، وترجون لها من الله تجارة لن تبور ، حتى تكون مثلاً يحتذى في نهضة المسلمين وعزة الإسلام ، وأمة محمد مهما تعددت دولها ، وتباعدت مواطنها ، أمة واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

إن أول ما يستهوى الفؤاد في أمر الباكستان أنها دولة أقامت دعائمها الأولى على أساس الدين ، ونادت في العالمين حكومة وشعباً أنها ارتضت الإسلام عقيدة ودستوراً ، وليس هذا غريباً أو عجبياً ، فالقوم هناك متدينون أشداء الغيرة على دينهم ، وإنك لتلمس شواهد ذلك في كلامهم وتصرفاتهم وعباداتهم ، وتعرف أسبابه وبواعثه في تاريخهم الطويل ، حينما تقبلوا الإسلام

القيت في يوم الجمعة ٦ رمضان سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٢ م .

فى الصدر الأول بقبول حسن ، واحتملوا صابرين ما لاقوه من عنت الجوس وظلم الهندوس ، وبذلوا صادقين ما بذلوا من تضحيات فى سبيل الله والإسلام ولو أن مثل هذا اليقين العميق سرى فى نفوس المسلمين جميعاً اليوم ، واستقام على طريقته ، فنجنا من ظلمة الجمود وحق التطرف ، لتأذن ربكم بالفتح المبين والنصر القريب ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون إن الله لا يخلف الميعاد . . .

ومما يستلفت الأبصار فى الباكستان هذه السهولة فى اللباس والمظاهر وأمور الحياة ، فأنت ترى القوم لا يتكلفون ، ولا يشتطون فى ترف أو إسراف بل بساطة وتواضع واقتصاد ، لا تكاد تفرق بين رئيسهم والفرد المتوسط منهم ، ولقد تدخل دار الحاكم ، أو الرئيس ، فلا تهولك كثرة حراس ، ولا ازدحام حاشية ، ولا تتابع أستار وحواجز ، ومع هذا فالهبة متوافرة ، والطاعة ظاهرة ، والثقة باهرة ، وكأنهم بهذا يصلون أسبابهم بالحاكم الديمقراطى الإسلامى الأشهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حين كان يلبس المرقع من الثياب ، ويفترس المتناثر من التراب ، ثم ترهبه القياصرة ، وتذل له الأكاسرة ، وحين كان يهدى للخطبة التى هى أقوم ، فيقول كما جاء فى الأثر : « اخشوشوا فإن النعم لا تدوم » . وليت هذا الاقتصاد يعم سائر البلاد الإسلامية فإن الإسراف فى الترف هو سر ضياع الأمم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

ومن مظاهر الروعة فى الباكستان الناشئة التى تحاول الوقوف على قدميها لتبنى كيائها من جديد باسم الله ، هذه الثقة العميقة بالنصر والبلوغ . . . إن القوم هناك يصارحونك بأنهم لا يملكون كل شئ ، وأنهم يحتاجون إلى كثير من الوسائل والأسباب ، ومع ذلك هم يقولون مؤمنين إننا سنصنع كل شئ ،

وسننجح في محاولتنا ، وسنصل إلى غايتنا ، لأننا ولدنا في مهد الإسلام ، والإسلام هو شرعة الديان ، وهو على كل شيء قدير ، ومنه نستمد الحول والطول ، وفي ذلك مقنع وكفاية : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » . . . وقد يكون في الأمة الناشئة بعض العيوب أو المآخذ ، وقد يستتر خلف الوجه الصافي بعض الغيوم أو الهموم ، وقد يشعر بها أهلها أو غير أهلها ، ولكن ذلك لا يؤيسهم ، فالجسم الحى يقتدر على هزيمة الداء إذا وجد الداء ، ومن المستحيل أن تتطلب الكمال من أول شوط ، في أمة غضة لا تزال وليدة تجو في رحاب الوجود . . . والباكستان أمانة في أيدي المسلمين إن لم يصونها ويرعوها حق رعايتها صارت الفرصة غصة وتتابع منها الآلام على أن هناك في الباكستان مشكلة تتطلب تضافر الجهود حتى تحل على خير الوجوه . . . تلك هي مشكلة اللغة ، فإن أغلب القوم هناك يتكلمون اللغة الأردية ويكتبون بها ، ولا يمكن لأمة أن تشيد بناءها على أساس إسلامي صحيح إلا إذا كانت اللغة العربية هي لغتها الأصلية ، أو على الأقل أن تكون اللغة العربية لغة شائعة مفهومة بينها ، لا لأن اللغة العربية لغة العرب ، بل لأنها لغة القرآن ، ولغة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولغة التاريخ الإسلامي في أغلب نواحيه ، ولا يمكن لإنسان أن يستكمل تفقه الإسلام على الوجه الصحيح بغير معرفته للغة العربية ، ولقد أكثرنا من تحريضنا القوم هناك على تعلم العربية ، وهم والحمد لله مؤمنون بذلك راغبون فيه حريصون عليه ، يتطلبون فيه معاونين والمرشدين ، وهنا يبرز واجب مصر واضحاً جلياً مصر زعيمة العرب والمسلمين ، وحصن الأزهر المعمور ، وأكاد أقرر أن نشر العربية في الباكستان من أوجب الواجبات على مصر ، وهو لا يقل مكانة عن الجهاد العملى في سبيل الله والإسلام . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لسنا نقول هذا تفضيلاً لأمة على أمة ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، ولا نقوله فتحاً لباب المشاحنة والتفاخر ، فالكبرياء رداء الله وحده ، ولكننا نقوله تنشيطاً للهمم وإثارة للعزائم « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » . . وإن مصر الإسلامية لتستطيع أن تنهض وتسبق وتستبقى لواء الزعامة الدينية في يدها بالعمل المشكور والسعى المبرور والجهاد المأثور ، وجميع دول الإسلام بما فيها دولة باكستان ترحب بذلك وتتمناه . أما أن نظل جامدين راكدين ، قانعين باجترار الذكريات وإثارة العصبية ، ثم نصعد غيرنا عن المسير ، فذلك عين الضلال والخيال ، وليس أضل من الذي لا يعمل ثم يسؤوه أن يعمل الناس ، فرحبوا بالنور المنبثق من باكستان ، وابتعثوا من أنفسهم أمثالاً له مضاعفة ، وصهونوا نوركم هنا وهناك من سوء الاستغلال ووهدة الضلال ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عائد من سوريا^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو ولي التوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق :
« وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده الفوز والنصر : « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، تلقى شريعته ، وأدى أمانته ، وأعز دعوته : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إني عائد إليكم من سوريا العربية المسلمة ، أو من الإقليم الشمالى فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد جعلنا فى أنحاء هذا الإقليم السورى ، فزرتنا دمشق واللاذقية وحلب ومعرة النعمان وحماة وحمص وغيرها من البلاد ، وسعدت بالحديث والخطابة فى كل بلد من هذه البلاد مرة أو مرات ، أنا أحمل إليكم تحيات أشقائكم هناك الذين يبادلونكم حباً بحب ، وعاطفة بعاطفة ، فى يوم الاستفتاء - وهو يوم الجمعة الماضى - خطبت فى الجامع الأموى بدمشق شبيه الجامع الأزهر فى القاهرة ، ودارت الخطبة حول الوحدة وكلمة الإسلام فيها ، وحول الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، وذلك لأن عمر بن عبد العزيز مثل تاريخى قديم للوحدة بين مصر وسوريا ، فهو مصرى ولد فى حلوان ، ونشأ فى مصر ، واستظل بسماها ، وتنفس فى هواها ، وارتوى من ماها ،

(١) الجمعة ٩ شعبان سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٨ م

ثم كان خليفة بعد ذلك في دمشق ، وكانت خلافته تضم مصر والشام وغيرها من بلاد العروبة والإسلام ، فدعوه الإيمان قد حققت منذ مئات الأعوام هذه الوحدة بين أبناء التوحيد واليقين ، ولأن عمر بن عبد العزيز كان مثال الخليفة الراشد الزاهد الذي نرجو أن يسطع على الناس عهد كعهده ، وسعد كسعدته ومجد كمجده ، والله أكرم مسئول ، وأفضل مأمول . . .

لقد كان عمر بن عبد العزيز رجلاً اجتمعت عليه كلمة الناس ، فقد كان قبله نزاع بين الأمويين وخصومهم ، وبين السنة والشيعة ، وبين الشيعة والخوارج ، وبين العرب والعجم ، وبين الولاة والأمة ، فلما أقبل عهد عمر اجتمع على حبه الناس ، فرضيت به الأموية والسنة والشيعة والخوارج والعرب والعجم ، لأنه عدل بين الجميع ، وكان عهده تنفساً كريماً للزمان بعد طول جذب وحرمان . . .

وكان عمر خير من أحس بواجبه كحاكم وقائد ، فقد تربى في بيوت السلاطين وقصور الخلفاء ، ونشأ أولاً في الترف والتنعيم ، وكان يلبس قبل الخلافة الثوب الحريري الرقيق فلا يكتفى به ويقول : ما أحسنه ! . لأنه كان غير مسئول عن سواه ، فلما تولى الخلافة وحمل أمانة الناس أحس بالتبعة فلزمه الورع والزهد ، وخصص جهوده كلها لخدمة الأمة ، وانصرف عن الحرير إلى الصوف ، وعن ألوان الطعام الشهية إلى العدس والزيت ، وعن اللهو إلى التقى ، وعن الغناء إلى التعبد ، وعن الشعر إلى القرآن ، وعن الشعراء إلى العلماء والفقهاء ، وعن حب الشهوات إلى رعاية مصالح الناس ، وصار يلبس الثوب الخشن من الصوف فلا يقنع بخشونته بل يقول : ما أرقه ! . وكان يردد : « لقد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، فذكرت الغريب الضائع ، والفقر المحتاج ، والأسير المقهور ، وأشباههم في أطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سألني عنهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجي

فيهم ، فخشيت ألا يثبت لى عند الله عذر ، وألا تقوم لى مع محمد حجة ،
فخفت على نفسى « ! . . . وكان عمر لا يفرغ لأهله ، ولا يجد وقتاً يستريح
فيه أو يقضيه هادئاً سالماً من الشواغل ، وكان إذا جاءه بعض أولاده ليسأله :
متى تفرغ لنا يا أبى ؟ . يقول : سأفرغ لكم يا بنى يوم أفرغ من أمور الناس
وما أرى ذلك سيكون ، ثم يقول :

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامة

ذهب الفراغ ، فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة !!

وتحدثت يؤمئذ عن عمر لأنه حارب الإسراف والتزيد فى النفقة بلاموجب
حتى منع استعمال أوراق تكون أكبر من حجم المکتوب فيها ، ومنع التوسع
فى ماء الوضوء ، ولما قيل له إن كسوة الكعبة لابد من تجديدها فى كل عام
قال : « تكفيها كسوتها ، وإنى رأيت أن أجعل ثمن هذه الكسوة فى أكباد
جائعة من المسلمين ، فإنهم أولى بذلك من تجديد كسوة البيت فى كل عام » .
فهو لا يجدد الكسوة إلا إذا قدمت ! ! . . .

ومع هذا كان عمر يؤدى لكل ذى حق حقه كاملاً غير منقوص ، وكان
يصلح هنا وهناك بهمة وجد ونشاط ، وكان يلتزم العدالة المطلقة والاستقامة
المثالية فى حكمه ومعاملته ، وهو القائل فى أول خطبة له بعد الخلافة :
« وإنى والله لا أعطى أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً . أيها الناس ، من
أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعت
الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » بسبب هذا الدستور الإسلامى
القومى الذى نهض به عمر وحرص عليه قال العلماء إنه المجدد الأول فى الإسلام
مصدقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يبعث على رأس كل
مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها » .

ولقد قدمت وأنا في دمشق إلى الرئيسين جمال عبد الناصر وشكري القوتلي كتابي «الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز» راجياً أن يكون العهد المشرق بأنوار الوحدة مهتدياً في كل الأمور بالهدى الذي سار عليه عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، فتقبلاه بقبول حسن ، ولقد هتفت من فوق منبر الجامع الأموي قائلاً : ما أشوقنا إلى عهد كعهد عمر بن عبد العزيز ، وزهد كزهد عمر بن عبد العزيز ، ومساواة بين الجميع كمساواة عمر بن عبد العزيز . . . ونحن نريد أن نضع سيرة عمر بن عبد العزيز أمام كل مسئول فينا وأمام كل وال من ولاتنا ، ونريد أن نعلمها لأبنائنا وطلابنا ومثقفينا ، حتى يشهدوا صورة رائعة من صور الحكم الإسلامي النزيه العادل ، الذي لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا يحابي إنساناً على حساب إنسان : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الله عز وجل حين يقيم بيننا صرح الوحدة يمن علينا بأعظم منه ، ويكرمنا بأفضل نعمة ، وهو القائل لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : « فإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وواجبنا أن نقدر هذه النعمة حق قدرها ، وأن نشكر هذه المنة بأفضل شكرها ، وأن نقبل على الله نحمده ونمجده ونتقيه ونعبده ونذكره ونشكره ، ونستزيده من توفيقه ورعايته : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الباكستان^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الواصل لما انقطع ، والمقيم لما انصدع ، وهو على كل شئ قدير ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعقب العسر باليسر ، ويقرن الابتلاء بالخير ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أيد عوامل التوحيد والتوفيق ، وقاوم نزعات الخلاف والتفريق ، فكان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه أحبابه ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تعالوا بنا أيها الإخوة الأحبة نواصل جولتنا في أنحاء العالمين العربي والإسلامي ، لنلقى هذه المرة دولة إسلامية نائية المكان ضخمة السكان واسعة الرقعة وهي الباكستان التي وقفت إلى جوارنا في محنتنا خلال اجتماعات هيئة الأمم « المختلفة » لا المتحدة ، بعد جفوة بيننا وبينها استمرت أمداً طويلاً ، ولقد أعلنت الباكستان تأييدها المطلق للأمة العربية حتى قبل العدوان ، فاستنكرت استفزاز الصهيونية للعرب ، وأيدت سحب قوات الطوارئ من الأرض العربية ، وقال رئيس الباكستان إن ما حدث من عدوان إسرائيلي استعماري هو مأساة لنا جميعاً ، وطالب بعودة جميع الفلسطينيين العرب إلى وطنهم السليب ، وقال من تكلم باسم الباكستان في الاجتماعات الدولية إن على العالم أن لا ينسى أن هناك رابطة قوية عميقة باقية تربط الباكستان بالعرب وهي رابطة الإسلام ، ولعل هناك من يعجب حين يسمع أن أهل الباكستان

(١) الجمعة ٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٦٧ م .

لا يكادون يفرقون بين العرب والمسلم ، إذ يغلب على تصورهم وظنهم أن كل عربي هو مسلم ، والعربي عندهم له هيبته ومكانته ، يفرحون بلقائه ، ويظهرون توقيره ، وقد يقبلون يده ولو لم يكن من علماء الإسلام ، فكيف لو كان عالماً ، لأنهم يفهمون أن هذا العربي يتكلم بلغة القرآن ، وأنه قادم من بلاد خير الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه يذكرهم بالأخوة في الله والمشاركة في الإسلام ، وقد رأيت هذا رأى العين حينما زرت الباكستان منذ سنوات .

و « الباكستان » كلمة معناها الأرض الطاهرة ، وفي هذه الدولة ما يزيد على مئة مليون مسلم ، وقد أنشئت منذ عشرين عاماً سنة ١٩٤٧ ، على أثر تقسيم الهند ، بضم المناطق المزدحمة بالسكان المسلمين ، وقد كان لإنشاؤها أملاً حلوّاً يراود أذهان المسلمين في الهند منذ أمد بعيد ، وقد تألق هذا الأمل وتضخم بوجه خاص في ذهن شاعر الإسلام وشاعر الباكستان المرحوم محمد اقبال الذي تغنى بعزة الإسلام ومجد الإسلام ، وقال على لسان أجدادنا الذين جاهدوا في الله حق جهاده :

كنا نقدم للسيوف صلبورنا لم نخش يوماً غاشماً جبّاراً
وروعسنا يارب فوق أكفنا نرجوا ثوابك مغنماً وجواراً

ولقد نادى إقبال بإنشاء الباكستان ليتخلص المسلمون في شبه القارة الهندية من الاضطهادات الدينية والعصبية المذهبية ، إذا لم يكن من المعقول ولا من المحتمل أن يعيش في مجتمع واحد فريقان : أحدهما يذبح البقرة ويأكلها كما شرع الله عز وجل ، والآخر يعبدها ويقدر حتى بولها وروثها ، وكذلك كان الهدف من وراء إنشاء الباكستان أن يقيم فيها المسلمون — كما تمنى إقبال — مجتمعاً إسلامياً يحاولون قدر طاقتهم أن يهتدوا فيه بالمجتمع الإسلامي الأول

الذى نشأ على محمد وازدهر في عهد عمر ، ولذلك أخذ الشاعر الإسلامى محمد إقبال يصوغ القصيد بعد القصيد ، محركاً الروح الإسلامية فى الأرض الهندية ، ويفجر ينابيع الشوق والحنين إلى مجتمع المصحف ودولة الإيمان وعزة الإسلام ووحدة القبلة ، وحارب التصوف الأعجمى السلبى الانعزالى المमित للطاقت والمواهب ، المحذر للأفراد والشعوب ، ونادى بالتصوف الإسلامى العملى الإيجابى الذى يدعو إلى الطهارة والصفاء ، وإلى رقابة الدين ومحاسبة النفس ، وإلى السعى والجهاد والكرامة والاعتزاز بعزة الله وحده ، ولذلك عد إقبال سيدنا رسول الله محمداً عليه الصلاة والسلام أعظم صوفى فى الوجود بهذا المفهوم البصير ، وأخذ يؤكد فى العقول والقلوب أن الحياة الفاضلة لا بد وأن يكون عمادها الدين والإيمان والوحدة ، فردد قوله :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى ديناً
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قريباً
وفى التوحيد للهم اتحاد ولن تبنوا العلا متفرقينا

هذا كلام جميل رأيناه مكتوباً فأعجبنا ، وسمعناه لحناً فأطربنا ، ورددناه بألسنتنا فأثارتنا ، وافتقدناه فى دنيا المسلمين فلم نجد له صدى عملياً ، ولا ثمراً تطبيقياً ، سوى أشباح باهتة ، تتراءى خافتة ، وسط طوفان من الإغفال والإهمال ، وكأنه لم ينزل علينا قول ربنا جل جلاله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وإذا كانت الباكستان قد أبدت تأييدها لنا قبل العدوان وبعده ، وسعى إلينا رجالها ليوثقوا علاقتهم بنا بدافع من روح الإسلام ، فإنه ينبغى لنا أن نتذكر أنه قد ضاعت منا فرص كثيرة بالنسبة إلى الباكستان ، ضاعت

منا فرصة جعل اللغة العربية لغة رسمية أولى لها ، وقد كان هذا ممكناً عند إنشاء الباكستان ، فقد كان هناك اتجاه قوى من رجالها إلى هذا العمل ، وكان يناصر هذه الفكرة الرجل المسلم عبد الوهاب عزام طيب الله ثراه ، ولوثق هذا لصارت الباكستان عربية اللسان كما هي اسلامية العقيدة وفي ذلك فوز كبير ، وضاعت منا فرصة توثيق العلاقات الإسلامية العميقة بيننا وبين الباكستان ، مع أن اتجاهها الإسلامى القوى عند إنشائها كان يعاون على هذا ، ونحن لا ننسى أن فكرة المؤتمر الإسلامى العالمى ظهرت فى الباكستان قبل غيرها من البلدان ، وعلى الرغم من الفرص التى تفلتت من أيدينا بالأمس ، لا تزال أمامنا فرص يمكن أن نحسن استغلالها والانتفاع بها ، ويمكن أن ننهز التجارب العاطفى الذى بادرت إليه الباكستان فى أثناء المحنة لكى نستعيد روح التعاون والتضامن بيننا وبين إخوة لنا فى الإسلام يعمرهم جوارب الباكستان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا كنا ننظر إلى الهند الكبيرة كصديقة ، فينبغى أن ننظر إلى الباكستان كصديقة وشقيقة فى العقيدة ، وإنه من صالحنا ديناً ودنياً أن نطمئن إلى سلامة الروابط وعمقها بين بلادنا وهذه الدولة الإسلامية الواسعة الرابضة فى الشرق الأقصى حتى تكون ركيزة من ركائز التعاون فى محيط العالم الإسلامى ، والله يقول الحق يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

زلزال المغرب (١)

الحمد لله عز وجل ، جلّت قدرته وسمت حكمته : « وهو الحكيم العليم »
أشهد أن لا إله إلا الله ، يثيب بالنعمة ، ويؤدب بالحنة : « ونبلوكم بالشر
والخير فتنة وإلينا ترجعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعطاه
فشكر ، وابتلاه فصبر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ،
وجنوده وحزبه : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم
المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد وضع العالم الإسلامي يده المرتعشة على قلبه الحزين الذى خفق خفقة
الأسى والألم منذ قليل ، لأن بلدة عزيزة من بلاد الإسلام والعروبة في أرض
المغرب قد طاف بها طائف الزلزال ، فأحال الأمن خوفاً ، والحياة موتاً ،
والعامر خراباً ، وجعل المدينة الناضرة شبيهة بالمقبرة :

خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الأمر كله في ثوان !!

وفي مثل طرفة العين وانتباهتها ، غير الله من حال إلى حال ، فإذا ألوف
من القتلى ، وألوف من الجرحى ، وألوف من المنكوبين والمشردين ، وإذا
مسه من ابتلاء الله تكفى لهذا كله ، وإذا الذعر يستبد بالجموع حتى ينحيل إليها
أن القيامة قد قامت ، فهؤلاء أمهات فقدن الأبناء ولا يجدن إليهم السبيل ،
وهؤلاء أبناء ينادون أمهاتهم فلا يجدون الجواب ولا شك وأشد من هذا وأكبر
سيكون يوم تقوم الساعة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء »

(١) الجمعة ٧ رمضان سنة ١٣٧٩ هـ ٤ مارس سنة ١٩٦٠ م .

عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » .

ولقد اتفق جميع المؤمنين على أن أفعال الله جل جلاله لا تخاو من حكمة ، وإن غابت عن عقولنا المحدودة هذه الحكمة في بعض الأحيان ، لأن أفعال العاقل تصان عن العبث ، فكف بأفعال الله تعالى الذى أبدع كل عقل ، وأوجد كل عاقل . . . ولقد كان هذا الزلزال المبلبل الشاغل كصورة مصغرة ليوم القيامة الموعود : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل أمرى منهم يومئذ شأن يغنيه » . وكأن هذا تحذير عام أو إنذار شامل يذكر كل فرد من البشر أن حياته رهن بمشيئة الأقدار ، وأن أجله محجوب خلف ستار الغيب ، وأنه عرضة في كل لحظة للقاء المنتقم الجبار ، وأنه لا يدرى متى تأتية منيته ، أو يحتن حينه : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . ولا شك أن تذكر المرء لهذا حق التذكر يجعله دائم الخوف موصول الاستعداد لتلك اللحظة الرهيبة التى تنقله من دار الفناء إلى عالم البقاء ، ليستقبل حياة أخرى جديدة طويلة ، فيها النعيم الخالد إن أحسن ، والشقاء السرمدى إن شاء والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو ليموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ ، أو لنار أبدأ » . . .

والله جل جلاله حينما حدثنا عن الزلزلة الكبرى التى لا تعدلها زلزلة ،

وهى زلزلة يوم القيامة ، لفت أبصارنا وبصائرنا إلى وجه العظة والعبرة فى هذا الحديث ، وهو أن يستعد المرء بالعمل الصالح النافع قبل أن يفوت الأوان ، لأنه سيلاقى كل ما عملت يده ويجازى به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وهناك فى هذا الزلزال المؤلم حادثة صغيرة فى مظهرها ، ولكنها دقيقة فى مغزاها ومخبرها ، وفيها عبرة للإنسان الذى يغتر بعلمه وطاقته ، ويخيل إليه أنه قد عرف كل شئ ، وقدر على الكثير ، فقد ذكرت الأنبياء أن الذين أصيبوا بالزلازل لم يشعروا به ولم يحسوا بقدمه إلا حين فاجأهم بنكبته ، ولكن الخيول والحيوانات الأخرى كانت قد أحست بالزلازل قبل قدمه بعشر دقائق ، فأخذت تصيح بأصواتها ، وتقفز من أماكنها ، وكأنها وهى العجماوات التى لم تدرس قد أحست بما لم يحس به الإنسان الناطق المدارس المعتر بثقافته وطاقته ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة » . . .

ولا شك أن الشدائد هى التى تميز بين الأصدقاء والأعداء ، وهى الميزان الذى توزن به روح المودة والتعاون ، ومن شأن المسلمين أنهم يتقاسمون حمل الضراء ، كما يتشاركون فى التمتع بالسراء لأن الأمة المؤمنة كتلة واحدة ، تشعر بشعور واحد ، وتحقق بنحفات قلب واحد ، والرسول صاوات الله عليه وسلامه هو الذى يقول : « المسلم للمسلم كالبنيدان يشد بعضه بعضاً » (٣١ م - خطب ج ٢)

ويقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ويقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . ولقد أدركت الجمهورية العربية المتحدة هذا المعنى ، وعرفت واجبها في هذا السبيل ، فسارعت بنجدة عاجلة قوامها خمسون ألفاً من الجنهات ، وأرسلت بعثة طبية مع مقادير من الأدوية والأغذية والأكسية والأدوات الأخرى ، وهذا تصرف حميد توجهه القومية والعقيدة ، ولا بد إلى جواره من فتح باب التبرع من الشعب للمنكوبين والمجروحين والمشردين ، لابد من المسح بيد الرحمة والشفقة والمواساة على هذه الصلور الحزينة التي رأت الهول وذاقت الملل وتشردت في الأرض ، ولا بد من مشاركة المسلمين في إعادة بناء « أجادير » البلدة التي أصابها الطوفان ، حتى تعود أجمل مما كانت ، ليدلل المسلمون على أنهم يتعاطفون برحم الإسلام ووشجة الإيمان ، وليدلل العرب على أنهم سلالة القوم الذين علموا الدنيا كيف تكون المشاركة والمعاونة والمواساة ، وسيد العرب ورسول الإسلام محمد هو الذي يقول : « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » ، ونحن الآن في شهر رمضان ، شهر التطوع والتبرع والمعاونة ، ولقد كان نبيكم صلوات الله عليه كريماً جواداً في حياته كلها ، ولكنه كان في رمضان أسرع بالجلود والعطاء من الريح المرسلة ، فليكن لنا منه قدوة حسنة في هذا المجال ، فتمتد أيدينا بما نستطيع لتخفف آثار هذا المصاب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن مثل هذه النكبة لا تنفرد بعلاجها وتحمل مشقتها الدولة التي أصيبت بها ، وإنما جرى العرف الإنساني على أن تهب الدول الأخرى للنجدة والمواساة

والذى بيننا وبين المغرب العربى المسلم ليس رابطة الإنسانية فقط ، بل هناك وشائج القربى وروابط الأخوة ، هناك رابطة الشرق والعروبة والاسلام ، وكلنا فى الهم شرق ، والعروبة صلة نعتز بها ونفاخر ، والاسلام رحم ورحمة « إنما المؤمنون إخوة » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فلنثبت هنا أننا شرق عرف منذ أقدم عصوره معانى النجدة والإغاثة ، ولنثبت أننا عرب ألقوا المواساة والشهامة ، ولنثبت أننا مسلمون نعيش كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ..

فهرس

١٤٩	ألوان النفس	٣	مقدمة
١٥٤	ربع دور للانسان	٥	نعمة الرضى
١٥٩	بين اللسان والاذنين	١١	خلق الثبات
١٦٤	سب الدين	١٥	القوة الفاضلة
١٦٨	انتفاضة الخوف	٢٠	الاعجاب بالنفس
١٧٣	حول الغناء	٢٤	الناس بين المدح والقدح
١٧٨	ذمة ووفاء	٢٨	مصدر العزة
١٨٢	بوادر فيها بشائر	٣٢	أين الأخلاق ؟
١٨٧	حضارة الذئاب	٤٢	يا ضيعة الحياء
١٩٢	من أشعة الهدى	٤٨	فجور على الشاطيء
١٩٧	اهتداء الى الله	٥٣	وقاحة التحلل
٢٠٢	فلنحذر الفتنة	٥٧	خذوا الطريق على الرذيلة
٢٠٦	التحريض على الرذيلة	٦٣	عقوبة الاعدام
٢١١	الخوف من الحرام	٦٨	العقوبة اختصاص الدولة
٢١٦	حق التحليل والتحریم	٧٣	الحفر أم الخبائث
٢٢٢	عوامل للتحريض على الفساد	٧٨	اياك والاعتذار
٢٢٨	حول طائفة الاسماعيلية	٨٢	السخرية من رجال الدين
٢٣٣	مدرسة للشيطان	٨٧	غربة العلماء
٢٣٨	حول التلفزيون	٩٢	القرآن مأدبة الله
٢٤٣	الاختلاط في المدارس	٩٧	العلم في نظير القرآن
٢٤٨	بين العدل والفضل	١٠١	ادركوا القرآن
٢٥٢	القوة الامينة	١٠٦	رسالة القرآن
٢٥٦	الوقاية خير من العلاج	١١٢	القرآن أساس التعليم
٢٦١	الوسط الثابت	١١٦	القرآن أساس الثقافة
٢٦٦	ضعف الشعور بالتبعية	١٢٠	لغة القرآن
٢٧٢	تدرج ومتابعة	١٢٥	ادركوا لغة القرآن
٢٧٧	اخيار واشرار	١٣٠	في مؤتمر الأدباء
٢٨١	طريق الخلود	١٣٥	امتحان للأمة
٢٨٦	وجهة الخير	١٤٠	محمد سيدنا
٢٩١	الدم والمال	١٤٤	الرسول كما يصوره القرآن

٣٩٤	دروس من الحديبية	٢٩٦	دين ودنيا
٣٩٨	يوم الانتخاب	٣٠١	وثيقة صلب المسيح
٤٠٣	بين القمة والحضيض	٣٠٥	حاجتنا الى أبطال
٤٠٨	تدبير الأمور	٣١٠	التطلع الى المستقبل
٤١٢	أثر الشمس في الكون	٣١٨	حرمة الموت
٤١٧	العجلة	٣٢٣	فمتى نتعظ ؟
٤٢٢	اطالة العمر	٣٢٧	عيون جريفة
٤٢٧	أمة تعمرها التجارب	٣٣٢	قسم الجنود
٤٣٢	من هدى الصوفية	٣٣٦	مقاومة البعض
٤٣٦	في ركاب الصوفية	٣٤١	الشجرة الملعونة في القرآن
٤٤٠	مكانة الصحبة	٣٤٦	دفاع عن العرض
٤٤٥	جهلة بالسنة	٣٥٠	دعائم النجاح
٤٤٩	بطانة السوء	٣٥٥	بين الانسان والانسان
٤٥٣	في بلاد المسلمين	٣٦٠	بين الانسان وال شعبان
٤٥٧	أيام في الاقليم السوري	٣٦٥	بين الناس والأغنام
٤٦٢	عنوت من الجزائر	٣٧٠	مهزلة في الأزهر
٤٦٧	عائد من الباكستان	٣٧٥	من أجل الفضيلة
٤٧١	عائد من سوريا	٣٨١	أين الأمة الشاهدة ؟
٤٧٥	الباكستان	٣٨٦	شعبان والحسين
٤٧٩	البحرين		ملاحق القوة في الاسراء والخروج

